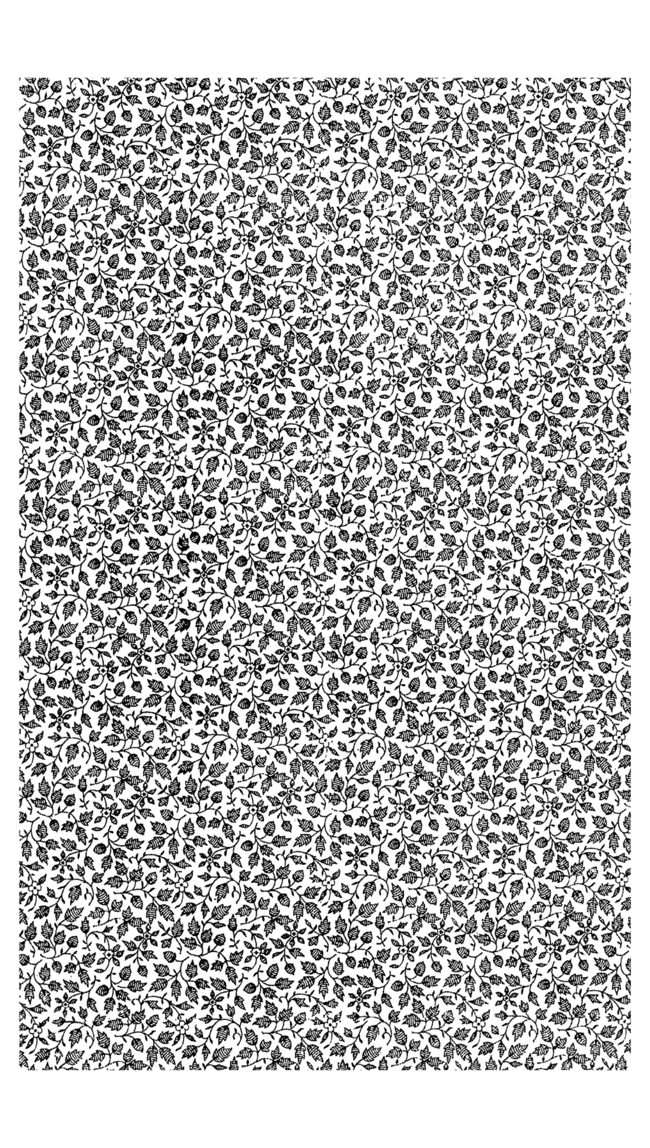
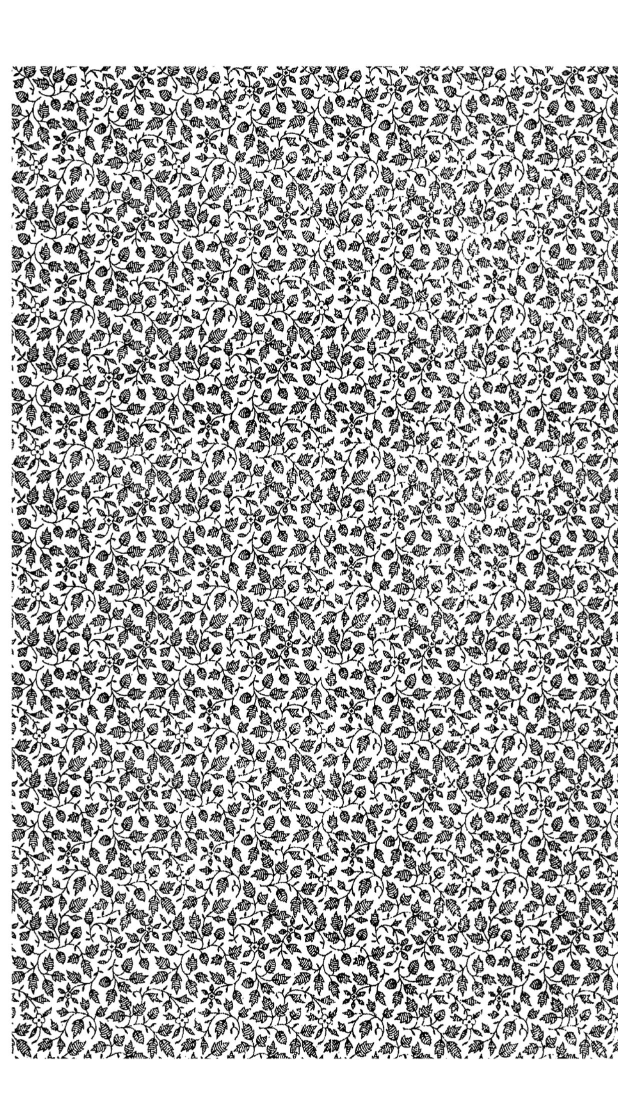






دار الكتب المصرية

القسم الأدبي



فى

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

السفر السابع

[الطبعة الأولى]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٧ هـ - ١٩٢٩ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الكريم ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد ، فقد تم بمعونة الله وحسن توفيقه تصحيح السفر السابع من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب .

وقد بذلنا وسعنا ، وغاية جهدنا ، فى سبيل إظهاره للقرّاء سليما من التحريف والتصحيف ، اللذين ملئت بهما أصوله التى بين أيدينا ، وهى نسخة واحدة ، مأخوذة بالتصوير الشمسى محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٥٧٠ تاريخ — فلم ندع فيه — بحسب الطاقة — لفظا محرّفا إلا أصلحناه ، ولا كلاما ناقصا غير متصل الأجزاء إلا رجعنا اليه فى مظانه وأكملناه ولا علما من الأعلام إلا عنينا بتحقيقه وضبطه ، ولا لفظا غريبا إلا فسرناه ، ولا عبارة غامضة المعنى إلا أوضحنا الغرض منها ، ولا بيتا يستغلق فهمه على القارئ إلا شرحناه ونسبناه إلى قائله ، ولا اسم مكان أو بلد إلا نقلنا باختصار ما كتبه العلماء عنه ، ولا لفظا يلتبس على القارئ إلا ضبطناه بما يزيل التباسه .

ومما هو جدير بالذكر والشكر هذه العناية الكبيرة التى كان يبذلها عن طيب نفس ذلك المدير الحازم ، والمربى الفاضل ، حضرة صاحب العزة الأستاذ محمد أسعد بك برادة مدير دار الكتب المصرية ، فقد كان حفظه الله يختلف إلينا

فى أكثر الأيام، ويبذل لنا من نصائحه الغالية وارشاداته القويمة ما يبعث فى نفوسنا الجد فى العمل، والسعى فى إتقانه ، ولا يفوتنا فى هـذه الكلمة أن نشكر أيضا حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير السيد محمد على الببلاوى مراقب إحياء الآداب العربية بالدار لما كان يبذله لنا من الإعانة على عملنا بمعلوماته الثمينة عن البحوث ومراجعها ، والكتب وأغراضها ومكان الفائدة منها ، والله نسأل أن يجعل عملنا خالصا لوجهه إنه قريب مجيب ؟

مصححه

أحمد الزين

فهرس

السّفر السابع

من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى

يتضمن ما يشتمل عليه من الأبواب والفصول
ورسائل الكتّاب وخطب البلغاء

الباب الرابع عشر

صفحة

من القسم الخامس من الفن الثانى فى الكتابة وما تفرّع من أصناف الكتّاب

صفحة

صفحة

الكتب والمصادر التى رجعنا اليها فى تصحيح هذا الجزء
وقد رتبناها على حروف المعجم

إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطىّ ، أساس البلاغة للزمخشرى ، الأمالى لأبى علىّ القالى ، أقرب الموارد ، أدب الكتاب للصولى ، إرشاد السارى لشهاب الدين القسطلانى .

البيان والتبيين للجاحظ .

تحرير التحبير لابن أبى الإصبع ، تاج العروس للسيد محمد مرتضى الزبيدى ، تاريخ ابن جرير الطبرى ، تاريخ أبى الفداء ، تهذيب التهذيب فى أسماء الرجال للحافظ ابن حجر ، تمام المتون فى شرح رسالة ابن زيدون للصفدى .

الحماسة لأبى تمام ، حسن التوسل إلى صناعة الترسل لشهاب الدين محمود الحلبى .

خزانة الأدب لابن حجة الحموى ، خلاصة تذهيب تهذيب الكمال فى أسماء الرجال للخزرجى .

دلائل الإعجاز للجرجانىّ ، ديوان أبى تمام ، ديوان أبى الطيب المتنبى ، ديوان أبى نواس ، ديوان لبيد بن ربيعة ، ديوان البحترى ، ديوان امرئ القيس ، ديوان أبى فراس الحمدانى ، ديوان حسان بن ثابت رضى الله عنه .

الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام .

رسائل بديع الزمان الهمذانى .

زهر الآداب للحصرى .

سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون لابن نباتة .

شذور العقود لابن الجوزى ، شرح الباعونية ، شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ، شرح رسائل بديع الزمان الهمذانى ، شروح تلخيص المفتاح ، شرح ديوان أبى تمام للخطيب التبريزى ، شرح شواهد المبانى . الشفاء للقاضى عياض ، الشعر والشعراء لابن قتيبة ، شرح ديوان آمرئ القيس للبطليوسى .

صبح الأعشى للقلقشندى ، الصحاح للجوهرى ، الصناعتين لأبى هلال العسكرى .

العقد الفريد لابن عبد ربه ، العمدة لابن رشيق القيروانى .

فهرست ابن النديم .

القاموس المحيط للفيروزبادى .

لسان العرب لابن منظور .

المفضليات للضبى ، المعجب فى تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد بن على التميمى ، المثل السائر لابن الأثير الجزرى ، مجمع الأمثال للميدانى ، المحاسن والأضداد للجاحظ ، المشتبه فى أسماء الرجال للحافظ الذهبى ، المصباح المنير للفيومى ، معاهد التنصيص فى شرح شواهد التلخيص لعبد الرحيم العباسى ، معجم الأدباء لياقوت ، مختار الصحاح مغنى اللبيب لابن هشام ، المقتضب من جمهرة النسب لياقوت ، المضاف والمنسوب للثعالبى ، محاضرة الأبرار لابن العربى ، معلّقات العرب .

نقد الشعر لقدامة بن جعفر ، النهاية فى غريب الحديث لابن الأثير ، نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى .

وفيات الأعيان لابن خلكان ، الوافى بالوفيات للصفدى .

يتيمة الدهر للثعالبى .

الجزء السابع

من

نهاية الأرب فى فنون الأدب

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الرابع عشر من القسم الخامس من الفن الثانى

فى الكتابة وما تفرّع من أصناف الكُتّاب

ولنبدأ باشتقاق الكتابة ، ولم سُمّيت الكتابة كتابة ، ثم نذكر شرفها وفوائدها ، ثم نذكر ما عدا ذلك من أخبار المحترفين بها ، وما يحتاج كلٌّ منهم إليه ، فنقولُ وبالله التوفيق والإعانة :

أصل الكتابة مشتقٌّ من الْكَتْبِ وهو الجمع ، ومنه سُمِّىَ الكتاب كتابا ، لأنه يجمع الحروف ، وسُمِّيت الكَتيبةُ كتيبة ، لأنها تجمع الجيشَ ، وقد ورد فى المعارف : أن حروف المُعْجَم أُنزلت على آدم عليه السلام فى إحدَى وعشرين صحيفة ، وسنذكر من ذلك طَرَفا عند ذكرنا لأخبار آدم عليه السلام فى فنّ التاريخ ، فهذا اشتقاقها .

وأما شرفها — فقد نص الكتاب العزيز عليه ، فقال تعالى — وهو أوّلُ ما أُنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن بغار حِراءٍ[1] فى شهر رمضانَ المعظَّم — : ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ خَلَقَ ٱلْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ عَلَّمَ ٱلْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ٱلرَّحْمٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْآنَ خَلَقَ ٱلْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ وقال تعالى فى وَصف الملائكة : ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ ، الى غير ذلك مِن الآى .

---

(١) حراء ككتاب وكرحى ، والأخيرة ضعيفة أنكرها بعضهم ، ويؤنث فيمنع من الصرف : جبل بمكة فيه غار تحنث أى تعبد فيه النبى صلى الله عليه وسلم .

(٢) فى صحيح البخارى أن الذى أنزل من هذه الآى فى حراء الى قوله تعالى : (إقرأ وربك الأكرم) وما هنا موافق لرواية الحافظ أبى عمر الدانى من حديث ابن عباس كما فى إرشاد السارى . ج ١ ص ٨٥ ط بولاق باب كيف كان بدء الوحى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن شرف الكتابة نزولُ الكتبِ المتقدّمة مسطورةً فى الصُّحف كما ورد فى الصحف المنزلة على شيثٍ وإدريسَ ونوحٍ وابراهيمَ وموسى وداودَ وغيرهم صلى الله عليهم كما أخبر به القرآن ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِى الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ ﴾ ، وما ورد فى الأخبار الصحيحة والأحاديث الصريحة أنه مكتوب على العرش وعلى أبواب الجنة ما صورته : لا إله إلا الله محمد رسول الله . وكفى بذلك شرفا . ٥

وأمّا فوائدُها : فمنها رسم المصحف الكريم الموجود بين الدّفّتين فى أيدى الناس، ولولا ذلك لاختُلف فيه ودخل الغلط وتداخل الوهم قلوبَ الناس .

ومنها رَقْمُ الأحاديث المرويّةِ عن النبى صلى الله عليه وسلم التى عليها بُنِيَت الأحكام، وتَمَيُّزُ الحلال من الحرام، وضبطُ كتب العلوم المنقولةِ عن أعلام الإسلام وتواريخ مَنْ انقرض مِن الأنام فيما سَلَف مِن الأيام . ١٠

ومنها حفظُ الحقوق، ومنعُ تمرُّد ذوى العقوق، بما يقعُ عليهم من الشّهادات ويُسَطَّرُ عليهم من السِجلّات التى أمر اللهُ تعالى بضبطها بقوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ﴾ .

ومنها المكاتَبةُ بين الناس بحوائجهم من المسافات البعيدة، إذ لا ينضبطُ مثلُ ذلك برسول (١) ، ولا تُنالُ الحاجةُ به (٢) بمشافَهةِ قاصدٍ، ولو كان على ما عساه عليه يكون من البلاغة والحفظ لوجود المَشَقّةِ، وبُعْد الشُّقّةِ . ١٥

(١) فى الأصل : «لرسول» باللام، ولعل الظاهر ما أثبتنا .

(٢) لعل قوله : «به» زيادة من الناسخ اذ قوله بعد : بمشافهة قاصد، يغنى عنه . أو لعلها فيه .

ومنها ضبطُ أحوال الناس، كمناشير الجند، وتواقيع العمّال، وإدرارات أرباب الصِّلات فى سائر الأعمال، إلى ما يجرِى هذا المجرَى، فكان وجودُها فى سائر الناس فضيلةً، وعدمها نقيصةً إلا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانها إحدى معجزاته لأنه صلى الله عليه وسلم أمّىٌّ [أتى][1] بما أعجز البلغاءَ، وأخرس الفُصحاءَ، وفلّ حدّ المؤرّخين من غير مدارَسةِ كتب ولا ممارَسةِ تعليم، ولا مراجَعةٍ لمن عُرِف بذلك وٱشتَهر به.

والكتابةُ العربيةُ أشرفُ الكتابات لأن الكتاب العزيز لم يُرْقَم بغيرها خلافا لسائر الكتب المنزّلة. وهذه الكتابة العربية أوّلُ[2] من ٱخترعها على الوضع الكوفىّ سكّان مدينة الأنبار[3]، ثم نُقل هذا القلمُ إلى مكة فعُرف بها، وتعلّمه من تعلّمه، وكثُر فى الناس وتداولوه، ولم تزل الكتابةُ به على تلك الصورة الكوفيّة إلى أيام الوزير أبى علىّ بن مُقلة[4]، فعرّبها تعريبا غير كافٍ، ونقلها نقلا غير شافٍ، فكانت كذلك إلى أن ظهر علىّ بن هلال الكاتبُ المعروفُ بابن البوّاب[5]، فكمّل تعريبَها، وأحسن تبويبَها، وأبدع نظامَها، وأكمل ٱلتئامَها، وحلّاها بهجةً وجمالا، وأولاها بل أَولى بها مِنّةً وإفضالا، وألبسها من رَقْم أنامله حُللا، وجلّاها للعيون فكان أوّلَ من أحسن فى ترصيعها وترصيفها عملا، ولا زال يَتنوّع فى محاسنها، ويتنوّع[6] فى ترصيع عقود

---

(١) هذه الزيادة ساقطة من الأصل، والسياق يقتضيها.

(٢) فى الأصل: «فأوّل» والقواعد تقتضى حذف الفاء، ولعلها زيادة من الناسخ.

(٣) هى مدينة على الفرات غربىّ بغداد، بينهما عشرة فراسخ، وكانت الفرس تسميها فيروز سابور، وأوّل من عمرها سابور بن هرمز، ثم جدّدها أبو العباس السفاح أوّل خلفاء بنى العباس.

(٤) هو محمد بن على بن الحسين بن مقلة، وأبو على كنيته.

(٥) ويقال له: ابن السترى أيضا لأن أباه كان بوابا؛ والبواب يلازم ستر الباب، فلذلك نسب اليه.

(٦) لعله: «ويتنوّق» بالقاف المثناة، أى يجوّد ويبالغ.

مَيَامنها ؛ حتى تقرّرت على أجمل قاعدة ، وتحرّرت على أكمل فائدة ؛ وسنزيد ما قدّمناه من هذه الفصول وضوحا وتبيانا ، ونقيم على تفصيل مُجمَلِها و بسط مُدْمَجِهَا أدلّةً و برهانا .

[ثم الكتابة بحسب من] (١) يحترفون بها على أقسام : وهى كتابةُ الإنشاء ، وكتابةُ الديوان والتصرّف ، وكتابةُ الحُكم والشروط ، وكتابةُ النَّسخ ، وكتابةُ التعليم ؛ ومنهم من عَدّ فى الكتابة كتابةَ الشُّرَط (٢) ، ولم نُرِدْ ذكرَها تنزيها لكتابنا عنها ، ولا حكمةَ فى إيرادها .
ولنبدأْ بذكر كتابة الإنشاء وما يتعلّق بها .

ذكر كتابة الإنشاء وما آشتملت عليه من البلاغة والإيجاز والجمع فى المعنى الواحد بين الحقيقة والمجاز ، والتلعبِ بالألفاظ والمعانى والتوصّل إلى بلوغ الأغراض والأمانى

ولنبدأ من ذلك بوصف البلاغة وحدِّها والفصاحةِ :

فأما البلاغةُ — فهى أن يَبْلُغَ الرجل بعبارته كُنهَ ما فى نفســه . ولا يسمَّى البليغ بليغا إلا إذا جمع المعنى الكثيرَ فى اللفظ القليلِ ، وهو المسمَّى إيجازا .

وينقسم الإيجاز إلى قسمين : إيجاز حذف ، وهو أن يُحذَف شىء من الكلام وتدلُّ عليه القرينة ، كقوله تعالى : ﴿وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ والمراد أهلَ القرية وكقوله تعالى : ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ والمراد ولكن البرَّ برُّ من آتقى ، وكقوله تعالى : ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ والمراد من قومه ، وقوله تعالى : ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ والمراد لا يطيقونه ؛ ونظائر هذا وأشباهُه كثير .

(١) مكان هذه العبارة مطموس بالأصل تتعذر قراءته ، ولعل ما أثبتناه يلائم الغرض المقصود و يصح به التقسيم الآتى .

(٢) الشرط بضم أوّله وفتح ثانيه : جمع شرطىّ كترَكىّ و جُهَنىّ : طائفة من أعوان الولاة سموا بذلك لأنهم أعلموا أنفسهم بعلامات يعرفون بها .

وإيجاز قَصْر ، وهو تكثيرُ المعنى وتقليلُ الالفاظ ، كقوله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم مما جُمع فيه شرائطُ الرسالة : ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ وسَمِع أعرابيّ رجلا يتلوها فسجد وقال : سجدتُ لفصاحته ، ذكره أبو عُبيد . وقولِه تعالى مما جُمع فيه مكارمُ الأخلاق : ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ فجمع في ثلاث كلمات بين العُنوانِ والكتابِ والحاجةِ ؛ وقوله تعالى : ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فجمع في هذا على لسان النملة بين النداءِ والتنبيهِ والأمرِ والنهي(١) والتحذيرِ والتخصيص والعموم والإشارة والإعذار ؛ ونظير ذلك ما حُكي عن الأصمعيّ أنه سمع جاريةً تتكلّم فقال لها : قاتلكِ الله ، ما أفصحكِ ! فقالت : أوَ يُعَدُّ هذا فصاحةً بعد قول الله تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين .

ولما سمع الوليدُ بنُ المُغيرةِ من النبي صلى الله عليه وسلم قولَه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ قال : والله إنّ له لحلاوةً(٢) ، وإن عليه لطَلاوة ، وإن أسفله لمُغْدِق(٣) ، وإن أعلاه لمُثمر ، ما يقول هذا بَشَر .

(١) في الأصل : «والنص» وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يستفاد من الكشاف ، والنهي في هذه الآية قوله تعالى : (لا يحطمنكم) .

(٢) في الأصل : (إن له حلاوة) بدون لام ، وما أثبتناه عن الشفاء ج ١ ص ٢٢٠ ط الآستانه والطلاوة بضم الطاء وفتحها : الرونق والحسن .

(٣) كذا في الأصل وفي بعض كتب التفسير ، ومعناه الكثير الماء ، وفي رواية : (لغدق) كما في سيرة ابن هشام . والغدق بكسر الدال : الريان النديّ .

وسمع آخرُ رجلا يقرأ : ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْأَسُوا مِنْـهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ فقال : أشهد أنّ مخلوقا لا يقدِر على مثل هذا الكلام .

وقال أبو عثمانَ عمرُو بنُ بحر الجاحــظُ : البيان ٱسم جامعٌ لكل ما كَشَفَ لك من قِناع المعنى، وهَتَك الحجابَ عن الضمير، حتى يُفضِيَ السامع إلى حقيقة اللفظ ويَهجُمَ على محصوله كائنا ما كان .

وقيــل لجعفر بن يحيى : ما البيان ؟ فقــال : أن يكون اللّفظ مُحيطا بمعناك كاشفا عن مَغزاك، وتخرجَه من الشُّركة، ولا تستعينَ عليه بطول الفكرة، ويكونَ سليما من التّكلّف ، بعيــدا من سوء الصنعة ، بريئا من التعقيد ، غَنيًّا عن التأمّل .

وقال آخرُ: خيرالبيان ما كان مصرِّحا عن المعنى ليُسرِعَ إلى الفهم تلقّيه، ومُوجَزا ليخفَّ على اللسان تَعاهدُه .

وقال أعرابىٌّ : البلاغة التقــرُّب من معنى البُغية، والتّبعُّدُ من وحشىِّ الكلام وقربُ المأخذ، وإيجازٌ فى صوابٍ، وقصدٌ إلى الحجة ، وحُسنُ الٱستعارة. قال على رضى الله عنه : البلاغة الإفصاحُ عن حكمة مُستَغْلِقةٍ (١)، وإبانةُ علمٍ مُشكِلٍ .

وقال الحسن بن على رضى الله عنهما : البلاغة إيضاح الملتبِسات، وكشفُ عورات الجهالاتِ، بأحسنِ ما يمكن من العبارات .

* * *

وأما الفصاحة — فهى مأخوذةٌ من قولهم : أَفصح اللبَنُ إذا أُخذت عنــه الرِّغوة . وقالوا : لا يسمَّى الفصيح فصيحا حتى تخلُص لغتــه عن اللُّكْنة الأعجميّة ولا توجد الفصاحة إلا فى العــرب . وعلمــاء العرب يزعمون أن الفصاحةَ فى الألفاظ ، والبلاغةَ فى المعانى ، ويستدلّون بقولهم : لفظ فصيح، ومعنى بليغ .

(١) فى الاصل : « متغلقه » ولم نجده فيا لدينا من كتب اللغة .

ومن الناس من استعمل الفصاحةَ والبلاغةَ بمعنى واحدٍ فى الألفاظ والمعانى والأكثرون عليه .

ذكر صفة البلاغة

قيل لعمرو بن عُبَيد : ما البلاغة ؟ قال : ما بلّغك الجنّة ، وعدَل بك عن النار؛ قال السائل[1] : ليس هذا أريد؛ قال : فما بصَّرك مَواقعَ رُشدك وعواقبَ غيّك؛ قال : ليس هذا أريد؛ قال : من لم يُحسنْ أن يسكتَ لم يُحسنْ أن يَسْمَعَ، ومن لم يُحسنْ أن يَسمعَ لم يُحسنْ أن يَسألَ ، ومن لم يُحسنْ أن يَسألَ لم يُحسنْ أن يقُولَ؛ قال : ليس هذا أريد؛ قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنّا[2] معشر النبيّين بِكاءٌ » — أى قليلو الكلام، وهو جمعَ بكىءٍ — وكانوا يكرهون أن يزيدَ منطقُ الرجل على عقله ؛ قال السائل : ليس هذا أريد؛ قال : فكأنك تريد تخيُّرَ اللفظ فى حُسن إفهام؛ قال : نعم ؛ قال : إنّك إن أردت تقريرَ حجّة الله فى عقول المتكلمين، وتخفيفَ المؤونة على المستمعين ، وتزيينَ المعانى فى قلوب المستفهمين بالألفاظ الحسَنة رغبةً فى سُرعة استجابتهم ، ونفِيَ الشَّواغلِ عن قلوبهم بالمواعظ الناطقة عن الكتاب والسُّنة كنتَ قد أُوتيت فصلَ الخطاب .

وقيل لبعضهم : ما البلاغة ؟ قال : معرفةُ الوصلِ من الفصلِ . وقيل لآخر : ما البلاغة ؟ قال : ألّا يؤتَى القائلُ من سُوء فهم السامع، ولا يؤتَى السامعُ من سوء بيانِ القائلِ .

---

(١) هو حفص بن سالم كما فى زهر الآداب . ج ١ ص ٩٤ ط المطبعة الرحمانية .

(٢) كذا فى الأصل . ولم نقف على هذه الرواية فيما لدينا من كتب الحديث ولا غيرها ، ونصه فى كتاب النهاية لابن الأثير " نحن معاشر الانبياء فينا بكاء " وقال فى تفسير البكاء بفتح الباء : أى قلة الكلام إلا فيما يحتاج اليه ، يقال : بكأت الناقة والشاة إذا قل لبنها فهى بكيء وبكيئة .

وقيل للخليل بن أحمدَ : ما البلاغة ؟ فقال : ما قرُب طَرَفَاه ، و بعُـد منتهاه .

وقيــل لبعض البلغاء : من البليغ ؟ قال : الذى إذا قال أسرَع ، و إذا أسرَع أبدَع و إذا أبدع حرّك كلَّ نفْس بمـا أَودَع .

وقالوا : لا يستحقّ الكلامُ آسمَ البلاغةِ حتى يكونَ معناه الى قلبك أسبقَ من لفظه إلى سمعك .

وسأل معاويةُ صُحارًا[1] العبدِىَّ : ما هــذه البلاغة ؟ قال : أن تجيبَ فلا تبطئ وتصيبَ فلا تخطئ[2] .

وقال الفضــل : قلت لأعرابىّ : ما البــلاغة ؟ قال : الإيجــازُ فى غير عجز والإطنابُ فى غير خَطَل .

وقال قُدَامَةُ : البلاغةُ ثلاثةُ مذاهبَ : المساواةُ وهو مطابَقةُ اللفظ المعنى لا زائدا ولا ناقصـا ، والإشارةُ وهــو أن يكون اللفظ كاللَّمْحَة الدالّة ، والدليــلُ وهو إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد ، ليظهَرَ لمن لم يَفهمْه ، ويتأكدَ عند من فهِمه .

قال بعض الشعراء :

يَكفى قليــلَ كلامِه وكثيرَه * بيتٌ إذا طال النّضالُ مصيبُ

وقال أحمــد بنُ محمد بنِ عبدِ رَبِّهِ صاحب العقد : البلاغة تكون على أربعة أوجه : تكون باللفظ والخط والإشارة والدِّلالة ، وكل وجه منها له حظ من البلاغة والبيان ، وموضعٌ لا يجوز فيه غيره ، ورُبّ إشارة أبلغ من لفظ .

---

(١) فى الأصل : (لطحار العدى) وهو خطأ من الناسخ ، والتصويب عن العقد الفريد . ج ١ ص ٢١٤ ط المطبعة العثمانية .

(٢) كذا فى الأصل ؛ وقد وردت هذه القصــة فى البيان والتبيين ج ١ ص ٤ ، ط مطبعــة الفتوح الأدبية أكمل مما هنا وأكثر تفصيلا ؛ ولعل المؤلف اختصرها تبعا للعقد الفريد لابن عبد ربه وجريا على عادته فى هــذا الكتاب من اختصار القصص والرسائل بقــدر المستطاع ، ولم نرد إيرادها فى حواشى الكتاب لطولها .

وقال رجل للعَتّابىّ : ما البلاغة ؟ قال : كلُّ ما أبلغك حاجتك ، وأفهمك معناه بلا إعادةٍ ولا حُبْسةٍ ولا ٱستعانةٍ فهو بليغ ؛ قالوا : قد فهمنا الإعادةَ والحُبسة ، فما معنى الٱستعانة ؟ قال : أن يقول عند مَقاطع الكلام : إسمع منّى ، وٱفهم عنّى ، أو يمسح عُثْنونه[1] ، أو يفتلَ أصابعه ، أو يكثِرَ التفاتَه ، أو يَسعُلَ من غير سُعلة ، أو ينبهِرَ[2] فى كلامه

قال بعض الشعراء :

مليءَ بِبُهْرٍ والتفاتٍ وسُــعلةٍ * ومَسحةِ عُثنونٍ وفتلِ الأصابع

ومن كلام أحمدَ بنِ إسماعيلَ الكاتبِ المعروف بنِطاحةَ[3] ، قال : البليغ من عرف السقيم من المعتلّ ، والمقيَّدَ من المطلقِ ، والمشتركَ من المفردِ ، والمنصوصَ من المتأوَّل ، والإيماءَ من الإيحاء ، والفصلَ من الوصل ، والتلويحَ من التصريح .

ومن أمثالهم فى البلاغة قولهُم : يُقِــلّ الحَزَّ[4] ويطبّق المَفْصل . وذلك أنهم شبهوا البليغ الموجِزَ الذى يُقِلّ الكلامَ ويصيب نصوصَ المعانى بالجزّار[5] الرفيق الذى يقلُّ حزَّ اللحم ويصيب مفاصله ؛ وقولهم : يضع الهِناء مواضع النُّقْبِ ، أى لا يتكلّم إلا فيما يجب الكلام فيه . والهِناء : القطِران . والنُّقْب : الجَرَب . وقولهم : قَرطس[6] فلان فأصاب الغــرّةَ ، وأصاب عين القرطاس[7] . كلُّ هذه أمثال للمصــيب فى كلامه الموجِز فى لفظه .

(١) هو ما نبت على الذقن من الشعر وتحته سفلا ، أو هو ما فضل من اللحية بعد العارضين من باطنهما .

(٢) فى الأصل : (ينتهر) بياء موحدة بعدها تاء مثناة ؛ ولم نجد فيما بين أيدينا من كتب اللغة من معانيه ما يناسب المقام ، ولعله تحريف صوابه ما أثبتنا كما فى العقد الفريد . وينبهر : مطاوع بهره الحمل يبهره : أوقع عليه البهر بضم ، الباء وهو تتابع النفس من الإعياء . (٣) فى الأصل : (ناطحة) بنون بعدها ألف ، وهو خطأ من الناسخ ؛ والتصويب عن كتاب الوافى ، ومعجم الأدباء ج ١ ص ٣٧٧ ط مطبعة هندية وهو أحمد ابن اسماعيل بن ابراهيم بن الخصيب أبو على الكاتب الانبارى . (٤) فى البيان والتبيين : (ألمحز) .

(٥) فى الأصل : « من » والمقام يقتضى الباء كما أثبتنا .

(٦) يقال : قرطس فلان اذا رمى فأصاب القرطاس ، ويقال للرمية : مقرطسة .

(٧) هو كل أديم ينصب للنضال ؛ وفيه خمس لغات : تثليث القاف ، وكجعفر ، وكدرهم .

فصول من البلاغة

قيل : لما قدم قُتَيبةُ بن مسلم خُراسانَ واليا عليها، قال : من كان فى يده شىء من مال عبد الله بن حازم فلينبِذْه، ومن كان فى فيه فليلفِظْه، ومن كان فى صدره فلينفُثْه . فعجِب الناس من حُسن ما فصَّل .

وكتب المعتصم إلى ملك الروم جوابا عن كتاب تهدَّده فيه : الجواب ما ترى لا ما تسمع ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ(١) لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ .

وقيل لأبى السَّمَّال(٢) الأسدىِّ أيام معاوية : كيف تركت الناس ؟ قال : تركتهم بين مظلوم لا ينتصف، وظالم لا ينتهى . وقيل لشبيب بن شبَّةَ عند باب الرشيد : كيف رأيت الناس ؟ قال : رأيت الداخل راجيا، والخارجَ راضيا .

وقال حسّانُ بن ثابت فى عبد الله بن عباس رضى الله عنهم :

إذا قال لم يترك مقالا لقائل * بملتقَطات لا ترى بينها فضلا(٣)

كفَى وشفَى ما فى النفوس فلم يَدع * لذى إربة فى القول جِدًّا ولا هَزلا

قال سهل بن هارون : البيان تَرجُمان العقول، وروض القلوب؛ البلاغةُ ما فهمته العامّةُ، ورضِيَته الخاصّةُ؛ أبلغ الكلام ما سابق معناه لفظَه ؛ خير الكلام ما قلّ وجلّ، ودلّ ولم يُمَلّ؛ خير الكلام ما كان لفظه فحلا، ومعناه بِكرا .

(١) الكافر بالإفراد قراءة الحرميين وأبى عمرو كما فى تفسير الألوسىّ .

(٢) فى الأصل : «ابن السماك الأسدى» ولم نقف عليه فيما بين أيدينا من المظان ، ولعله تحريف صوابه ما أثبتناه كما فى شرح القاموس والشعر والشعراء فى ترجمة النجاشى؛ وفى المشتبه للذهبى : (أبو سمال) بدون تعريف .

(٣) كذا فى الأصل بالضاد المعجمة . وفى رواية (فصلا) بالصاد المهملة كما فى ديوان الشاعر والبيان والتبيين؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين .

وقال ابن المعتزّ : البلاغة أن تبلُغ المعنى ولم تُطل سَفَرَ الكلام ؛ خير الكلام ما أسفر عن الحاجة ؛ أبلغُ الكلام ما يؤنس مَسمَعَه، ويونس مضيَّعَه[1] ؛ أبلغ الكلام ما حسُن إيجازُه، وقلّ مجازُه، وكثر إعجازُه، وتناسبت صدورُه وأعجازه ؛ البلاغة ما أشار اليه البحترىّ حيث قال :

ورِكبن اللفظَ القريب فأدركْن به غاية المرادِ البعيدِ

جمل من بلاغات العجم وحِكمها

قال أبرويزُ لكاتبه : إذا فكّرت فلا تَعجل، وإذا كتبت فلا تستعِنْ بالفضول فإنها علاوةٌ على الكفاية، ولا تقصّرن عن التحقيق فإنها هُجنة فى المقالة، ولا تُلبِسن كلاما بكلام، ولا تباعدنّ معنى عن معنى، وآجمع الكثير مما تريد فى القليل مما تقول . ووافق كلامه قولَ ابن المعتزّ : ما رأيت بليغا إلا رأيت له فى المعانى إطالةً وفى الألفاظ تقصيرا . وهذا حثٌّ على الإيجاز . وقال أبرويزُ أيضا لكاتبه : اعلم أن دعائم المقالات أربع إن التُمِس إليها خامسةٌ[2] لم توجد، وإن نقص منها واحدةٌ لم تتمّ وهى : سؤالك الشىءَ، وسؤالُك عن الشىء، وأمرك بالشىء، وخَبَرُك عن الشىء؛ فإذا طلبتَ فأنجِح، وإذا سألتَ فأوضِح، وإذا أمرتَ فأحكِم، وإذا أخبرتَ فحقِّق .

وقال بَهرام جُور : الحُكم ميزان الله فى الأرض . ووافق ذلك قولَ الله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ وقال أنوشِروانُ لابنه هُرمُز : لا يكون عندك لعمل البرِ غايةٌ فى الكثرة، ولا لعمل الإثم غايةٌ فى القلّة . ووافق من كلام العرب قولَ الأفوه :

والخير تزداد منه ما لقيتَ به * والشر يكفيك منه قلّما زادْ

(١) وردت هذه العبارة فى الأصل هكذا : «و يونس مصيغه» وهو تحريف، والتصويب عن زهر الآداب . يريد وصف الكلام بأنه عزيز نادر، فالذى يضيع منه و يفوت يونس طالبه من أن يجد مثله .

(٢) كذا فى الأصل . وكأنه يريد : إن التمس ضمّ خامسة إليها . وفى رواية : «لها» .

وقال أزْدَشير بن بابَك : من لم يرض بمـا قسم الله له طالت مَعتبتُـه، وخُش حِرصُه، ومن خَش حِرصه ذلّت نفسُه، وغَلب عليه الحسد، ومن غَلب عليه الحسدُ لم يزل مغموما فيما لا ينفعه، حزينا على ما لا ينـالُه . وقال : من شغل نفسه بالمنى لم يَخْلُ قلبه من الأسى .

وقال بعضهم : الحقوق أربعة : حقٌّ لله ، وقضاؤه الرضا بقضائه، والعـملُ بطاعته، وإكرامُ أوليائه؛ وحقٌّ لنفسك ، وقضاؤه تعهّدها بمـا يُصلحها ويُصحّحها ويَحسِم موادَّ الأذى عنها؛ وحقّ للنّـاس ، وقضاؤه عمومُهـم بالمودّة، ثم تخصيصُ كلِّ آمرئ منهم بالتوقير والتفضيل والصِّلة؛ وحقّ للسلطان، وقضاؤه تعريفُه بمـا خَفِيَ عليه من منفعة رعيّةٍ، وجِهادِ عدوٍّ، وعمارةِ بلد، وسدِّ ثغر . وقال بُزُرْجُمهر: إلزام الجهول الحجّةَ يسير، وإقراره بها عسير .

[صفة الكاتب(١)] وما ينبغي أن يأخذ به نفسه

قال إبراهيم بن محمد الشيبانيّ : من صفة الكاتب اعتدالُ القامة، وصغرُ الهـامة وخفةُ اللّهازِم(٢)، وكثافةُ اللحية، وصـدقُ الحسّ، ولطفُ المذهب، وحلاوةُ الشمائل وخطفُ الإشارة، وملاحةُ الزِّيّ . وقال : من كمال آلة الكاتب أن يكون بهيَّ الملبس، نظيفَ المجلس، ظاهرَ المروءة، عَطِرَ الرائحة، دقيقَ الذهن ، صادقَ الحِسّ حسنَ البيان، رقيقَ حواشي اللسان، حلوَ الإشارة، مليحَ الاستعارة، لطيفَ المسـلك مُستفَرَه(٣) المركَب، ولا يكون مع ذلك فَضْفاضَ الجُثّة، متفاوتَ الأجزاء، طويلَ اللحيـة

(١) موضع هذه العبارة مطموس بالأصل، ولعل ما أثبتناه يطابق ما يأتي في أول الفصل .

(٢) اللهازم : أصول الحنك، واحده لهزمة . يريد بخفتها قلة الشعر النابت عليها بدليل ما بعده .

(٣) اسم مفعول من قولهم : فلان يستفره الأفراس، أي يستكرمها .

عظيمَ الهامة؛ فإنهم زعموا أن هذه الصورةَ لا يليق بصاحبها الذكاءُ والفطنةُ .

قال بعض الشعراء :

وشَمول كأنما آعتصروها * من معانى شمائلِ الكُتّاب

هذا ما قيل فى صفة الكاتب .

٥

*
* *

وأما ما ينبغى للكاتب أن يأخذ به نفسه، فقد قال إبراهيم الشيبانىّ : أوّل ذلك حسنُ الخط الذى هو لسان اليد، وبهجةُ الضمير، وسفيرُ العقول، ووحىُ الفكر، وسلاحُ المعرفة، وأنسُ الإخوان عند الفُرقة، ومحادثتهم[1] على بُعد المسافة ومستودَعُ السرّ، وديوانُ الأمور .

١٠ وقد قيل فى قوله تعالى : ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ : إنه الخطّ الحسن .

وقد آختلف الكُتّاب فى نَقْطِ الخطّ وشكْلِه ، فمنهم من كرِهه

قال سعيد بن حُمَيْد الكاتب :

لَأن يُشْكِلَ الحرفُ على القارئ أحبُّ إلىّ من أن يعابَ الكاتب بالشكل .

وعُرِض خطٌّ علَى عبد الله بن طاهر فقال : ما أحسنه لولا أنه أكثر شُونيزُه[2]

١٥ ونظر محمد بن عبّاد إلى أبى عُبَيْد وهو يقيِّد البسملة فقال : لو عَرفتَه ما شكَلْتَه .

ومنهم من حمِده فقال : حَلُّوا عواطلَ الكتب بالتقييد ، وحصِّنوها من شُبَهِ التصحيف والتحريف .

وقيل : إعجامُ الكتب يَمنع من آستعجامها[3]، وشكلُها يصونها عن إشكالها .

(١) فى الأصل : (محاز يتهم) وهو تحريف ، والتصويب عن صبح الأعشى ج ٣ ص٦ ط دار الكتب المصرية .

٢٠ (٢) الشونيز والشينيز : الحبة السوداء ، وقيل هو فارسى الأصل . شبه نقط الحروف به .

(٣) فى الأصل : (استعجابها) بالباء وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه المقام .

قال الشاعر[١] :

وكأن أحرف خطه شجرٌ[٢] * والشكلُ فى أغصانه ثمره[٣] .

* * *

وأما ماقيل فى حسن الخطّ وجودة الكتابة ومدح الكُتّاب والكتّاب .

قال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : الخط الحسن يزيد الحقّ وضوحا .

وقال : حُسن الخطّ إحدى البلاغتين .

وقال عُبيد الله بنُ العباس : الخط لسان اليـد . وقال جعفر بن يحيى : الخطّ سِمْطُ[٤] الحكمة ، به تُفصَّل شذورُها ، ويَنتظم منثورُها ؛ وقال أبو هلال العسكرىّ :

الكَتْبُ عَقْلُ شوارد الكلم * والخطّ خيْـط فى يد الحِكَم

والخطّ نظّم كلّ منتـثر * منها وفَصّل كلّ منتظم

والسيفُ وهو بحيث تعرفه * فرضٌ عليـه عبادةُ القـلم .

وقد آختلف الناس فى الخطّ واللفظ ، فقال بعضهم : الخطّ أفضلُ من اللفظ لأن اللفظ يُفْهِم الحاضرَ ، والخطُّ يُفْهِم الحاضرَ والغائبَ .

قالوا : ومن أعاجيب الخطّ كثرةُ آختلافه والأصلُ فيه واحدٌ ، كاختلاف صور الناس مع آجتماعهم فى الصبغة . قال الصُّولى[٥] : سئل بعض الكتّاب عن الخطّ متى

(١) هو أحمد بن اسماعيل نطاحة ، كما فى أدب الكتّاب .

(٢) فى أدب الكتّاب : «أضعافها» .

(٣) فى الأصل : (ثمر) بدون هاء الضمير ، والصواب اثباتها كما فى أدب الكتّاب ليوافق البيت قبله وهو : مستودع قرطاسه حكما * كالروض ميز بينه زهره

(٤) السمط بالكسر : خيط النظم ، وجمعه سموط .

(٥) هو أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس بن محمد بن صول ؛ وصول هذا رجل من الأتراك اليه ينسب أبو بكر المتقدّم لا الى صول البلد المعروف .

يستحقّ أن يوصف بالجَودة ؟ قال : اذا آعتدلت أقسامُه ، وطالت ألفه ولامُه ؛ وآستقامت سطورُه ، وضاهى صعودَه حدورُه ؛ وتفتّحت عيونُه ، ولم تشتبه راؤه ونونُه ؛ وأشرق قرطاسُه ، وأظلمت أنقاسُه[1] ، ولم تختلف أجناسُه ؛ وأسرع الى العيون تصوّرُه ، والى القلوب ثَمَرُه[2] ؛ وقُدّرت فصولُه ، [وآندمجت وُصولُه[3] ، وتناسَبَ دقيقُه وجليلُه] ؛ وتساوت أطنابُه ، وآستدارت أهدابُه ؛ وخرج عن [نَمَط الورّاقين[4]] ، وبعُد عن تصنّع المحرّرين ؛ [وقام لكاتبه مقام النِسبة والحِلية[5]] وكان حينئذ كما قلتُ فى صفة الخطّ :

اذا ما تخلّل قرطاسَه * وساوره القلمُ الأرقشُ[6]
تَضمّنَ من خطّه حُلّةً * كنقش الدنانير أو أنقشُ
حروف تكون لعين الكليل * نشاطا ويقرؤها الأخفشُ[7]

وقال آبن المعتزّ :

إذا أَخذ القرطاسَ خِلتَ يمينَه * تُفتّح نَوْرا أو تنظّم جوهرا

وقيل لبعضهم : كيف رأيت ابراهيمَ الصُّولىّ ؟ فقال :

يؤلّف اللُّؤلؤَ المنثورَ مَنطِقُه * وينظِم الدرَّ بالأقلام فى الكتب

---

(١) جمع نِقْس بالكسر ، وهو المداد .

(٢) فى الأصل : (ثمره) ولم نجده فيا لدينا من كتب اللغة بالمعنى المناسب لما هنا ، وما أثبتناه عن أدب الكتّاب ص ٥٠ ط المطبعة السلفية .

(٣) موضع هذين الفقرتين مطموس بالأصل ، وما نقلناه عن أدب الكتّاب .

(٤) موضع هذه العبارة مطموس بالأصل تتعذر قراءته ، وما نقلناه عن أدب الكتّاب .

(٥) الزيادة عن أدب الكتّاب .

(٦) الأرقش من الأفاعى : ما فيه نقط سواد و بياض ، شبه به القلم فى قوة فعله و بلوغ أثره ؛ أو هو من رقش الكتّاب اذا كتبه وزينه .

(٧) الأخفش : الضعيف البصر ، وهو من باب فرح .

وقال آخر[1] :

أضحكْتَ قرطاسَك عن جَنَّةٍ * أشجـارها من حكَم مشـمره

مسـودَّة سطحا ومبيضَّة * أرضا[2] كمثـل الليلة المقمره

وقال آخرُ :

كتبتَ فلَوْلَا أنَّ هذا مُحلَّلٌ * وذاكَ حرامٌ قستُ خطّك بالسحر

فوالله ما أدرى أزهرُ خميــلةٍ * بطِرْسِـكَ أم درّ يلوح على نحـر

فان كان زهرا فهو صـنع سحابة * وإن كان درّا فهو من لُجج البحر

وقال آخرُ :

وكاتبٍ يرقُم فى طِرسِه * روضا به ترتع ألحاظُه

فالدرّ ما تنـظِم أقلامُه * والسحر ما تنثُرُ ألفاظُه

وقال آخرُ :

وشادنٍ من بنى الكُتَّاب مقتدر * على البلاغة أحلى الناس إنشاءَ

فلا يجاريه فى مَيْـدانه أحد * يريك سَحبانَ فى الإنشاء إنشاءَ

وقال آخرُ :

إن هزّ أقلامَه يوما ليُعْمِلَهَا * أنساك كلَّ كمىٍّ هزّ عاملَه[3]

وإن أمرّ على رَقٍّ[4] أنامله * أقرّ بالرِّق كُتَّاب الأنام له

(١) هو أحمد بن اسماعيل المعروف بنطاحة كما فى أدب الكتّاب .

(٢) فى أدب الكتّاب : «أيضا» .

(٣) عامل الرمح وعاملته : صدره .

(٤) الصحيفة البيضاء، وجلد رقيق يكتب فيه .

وقال أبو الفتح كُشاجِمُ :

واذا تمنمت بنــانُك خطًّا * مُعْــرِباً عن بلاغة وسَــدادِ

عَجِب الناسُ من بياض معانٍ * تُجتَنَى من سواد ذاك المِدادِ

وقال المشوق[1] الشامىّ شاعر اليتيمة :

لا يُخْطِر الفكرَ فى كتابتــه * كأنّ أقلامَه لهــا خاطر

القولُ والفعل يجريان معا * لا أوّلٌ فيهــما ولا آخر

قال أبو عثمانَ عمرو بن بحر الجاحظ : الكتاب نعم الذُّخْر والعُقْدة[2]، ونعم الجليس والعمدة، ونعم النُّشْرة[3] والنُّزْهة، ونعم المستَغَلّ والحِرفة ، ونعم الأنيس ساعة الوُحدة ونعم المعرفة ببلاد الغُرْبة ، ونعم القَرِين والدَّخيل، والوزيرُ والنَّزيل ؛ والكتاب وِعاء مُلِئَ علما، وظَرْف حُشِيَ ظَرْفا، وإناء شُحِنَ مُزاحا وجِدّا ، إن شئتَ كان أَبْيَنَ من سحبــانِ وائل، وإن شئتَ كان أعيا من باقِل، وإن شئتَ ضحكتَ مر نوادره وعجِبتَ من غرائب فوائده، وإن شئت أَلْهَتْــكَ نوادرُه، وإن شئت شَجَتْك مواعظُه ومَنْ لك بواعظ مُلْهٍ، وبزاجر مُغْرٍ، وبناسك فاتك، وناطقٍ أخرسَ، وببــارد حارّ ومن لك بطبيب أعرابىّ، وبرومىّ[4] هندىّ، وفارسىّ يونانىّ، وبقديم مُوَلَّد، وبميت مُمتِــع ،ومن لك بشىء يجمع لك الأوّلَ والآخرَ، والناقصَ والوافرَ، والشاهــدَ والغائبَ

(١) كذا فى يتيمة الدهر ج ١ ص ٢٢٠ و ٢٢١ ط المطبعة الحفنية . وفى الأصل : «المشوق» ، وهو لقب الشاعر ، قال فى اليتيمة : ولم أتحقق اسمه . والصواب فى نسبة هذين البيتين أنهما لعبد المحسن بن محمد الصورى كما فى اليتيمة ج ١ ص ٢٣٥ .

(٢) هى كل مايستوثق الانسان به لنفسه و يعتمد عليه ، وأصله من العقدة بمعنى الحائط الكثير النخل وكأن الرجل اذا جمع ذلك فقد أحكم أمره عند نفسه واستوثق منه .

(٣) النشرة بالضم : الرقيــة التى يعالج بها المجنون والمريض ، سميت نشرة لأنه ينشر بها عنه ما كان خامره من الداء ، أى يكشف و يزال .

(٤) فى المحاسن والأضداد : (ورومى) باسقاط الباء ، ولعله أظهر .

والرفيعَ والوضيع ، والغثّ والسمين ، والشكلَ وخلافَه ، والجنس وضدّه؛ وبعد: فمتى رأيت بستانا يُحمَلُ فى رُدْنٍ[1]؟ وروضةً تُقلَّب فى حِجر؟ ينطق عن الموتى ، ويترجم كلام الأحيا ، ومن لك بمؤنس لا ينام إلّا بنومك ، ولا ينطق إلّا بما تهوَى ، «آمن من الأرض» وأكتمُ للسر من صاحب السرّ ، وأضبطُ لحفظ الوديعة من أرباب الوديعة ، وأحضر لما آستُحفِظ من الأمّيين ، ومن الأعراب المعْرِبين ، بل من الصِّبيان قبل آعتراض الأشغال ، ومن العُميان قبـل التمتُّع بتمييز الأشخـاص ، حينَ العنايةُ تامة لم تُنتقَصْ والأذهانُ فارغة لم تُقتَسَمْ ، والإراداتُ وافرة لم تستعتب[2] ، والطينةُ لينـة فهى أَقْبَلُ ما تكون للطابـع ، والقضيبُ رَطْب فهو أقرب ما يكون للعُلُوق ، حينَ هذه الخصالُ لم يُلبَس جديدُها ، ولم تتفرّقْ قواها ، وكانت كقول الشاعر :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى ✻ فصادف قلبى فارغا فتمكّنا

وقال ذو الرُّمّة لعيسى بن عمرَ : أُكتُبْ شعرى ، فالكتّاب أعجب إلىّ من الحفظ لأن الأعرابىّ يَنْسَى الكلمةَ قد تعب فى طلبها يوما أو ليـلةً ، فيضع موضعَها كلمة فى وزنها لم يُنشِدْها[3] الناس ، والكتّابُ لا يَنسى ولا يبدِّل كلاما بكلام . قال: ولا أعلم جارا أبرَّ ، ولا خليطا أنصفَ ، ولا رفيقا أطوعَ ، ولا معلّما أخضَـعَ ، ولا صاحبا أظهرَ كفايةً ، ولا أقلَّ خيانةً ، ولا أقلّ إبراما وإملالا ، ولا أقـل خلافا وإجراما ولا أقلّ غِيبةً ، ولا أكثرَ أُعجوبةً وتصرّفا ، ولا أقلَّ صَلَفاً وتكلُّفا ، ولا أبعـدَ من مِراء ، ولا أترَكَ لشَغْب ، ولا أزهدَ فى جدال ، ولا أكفَّ عن قتال من كتاب ؛ ولا أعلمُ شجرةً أطولَ عمرا ، ولا أجمـعَ[4] أمرا ، ولا أطيبَ ثمـرةً ، ولا أقربَ مُجتَنًى

(١) الردن بالضم : أصل الكم جمعه أردان . (٢) كذا فى الأصل . ولعله : «تتشعب» .

(٣) لم ينشـدها الناس ، يريد أن الكلمة التى يضعها لم تسر فى الناس ولم يرووها ، ولم يكن قبـل قد أنشدها إياهم . وفى رواية : "ثم ينشدها" بالثاء المثلثة .

(٤) كذا فى الأصل . ولم ترد هذه العبارة ضمن كلام الجاحظ فى كتابه المحاسن والأضداد .

ولا أسرعَ إدراكا، ولا أوجَدَ فى كل إبّانٍ[١] من كتّاب؛ ولا أعلمُ نتاجا فى حداثة سنّه وقربِ ميلاده، وحضورِ ذهنه، وإمكانِ موجوده، يجمع من التدابير العجيبة، والعلومِ الغريبة، ومن آثار العقول الصحيحة، ومحمود الأذهان اللطيفة، ومن الأخبار عن القرون الماضية، والبلادِ المتراخية، والأمثالِ السائرة، والأممِ البائدة ما يجمع الكتّاب؛ وقد قال الله تبارك آسمه لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ فوصف نفسه تعالى جَدّه بأن علّم بالقلم، كما وصف به نفسَه بالكرم، وآعتدّ بذلك من نعمه العظام، وفى أياديه الجِسام.

ذكر شىء مما قيل فى آلات الكتابة

قال ابراهيم بن محمد الشّيبانىّ فيما يحتاج إليه الكاتب:

من ذلك أن يصلح الكاتب آلتـه التى لا بدّ منها، وأداتَه التى لا تتمّ صناعتُه إلا بها، وهى دواته، فليُنعِم[٢] رَبَّها وإصلاحها، ثم يتخيّر من أنابيب[٣] القصب أقلّه عُقَدًا وأكثفَه لحما، وأصلبَه قشرا، وأعدلَه آستواءا، ويجعل لقرطاسه سكّينا حادّا لتكون عونا له على برى أقلامه، ويَبريها من جهة نبات القصبة، فانّ محلّ القلم من الكاتب كمحلّ الرمح من الفارس. وقد خَصّ الفضلاءُ القلمَ بأوصاف كثيرة، ومزايا خطيرة فلنذكر منها طَرَفا.

(١) إبان كل شىء: وقته وحينه الذى يكون فيه.

(٢) أنعم العمل: أجاده، يقال: اذا عملت عملا فأنعمه.

(٣) فى الأصل: من (الأنابيب) بزيادة «ال» والصواب حذفها كما تقتضيه القواعد.

ذكر شيء ممـا قيل فى القلم

قال الله تعالى : ﴿نٓ والقلم وما يسطرون﴾ وقال : ﴿اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم﴾ .

وقال الحكماء : القـلم أحد اللسانين ، وهو المخاطب للعيون بسر القـلوب .
وقالوا : عقول الرجال تحت أسـنة أقلامها . بنوء[1] الأقلام يصوب غيث الحكمة . ٥
القلم صائغ الكلام، يفرغ ما يجمعه القلب ، ويصوغ ما يسبكه[2] اللب .

وقال جعفر بن يحيى : لم أر باكيا أحسن تبسما من القلم .

وقال المأمون : لله در القـلم كيف يحوك وشى المملكة ! .

وقال ثمـامة بن أشرس : ما أثرته الأقلام، لم تطمع فى درسه الأيام . بالأقلام تدبر الأقاليم . كتاب المرء عنوان عقله ، ولسان فضله . عقل الكاتب فى قلمه . ١٠

وقال ابن المعتز : القلم مجهز لجيوش الكلام ، يخدم الإرادة كأنه يقبل بساط سلطان، أو يفتح نوار بستان .

وقال الحسن بن وهب : يحتاج الكاتب إلى خلال : منهـا جودة برى القـلم وإطالة جلفته[3]، وتحريف قطته ، وحسن التأتى لامتطاء الأنامل ، وإرسال المدة بعد إشباع الحروف ، والتحرز عند فراغها من الكسوف ، وترك الشـكل على الخطإ والإعجام على التصحيف . ١٥

---

(١) النوء : النجم اذا مال للغيب ، جمعه أنواء ونوآن كعبد وعبدان . أو هو سقوط نجم من المنازل فى المغرب مع الفجر وطلوع رقيبه ، وهو نجم آخر يقابله من ساعته فى المشرق ، وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى ذلك .

(٢) فى الأصل : «يسيله» ، وهو تحريف ، والتصويب عن صـبح الأعشى ج ٢ ص ٤٣٧ ط دار الكتب المصرية ؛ وقائل هذه الكلمة أبو دلف العجلى . ٢٠

(٣) الجلفة بكسر الجيم وتفتح وسكون اللام من القلم : ما بين مبراه إلى سنه .

وقال العتّابىّ : سألنى الأصمعىّ فى دار الرشيد : أىّ الأنابيب للكتابة أصلح وعليها أصبر؟ فقلت له : ما نشف(١) بالهجير ماؤه ، وستره من تلويحه غشاؤه ، من التبرية القشور ، الدرّية الظهور ، الفضّية الكسور ، قال : فأى نوع من البرى أصوب وأكتب ؟ فقلت : البرية المستوية القطّة التى عن يمين سنها برية تؤمن معها المجّة عند المدة والمطّة ، للهواء فى شقّها فتيق ، والريح فى جوفها خريق(٢) ، والمداد فى خرطومها رقيق . قال العتابىّ : فبقى الأصمعىّ شاخصا إلىّ ضاحكا ، لا يحير مسألة ولا جوابا .

وكتب علىّ بن الأزهر إلى صديق له يستدعى منه أقلاما : أما بعد : فإنا على طول الممارسة لهذه الكتابة التى غلبت على الأسم ، ولزمت لزوم الوسم(٣) ؛ فحلّت محل الأنساب ، وجرت مجرى الألقاب ؛ وجدنا الأقلام الصّخرية(٤) أجرى فى الكواغد(٥) وأمرّ فى الجلود ، كما أنّ البحرية منها أسلس فى القراطيس ، وألين فى المعاطف وأشد لتعريف(٦) الخط فيها ، ونحن فى بلد قليل القصب رديئه ، وقد أحببت فى أن تتقدّم فى اختيار(٧) أقلام صخرية ، وتتنوّق(٨) فى آقتنائها قبلك ، وتطلبها من مظانّها ومنابتها من شطوط الأنهار ، وأرجاء الكروم ، وأن تتيمن(٩) بآختيارك منها الشديدة الصّلبة

(١) فى الأصل : (يشف) وهو تحريف ، والتصويب عن صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٤١ ط دار الكتب المصرية . (٢) يريد أنها تنفذ فيها وتتخللها .

(٣) الوسم : أثر الكىّ .

(٤) الصّخرية بالضم نسبة الى الصّخرة ، وهى جوبة تجاب وسط الحرة ، وتكون أرضا لينة تطيف بها حجارة ، والجمع صخر .

(٥) واحده كاغد بفتح الغين المعجمة : القرطاس ، وهو فارسى معرّب .

(٦) فى العقد الفريد ج ٢ ص ٢٢٣ ط بولاق : (لتصريف) وكلاهما يستقيم به الكلام وإن اختلف المراد فى كل من الروايتين . (٧) فى الأصل : (تخيير) والمقام يقتضى ما أثبتنا كما فى صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٤١ والعقد الفريد . (٨) فى العقد الفريد : (تتأنق) ومؤداهما واحد . (٩) فى العقد الفريد ج ٢ ص ٢٢٣ : (تتيمم فى اختيارك) الخ ، وهى أقرب بقرينة قوله بعد : « وأن تقصد » .

النقيّةَ الجلود، القليلةَ الشحوم، الكثيرةَ اللحوم، الضيقةَ الأجواف[1]، الرزينةَ المَحْمل فإنها أبقى على الكتابة، وأبعدُ من الحَفَا، وأن تقصد بآنتقائك للرِّقاق القُضبان المقوَّماتِ المتون، المُلْسِ المَعَاقد[2]، الصافيةِ القشور، الطويلةِ الأنابيب، البعيدةِ ما بين الكعوب، الكريمةِ الجواهر، المعتدلةِ القوام، المستحكِمةِ يَبَسا وهى قائمةٌ على أصولها، لم تُعجَل عن إبَّان ينعها، ولم تؤخَّر إلى الأوقات المَخُوفة عليها من خَصَر[3] الشتاء ٥
وعَفَن الأنداء؛ فإذا آستجمعَتْ عندك أمرت بقطعها ذراعا ذراعا قَطْعا رفيقا، ثم عبأت منها حُزَما فيما يصونها من الأوعية، [ووجّهتها مع من يؤدّى الأمانة فى حراستها وحفظها وإيصالها][4] وتكتب معها بعدّتها وأصنافها بغير تأخير ولا توان، إن شاء الله تعالى.

وأهدى ابن الحَرُون[5] إلى بعض إخوانه أقلاما وكتب إليه :

إنه لما كانت الكتابة — أبقاك الله — أعظمَ الأمور، وقِوامَ الخلافة، وعمودَ المملكة ١٠
أتحفتك من آلتها بما يخف حَمله، وتثقُل قيمتُه، ويعظُم نفعُه، ويجلّ خطرُه، وهى أقلام من القصب النابت فى الصحراء الذى نَشِفَ بحَرّ الهجير [فى قشره][6] ماؤه، وستره من تلويحه غِشاؤه؛ فهى كاللآلئ المكنونة فى الصدف، والأنوار المحجوبة فى السَّدَف[7]؛ تبريّة القشور، دُرّية الظهور، فضية الكسور؛ قد كستها الطبيعة جوهرا كالوَشْى المحبَّر، ورونقا[8] كالديباج المنيِّر[9]. ١٥

---

(١) فى الأصل: (الاحراف) وهو تحريف، صوابه ما أثبتنا كما فى صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٤١.
(٢) فى الأصل: (العاقب) وفيه نقص وتحريف، والتصويب عن صبح الأعشى.
(٣) الخصر: البرد. (٤) الزيادة عن العقد الفريد ج ٢ ص ٢٢٤ ط بولاق.
(٥) هو محمد بن أحمد بن الحسين بن الأصبغ بن الحرون من أهل بغداد.
(٦) التكملة عن صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٤٢ ط دار الكتب المصرية. (٧) السدف محركة: ظلمة الليل. (٨) فى الأصل: (وفرند الديباج) الخ. وهو تحريف إذ لم نجد من معانى الفرند ما يناسب السياق؛ وما أثبتناه عن صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٤٢ (٩) المنير كمعظم: المعلم الملحم. ٢٠

ومن كتاب لأبى الخطاب الصابى — يصف فيه أقلاما أهداها فى جملة أصناف — جاء منه :

وأضفتُ إليها أقلاما سليمةً من المعايب، مبرّأةً من المثالب ؛ جَمّةَ المحاسن بعيدةً عن المطاعن ؛ لم يُرِبها طول ولا قصر، ولم ينقُصها ضعف ولا خَور ؛ ولم يَشِنْها لِينٌ ولا رَخاوة، ولم يعبها كَزازة(١) ولا قساوة ؛ فهذه آخذةٌ(٢) بالفضائل من جميع جهاتها، مستوفيةٌ للمادح بسائر صفاتها ؛ صُلْبةُ المعاجم، لَيِّنةُ المَقاطع ؛ مُوفيةُ القدود والألوان، محمودةُ المَخْبَر والعيان ؛ قد آستوى فى الملاسة خارجُها وداخلُها، وتَناسَب فى السلاسة عاليها وسافلُها ؛ نبتت بين الشمس والظلّ، وآختلف عليها الحرّ والقُرّ ؛ فلفَحها(٣) وَقَدَانُ الهواجر، وسفعتها [سمائم](٤) شهر ناجر(٥) ؛ ووقذها الشَّفّانُ(٦) بصَرْده، وقذفها الغَمام بِبَرْده ؛ وصابتها الأنواء بصَيِّبها، وآستهلّت عليها السحائب بشآبيبها(٧) ؛ فاستمرّت مرائرها(٨) على إحكام، وآستحصد سَحْلُها(٩) بالإبرام ؛ جاءت شَتَّى(١٠) الشِّيات، متغايرةَ الهيئات، متباينةَ المحالّ والبُلدان ؛ تختلف بتباعد ديارها، وتأتلف بكرم نِجارها ؛ فمن أنابيبَ ناسبت رماحَ الخَطّ فى أجناسها، وشاكلت الذهب فى ألوانها، وضاهت

---

(١) الكزازة والكزوزة بضم الكاف فى الأخيرة : اليبس والانقباض .

(٢) فى صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٤٢ : (وهى آخذة) ولعله أنسب .

(٣) فى الأصل : (فلاحها) والصواب ما أثبتنا كما تقتضيه اللغة .

(٤) التكملة عن صبح الأعشى .

(٥) كل شهر فى صميم الحر اسمه ناجر، لأن الابل تنجر فيه، أى يشتدّ عطشها حتى تيبس جلودها .

(٦) الشفان : الريح الباردة مع المطر . والصرد : البرد، وهو فارسى معرّب .

(٧) واحده شؤبوب : وهو الدفعة من المطر .

(٨) الحبال المفتولة على أكثر من طاقة، واحده مرير ومريرة . شبه بها القصبة فى استحكامها وقوّتها .

(٩) هو الحبل الذى يفتل على قوة واحدة . والابرام : فتله على طاقتين .

(١٠) مختلفة الألوان والنقوش .

الحرير في لمعانها ؛ بطيئةُ الحفا ، (١) نمرةُ القُوَى ؛ (٢) لا يُشظيها القطّ ، (٣) ولا يُشعّث بها الخط ؛ (٤) ومن مصريّةٍ بيض ، كأنها [قُباطيٌّ مصر نقاء ، وغِرْقِئُ البَيض صفاء ؛ (٥) غذاها الصعيد من ثراه بلبّه] وسقاها النيل من نميره وعذبه ؛ فجاءت ملتئمةَ الأجزاء ، سليمةً من الالتواء ؛ تستقيم شقوقُها في أطوالها ، ولا تنكّب عن يمينها ولا شمالها ؛ تقترن بها صفراءُ كأنها معها عِقْيانٌ (٦) قُرِن بلُجَين ، أو ورِقٌ خلط بعَيْن ؛ تختال في صُفر مَلاحفها ، وتميس في مُذهب مَطارفها ؛ (٧) بلون غياب الشمس ، وصِبغ ثياب الوَرْس ، (٨) ومن منقوشة تَرُوق العين ، وتُونق النّفس ؛ ويهدى حسنُها الأَرْيَحيّةَ إلى القلوب ، ويحُلّ الطرب لها حَبْوةَ الحكيم اللبيب ؛ كأنها اختلافُ الزهر اللامع ، وأصنافُ الثمر اليانع ؛ [ومن بحريّة مُوشّيةِ الليط] (٩) رائقةِ التخليط ؛ (١٠) كأنّ داخلَها قطرةُ دم ، أو حاشيةُ رداء

---

(١) في الأصل وفي صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٤٣ : (مضابطة) وهو خطأ من الناسخ ولا معنى له والتصويب عن زهر الآداب ج ٢ ص ٢٠٧ ط الرحمانية . (٢) في زهر الآداب : «قوية» . (٣) في الأصل : «يشيطها» وهو تحريف ، ولم نر من معانيه ما يناسب المقام . والتصويب عن زهر الآداب . (٤) يشعث : يفرق وينتشر . وعبارة زهر الآداب ج ٢ ص ٢٠٧ ط الرحمانية «ولا يتشعب» بالباء الموحدة ، والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين . (٥) الزيادة عن صبح الأعشى . والقباطي بضم القاف وفتحها : ثياب رقاق بيضاء تصنع في مصر . واحده قبطية بضم القاف . والغرقئ كزبرج والغرقئ : القشرة الملتزقة ببياض البيض ، أو هو البياض الذي يؤكل . (٦) العقيان بالكسر : ذهب ينبت في الأرض وليس مما يستذاب من الحجارة ، أو هو الذهب الخالص . واللجين بفتح الجيم : الفضة ما دامت في تراب معدنها ، وهو مصغر لا مكبر له كالثريا . والورق : الدراهم المضروبة ، وفيه لغات : تثليث الراء ، وكحمل وكقفل . والعين : الدينار . (٧) المطارف : الأردية من الخز ذوات الأعلام ، واحده مطرف . (٨) الورس : شيء أصفر يخرج على الرمث بين آخر الصيف وأول الشتاء إذا أصاب الثوب لونه . أو هو نبات كالسمسم يزرع فيبقى عشر سنين في الأرض ، فإذا جف عند إدراكه تفتقت خرائطه فينفض فينتفض منه الورس .

(٩) الزيادة عن صبح الأعشى . والليط بالكسر : قشر القصبة ، واحده ليطة ، أو هو اللون . .

(١٠) في صبح الأعشى : «التخطيط» والمعنى يستقيم على كل من الروايتين .

مُعَلم، وكأنّ خارجها أرقم، أو متنُ واد مُفعم، نثرت ألوانا تُزرى بورد الخدود، وأبدت قامات تُفْصِح بأوَد القُدود .

وقد أكثر الشعراء القول فى وصف القلم، فمن ذلك قول أبى تمّام الطائىّ :

لك القلم الأعلى الذى بشَباته * تصاب من الأمر الكُلَى والمفاصلُ

لُعاب الأفاعى القاتلاتِ لُعابُهُ * وأَرْىُ الجنَى آشتارته أيدٍ عواسل [(1)]

له ريقةٌ طَلٌّ ولكنّ وَقعَها * بآثاره فى الشرق والغرب وابل

فصيح إذا آستنطقتَه وهو راكب * وأعجمُ إن خاطبتَه وهو راجل

إذاما آمتطى الخمسَ اللِّطافَ وأُفرِغت * عليه شِعابُ الفكر وهى حوافل [(2)]

أطاعته أطرافُ القنا وتقوّضت * لنجواه تقويضَ الخِيام الجحافل

إذا آستغزر الذهنَ الجلّىّ وأقبلت * أعاليه فى القرطاس وهى أسافل [(3)]

وقد رفدته الخنصران وسدّدت * ثلاثَ نواحيه الثلاثُ الأنامل

رأيت جليلا شأنُه وهو مرهَف * ضَنًى وسمينا خَطبُه وهو ناحل

وقال آخر:

قوم إذا أخذوا الأقلام من غضب * ثم آستمدّوا بها ماءَ المنيّات

نالوا بها من أعاديهم وإن بعُدوا * ما لم ينالوا بحدّ المَشْرَفيّات

وقال آبن المعتزّ :

قلم ما أراه أم فَلَك يجرى * بما شاء قاسم ويَسير [(4)]

خاشع فى يديه يلثِمُ قرطا * سًا كما قبّل البِساط شكور

(١) الأرى : عسل النحل، وأصله عمل النحل العسل، وسمى به الشهد كما سمى المكسوب كسبا . واشتارته : استخرجته من الوقبة . (٢) هى ما عظم من سواقى الأودية، واحده شعبة .

(٣) كذا فى الأصل . وفى رواية : (الذكى) والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين .

(٤) فى أدب الكتّاب ص ٨٥ ط السلفية : «ويدور» .

ولطيفُ المعنى جليل نحيف * وكبير الأفعـال وهو صـغير

كم منايا وكم عطايا وكم حتـ * ـفٍ وعيشٍ تَضُم تلك السطور

نَقشتْ بالدجى نهـارا فمـا أدرى * أخـطٌّ فيهن أم تصـوير

وقال محمد بن علىّ (١) :

فى كفه صارمٌ لانَتْ مَضاربه * يسوسـنا رَغَبا إن شاء أو رَهَبا

السـيف والرمح خُدّام له أبدا * لا يَبلغان له جِـدّا ولا لعبـا

تجرى دماءُ الأعادى بين أسطره * ولا يُحَس له صوت إذا ضَربا

فما رأيت مدادا قبل ذاك دما * ولا رأيت حساما قبل ذا قَصبا

وقال ابن الرومىّ :

لعمرك ما السيفُ سيفُ الكمِىّ * بأخوفَ من قلم الكاتب

له شـاهد إن تأمّلتَـه * ظهرتَ على سـره الغـائب

أداةُ المنيّـة فى جانبيـه * فمن مثله رهبـةُ الراهب

ألم تَرَ فى صـدره كالسنان * وفى الرِدف كالمرهَف القاضب؟

وقال الرفّاء (٢) :

أخرسُ ينبيك بإطراقـه * عن كل ما شئتَ من الأمر

يُذرى على قرطاسـه دمعَه * يُبـدى لنا السرّ وما يدرى

كعاشق أخفى هواه وقـد * نمّت عليـه عَبرةٌ تجـرى

تبصره فى كل أحـواله * عُريانَ يكسو الناس أو يُعرِى

يُرَى أسـيرا فى دواة وقد * أطلق أقواما من الأسْر

(١) صوابه، نسبة هذه الأبيات إلى أبى بكر محمد بن يحيى الصولى، وهى من قصيدة وجه بها إلى أبى على محمد بن على كما فى أدب الكتاب ص ٨٠ ط السلفية .

(٢) هو أبو الحسن السرىّ بن أحمد بن السرىّ الكندىّ الرفاء الموصلىّ الشاعر المعروف .

وقال آخر :

وذى عفاف راكع ساجد * أخو صلاح دمعه جارى
ملازم الخمس لأوقاتها * مجتهد فى خدمة البارى

وقال ابن الرومىّ :

إن يخدُم القلمَ السيفُ الذى خضعت * له الرقابُ ودانت خوفَه الأمم [(١)]
فالموت والموت لا شىءٌ يغالبه * مازال يَتبع ما يجرى به القلم
كذا قضى الله للأقلام مذ بُرِيَت * أن السيوف لها مذ أرهِفت خَدَم

وقال أبو الطيّب الأزْدىّ :

قلَم قلَّم أظفار العدى * وهو كالإصبع مقصوصَ الظُّفُر
أشبه الحيّة حتى أنه * كلما عُمِّر فى الأيدى قَصُر

وقال أبو الحسن بن عبد الملك بن صالح الهاشمىّ :

وأسمرَ طاوى الكَشح أخرسَ ناطق * له زَمَلانٌ [(٢)] فى بطون المَهارق.

[ذكر ما يحتاج الكاتب الى معرفته من الأمور الكلية [(٣)]

قال شهاب الدين أبو الثناء محمودُ بنُ سليمانَ الحلبىُّ فى كتابه «حسن التوسل» فأوّل مايبدأ به من ذلك حفظُ كتاب الله تعالى، ومداومةُ قراءته، وملازمةُ درسه

---

(١) فى الأصل : (إن يخدم السيف القلم) وهو غير مستقيم الوزن .

(٢) الزملان بفتح أوّله وثانيه : مشى الدابة أو عدوها كأنها تظلع من النشاط ، استعاره للقلم . والمهارق : الصحف ، واحده مهرق بضم الميم ، وهو معرّب .

(٣) هذه التكلمة المحصورة بين مربعين لم ترد بالأصل ، و بعد مراجعة هذا الكلام فى مظانه رأينا أنه منقول عن كتاب «حسن التوسل» فأثبتنا عنه هنا ما لايستقيم الكلام بدونه ، والظاهر من قوله فياسيأتى : قال فهذه أمور كلية الخ ، وقوله : وذكر فى كتابه جملا الخ أنه نبه على هذا النقل فى أوّله .

وتدبُّرُ معانيه حتى لا يزال مصوّرا فى فكره ، دائرا على لسانه ، ممثّلا فى قلبه ، ذاكرا له فى كل ما يرِد عليــه من الوقائع التى يحتاج الى الآستشهاد به فيها ، ويَفتقر الى اقامة الأدلّة القاطعة به عليها ؛ وكفى بذلك معينا له فى قصده ، ومغْنيًا له عن غيره ، قال الله تعالى : ﴿مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَىْءٍ﴾ ؛

وقد أُخرج من الكتاب العزيز شواهدُ لكل ما يدور بين الناس فى محاوراتهم ومخاطَباتهم مع قصور كل لفظ ومعنى عنه ، وعجزِ الإنس والجنّ عن الاتيان بسورة من مثــــله ؛

ومن ذلك أن سائلا قال لبعض العلماء : أين تجد فى كتاب الله تعالى قولَهم : الجار قبل الدار؟ قال : فى قوله تعالى : ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِى عِنْدَكَ بَيْتًا فِى الْجَنَّةِ﴾ فطَلبَت الجــارَ قبل الدار ، ونظائرُ ذلك كثيرة . وأين قول العرب : «القتلُ أنفَى للقتلِ» لمن أراد الآستشهاد فىهذا المعنى من قوله عزّ وجلّ : ﴿وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ . وأكثر الناس على جواز الآستشهاد بذلك ما لم يحوَّلْ عن لفظه ، ولم يغيَّرْ معناه .

فمن ذلك ما رُوى فى عهد أبى بكر رضى الله عنــه : هذا ما عهد أبو بكر خليفةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم آخرَ عهدِه بالدنيا ، وأوّلَ عهده بالآخرة ، إنى استخلفت عليكم عمرَ بنَ الخطّـاب ، فإن بَرّ وعَدَل فذلك ظنّى به ، وان جار وبدّل فلا علم لى بالغيب ، والخيرَ أردتُ بكم ، ولكل امرئ ما اكتسب من الإثم ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَىَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ .

ورُوى أن عليا رضى الله عنه قال لِلْمُغيرة بنِ شُعْبةَ لمــا أشار عليه بتولية معاوية : ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ .

وكتب فى آخر كتاب الى معاوية : وقد علمتَ مواقع سيوفنا فى جدّك وخالك وأخيك ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ .

وقول الحسن بن على عليه السلام لمعاوية : ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ ورُوى مثلُ ذلك عن ابن عباس رضى الله عنهما . —

٥ وكتب الحسن الى معاويةَ : أما بعد ، فان الله بعث محمدا صلّى الله عليه وسلم رحمة للعالمين ، ورسولا الى الناس أجمعين ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ .

وكتب محمد بنُ عبد الله بنِ الحسن بنِ الحسن بنِ على الى المنصور فى صدر كتاب لمّا حاربه : ﴿طسم تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ﴾

١٠ الى قوله : ﴿مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ . ونقَضَ عليه المنصور فى جوابه عن قوله : «إنه ابنُ رسول الله صلى الله عليه وسلم» بقوله تعالى : ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ .

ونُقِل عن الحسن البصرى رحمه الله مايدل على كراهية ذلك ، فقال حين بلغه أن الحجاج أنكر على رجل استشهد بآية : أنَسِىَ نفسه حين كتب الى عبد الملك ابن مروان : بلغنى أن أمير المؤمنين عطس فشمّته من حضر فردّ عليهم ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ

١٥ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ ؟ واذا صحت هذه الرواية عن الحسن فيمكن أن يكون انكارُه على الحجاج لأنه أنكر على غيره ما فعله هو . وذهب بعضهم الى أن كل ما أراد الله به نفسَه لا يجوز أن يُستشهَد به إلا فيما يضاف الى الله سبحانه وتعالى مثل قوله تعالى : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ ونحو ذلك مما يقتضيه الأدب مع الله سبحانه وتعالى .

٢٠ ومن شرف الاستشهاد بالكتاب العزيز إقامةُ الحجة ، وقطعُ النزاع ، وارغامُ الخصم كما رُوى أن الحجاج قال لبعض العلماء : أنت تزعم أن الحسين رضى الله عنه من ذرية

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتنى على ذلك بشاهد من كتاب الله عز وجل ، وإلا قتلتك ، فقرأ : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ ﴾ الى قوله : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى ﴾ وعيسى هو ابنُ بنته ؛ فأسكت الحجاج . وقد تقوم الآيةُ الواحدةُ المستشهَدُ بها فى بلوغ الغرض وتوفية المقاصد ما لا تقوم به الكتب المطوّلة ، والأدلّةُ القاطعةُ ؛ ٥

وأقرب ما اتفق من ذلك أن صلاح الدين رحمه الله كتب الى بغداد كتابا يعدّد فيه مواقفه فى إقامة دعوة بنى العباس بمصر ، فكُتب جوابُه بهذه الآية : [﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾]

١٠ وكتب أمير المسلمين يعقوبُ بنُ عبد المؤمن الى الأذْفُونْش(١) مَلِك الفرنج جوابا عن كتابه اليه — وكان قد أبرق وأرعد فكتب فى أعلاه — :

﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾

ومما جوّزوا الاستشهاد به ما لا يقصد به إلا التلويحُ الى الآية دون اطّراد الكلام نحو قول القاضى الفاضل مما كتب به الى الخليفة عن الملك الناصر صلاح الدين ١٥ فى الاستصراخ [وتهويل أمر الفرنج](٢) : ﴿ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي ﴾ وهاهى فى سبيلك مبذوله ، وأخى وقد هاجر اليك هجرة يرجوها مقبوله . وأما تغيير شىء من اللفظ أو إحالةُ معنى عما أريدَ به فلا يجوز ، وينبغى العدل عنه ما أمكن .

ويتلو ذلك الاستكثارُ من حفظ الأحاديث النبوية — صلوات الله وسلامه على قائلها — وخصوصا فى السير والمغازى والأحكام ، والنظر فى معانيها وغريبها وفصاحتها

٢٠ (١) فى الأصل : «الأدفونس» وهو تصحيف ، والتصويب عن وفيات الأعيان .

(٢) الزيادة عن حسن التوسل ص ٤ ط المطبعة الوهابية .

وفقهُ ما لا بدّ من معرفته من أحكامها، ليحتج بها في مكان الحجة[1]، ويستدل بموضع الدليل، فإن الدليل على المقصد إذا استند الى النص سُلِّمَ له ، والفصاحةُ اذا طُلبت غايتُها فإنها بعد كتاب الله فى كلام من أوتى جوامعَ الكَلِم . وينبغى أن يراعى فى الحَلّ لفظ الحديث ما أمكن، وإلا فمعناه .

ويتلو ذلك قراءةُ ما يتفق من كتب النحو التى يحصل بها المقصود من معرفته العربيةَ، فإنه لو أتى الكاتب من البلاغة بأتمّ ما يكون ولحَن ذهبت محاسن ما أَتَى به وانهدمت طبقةُ كلامه، وأُلغِيَ جميعُ [ما حسّنه][2]، ووُقِف به عند ماجهله .

ويتعلق بذلك [قراءة][3] ما يتهيأ من مختصرات اللغة، كالفصيح، وكفاية المتحفظ وغير ذلك من كتب الألفاظ ليتسعَ عليــه مجال العبارة، وينفتحَ له باب الأوصاف فيما[4] يحتاج الى وصفه، ويضطر الى نعته .

ويتصل بذلك حفظ خطب البلغاء من الصحابة وغيرهم، ومخاطباتهم ومحاوراتهم ومراجعاتِهم ومكاتباتِهم ، وما ادّعاه كلّ منهم لنفســه أو لقومه ، وما نقضه عليــه خَصمُه ، لمــا فى ذلك من معــرفة الوقائع بنظائرها ، وتلقّي الحوادث بمــا شاكلها والاقتداءِ بطريقة من فَلَج[5] على خصمه ، واقتفاءِ آثار من اضطُر الى عذر، أو إبطال دعوى أو اثباتها، والأجوبةِ الدامغةِ؛ فتأمله فى موضعه فإنك ستقف منه على ما آستغنى به عن ذلك .

(١) كذا فى الأصل . وعبارة حسن التوسل ص ٤ ط المطبعة الوهابيه : «بمكان» الخ مع إسقاط قوله : « بها » ، ولعلها أقرب بقرينة ما بعدها .

(٢) موضع هذه العبارة مطموس بالأصل تتعذر قراءته ، وما نقلناه عن حسن التوسل .

(٣) الزيادة عن حسن التوسل .

(٤) فى الأصل : «مما» وما أثبتناه عن حسن التوسل .

(٥) فلج : ظفر، وبابه نصر وضرب .

ثم النظرُ فى أيام العـرب ووقائعهم وحروبهـم ، وتسميةُ الأيام التى كانت بينهم ، ومعرفةُ يوم كل قبيلة على الأخرى ، وما جرى بينهم فى ذلك من الأشعار والمنافَسات ، لمـا فى ذلك من العلم بما يُستشهَد به من واقعةٍ قديمةٍ ، أو يَرِد عليه فى مكاتبةِ مَنْ ذَكَرَ يوما مشهورا ، أو فارسا معيَّنا . وسنذكر ذلك إن شاء الله تعالى فى فنّ التاريخ على ما ستقف عليه ؛ فإن صاحب هذه الصناعة إذا لم يكن عارفا بأيام العرب ، عالمـا بما جرى فيها لم يدر كيف يجيب عمّـا[1] يَرِد عليه من مثلها ، ولا مايقول إذا سئل عنها ، وحسبه ذلك نقصا فى صناعته وقصورا .

ثم النظر فى التواريخ ومعرفة أخبارِ الدول ، لمـا فى ذلك من الآطلاع على سِيَرِ الملوك وسياساتهم ، وذكر وقائعهم ومكايدهم فى حروبهم ، وما آتفق لهم من التجارِب ؛ فإن الكاتب قد يُضطرّ إلى السؤال عن أحوال من سلف ، أو يَرِد عليه فى كتاب ذكرُ واقعة بعينها ، أو يُحتجّ عليه بصورة قديمة فلا يَعرِف حقيقتها من مجازها ؛ وقد أوردنا فى فن التاريخ مالا يحتاج الكاتب معه إلى غيره من هذا الفن .

ثم حفظ أشعار العرب ومطالعة شروحها ، وآستكشافُ غوامضها والتوفُّرُ على ما آختاره العلماء بها[2] منها ، كالحماسة ، والمُفَضَّليّات ، والأصمعيّات ، وديوانِ الهُذَليِّين ، وما أشبه ذلك ، لمـا فى ذلك من غزارةِ الموادّ ، وصحّة الآستشهاد ، والآطلاع على أصول اللغة ، ونوادر العربيّـة ؛ وقد كان الصدر الأول يعتنون بذلك غاية الآعتناء ، وقد حكى أن الإمام الشافعى رحمه الله كان يحفظ ديوان هُذَيل ؛ فإذا أكثر المترشّح للكتابة من حفظ ذلك وتدبّر معانيـه سهُل عليه حَلّه ، وظهرت له مواضع

(١) فى الأصل : (بما) وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما تقتضيه اللغة .

(٢) كذا فى الأصل وفى حسن التوسل . ولعل قوله : «بها» زيادة من الناسخ . وعبارة صبح الأعشى ج ١ ص ٢٧١ ط دار الكتب المصرية : (وما توفرت دواعى العلماء بها على اختياره) ولعلها أظهر .

الاستشهاد به ، وساقه الكلام إلى إبراز ما فى ذخيرة حفظه منه ، ووضعه فى مكانه ونقله فى الاستشهاد والتضمين إلى ما كأنه وضع له ، كما اتفق للقاضى أبى بكر الأرجانى[1] فى تضمين أنصاف أبيات العرب فى بعض قصائده ، فقال :

وأهد الى الوزير المدح يجعل * «لك المرباع[2] منها والصفايا»

ورافق رفقة حلوا إليه * «فآبوا[3] بالنهاب وبالسبايا»

وقل للراحلين الى ذراه * «ألستم[4] خير من ركب المطايا»

ولا تسلك سوى طرقى فإنى * «أنا[5] ابن جلا وطلاع الثنايا»

وقال بديع الزمان الهمذانى :

أنا لقرب دار مولاى "كما طرب النشوان مالت به الخمر" ومن الارتياح إلى لقائه "كما انتفض العصفور بلله القطر" ومن الامتزاج بولائه "كما التقت الصهباء والبارد العذب" ومن الابتهاج بمزاره "كما اهتز تحت البارح[6] الغصن الرطب" .

وكما قال ابن القرطبى وغيره فى رسائلهم على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

---

(١) هذه كنيته ، واسمه أحمد بن محمد بن الحسين .

(٢) فى الأصل : «الرباع» بدون ميم ، وفيه نقص ، والتصويب عن اللسان . والمرباع : ما يأخذه الرئيس ، وهو ربع الغنيمة . والصفايا : ما يصطفيه الرئيس منها . وقوله : لك المرباع الخ صدر بيت ، وتمامه : «وحكمك والنشيطة والفضول» . والنشيطة : ما أصاب الرئيس من الغنيمة قبل أن يصير إلى مجتمع الحى .

(٣) قوله : فآبوا الخ هو صدر بيت لعمرو بن كلثوم ، وتمامه : «وأبنا بالملوك مصفدينا» .

(٤) هو صدر بيت لجرير من قصيدة يمدح بها عبد الملك بن مروان ، وتمامه : «وأندى العالمين بطون راح» .

(٥) قوله : أنا ابن جلا الخ ، تمام البيت : «متى أضع العمامة تعرفونى» ، وقائله سحيم بن وثيل : انظر شرح شواهد المبانى المحفوظ منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٩ م .

(٦) البارح : الريح الشديدة .

وكذلك حفظُ جانب جيّد من شعر المحدَثين ، كأبى تمّـام ومسلم ابن الوليـد والبُحترىّ وابنِ الرومىّ والمتنبى ، للطف مأخذهم ، ودَوَرانِ الصـناعة فى كلامهم، ودِقّةِ توليـد المعانى فى أشعارهم ، وقربِ أسلوبهم من أسلوب الخطابة والكتابة .

وكذلك النظرُ فى رسائل المتقـدّمين دون حِفظها لمـا فى النظر فيها من تنقيح القريحة ، وإرشادِ الخاطرِ، وتسهيلِ الطرق، والنسج على مِنوال المُجيد، والاقتداءِ بطريقةِ المحسنِ ، واستدراكِ ما فات القاصرَ[1] ، والاحترازِ مما أظهره النقدُ، وردّ ما بهرجه السبكُ ؛ فأمّا النهى عن حفظ ذلك فلئـلا يتّكل الخاطرُ على ما فى حاصله ، ويستندَ الفكرُ إلى ما فى مودَعه ، ويكتفى بما ليس له ، ويتلبّس بما لم يُعطَ "كلابس ثوبَىْ زور" ؛ وأمّا من قصد المحاضرةَ بذلك دون الإنشاءِ فالأحسنُ به حِفظُ ذلك وأمثاله .

وكذلك النّظرُ فى كتبِ الأمثالِ الواردةِ عن العـرب نظما ونثرا كأمثال المَيدانى والمفضَّل بنِ سلَمةَ الضبى وحمزةَ الأصبهانى وغيرِهم ، وأمثالِ المحْدَثين الواردةِ فى أشعارهم ، كأبى العتاهيةِ وأبى تمّام والمتنبى ، وأمثالِ المُوَلّدين ؛ وقد أوردنا من ذلك فى باب الأمثال جُملا .

وكذلك النّظرُ فى الأحكامِ السّلطانيّـةِ ، فإنه قد يأمر بأمر فيعرفُ منها كيف يخلُص قلمه على حكم الشريعةِ المطهّرةِ من توليةِ القضاءِ والحِسبةِ وغيرِ ذلك ؛ وقد قدّمنا فى هذا الكتاب من ذلك طرَفا جيّدا . قال : فهذه أمور كليّة لا بدّ للترشّح لهذه الصناعةِ من التصدّى للاطلاع عليها ، والإكبابِ على مطالعتها ، والاستكثارِ منها

(١) فى الأصل : «قال» وهو تحريف ، والتصويب عن حسن التوسل .

لينفق من تلك المواد، وليسلك فى الوصول إلى صناعته تلك الجواد[1]، وإلا فليعلم أنه فى وادٍ والكتابةُ فى واد .

قال : وأمّا الأمور الخاصّةُ التى تزيد معرفتُها قدرَه، ويزين العلمُ بها نظمَه ونثرَه، فإنّها من المكمِّلاتِ لهذا الفنّ وإن لم يُضطرّ إليها ذو الذهن الثاقب ، والطبع السليم، والقريحةِ المطاوعةِ، والفكرةِ المنقّحة، والبديهةِ المجيبة، والرويّةِ المتصرّفة، لكنّ العالمَ بهـا متمكّن من أزِمّة المعانى، يقول عن علم، ويتصرّف عن معرفة ، وينتقدُ بحجّة، ويتخيّرُ بدليل، ويستحسنُ ببرهانٍ، ويصوغُ الكلامَ بترتيب ؛ فمن ذلك علم المعانى والبيان والبديع، والكُتبُ المؤلّفةُ فى إعجازِ الكتابِ العزيزِ، ككتب الجُرْجانىّ والرُّمّانىّ والإمامِ فخرِ الدينِ السكّاكىّ والخفاجىّ وابن الأثير وغيرِهم؛ وذكر فى كتابه جُملا بهذه المعانى [وأورد أيضا أمورا أخرى تتصل بذلك من خصائص][2] الكتابة وهى الاقتباس والاستشهاد والحلّ، وأتى على ذلك بشواهدَ وأمثلة، وسأذكر فى هذا الكتاب ملخَّص ما أورده فى ذلك باختصارٍ[3] وزيادةٍ عليه .

فأمّا علوم المعانى والبيانِ والبديع ، فمنها : ذكر الفصاحةِ، والبـلاغةِ والحقيقةِ والمجازِ، والتشبيهِ، والاستعارةِ، والكنايةِ، والخبرِ وأحكامِه، والتقـديم والتأخيرِ، والفصـلِ والوصلِ، والحـذفِ والإضمارِ، ومباحث إنّ وإنّمـا، والنظم والتجنيس، والطباقِ، والمقابلة، والسـجع، وردّ العجزِ على[4] الصـدر، والإعنات[5]

(١) واحده جادّة، وهى وسط الطريق ومعظمه .

(٢) موضع هـذه العبارة مطموس بالأصل تتعذر قراءته، ولعل ما أثبتناه مكانها يوافق الغرض الذى أراده ويتناسب مع سابق الكلام ولاحقه .

(٣) فى الأصل : «واختصار» والسياق يقتضى الباء إذ لا يستقيم العطف هنا .

(٤) فى الأصل : «عن» وما أثبتناه هو المعروف فى كتب البلاغة .

(٥) فى الأصل : «والإعناق» بالقاف . وهو تحريف، والتصويب عن حسن التوسل .

والمذهبِ الكلامىّ، وحسنِ التعليلِ، والالتفاتِ، والتمـامِ، والاستطرادِ، وتأكيدِ المدحِ بمـا يشبه الذّم، وتأكيدِ الذّم بمـا يشبه المدحَ، وتجاهلِ العارفِ، والهـزلِ الذى يراد به الجدّ، والكناياتِ، والمبالغةِ، وإعتابِ المرء نفسَـه، وحسنِ التضمينِ والتلميحِ، وإرسالِ المثـلِ، وإرسالِ مثلين، والكلامِ الجـامعِ، واللّفّ والنشرِ والتفسيرِ، والتعديدِ — ويسمّى سياقةَ الأعدادِ — وتنسيقِ الصفاتِ، والإيهامِ — ويقال له : التورية — والتخييلِ، وحسنِ الابتداءات، وبراعةِ التخليص، وبراعةِ الطلب وبراعةِ المقطعِ، والسؤالِ والجوابِ، وصحةِ الأقسامِ، والتوشيحِ، والإيغالِ، والإشارةِ والتذييـلِ، والترديدِ، والتفويفِ، والتسهيمِ، والاستخدامِ، والعكسِ، والتبـديلِ والرجوعِ، والتغايرِ، والطاعةِ والعصيانِ، والتسميطِ، والتشطيرِ، والتطريزِ، والتوشيعِ والإغراقِ، والغلوِ، والقسمِ، والاسـتدراكِ، والمؤتلفةِ والمختلفةِ، والتفريقِ المفردِ والجمعِ مع التفريقِ، والتقسيمِ المفردِ، والجمعِ مع التقسيمِ، والتزاوجِ، والسّلبِ والإيجابِ والاطّرادِ، والتجريدِ، والتكميلِ، والمناسـبةِ، والتفريعِ، ونفىِ الشىء بإيجـابِه والإيداعِ(١)، والإدماجِ، وسلامةِ الاختراعِ، وحسنِ الاتّباعِ، والذّم فى معرِضِ المدحِ والعنوانِ، والإيضاحِ، والتشكيكِ، والقولِ بالموجِبِ، والقلبِ، والتنديدِ، والإسجالِ بعـد المغالطةِ، والافتنانِ، والإبهـامِ، وحصرِ الجزئى وإلحـاقِه بالكلّى، والمقارنةِ والإبداعِ، والانفصالِ، والتصرّفِ، والاشـتراكِ، والتهكّمِ، والتـدبيجِ، والموجّهِ وتشابهِ الأطرافِ. هذا مجموعُ ما أورده منها، واستشهد(٢) عليه بأدلّةٍ، وأورد أمثلةً سنشرح منها ما يكتفى به اللّبيب(٣)، ويستغنِى به اللّبيب.

(١) فى الأصل : «الابداع» بالباء الموحدة، والتصويب عن حسن التوسل.

(٢) فى الأصل : «والاستشهاد» وما أثبتناه أولى بالسياق.

(٣) كذا فى الأصل، وهو مكرر مع ما قبله، ولعل صوابه : «الأريب».

أما الفصاحة والبلاغة، فقد تقدّم الكلام فيهما فى أوّل الباب، فلا فائدة فى إعادته .

وأما الحقيقةُ والمجازُ — فالحقيقة فى اللّغة فعيلةٌ بمعنى مفعولة، من حقّ الأمر يُحِقّه بمعنى أثبته، أو من حققتُه إذا كنتَ منه على يقينٍ . والمجاز من جاز الشيء يجوزه إذا تعدّاه، فإذا عدل باللّفظ عما يوجبه أصل اللّغة وُصف بأنه مجازٌ على أنهم قد جازوا به موضعَه الأصلىّ، أو جاز هو مكانَه الذى وُضع فيه أوّلا، لأنه ليس بموضع أصلىّ لهذا اللّفظ ولكنّه مجازه ومتعدّاه يقع فيه كالواقف بمكان غيرِه ثم يتعدّاه [إلى] مكانه الأصلىّ. ولها حدود فى المفرد والجملة، فحدّها فى المفرد : أن كل كلمة أريد بها ما وضعت له فهى حقيقة، كالأسد للحيوانِ المفترِس، واليدِ للجارحةِ ونحوِ ذلك . وإن أريد بها غيرُه لمناسبة بينهما فهى مجاز، كالأسدِ للرّجلِ الشجاع واليدِ للنّعمة أو للقوّة، فإن النعمة تُعطَى باليدِ، والقوّةَ تظهر بكمالها فى اليد. وحدّهما فى الجملة : أن كلّ جملة كان الحكم الذى دلّت عليه كما هو فى العقل فهى[1] حقيقة كقولنا : خلق الله الخلق؛ وكلّ جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضعه فى العقل بضرب من التأويل فهى مجاز، كما إذا أضيف الفعل إلى شيء يضاهى الفاعل، كالمفعول به فى قوله عزّ وجلّ : ﴿فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ و ﴿مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ﴾؛ أو المصدرِ، كقولهم : شِعرٌ شاعر؛ أو الزمانِ، كقول النعمان بن بشير لمعاوية :

* وليلُك عمّا ناب قومك نائم *؛

أو المكان، كقولك : طريق سائر؛ أو المسبّبِ، كقولهم : بنى الأمير المدينة؛ أو السببِ، كقوله تعالى : ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ . فمجاز المفردِ

(١) فى الأصل : « فهو » والصواب تأنيث الضمير لتأنيث مرجعه وليوافق ما سيأتى .

لغوىّ، ويسمّى مجازا فى المثبَت، ومجاز الجملة عقلىّ، ويسمّى مجازا فى الإثبـات.
قال : فالمجـاز قد يكون فى الإثبات وحده، وهو أن يُضيف الفعلَ إلى غير الفاعلِ
الحقيقىّ كما ذكرناه، وقد يكون فى المثبَت وحده، كقوله تعالى : ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ جعل خُضرة الأرض ونَضرتها حياة، وقد يكون فيهما جميعا، كقولك :
أحيتنى رؤيتـك، تريد سرّتنى، فقـد جَعلتَ المسرّة حياة(١) وهو مجـاز فى المثبَت
وأسندتَها إلى الرؤية وهو مجاز فى الإثبات .

قال : وآعلم أنهم تعرّضوا فى آعتبار كون اللّفظ مجازا إلى آعتبار شيئين :

الأوّل أن يكون منقولا عن معنى وُضِع اللّفــظ بإزائه ، وبهذا يتميّز عن اللّفظ المشـــترك .

الثـانى أن يكون هذا النقل لمناسبة بينهما، فلا توصف الأعلام المنقولة بأنّها
مجاز إذ ليس نقلها لتعلّق نسبةٍ [بين](٢) المنقولِ عنه ومن له العلم، وإذا تحقّق الشرطان
سمى مجازا، وذلك مثل تسميةِ النعمةِ والقوّةِ باليدِ، لمـا بين اليد وبينهما من التعلّق
وكما قالوا : رعَينا الغيثَ، يريدون النبت الذى الغيثُ سببه، وصابتنا السّماء، يريدون
المطر، وأشباه ذلك ونظائره .

وأما التشبيه — فهو الدّلالة على آشتراك شيئين فى وصف هو من أوصاف
الشىء فى نفســه، كالشجاعة فى الأســد، والنّورِ فى الشمس . وهو ركن من أركان
البلاغة لإخراجه الخفىّ الى الجلىّ، وإدنائه البعيد من القريب . وهو حكم إضافىّ
لا يوجد إلا بين الشيئين بخلاف الآستعارة .

(١) فى الأصل : «حيلة» وهو تحريف صوابه ما أثبتنا .

(٢) الزيادة عن حسن التوسل، والسياق يقتضيها .

ثم التّشبيه على أربعة أقسام: تشبيه محسوس [بمحسوس] (١)، وتشبيه معقول [بمعقول] (٢)، وتشبيه معقول بمحسوس، وتشبيه محسوس بمعقول .

فأما تشبيه محسوس بمحسوس فلاشتراكهما إمّا فى المحسوسات الأولى : وهى مدركات السمع والبصر والذّوق والشمّ واللّمس، كتشبيه الخدّ بالورد والوجه بالنهار، [وأطيط الرّحل بأصوات الفراريج] (٣) والفواكه الحلوة بالسكّر والعسل ورائحة بعض الرياحين بالمسك والكافور، واللّين الناعم بالحرير، والخشن بالمسح (٤). أو فى المحسوسات الثانية : وهى الأشكال المستقيمة والمستديرة، والمقادير، والحركات كتشبيه المستوى المنتصب بالرّمح، والقدّ اللّطيف بالغصن، والشّىء المستدير بالكرة والحلقة، والعظيم الجثّة بالجبل، والذاهب على الاستقامة بنفوذ السهم. أو فى الكيفيّات الجسمانيّة، كالصلابة والرخاوة . أو فى الكيفيّات النفسانيّة، كالغرائز والأخلاق . أو فى حالة إضافية، كقولك : هذه حجّة كالشّمس، وألفاظ كالماء فى السّلاسة وكالنّسيم فى الرقّة، وكالعسل فى الحلاوة . وربّما كان التشبيه بوجه عقلىّ، كقول فاطمة بنت الخُرْشُب الأنماريّة حين وصفت بنيها الكملة فقالت : هم كالحلقة المفْرغة لا يُدرَى أين طرفاها .

وأما تشبيه المعقول بالمعقول فهو كتشبيه الوجود العارى عن الفوائد بالعدم، وتشبيه الفوائد التى تبقى بعد عدم الشّىء بالوجود، كقول الشاعر :

رب حىّ كميّت ليس فيه * أمل يرتجى لنفع وضرّ
وعظام تحت التراب وفوق الأ * رض منها آثار حمد وشكر (٦)

(١) التكملة عن حسن التوسل، وصحة التقسيم تقتضى إثباتها . (٢) التكملة عن حسن التوسل والمقام يقتضى إثباتها . (٣) التكملة عن حسن التوسل . (٤) المسح بالكسر : الكساء من الشعر، جمعه أمساح ومسوح . (٥) فى الأصل : «البابنة» وهو تحريف . (٦) فى الأصل : «منها حمد» والتكملة عن حسن التوسل وبها يستقيم البيت .

وأمّا تشبيه المعقول بالمحسوس فهو كقوله تعالى : ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ .

وأما تشبيه المحسوسِ بالمعقولِ فهو غير جائز، لأن العلوم العقليّة مستفادةٌ من الحواسّ ومنتهيةٌ إليها، ولذلك قيل : من فقد حِسّا فقد عِلما، فإذا كان المحسوس أصلا للمعقولِ فتشبيهه به يكون جعلا للفرع أصلا والأصلِ فرعا ولذلك لو حاول محاول المبالغةَ فى وصفِ الشمسِ بالظهور والمِسكِ بالثناءِ[1] فقال : الشمس كالحجّةِ فى الظّهور، والمسكُ كالثّناءِ فى الطّيبِ، كان ذلك سَخَفًا من القول

فأمّا ما جاء فى الشعر من تشبيه المحسوس بالمعقول فوجهه أن يقدّر المعقولُ محسوسا، ويُجعل كالأصل[2] المحسوس على طريق المبالغةِ، فيصحّ التشبيه حينئذ وذلك كما قال الشاعر :

وكأنّ النجوم بين دجاها * سُنَنٌ لاح بينهنّ ٱبتداع

فإنّه لما شاع وصف السنّةِ بالبياضِ والإشراقِ، وٱشتهرت البدعة وكلّ ما ليس بحقٍّ بالظلمةِ[3] تخيّل الشاعر أن السنن كأنها من الأجناس التى لها إشراق ونور، وأن البِدع نوع من الأنواع التى لها ٱختصاص بالسواد والظُّلمة، فصار ذلك كتشبيه محسوسٍ بمحسوسٍ، فجاز له التشبيه، وهو لا يتمّ إلا بتخييل ما ليس بمتلوّنٍ [متلوّنا][4] ثم يتخيّله أصلا فيشبّه به، وهذا هو الّذى تُؤوّل فى قول أبى طالب الرّقّىّ :

---

(١) كذا فى الأصل وفى حسن التوسل . وهو غير مستقيم كما لا يخفى، ولعل صواب العبارة : «والمسك بالطيب» فإن المسك إنما يوصف به لا بالثناء، وفى الجملة قبلها وفى ما يأتى من التمثيل ما يؤيده .

(٢) فى الأصل : «و يجعل المعقول محسوسا» وهو مكرر مع ما قبله، وتصويب العبارة عن حسن التوسل .

(٣) فى الأصل : «كالظلمة» وهو تحريف، والتصويب عن حسن التوسل .

(٤) الزيادة عن حسن التوسل، ولا يتم المعنى بدونها .

ولقد ذكرتك والظلام كأنّه * يومُ النّوى وفؤاد من لم يعشَقِ

فإنّه لمّا كانت الأوقات التى تحدُثُ فيها المكاره توصف بالسواد كما يقال : آسودّت الدنيا فى عينه، جعل يومَ النوى كأنّه أشهرُ بالسواد من الظلام، فعرّفه به وشبّهه، ثم عطف عليه فؤادَ من لم يعشَق لأنّ من لم يعشَق عندهم قاسى القلب والقلب القاسى يوصَفُ بشدّة السواد، فأقامه أصلا، فقس على هذا المثال. قال : وآعلم أنّ ما به المشابهة قد يكون مقيّدا بالانتساب إلى شىء، وذلك إما الى المفعول به كقولهم : "أخذ القوسَ باريها" وإلى ما يجرى مجرى المفعول به وهو الجارّ والمجرور كقولهم لمن يفعل ما لا يفيد : "كالراقِم على الماء" وإمّا الى الحال، كقولهم : "كالحادى وليس له بعير" وإما الى المفعول والجارّ والمجرور معا، كقولهم : "هو كمن يجمع السيفين فى غمد" و"كمبتغى الصيد فى عرينة الأسد"، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا ٱلتَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ فإنّ التشبيه لم يحصل من مجردِ الحملِ، بل لأمرين آخرين، لأن الغرض توجيهُ الذّم إلى من أتعب نفسه فى حمل ما يتضمّن المنافعَ العظيمةَ ثم لا يَنتفع به لجهله، وكقول لبيد :

وما النّاس إلا كالدّيار وأهلها * بها يوم حلّوها وغَدْوًا[1] بلاقع

فإنّه لم يشبِّه الناس بالديار، وإنّما شبّه وجودهم فى الدنيا وسرعة زوالهم بحلولِ أهلِ الدّيار فيها، ووَشْك رحيلهم منها. قال : وكلّما كانت التقييدات أكثرَ كان التشبيه أوغلَ فى كونه عقليًّا، كقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾. فإن التشبيه منتزَع من مجموعِ هذه الجملِ من غير أن يمكن

(١) فى الأصل وفى حسن التوسل : «وعادوا» وهو تحريف، والتصويب عن اللسان مادة غدا. وغدوا : لغة فى غدا.

فصـــلُ بعضها عن بعضٍ ، فإنّك لو حذفت منها جملة واحدة من أىّ موضع كان أخلّ ذلك بالمغزى من التشبيه . قال :

ثم ما به المشابهة إن كان مركّبا فإنّه على قسمين :

الأوّل ما لا يمكن إفراد أحدِ أجزائه بالذّكر، كقول القاضى التنوخىّ :

كأنّمـا المِرّيخُ والمشـترِى * قدّامَه فى شـامخ الرِّفعـه

منصرف باللّيل من دعوة * قد أُسرِجت قدّامه شمعه

فإنّك لو اقتصرت على قوله : كأنّ المِرّيخ منصرفٌ من دعوة، أوكأن المشترِى شمعةٌ لم يحصل ما قصـده الشاعر، فإنّه إنّما قصد الهيئة التى يلبَسُها المِرّيخ من كون المشترِى أمامه .

الثـانى ما يمكن إفرادُه بالذّكر ويكونُ إذا أزيل منـه التركيب صحيحَ التشبيهِ فى طرفيه إلّا أن المعنى يتغيّر، كقول أبى طالب الرَّقّىّ :

وكأنّ أجرامَ النجوم لوامعا * درر نُثِرن على بِساط أزرق

فلو قلت : كأن النجوم دررٌ، وكأن السماء بساط أزرق، وجدتَ التشـبيه مقبولا ولكن المقصود من الهيئة المشبَّه بهـا قد زال . قال : وربّما كان التشبيه فى أمور كثيرة لا يتقيّد بعضها ببعض، وإنّمـا يكون مضموما بعضها إلى بعض وكلّ واحد منها منفرد بنفســه، كقولك : زيد كالأسد بأسا، والبحرِ جُودا، والسيفِ مَضاءً والبــدرِ بهاءً؛ وله خاصيتان : إحداهما أنه لا يجب فيــه الترتيب، والثانية أنّه إذا سقط البعض لم يتغيّر حكم الباقى .

ومن المتأخّرين من ذكر فى التشبيه سبعة أنواع :

الأوّل التشبيه المطلق، وهو أن يشبّه شيئا بشىء من غير عكس ولا تبديل كقوله تعالى : ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ وقوله تعالى :

﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنْشَآتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَامِ﴾ وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾. وقول النّبي صلّى الله عليه وسلم : "الناس كأسنان المُشْطِ".

الثّاني التّشبيه المشروط، وهو أن يشبّه شيئا بشيء لو كان بصفة كذا، ولولا أنّه بصفة كذا، كقوله : أُشَبِّهُ وجهَ مولانا بالعيدِ المقبِلِ لو كان العيد تبقَى ميامنه وتدوم محاسنه، وكقوله : وجه هو كالشمسِ لولا كسوفها، والقمرِ لولا خسوفه

وكقول البديع :

قد كان يحكيك صَوبُ الغيثِ منسكبا * لو كان طَلقَ المحيّا يُمطِر الذهبا
والدهرُ لو لم يخُن والشمسُ لو نَطقت * والليثُ لو لم يُصَدْ والبحرُ لو عذُبا

وكقول الآخر[1]:

عَزَماته مثلُ النجوم ثواقبًا * لو لم يكن للثّاقبات أُفول.

الثالث تشبيه الكناية، وهو أن يشبّه شيئا بشيء من غير أداة التشبيه، كقول المتنبّي :

بدت قمرًا وماست خُوطَ بانٍ * وفاحت عنبرا ورَنَتْ غزالا

وقول الواوا الدّمشقيّ[2] :

فأمطرت لؤلؤا من نرجسٍ فسقت * وَردا وعَضّت على العُنّاب بالبَرَدِ.

الرابع تشبيه التسوية ، وهو أن يأخذ صفة من صفات نفسه، وصفة من الصفات المقصودة، ويشبّههما بشيء واحد، كقوله :

---

(١) هو رشيد الدين الوطواط .

(٢) فى الأصل : ألولو . وفى حسن التوسل : الواو؛ وهو تحريف فى كليهما ، والتصويب عن شرح القاموس . والواوا : لقبه؛ واسمه محمد بن أحمد الغساني، وكنيته أبو الفرج .

صُدغُ الحبيب وحالى * كلاهمـا كالليالى
وثغــره فى صَــفاء * وأدمُعى كاللآلى.[1]

الخامس التشبيه المعكوس، وهو أن تشبّه شيئين كلَّ واحد منهما بالآخر كقول الشاعر :

الخمر تفاح جرى ذائبـا * كذلك التفاح خمر جُمِّد
فاشرب على جامدٍ ذَوْبَهُ[2] * ولا تَبِـعْ لذّة يومٍ بغـد

وكقول الصّاحب بن عبّاد :

رَقَّ الزّجاجُ وراقت الخمر * فتشابهَا فتشاكَلَ الأمر
فكأنّه خمـرٌ ولا قـدح * وكأنّه قـدحٌ ولا خمـر

وكقول بعضهم فى النثر : كم من دمٍ أهرقناه فى البرّ، وشخصٍ أغرقناه فى البحر، فأصبح البرّ بحرا من دمائهم، والبحر برّا بأشلائهم .

السادس تشبيه الإضمار، وهو أن يكون مقصودَه التّشبيهُ بشىء فدلّ ظاهر لفظه أنّ مقصودَه غيرُه، كقول المتنبّى :

ومن كنتَ جارا له يا علىّ * لم يقبـل الدرّ إلّا كبارا

فيدلّ ظاهرُه على أنّ مقصودَه الدرّ، وإنّما غرضه تشبيهُ الممدوح بالبحر .

السابع تشبيه التفضيل، وهو أن يشبّه شيئا بشىء ثمّ يرجع فيرجّح المشبّهَ على المشبَّهِ به، كقوله :

حسبت جماله بدرا مضيئا * وأين البدر من ذاك الجمال

---

(١) فى الأصل : «ثغوره» والتصويب عن حسن التوسل .

(٢) فى الأصل : «ذا» وفيه نقص، والتصويب عن حسن التوسل .

وكقول ٱبن هندو[1] :

مَن قاس جَدواك بالغمام فما * أنصف فى الحكم بين شيئين
أنت إذا جدت[2] ضاحك أبدا * وذاك إن جاد دامع العين .

قال : وقد تقدّم تشبيه شىء بشىء .

فأمّا تشبيه شىء بشيئين فكقول ٱمرئ القيس :

وتَعطو[3] برَخْص غيرِ شَثْنٍ[4] كأنّه * أساريعُ رمل أو مساويك إِسْحِلِ .

وأمّا تشبيه شىء بثلاثة أشياءَ فكقول البحترىّ :

كأنّما يبسِم عن لؤلؤ * منضَّدٍ أو بَرَدٍ أو أَقاح .

وأمّا تشبيه شىء بأربعة أشياءَ فكما قال المولى شهاب الدّين أبو الثناء محمود الحلبىُّ الكاتبُ :

يفتَرُّ طِرسك عن سطور جادَها الـ * ـفكر السليم بصَوبِ مِسكٍ أذفرِ
فكأنّما هو روضةٌ أو جدول * أو سِمْطُ درّ أو قلادةُ عنبرِ .

وأمّا تشبيه شىء بخمسة أشياءَ فكقول الحريرىّ :

يفتَرُّ عن لؤلؤ رطب وعن بَرَد * وعن أَقاحٍ وعن طَلْع وعن حَبَبِ .

وأمّا تشبيه شيئين بشيئين فكقول ٱمرئ القيس :

كأنّ قلوب الطّير رَطبا ويابسا * لَدَى وكرها العُنّابُ والحَشَفُ البالِي

(١) كذا فى معجم الأدباء لياقوت ج ٥ ص ١٦٨ ط مطبعة هندية . وفى الأصل : «بن هند» ولم نقف عليه فيما بين أيدينا من كتب اللغة ومعاجم الأعلام . (٢) فى الأصل : «اذا» والتصويب عن حسن التوسل . (٣) تعطو : تتناول . والرخص : اللين الناعم . والشثن : الغليظ الكز . والأساريع : دود أحمر يكون فى البقل والأماكن الندية ، تشبه به أنامل النساء . والإسحل بكسر أوّله : شجر من شجر المساويك . (٤) المشهور فى روايته : (ظبى) كما فى معلقة الشاعر . وظبى بفتح فسكون : اسم بلد قريب من ذى قار ، وهو أحسن بلاد الله أساريع .

وأمّا تشبيه ثلاثة بثلاثة فكقول الآخر :

ليلٌ وبدرٌ وغصن * شعرٌ ووجهٌ وقـدٌ

خمـر ودرّ وورد * ريق وثغـر وخد .

وأمّا تشبيه أربعـة بأربعة فكقول آمرئ القيس :

له أيطَـلا[(١)] ظَبْيٍ وساقا نعـامةٍ * وإرخاءُ سِرحان وتقريبُ تَتْفُلِ

وكقول أبى نواس :

تبكى فتُذرى الدرّ من نرجس * وتلطِـم الـورد بعُنـاب .

وأمّا تشبيه خمسة بخمسة فكقول أبى الفرج الواوا الدمَشْقىّ[(٢)] :

قالت متى البين يا هٰذا فقلت لها * إمّا غدا زعمـوا أو لا فبعـد غد

فأمطرت لؤلؤا من نرجس فسقت * وردا وعضّت على العُنّاب بالبَرد

وشبّه قاضى القضاة نجم الدين بن البارزىّ سبعة أشياءَ بسبعةِ أشياءَ وهى :

يُقَطِّعُ بالسّكين بِطّيخةً ضحى * على طبقٍ فى مجلسٍ لان صاحبه

كشمسٍ ببرق قَدّ بدرا أهـلّةً * لدى هالة فى الأفق شتّى كواكبه .

قال : والغرض من التشبيه قد يكون بيانَ إمكان وجود الشىء عند آدعاء ما لا يكون إمكانُه بيّنا، كقول آبن الرّومىّ :

وكم أب قد علا بابن ذُرى شرفٍ * كما عَلَتْ برسول الله عدنانُ

وكقول المتنّبى :

فإن تفُق الأنام وأنت منهم * فإنّ المسك بعضُ دم الغزال

(١) واحده أيطل، وهو الخاصرة . والإرخاء : شدّة العدو . والتقريب : وضع الرجلين مكان اليدين فى العدو . والتتفل : ولد الثعلب .

(٢) موضع هذا الاسم مطموس بالاصل، وما أثبتناه عن حسن التوسل .

أو بيانَ مقداره ، كما إذا حاولْت نفى الفائدة عن فعل إنسان قلت : هـذا كالقابض على المـاء ، لأن خلوّ الفعل عن الفائدة مراتبَ مختلفةً فى الإفراط والتفريط والوسط ، فإذا مُثِّل بالمحسوس عُرِفت مرتبته ، ولذلك لو أردت الإشارة إلى تنافى الشيئين فأشرْت إلى ماء ونار فقلت : هذا وذاك هل يجتمعان؟ كان تأثيره زائدا على قولك : هل يجتمع المـاء والنار ؟ وكذلك إذا قلت فى وصف طول يوم : كأطول ما يُتوهّم ، أو لا آخر له ، أو أنشدت[1] قوله :

فى ليل صُولٍ[2] تناهَى العَرض والطول * كأنّمـا ليـله بالليـل موصول

لم تجد فيه من الأنس ما تجده فى قوله[3] :

ويومٍ كظـلّ الرمح قصَّر طُولَه * دمُ الزِقّ عنّا واصطفاقُ المزاهرِ

وما ذاك إلّا للتشبيه بالمحسوس ، وإلّا فالأوّل أبلغ ، لأن طول الرمح متناهٍ (١٨) وفى الأوّل حَكمْتَ أنّ ليـلَه موصول باللّيل ، وكذلك لو قلت فى قِصر اليومِ : كأنّه ساعة ، أو كلمح البصر ، لوجدته دون قوله :

ظللنا عنـد دار أبى أنيس * بيوم مثـل سالفةِ الذُّباب[4]

وقوله :

ويومٍ كإبهام القطاةِ مُزيَّن * إلىّ صِـباه غالبٌ لِىَ باطله .

قال : وقد يكون غرض التشبيه عائدا على المشبه به ، وذلك أن تقصد على عادة التخييل أن توهِم فى الشىء القاصرِ عن نظيره أنه زائد ، فتشبِّه الزائد به ، كقوله :

---

(١) فى الأصل : «وأنشدت» والسياق يقتضى العطف بأو كما فى حسن التوسل .

(٢) البيت لحندج ابن حندج المرّى . وصول : مدينـة فى بلاد الخزر فى نواحى باب الأبواب . أنظر معجم البلدان لياقوت ج ٣ ص ٤٣٥ ط المدرسة المحروسة بمدينة غتنغة .

(٣) فى الأصل : «منه» وما أثبتناه عن حسن التوسل ، إذ هو المناسب لقوله بعد : (فى قوله) .

(٤) السالفة : صفحة العنق ، أراد هنا العنق كله .

وبدا الصـــباح[(١)] كأنّ غرّته * وجه الخليفة حين يُمتـدَح

وهذا أبلغ وأحسن وأمدح من تشبيهِ الوجه بالصباح، لأن تشبيه الوجه بالصُباح أصل متّفق عليه لا يُنكر ولا يُستكثَر، وإنمـا الذى يستكثر تشبيه الصباح بالوجه .

قال : ثم الغرض بالتشبيه إن كان إلحاقَ الناقصِ بالزائدِ امتنع[(٢)] عكسه مع بقاء هـذا الغـرض، وإن كان الجمعَ بين شيئين فى مطلقِ الصورةِ والشكلِ واللونِ صحّ العكس كتشبيه الصبح بغرّة الفرس الأدهم لا للمبالغـة فى الضياء، بل لوقوع منيرٍ فى مظلم وحصولِ بياضٍ قليلٍ فى [سوادٍ] كثيرٍ .

قال : والتشبيه قد يجىء غريبا يحتاج فى إدراكه الى دقّة نظر، كقول ابن المعتزّ :

* والشمس كالمرآة فى كفّ الأشلّ *

والجامع الاستدارة والإشراق مع تواصل الحركة التى تراها للشمس إذا أنعمت التأمّل فى اضطراب نورِ الشمس، ويقرب منه قول الآخر :

كأن شعاعَ الشمس فى كلّ غُدوة * على ورق الأشجـار أوّلَ طالع
دنانيرُ فى كفّ الأشـلّ يضمّها * لقبض[(٣)] وتهوِى [من][(٤)] فروجِ الأصابع

وكقول المتنبىّ :

الشمس من مشرقها قد بدت * مشرقةً ليس لهـا حاجب
كأنهـا بُودَقـةٌ[(٥)] أُحْمِيَتْ * يجول فيهـا ذهب ذائب

---

(١) البيت لمحمد بن وهيب الحميرى من قصيدة يمدح بها المأمون .

(٢) فى الأصل : «مقنع» وهو تحريف ، والتصويب عن حسن التوسل .

(٣) كذا فى الأصل وفى حسن التوسل . ولعله «بقبض» بالباء .

(٤) الكلمة الموضوعة بين مربعين ساقطة من الأصل ، وقد نقلناها عن حسن التوسل ، و بها يستقيم الوزن والمعنى .   (٥) فى الأصل : «بوطقة» وهو تحريف ، والتصويب عن حسن التوسل . والبودقة : مولد معرب بوته ، وهى ما يصفى فيه الذهب والفضة معروفة عند الصاغة ، و يقال فيه : بوتقة .

ومن لطيف ما جاء في هـذا المعنى من التشبيه قول الأخطل في مصلوب :

أو قائمٌ من نعاس فيه لُوثته[1] * مُواصِل لتمطِّيه من الكسل

شبّهه بالمتمطّى[2]، لأنّ المتمطّى يمدّ يديه وظهرَه ثم يعود إلى حالته الأولى، فزاد فيه أنّه مواصل لذلك، وعلّله بالقيام من النعاس لمـا في ذلك من اللُّوثة والكسل .

٥ قال : والتشبيه ليس من المجاز، لأنه معنى من المعانى، وله ألفاظ تدلّ عليه وضعا فليس فيه نقل اللفظ عن موضوعه ، وإنّما هو توطئة لمن يسلك سبيل الاستعارة والتمثيل، لأنه كالأصل لهما وهما كالفرع له ، والذى يقع منه فى حيّز المجاز عند أهل هذا الفنّ هو الذى يجىء على حدّ الاستعارة، كقولك لمن يتردّد فى الأمر [بين][3] أن يفعله أو يتركه : « أراك تقـدّم رجلا وتؤخّر أخرى » والأصل فيه أراك فى تردّدك

١٠ كمن يقدّم رجلا ويؤخر أخرى .

وأما الاستعارة — فهى ادّعاء معنى الحقيقة فى الشىء للمبالغة فى التشبيه مع طرح ذكر المشبّه من البين[4] لفظا وتقديرا . وإن شئت قلت : هو جعل الشىء الشىءَ [أو جعل الشىء للشىء][5] لأجل المبالغةِ فى التشبيه .

فالأوّل كقولك : لقيت أسدا وأنت تعنى الرجل الشجاع .

١٥ والثانى كقول لبيد :

* إذ أصبحتْ بيد الشَمال زمامُها[6] *

أثبت اليد للشَمال مبالغةً فى تشبيهها بالقادر فى التصرف فيه على ما يأتى بيانُ ذلك .

---

(١) اللوثة بالضم : الاسترخاء . (٢) فى الأصل : (بالتمطى) وما أثبتناه عن حسن التوسل .

(٣) الزيادة عن حسن التوسل . (٤) كذا فى الاصل وحسن التوسل . وهو غير ظاهر، ولعل صوابه : «من الشيئين» ، يريد الطرفين . (٥) التكملة عن حسن التوسل، والتمثيل الآتى يقتضى اثباتها .

٢٠ (٦) فى معلقة الشاعر : « قد » والمعنى يستقيم على كل منهما . وصدر البيت : «وغداة ريح قد وزعت وقـرة» . يريد أنه رب غداة ريح و برد قد دفعتها عن العفاة بنحر الجزر لهم والإطعام، وإذكاء النـار لدفئهم وقراهم . وإنمـا خص الشمال لأنها أبرد الرياح .

وحدّ الرمّانىّ الآستعارة فقال : هى تعليق العبارة على غير ما وُضعت له فى أصل اللغة على سبيل النقل للإبانة .

وقال ابن المعتزّ : هى آستعارة الكلمة من شىء قد عُرف بها إلى شىء لم يُعرف بها . وذكر الخفاجىّ كلامَ الرمّانىّ وقال : وتفسير هذه الجملة أن قوله عزّ وجلّ : ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ استعارة[(١)]، لأن الآشتعال للنار، ولم يوضع فى أصل اللغة للشيب فلما نقل اليه بان المعنى لمـا آكتسبه من التشبيه ، لأن الشيب لمـا كان يأخذ فى الرأس شيئا فشيئا حتى يحيله إلى غير لونه الأوّل كان بمنزلة النار التى تسرى فى الخشب حتى تحيلَه إلى غير [حالته][(٢)] المتقدّمة ؛ فهذا هو نقل العبـارة عن الحقيقة فى الوضع للبيان، ولا بدّ من أن تكون أوضحَ من الحقيقة لأجل التشبيه العارض فيها لأن الحقيقة لو قامت مقامها لكانت أولى بها[(٣)] ، لأنها الأصل، وليس يخفى على المتأمّل أن قوله عزّ وجلّ : ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ أبلغ من كثُر شيبُ الرأس ، وهو حقيقة هذا المعنى .

ولا بدّ للآستعارة من حقيقة هى أصلها ، وهى مستعار منه ، ومستعار ، ومستعار له ، فالنار مستعار منها ، والآشتعال مستعار ، والشيب مستعار له . قال : وأمّا قولنا مع طرح ذكر المشبّه ، فآعلم أننا اذا طرحناه كقولنا : رأيت أسدا ، وأردنا الرجل الشجاع فهو استعارة بالآتفاق ، وإن ذكرنا معه الصيغةَ الدالّةَ على المشابَهة كقولنا : زيد كالأسد أو مثلُه أو شبهُه فليس باستعارة ؛ وإن لم نذكر الصيغة وقلنا : زيد أسد فالمختار أنه ليس بآستعارة إذ فى اللفظ ما يدلّ على أنّه ليس بأسد فلم تحصل

(١) فى الأصل : (الاستعارة) وفيه تحريف وزيادة هاء ، والسياق يقتضى ما أثبتنا كما فى حسن التوسل .

(٢) الزيادة عن حسن التوسل ، ولا يستقيم الكلام بدونها . وعبارة الأصل : (كان بمنزلة النار التى تسرى فى الخشب حتى تحيله الى غير لونه الأوّل كان بمنزلة النار حتى تحيله الى غير لونه المتقدّمة) . وفيها تكرار ونقص .

(٣) بها أى بالعبارة .

المبالغة ، فاذا قلت : زيد الأسد فهو أبعد عن الاستعارة ، فإنّ الأوّل خرج بالتنكير عن أن يحسُن فيه كاف التشبيه ، فإنّ قولك : زيد كأسد كلامٌ نازل بخلاف الثانى .

قال ضياء الدين بنُ الأثير : وهـذا التشبيه المضمر الأداةِ قد خلطه قوم بالاستعارة ولم يفرّقوا بينهما ، وذلك خطأ محض .

قال : وسأوضح وجه الخطإ فيـه وأحقق القول فى الفرق بينهـما فأقول : أمّا التشبيه المظهَر الأداة فلا حاجة بنـا إلى ذكره لأنّه لا خلاف فيـه ، ولكن نذكر التشبيه المضمَرَ الأداة فنقول : إذا ذكر المنقول والمنقول اليه على أنّه تشبيهٌ مضمر الأداة قيل فيه : زيد أسد ، أى كالأسد ، فأداة التشبيه فيه مضمَرة مقدّرة ، وإذا أظهِرت حسُن ظهورها ، ولم تقـدح فى الكلام الذى أظهِرت فيه ، ولم تُزل عنـه فصاحته ؛ وهـذا بخلاف ما إذا ذُكر المنقول اليه دون المنقول (١) فإنه لا يحسُن فيـه ظهور أداة التشبيه ، وإذا ظهرَت زال عن ذلك الكلام ما كان متّصفا به من الحسن والفصاحة .

قال : ولنضرب لذلك مثالا يوضحـه فنقول : قد ورد هـذا البيت لبعض الشعراء وهو :

فرعاءُ (٢) إنْ نهضت لحاجتها * عجِل القضيب وأبطأ الدعص

وهذا لا يَحسن تقدير أداة التشبيه فيه ، فلا يقـال : عجل [قدّ] (٣) كالقضـيب وأبطأ [رِدف] (٣) كالدّعص ؛ فالفرق إذن بين التشـبيه المضمرِ أداةُ التشبيه فيه وبين

---

(١) كذا فى الأصـل وحسن التوسل والمثل السائر ص ٢١٥ ط بولاق ؛ وهو غير مستقيم ، فان الذى يذكر فى الاستعارة هو لفظ المشبه به ، وهو المنقول دون المنقول اليه ، ولعل صواب العبارة : «وهذا بخلاف ما اذا ذكر المنقول دون المنقول اليه» وفى التمثيل الآتى ما يؤيده .

(٢) الفرعاء : الطويلة الشعر . (٣) عبارة الأصـل : «عجل كالقضيب وأبطأ كالدعص» بدون هاتين الزيادتين ، وما أثبتناه عن حسن التوسل والمثل السائر .

الآستعارة أن التشـبيهَ المضمر الأداةِ يحسن إظهار أداة التشبيه فيـه ، والآستعارة لايحسن ذلك فيها . والآستعارة أخصّ من المجاز إذ قصد المبالغة شرطٌ فى الآستعارة دون المجاز ، وأيضا فكلّ آستعارة من البديع وليس كلّ مجاز منه . والحقّ أن المعنى يعار أوّلا ثم بواسطته يعار اللّفظ ؛ ولا تحسن الآستعارة إلا حيث كان التشبيه مقرّرا بينهما ظاهرا ، وإلا فلا بدّ من التصريح بالتشبيه ، فلو قلت : رأيت نخلة أو خامة وأنت تريد مؤمنا إشارة إلى قول النّبى صلّى الله عليه وسلم : «مثل المؤمن كمثل النخلة»[1] أو «كمثل الخامة»[2] لكنت كالملْغز التارك لما[3] يُفهم . وكلّما زاد التشبيه خفاء زادت الآستعارة حسنا بحيث تكون ألطفَ من التصريح بالتشبيه ، فإنّك لو رمت أن تظهر التشبيه فى قول آبن المعتزّ :

أثمرت أغصان راحتِه ﴿ لجُنـاةِ الحسن عُنّـابا

آحتجت أن تقول : أثمرت أصابع راحتِه التى هى كالأغصان لطالب الحسن شِبهَ العُنّاب من أطرافها المخضوبة ، وهذا ممّا لاخفاء بغثاثته .

وربّما جُمع بين عدّة آستعارات إلحاقا للشكل بالشكل لإتمام التشبيه فتزيد الآستعارة به حُسنا ، كقول آمرئ القَيْس فى صفة اللّيل :

فقلت له لمّا تمطّى بصُلبه ﴿ وأردف أعجازا وناءَ بكَلكَل

فصل فيما تدخله الاستعارة ومالا تدخله

قال : الأعلام لا تدخلها الآستعارة لما تقدّم فى المجاز . وأما الفعل فالآستعارة تقع أوّلا فى المصدر ، ثم تقع بواسطة ذلك فى الفعل ، فإذا قلت : نطقت الحال بكذا

(١) فى رواية : (كمثل النحلة) بالحاء المهملة ، يريد نحلة العسل ، وما هنا هو المشهور .

(٢) نصه فى كتاب النهاية هكذا : "مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيئها الرياح" والخامة : الطاقة الغضة الناعمة من الزرع .

(٣) فى الأصل : «فلا» والتصويب عن حسن التوسل .

فهذا إنما يصح لأنك وجدت الحال مشابهة للنطق فى الدلالة على الشىء، فلا جرم [أنك] [1] آستعرت النطق لتلك الحالة ثم نقلته إلى الفعل. والأسماء المشتقة فى ذلك كالفعل؛ فظهر أن الآستعارة إنما تقع وقوعا أوّليا فى أسماء الأجناس . ثم الفعل إذا كان مستعارا فآستعارته إمّا من جهة فاعله ، كقوله : نطقت الحال بكذا ولعبت بى الهموم، وقول جرير :

تحيى الروامس [2] ربعها فتجدّه * بعد البلى وتميته الأمطار

وقول أبى حيّة :

وليلة مرضت من كل ناحية * فما تضىء لها شمس ولا قمر

أو من جهة مفعوله : كقول آبن المعتز :

جمع الحقّ لنا فى إمام * قتل الجوع [3] وأحيى السماحا

أو من جهة مفعوليه ، كقول الحريرى :

وأقرى المسامع إمّا نطقت * بيانا يقود الحرون الشموسا

أو من جهة أحد مفعوليه ، كقول الشاعر [4] :

نقريهم لهذميّات نقدّ بها * ما كان خاط عليهم كلّ زرّاد

أو من جهة الفاعل والمفعول ، كقوله تعالى : ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ .

(١) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ، واللغة تقتضى إثباتها .

(٢) فى الأصل : «الروامن أرضها» وهو تحريف ، والتصويب عن حسن التوسل . والروامس : الرياح التى تنقل التراب من بلد الى بلد . يريد أن الرياح تكشف التراب المغطى لآثار الربع فتظهرها و يصوب المطر عليها فيعفوها ويخفى على الناظر .

(٣) فى حسن التوسل : (الجور) والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين ، وما هنا أقرب الى قوله : السماح .

(٤) هو القطامىّ .

قال : ويتصل بهذا ترشيح الاستعارة وتجريدُها، أما ترشيحها فهو أن يَنظُر فيها إلى المستعار، ويراعىَ جانبَه، ويوليَه مايستدعيه، ويضمَّ إليه ما يقتضيه، كقول كُثيّر:

رمتنى بسهم رِيشُه الهُدب لم يُصِب * بظاهر(١) جسمى وهو فى القلب جارح

وكقول النابغة :

وصدرٍ أراح الليـلُ عازِبَ همِّـه * تضاعَف فيه الحزن من كلّ جانب

فالمستعار فى كل واحد منهما وهو الرمى والإراحة منظور اليهما فى لفظ السهم والعازب، وكما أنشد صاحب الكشّاف(٢) :

ينازعنى ردائى عند عمرو * رويدك ياأخا عمرِو بنِ بكر

لِيَ الشَطر الذى ملكت يمينى * ودونَك فاعتجر منه بشَطر

أراد بردائه سيفَه، ثم نظر إلى المستعار فى لفظ الاعتجار. وأما تجريدها فهو أن يكون المستعار له منظورا إليه، كقوله تعالى : ﴿فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ فإن الإذاقة لمّا وقعت عبارة عما يدرَك من أثر الضرر(٣) والألم تشبيها له بمـا يدرَك من الطعم المرّ البشع، واللباسَ عبارة عمـا يَغشى منهما ويلابِس فكأنه قال : فأذاقها الله ما غشيها من ألم الجوع والخوف، وكقول زهير :

لدى أسدٍ شاكى(٤) السلاح مقذَّفٍ * له لِبَــد أظفـاره لم تُقَـلَّم

فلو نظر الى المســتعار لقال : أســد دامى المخالب أو دامى البراثن، ونظر زهير فى آخر البيت الى المستعار أيضا، ومنه قول كُثيّر :

غَمْرُ الرِداءِ اذا تبسّم ضاحكا * غَلِقت لضحكته رقاب المال

---

(١) هذه الباء ساقطة من الأصل، وبها يستقيم الوزن. (٢) فى الأصل : (الكتّاب) والتصويب عن حسن التوسل. (٣) فى الأصل : (الضرورة) وما أثبتناه عن حسن التوسل. (٤) شاكى السلاح وشائكه وشاكه : حديده. والمقذف : الذى يقذف به كثيرا فى الوقائع. مبالغة فى القذف.

استعار الرداء للعروف لأنه يصون عِرض صاحبه صونَ الرداء لمـا يُلقَى عليـه ووصفَه[1] بالغمر الذى هو وصف المعروف والنوال لاوصفُ الرداء .

قال : ويقرب من ذلك الاستعارة بالكناية، وهى أن لايصرّح بذكر المستعار بل بذكر بعض لوازمه تنبيها به عليـه ، كقولهم : شجاع يفترس أقرانه، وعالم يغترف منه الناس .

وكقول أبى ذؤيب :

وإذا المنيّة أنشبت أظفارَها * ألفيتَ كلّ تميمة لاتنفع

تنبيها على أنّ الشجاع أسـد ، والمنيّة سبع ، والعالِم بحر[2]، وهذا وإن كان يشبه الاستعارة المجرّدة إلّا أنّه أغرب وأعجب، ويقرب منه قول زهير :

ومن يعصِ أطراف الزِجاج[3] فإنه * يطيع العوالى رُكِّبت كلّ لهـذم

أراد أن يقول : من لم يرض بأحكام الصلح رضَى بأحكام الحـرب ، وذلك أنهم كانوا اذا طلبوا الصلح قلبوا زِجاج الرماح وجعلوها قدّامها مكانَ الأسنّة، واذا أرادوا الحرب أشرعوا الأسنّة، وقد يسمّى هذا النوع المماثلة أيضا .

قال : وقد ينزلون الاستعارة منزلة الحقيقة ، وذلك أنهم يستعيرون الوصف المحسوس للشيء المعقول ويجعلون كأنّ تلك الصفةَ ثابتةٌ لذلك الشيء فى الحقيقة، وأنّ الاستعارة لم توجد أصلا ، مثاله آستعارتهم العلوّ لزيادة الرجل على غيره فى الفضل والقدر والسلطان ثم وضعُهم الكلام وضعَ من يذكر علوّا مكانيا[4]، كقول أبى تمّـام :

(١) فى الأصل : (ووصف) بدون هاء، وما أثبتناه عن حسن التوسل .

(٢) مقتضى ماسبق من التمثيل تقديم هذه العبارة على ماقبلها إن لوحظ الترتيب كما فى حسن التوسل .

(٣) واحده زج بالضم ، وهو حديدة تكون فى أسفل الرمح .

(٤) فى الأصل : «مكانا» وما أثبتناه عن حسن التوسل .

ويَصعَد حتى يظنَّ الحسود * بأنَّ له حاجةً فى السماء

وكقوله أيضا :

مكارم لجّت فى علو كأنّما * تحاول ثأرا[1] عند بعض الكواكب

ولذلك يستعيرون آسم شىء لشىء من نحو شمس أو بدر أو أسد ويَبلُغون الى حيث يُعتقد أنه ليس هناك آستعارة، كقول آبن العميد :

قامت تظلّلنى من الشمس * نفس أعزّ علىّ من نفسى

قامت تظلّلنى ومن عجبٍ * شمس تظللنى من الشمس

وكقول آخر :

أيا شمعا يضىء بلا آنطفاء * ويابدرا يلوح بلا مُحاق

فأنت البدر ما معنى آنتقاصى؟[2] * وأنت الشمع ما معنى آحتراقى؟[2]

[فلولا أنه أنسى نفسه أن هاهنا آستعارةً لما كان لهذا التعجب معنى، ومدار هذا النوع على التعجب][3]

وقد يجئ على عكسه، كقول الشاعر[4] :

لا تعجبوا من بِلى غلالته * قد زرّ أزرارَه على القمر .

فصل فى أقسام الاستعارة

قال : وهى على نوعين :

الأوّل أن تعتمد نفسَ التشبيه ، وهو أن يشترك شيئان فى وصف وأحدهما أنقص من الآخر ، فتعطِى النـاقصَ آسم الزائدِ مبالغـةً فى تحقّق ذلك الوصف له

---

(١) فى الأصل : «نارا» بالنون؛ وهو تحريف . (٢) فى الأصل : (انتقاص) و(احتراق) بحذف ياء المتكلم فيهما ، والمقام يقتضى اثباتها كما فى حسن التوسل . (٣) الزيادة عن حسن التوسل؛ والمقام يقتضيها . (٤) هو أبو الحسن بن طباطبا العلوى .

كقولك : رأيت أسدا وأنت تعنى رجلا شجاعا ، وعنّت لنا ظبيةٌ وأنت تريد آمرأةً .

والثانى أن تعتمد لوازمه عند ما تكون جهة الاشتراك وصفا، وإنما ثبت كماله فى المستعار منه بواسطة شىء آخر فتثبت ذلك الشىء للمستعار له مبالغة فى إثبات المشترك، كقول لبيد :

وغداةِ ريحٍ قد كشفتُ وقِرّةٍ[1] * إذ أصبحت بيد الشَّمال زمامُها

وليس هناك مشار اليه يمكن أن يُجرِىَ آسمَ اليد عليه كما جرى الأسد على الرجل لكنّه خَيّل الى نفسه أن الشمال فى تصريف الغداة على حكم طبيعة الإنسان المتصرّف فيما زمامُه ومَقادتُه بيده ، لأن تصرف الإنسان إنما يكون باليد فى أكثر الأمور فاليد كالآلة التى تَكْمُل بها القوّة على التصرف، ولما كان الغرض إثباتَ التصرف — وذلك مما لا يَكْمُل إلا عند ثبوت اليد — أثبت اليد للشّمال[2] تحقيقا للغرض، وحكم الزمام فى آستعارته للغداة حكم اليد فى آستعارتها للشّمال، وكذلك قول تأبّط شرّا :

اذا هزّه فى عظم قِرن تهلّلت * نواجذُ[3] أفواه المنايا الضواحك

لما شبّه المنايا عند هزّة السيف بالمسرور — وكمال الفرح والسرور إنما يظهر بالضحك الذى تهلّل فيه النواجذ — أثبته تحقيقا للوصف المقصود، وإلّا فليس للمنايا ما يُنقل اليه آسمُ النواجذ، وهكذا الكلام فى قول الحماسىّ :

سقاه الردى سيف إذا سُلّ أومضت * إليه ثنايا الموت من كلّ مَرقَبِ

(١) فى الأصل : «وقرة» بالواو، وهو تحريف . والقِرّة بالكسر : ما أصاب الإنسان من البرد .

(٢) هذه اللام ساقطة من الأصل ، والمقام يقتضى إثباتها .

(٣) فى الأصل : «نواجذه» والهاء زيادة من الناسخ .

ومن هذا الباب قولُهم : فلان مُرخَى العِنان ، ومُلقَى الزمام .

قال : ويسمّى هـذا النوع آستعارة تخييليّة ، وهو كإثبات الجناح للذلّ فى قوله تعالى : ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ . قال : اذا عُرِف هـذا فالنوع الأوّل على أربعة أقسام :

الأوّل — أن يستعار المحسوس للمحسوس ، وذلك إما بأن يشتركا فى الذات ٥ ويختلفا فى الصفات ، كاستعارة الطيران لغير ذى جناح فى السرعة ، فإن الطيران والعدو يشتركان فى [الحقيقة وهى](١) الحركة الكائنـة(٢) إلّا أن الطيرانَ أسرعُ . أو بأن يختلفا فى الذات ويشتركا فى صفة إما محسوسةٍ كقولهم : رأيت شمسا ويريدون إنسانا يتهلّل وجهه ، وكقوله تعالى : ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ فالمستعار منه النارُ ، والمستعار له الشيبُ ، والجامعُ الانبساطُ ، ولكنّه فى النار أقوى ؛ وإمّا غيرِ محسوسـة كقوله ١٠ تعـالى : ﴿إِذْ أَرْسَـلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ المستعار له الريحُ ، والمستعار منـه المرءُ والجامعُ المنعُ من ظهور النتيجة .

الثانى — أن يستعار شىء معقولٌ لشىء معقولٍ لاشتراكهما فى وصف عدمىّ أو ثبوتىّ وأحدهمـا أكملُ فى ذلك الوصف ، فيتنزّل النـاقص منزلة الكامل كاستعارة اسم العـدم للوجود إذا اشتركا فى عدم الفائدة ، أو استعارة آسمِ الوجود ١٥ للعدم اذا بقيت آثاره المطلوبة منه(٣) ، كتشبيه الجهل بالموت لاشتراك الموصوف بهما فى عدم الإدراك والعقل ، وكقولهم : فلان لقِيَ الموت اذا لقى الشدائد ، لاشتراكهما فى المكروهيّة ، وقوله تعالى : ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ والسكوت والزوال أمران معقولان .

---

(١) التكلة عن حسن التوسل . (٢) كذا فى الأصـل . وفى حسن التوسل : (المكانية) ٢٠ ولعلها أظهر . (٣) فى الأصل : (الوصف) والسياق يقتضى ما أثبتنا كما فى حسن التوسل .

الثالث — أن يستعار المحسوسُ للمعقولِ كاستعارة النور الذى هو محسوس للحجّة ، واستعارةِ القِسطاسِ للعدلِ ، وكقوله تعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ ﴾ فالقذف والدمغ مستعاران ، وقولُه تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ استعارةٌ لبيانه عما أوحى اليه كظهور ما فى الزجاجة عند انصداعها ، وكلُّ خوضٍ فى القرآن العزيز فهو مستعار من الخوض فى الماء ، وقولُه تعالى : ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ جعل لها طاعة وقولا .

الرابع — أن يستعار اسمُ المعقولِ للمحسوسِ على ما تقدّم ذكره فى التشبيه كقوله تعالى : ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ فالشهيق والغيظ مستعاران ، وقولِه تعالى : ﴿ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ والأقوال فى الاستعارة كثيرة ، وقد أوردنا فيها ما يُستدلُّ به عليها .

وأما الكناية — قال : اللفظة إذا أطلِقت وكان الغرض الأصلىّ غيرَ معناها فلا يخلو : إما أن يكون معناها مقصودا أيضا ليكون دالّا على ذلك الغرضِ الأصلىّ وإما أن لا يكون كذلك .

فالأوّل هو الكناية ، ويقال له : الإرداف أيضا .

والثانى المجاز .

فالكناية عند علماء البيان أن يريد المتكلّم إثباتَ معنى من المعانى لا يذكره باللفظ الموضوع له فى اللغة ، ولكن يجىء الى معنى هو تاليه وردفُه فى الوجود فيُومى به اليه ، ويجعله دليلا عليه ، مثال ذلك قولُهم : طويل النِجادِ وكثير رَمادِ القِدرِ ، يعنون به أنه طويلُ القامةِ ، كثيرُ القِرى ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ ﴾ كنى بنفى قبول التوبة عن الموت على الكفر .

(١) فى الأصل : (تأكيد) وهو تحريف ، والتصويب عن حسن التوسل .

وقول الشاعر[١] :

بعيدة مهوى القرط إما لنوفل * أبوها و إمّا عبدُ شمسٍ وهاشمُ

أراد يذكر طُول جيدها [فأتى بتابعه وهو بُعدمهوى القرط][٢]، وكقول ليلى الأخيلية :

ومخــرّقٍ عنه القميصُ تخاله * وسطَ البيوت من الحياء سقيما

كَنَتْ عن جــوده بخَرق القميص من جذب العُفاة له عند آزدحامهم لأخذ العطاء، وأمثالِ ذلك . قال :

والكناية تكون فى المثبتِ كما ذكرنا ، وقد تكون فى الإثبات وهى ما إذا حاولوا إثبات معنى من المعانى لشىء فيتركون التصريح بإثباته له ، ويثبتونه لمــا له به تعلُّق، كقولهم : المجدُ بين ثوبيه، والكرم بين برديه، وقولِ الشاعر[٣] :

إن المــروءةَ والسماحةَ والندى * فى قُبّةٍ ضُربت على آبن الحَشْرَجِ .

قال : وآعلم أن الكناية ليست من المجــاز لأنك تعتبر فى ألفاظ الكناية معانيها[٤] الأصليةَ، وتفيد بمعناها معنى ثانيا هو المقصود، فتريد بقولك : كثيرُ الرماد حقيقتــه[٥] وتجعل ذلك دليلا على كونه جوادا، فالكناية ذكر الرديف و إرادةُ المردوف .

وأما التعريض — فهو تضمين الكلام دِلالةً ليس لها ذكر، كقولك : ما أقبحَ البخلَ! لمن تُعرِّض ببخله، وكقولِ محمد بنِ عبد الله ابنِ الحسن: لم يُعرِق فى أمّهات الأولاد، يعرّض بالمنصور بأنه آبن أمةٍ، وأمثالِ ذلك .

وأما التمثيل — فإنمــا يكون من باب المجاز اذا جاء على حدّ الآستعارة ، مثاله قولك للتحيّر[٦] : فلان يقــدّم رِجلا و يؤخّر أخرى، فلو قلت : إنه فى تحيّره كمن يتمدّم

(١) هو عمر بن عبدالله بن أبى ربيعة المخزومى . (٢) التكملة التى بين مربعين عن حسن التوسل .
(٣) هو زياد الأعجم . والبيت من قصيدة قالها فى عبد الله بن الحشرج وكان قد وفد عليه وهو أمير على نيسابور . (٤) فى الأصل : «معناها» والسياق يقتضى ما أثبتناه . (٥) فى الأصل : «حقيقة» بدون هاء وما أثبتناه عن حسن التوسل . (٦) فى الأصل : «قول المخبر» وفيه نقص وتحريف ، والتصويب عن حسن التوسل .

رجلا و يؤخر أخرى لم يكن من باب المجاز، وكذلك قولك لمن أخذ فى عمل لا يتحصّل منه مقصودٌ : أراك تنفخ فى غير ضَرَم، وتخُطّ على المـاء .

قال : وأجمعوا على أنّ للكناية مزيّةً على التصريح لأنك اذا أثبتّ كثرة القِرى بإثبات شاهدِها ودليلِها فهو كالدعوى التى [معها](١) شاهد ودليـل، وذلك أبلغ من إثباتها بنفسها .

٭٭٭

وأما الخبر وأحكامه — فقد قال : الخبر هو القول المقتضِى تصريحُهُ نسبةَ معلوم الى معلوم بالنفى أو الإثبات . وتسمية أحد جزئيه بالخبر مجازيّة . ثم المقصود من الخبر إن كان هو الإثبات المطلق فيكون بالاسم، كقوله تعالى : ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ وإن لم يتمّ ذلك إلا بإشعار زمانه فيكون بالفعل، كقوله تعالى : ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فإن المقصود لا يتمّ بكونه معطيا للرزق [بل بكونه معطيا للرزق](٢) فى كل حين وأوان، والإخبار بالفعل أخصّ من الإخبـار بالاسم ، وإذا أنعمت النظر وجدت الاسم موضوعا على أن تثبت به المعنى للشيء من غير إشعارٍ بتجدّدِهِ شيئا فشيئا ، بل جعلِ الانطلاق أو البسط مثلا صفة ثابتة ثبوتَ(٣) الطول أو القصر فى قولك : زيد طويل أو قصير، بخلاف ما إذا أخبرت بالفعل فإنه يشعِر بالتجدّد وأنه يقع جزءا بجزءا، وإذا أردت شاهدا على ذلك فتأمّل هذا البيت :

لا يألَفُ الدرهم المضروب صُرَّتَنا * إلا(٤) يمـرّ(٥) عليها وهو منطلق

(١) الزيادة عن حسن التوسل، وصحة العبارة تقتضيها . (٢) الزيادة عن حسن التوسل، والمقام يقتضى إثباتها . (٣) فى الأصل : «بثبوت» والباء زيادة من الناسخ . (٤) البيت للنضر ابن جؤية بن النضر . (٥) فى تلخيص المفتاح ومعاهد التنصيص ص ٩٦ ط بولاق : «لكن» .

بجاء بالاسم، ولو أتى بالفعل لم يَحسن هـذا الحسنَ . والفعل المتعدى الى جميع مفعولاته خبر واحد، حتى اذا قلت : ضرب زيد عمرا يوم الجمعة خلف المسجد ضربا شـديدا تأديبا له كان الخبر(١) شيئا واحدا وهو إسـناد الضرب المقيَّد بهذه القيود الى زيد، فظهر من ذلك [أن](٢) قولك : جاءنى رجل مغاير لما دلّ عليه قولك : جاءنى رجل ظريف، وإنك لست فى ذلك [إلا](٣) كمن يضم معنى الى معنى . وحكم المبتدإ(٤) والخبر أيضا كذلك، فقول بشّار :

كأن مُثار النَّقع فوق رءوسنا * وأسيافَنا ليل تَهاوَى كواكبه

خبر واحد . واذا قلت : الرجل خير من المـرأة فاللام فيـه قد تكون للعموم أو للخصوص بأن ترجع الى معهود، أو لتعريف الحقيقة مع قطع النظر عن عمومها وخصوصها . واذا قلت : زيد المنطلق، أو زيد هو المنطلق أفاد انحصار المخبَرِ به فى المخبَر عنه، فان أمكن الحصر تُرِك على حقيقته، وإلّا فعلى المبالغة . واذا قلت : المنطلق زيد فهو إخبار عما عُرِف بما لم يُعرَف، فكأن المخاطَب عَرَف أن انسانا انطلق ولم يعرف صاحبه، فقلتَ : الذى تعتقد أنه منطلق زيد .

وأما الذى — فهـو(٥) للإشارة الى مفرد عنـد محاولة تعريفـه بقضية معلومة كقولك : ذهب الرجل الذى أبوه منطلق، وهو تحقيق قولهم : إنه يُستعمل لوصف المعارف بالجُمل . والتصديق والتكذيب يتوجهان الى خبر المبتدا لا إلى صفته، فاذا

---

(١) فى الأصل : (الجر) وفيه تحريف ونقص .

(٢) هذه الكلمة التى بين مربعين ساقطة من الأصل؛ والسياق يقتضيها كما فى حسن التوسل .

(٣) هذه الكلمة التى بين مربعين ساقطة من الأصل والسياق يقتضيها .

(٤) فى الأصل : (الابتداء) وما أثبتناه عن حسن التوسل .

(٥) فى الأصل : «وأما الذى هو» بدون فاء، والصواب اثباتها كما تقتضيه القواعد .

كذّبت القائل فى قوله : زيد بنُ عَمرٍو كريم، فالتكذيب لم يتوجه الى كونه ٱبنَ عَمرٍو بل الى كونه كريما .

وأما التقديم والتأخير — قال : اذا قُــدّم الشىء على غيره فإما أن يكون فى نيّة التأخير، كما اذا قدّم الخبر على المبتدإ، وإما أن يكون فى نيــة التأخير ولكن ٱنتقل الشىء من حكم الى آخر، كما اذا جئت الى ٱسمين جاز أن يكون كلٌّ واحد منهما مبتدأً فجعلت أحدهما مبتدأ، كقولك : زيد المنطلق، والمنطلق زيد . قال الجرجانىّ : قال صاحب الكتاب : كأنهم يقــدّمون الذى بيانُه أهمّ لهم وهم بشأنه أعنَى ، وإن كانا جميعا يهمّانهم ويعنيانهم ، مثاله : أن الناس اذا تعــلق غرضهم بقتلِ خارجىّ مفسدٍ ولا يبالون مَن صَدَرَ القتل منه، وأراد مريدٌ الإخبار بذلك فإنه يقدّم ذكر الخارجىّ [فيقول](1) : قتل الخارجىَّ زيد، ولا يقول : قتل زيد الخارجىَّ لأنه يعلم أن قتل الخارجىّ هو الذى يَعنيهم ، وإن كان قد وقع قتل من رجل يبعُد فى ٱعتقاد الناس وقوعُ القتل من مثله قدّم المخبِرُ ذكرَ الفاعل فيقول : قتل زيد رجلا لٱعتقادِ الناس فى المذكورِ خلافَ ذلك . ٱنتهى كلام الجرجانىّ .

قال : ولنذكر ثلاثة مواضعَ يُعرف بها ما(2) لم يُذكر :

الأوّل الاستفهام — فإذا أدخلته على الفعل وقلت : أضربت زيدا ؟ كان الشكّ فى وجود الفعل، وإذا أدخلته على الٱسم وقلت : أأنت ضربت زيدا؟ كان الفعل محقّقا والشكّ فى تعيين الفاعل . وهكذا حكم النكرة، فإذا قلت : أجاءك رجل؟ كان المقصود : هل وُجد المجىء من رجل؟ فإذا قلت : أرجل جاءك؟ كان ذلك سؤالا عن جنس من جاء بعــد الحكم بوجود المجىء من إنسان؛ وقس عليــه

---

(1) الزيادة عن حسن التوسل، والمقام يقتضيها .

(2) فى الأصل : « بها لم تذكر» باسقاط «ما» والمقام يقتضى اثباتها كما فى حسن التوسل .

الخبر في قولك : ضربت زيدا، وزيدا ضربت، وجاءنى رجل، ورجل جاءنى؛ ثم الاستفهام قد يجيء للانكار، فإن كان [في](١) الكلام فعل ماض وأدخلت الاستفهام عليه كان لانكاره، كقوله تعالى: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾ وإن أدخلته على الاسم فإن لم يكن الفعل مترددا بينه وبين غيره كان لانكار أنه الفاعل، ويلزم منه نفيُ ذلك الفعلِ، كقوله تعـالى : ﴿آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ أى لو كان إذنٌ لكان من الله ، فلمّـا لم يوجد منه دلّ على أنـ لا إذْنَ، كما تقول : متى كان هذا، فى ليـلٍ أم(٢) نهارٍ؟ أى لو كان لكان فى ليلٍ أو نهارٍ، فلما لم يوجد فى واحد منهما لم يوجد أصلا، وعليـه قوله تعـالى : ﴿آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾. وإن كان مردّدا بينه وبين غيره كان إما للتقرير والتوبيخ، وعليـه قوله تعـالى حكاية عن قول نُمْرُودَ : ﴿أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ . وإمّا لانكار أنه الفاعلُ مع تحقيق الفعلِ، كقولك لمن انتحل شعرا : أأنت قلت هذا؟ .

وان كان الفعل مضارعا ، فإن أدخلت حرف الاستفهام عليـه كان إمّا لانكار وجودِه، كقوله تعالى :﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾. أو لانكار أنه يقدر على الفعل، كقول امرئ القيس :

أيقتـلنى والمشرفيُّ مُضاجعى * ومسنونةٌ زُرْقٌ كأنياب أغوال .

أو لإزالة طمَع من طَمِع فى أمر لا يكون ، فيُجَهِّلُهُ فى طمعه ، كقولك : أيرضى عنك فلان وأنت على مايكره؟ . أو لتعنيف من يضيّع الحق، كقول الشاعر:

أتترك(٣) إن قلّت دراهم خالد * زيارتَه إنى إذن للئـيم

(١) فى الأصل : «فان كان الكلام» والزيادة عن حسن التوسل .

(٢) فى الأصل : «أو» والصواب ما أثبتنا كما تقتضيه القواعد .

(٣) كذا فى الأصل . والذى فى حسن التوسل ودلائل الإعجاز ص ٨٧ ط المنار «أأترك» والبيت لعمارة بن عقيل بن بلال بن جرير فى خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى .

أو لتنديم الفاعل، كما تقول لمن يركب الخطَرَ : أتخرج فى هذا الوقت ؟ .

وإن أدخلتَه على الاسم فهو لإنكار صدور الفعل من ذلك الفاعلِ إما للاستحقار كقولك : أأنت تمنعنى ؟ . أو للتعظيم كقولك : أهو يسأل النـاسَ؟ . أو للمبالغة إما فى كرمه، كقولك : أهو يمنع سائلَه ؟ ؛ وإما فى خساسته، كقولك : أهو يسمح بمثل هذا؟ . وقد يكون لبيان ٱستحالة فعلٍ ظُنَّ ممكنا، كقوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ وكذلك إذا أدخلته على المفعول ، كقوله تعالى : ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ و﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾ و﴿أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ﴾ .

الثانى فى التقديم والتأخير فى النفى — إذا أدخلتَ النفىَ على الفعلِ فقلتَ: ما ضربتُ زيدا فقـد نفَيت عن نفسِك ضربا واقعا بزيدٍ ، وهـذا لا يقتضِى كونَ زيدٍ مضروبا .

وإذا أدخلتَـه على الاسم فقلتَ : ما أنا ضربتُ زيدا ٱقتضى من باب دليـل الخطاب كونَ زيدٍ مضروبا، وعليه قول المتنبى :

وما أنا وحدى قلت ذا الشعرَ كلَّه * ولكن لشِعرى فيك من نفسه شِعرُ

ولهذا يصح أن تقولَ : ما ضربتُ إلا زيدا، وما ضربتُ زيدا ولا ضربه أحد من الناس، ولا يصح أن تقولَ: ما أنا ضربت إلا زيدا ، وما أناضربت زيدا ولا ضربه أحد من الناس .

أما الأوّل فلأنّ نقضَ النفى بإلّا يقتضى أن تكون ضربته، [وتقديمك ضميرَك (١) وإيلاءه حرفَ النفى يقتضى ألّا تكون ضربته] (٢) فيتدافعان .

---

(١) التكملة عن حسن التوسل . والمقام يقتضيها . (٢) فى حسن التوسل : «أن تكون» بحذف لا النافية ، والسياق يقتضى اثباتها كما يستفاد من دلائل الإعجاز ص ٩٣ ط مطبعة المنار .

(٣٥) وأما الثانى فلأن أولَ الكلام يقتضى أن يكون زيدٌ مضروبا ، وآخره يقتضى ألا يكونَ مضروبا فيتناقضان . إذا عُرِف هذا فى جانب الفاعل فإنه مثلُه فى جانب المفعول، فإذا قلتَ : ما ضربتُ زيدا لم يقتضِ أن تكون ضاربا لغيره، وإذا قلتَ : ما زيدا ضربتُ اقتضى ذلك، ولهـذا صحّ ما ضربتُ زيدا ولا أحدا من الناس ولا يصح [ما][1] زيدا ضربتُ ولا أحدا من الناس . ٥

وحكمُ الجـار والمجرور حكمُ المفعول، فإذا قلتَ : ما أمرتُك بهذا لم يقتض أن تكون قد أمرته بشيء غيرِ هذا، وإذا قلت : ما بهذا أمرتك اقتضاه .

وإذا قدّمتَ صيغةَ العموم على السلب وقلتَ : كلُّ ذا لم أفعلْه، برفع كلّ كان نفيا عامّا، ويناقضه الإثباتُ الخاصُّ، فلو فعلتَ بعضَه كنتَ كاذبا .

١٠ وإن قدّمتَ السلب وقلتَ : لم أفعـل كلَّ ذا كان نفيا للعموم ولا ينافى الإثباتَ الخاصَّ، فلو فعلت بعضه لم تكن كاذبا، ومن هذا ظهر الفرق بين رفع كلّ ونصبِه فى قول أبى النجْم :

قد أصبحت أمُّ الخيار تدّعى * علىّ ذنبـا كلُّه لم أصنع

فإن رفعتَه كان النفى عامّا، واستقام غرضُ الشاعر فى تبرئة نفسـه من جملة الذنوب، وإن نصبتَه كان النفى نفيا للعموم، وهو لا ينـافى إتيانَ بعضِ الذنب فلا يتم غرضه . ١٥

الثالث فى التقـديم والتأخير فى الخبر المثبَت — ما تقدّم فى الاستفهام والنفى قائم هنا، فإذا قدّمتَ الاسم وقلتَ : زيد فعل وأنا فعلت فالقصد الى الفاعل، إما لتخصيص ذلك الفعل به، كقولك : أنا شفعت فى شأنه مدّعيا الانفرادَ بذلك

(١) الكلمة التى بين مربعين ساقطة من الأصل ؛ وصحة التمثيل تقتضى اثباتها كما فى حسن التوسل . ٢٠

أو لتأكيد إثباتِ الفعل له لا للحصر، كقولك : هو يعطى الجزيل، لتمكُّن فى نفس السامع أن ذلك دأبُه دون نفيه عن غيره ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ فإنه ليس المراد تخصيصَ المخلوقية بهم، وقولُه تعالى : ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾

٥ وكقول دُرْنَى بنتِ عبعبةَ[1] :

هما يَلبَسان المجدَ أحسنَ لِبسةٍ * شحيحان ما ٱسطاعا عليه كلاهما

وقولِ الآخر :

همُوا يفرِشون اللِّبدَ كلَّ طِمِرَّةٍ[2] * وأجردَ سبّاحٍ يبُذُّ[3] المُغَالبا

قال : والسبب فى هذا التأكيد أنك إذا قلت مثلا : زيد، فقد أشعرتَ بأنك

١٠ تريد الحديثَ عنه فيحصل للسامع تشوّق إلى معرفته ، فإذا ذكرتَه قبِلتْه النفس [قبول العاشق معشوقه][4] فيكون ذلك أبلغَ فى التحقيق ونفيِ الشكّ والشبهة ، ولهذا تقول لمن تَعِدُه : أنا أُعطيك أنا أَكفيك، أنا أَقُوم بهذا الأمر، وذلك إذا كان من شأن من يَسبِقُ له وعدٌ أن يعترضَه الشك فى وفائه ، ولذلك يقال فى المدح : أنت تعطِى الجزيل ، أنت تجود حين لا يجود أحد ، ومن هاهنا تعرف الفخامة

١٥ فى الجمل التى فيها ضميرُ الشأن والقصّةِ كقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَارُ وَلَٰكِنْ تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ وقولِه تعالى : ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَافِرُونَ﴾ وأن فيها ما ليس فى قولك : فإن الأبصار لا تَعمَى ، وإن الكافرين لا يفلحون ؛ وهكذا

---

(١) فى الأصل وفى حسن التوسل : «عثعثة» بثاءين مثلثتين؛ وهو تحريف ، والتصويب عن القاموس . (٢) هى الطويلة القوائم الخفيفة من الأفراس . (٣) فى الأصل : «يبد المعاليا»

٢٠ وفى حسن التوسل : « يسد المعاليا » وهو تحريف فى كليهما ، والتصويب عن دلائل الإعجاز ص ٩٥ ط المنار . ويبذ بالذال المعجمة : يغلب . (٤) التكملة التى بين مربعين ساقطة من الأصل ، وقد نقلناها عن حسن التوسل اذ بها يتم التعليل ، فإن مجرد قبول النفس لا يكفى فى تعليل هذا التأكيد.

فى الخبر المنفىّ، فإذا قلتَ : أنت لا تُحسِنُ هـذا ، كان أبلغَ من قولك لا تُحسِن هذا، فالأوّل لمن هو أشدّ إعجابا بنفسه وأكثر دعوى بأنه يُحسن .

قال : واعلم أنه قد يكون تقديمُ الاسم كاللازم نحوُ قوله :

يا عاذلى دعنِىَ من عذلكا * مثلى لا يقبَـل من مثلكا

وقولِ المتنبى :

مِثلُك يَثنى الحُزنَ عن صَوبه * ويستردّ الدمعَ عن غَرْبه

وقولِ الناس[1] : مِثلُك يرعى الحق والحرمة، وما أشبه ذلك ممـا لا يُقصَد فيـه إلى إنسان سوى الذى أُضيف اليه وجىء به للبالغة ، وقد عبّر المتنبى عن هذا المعنى فقـال :

ولم أقل مِثلُك أعنِى به * سواك يا فردًا بلا مُشبِه

وكذلك حكم « غير » اذا سُلك فيه هذا المسلك، كقول المتنبى :

غيرى بأكثرِ هـذا الناسِ ينخدع * إن قاتلوا جَبُنوا أو حَدّثوا شَجُعوا

أى لستُ ممن ينخدع ويغترّ، ولو لم يقدّم[2] مثلا وغيرا فى هـذه الصور لم يؤدِّ هذا المعنى .

قال : ويقرب من هذا المعنى تقديمُ بعض المفعولات على بعض فى نحو قوله تعالى : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ فإن تقـديمَ شركاءَ على الجن أفاد أنه ما ينبغى لله شركاءُ لا من الجنّ ولا من غيرهم ، لأن شركاءَ مفعولٌ ثان لجعـلوا، ولله متعلّق به والجنّ مفعوله الأوّل، فقد جعل الإنكار على جعل الشريك لله على الإطلاق من غير اختصاص بشىء دون شىء، لأن الصفة إذا ذكرت مجرّدة عن مَجراها على شىء كان

(١) فى الأصل : «الناى» . وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : «يقل» . وهو تحريف صوابه ما اثبتنا كما فى حسن التوسل .

الذى تعلق بها من المنفىّ[1] عاما فى كل ما يجوز أن تكون له تلك الصفةُ ، فإذا قلتَ : ما فى الدار كريم ، كنتَ نفيتَ الكينونةَ فى الدار عن كل شىء يكون الكرم صفةً له ، وحكم الإنكار[2] أبدا حكم النفى ، فأما إذا أخرتَ شركاءَ فقلت : وجعلوا الجنَّ شركاءَ [لله فيكونُ جَعْـلُ الشركاء مخصوصا غيرَ مطلق فيحتمل أن يكون المقصودَ بالإنكار[3] جعلُ الجنّ شركاء] لا جعلُ غيرهم ، تعالى الله عن ذلك علوّا كبيرا ، فقدّم شركاء نفيا لهذا الآحتمال .

فصل فى مواضع التقديم والتأخير

قال : أما التقديم فيحسن فى مواضعَ :

الأول : أن تكون الحاجة إلى ذكره أشدَّ ، كقولك : قطع اللِّصَّ الأميرُ .

الثانى : أن يكون ذلك أليقَ بما قبله من الكلام أو بما بعده ، كقوله تعالى: ﴿وتَغْشَى وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ فإنه أشكَلُ بما بعده وهو قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ وبما قبله وهو : ﴿مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ .

الثالث : أن يكون من الحروف التى لها صـدر الكلام ، كحروف الآستفهام والنفى ، فإنّ الآستفهامَ طلبُ فهم الشىء ، وهو حالة إضافية فلا تستقلُّ بالمفهوميـة فيشتدّ اتصاله بما بعده .

الرابع : تقديم الكلىّ على جزئياته ، فإن الشىء كلما كان أكثرَ عموما كان أعرفَ فإن الوجود لما كان أعمَّ[4] الأمور كان أعرفَها عند العقل .

الخامس : تقديم الدليل على المدلول .

(١) فى حسن التوسل : «من النفى» ، وهو أظهر .
(٢) فى الأصل : «الاكثار» ؛ وهو تحريف .
(٣) التكملة عن حسن التوسل ؛ ولا يستقيم المعنى بدونها .
(٤) فى الأصل : «كلما أعم» ؛ وهو غير مستقيم ، والتصويب عن حسن التوسل .

وأما التأخير فيحسُن (١) فى مواضعَ :

الأوّل : تمـام الأسم كالصلة والمضاف اليه .

الثـانى : توابع الأسماء .

الثالث : الفاعل .

الرابع : المضمَر، وهو أن يكون متأخرا لفظا وتقديرا، كقولك : ضرب زيدٌ غلامَه ٥
أو مؤخّرا فى اللفظ مقدَّما فى المعنى كقوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ ﴾ أو بالعكس
كقولك : ضرب غلامَه زيد ؛ وإن تقدّم لفظا ومعنى لم يجز كقولك : ضرب
غلامُه زيدا .

الخامس : ما يُفضِى إلى اللَّبس، كقولك : ضرب موسى عيسى، أو أكرم هذا
هذا، فيجب فيه تقديم الفاعل . ١٠

السادس : العامل الذى هو ضعيف عملُه، كالصفة المشبّهة والتميز وماعمل فيه
حرف أو معنى، كقولك : هو حسنٌ وجها، وكريم أبا، وتصبب عَرَقا، وخمسة وعشرون
درهما، وإن زيدا قائم، وفى الدار سعد جالسا . ولا يجوز الفصل بين العامل
والمعمول بما ليس منه، فلا تقول : كانت (٢) زيدا الحمّى تأخذ إذا رفعتَ الحمّى بكانت
للفصل بين العامل وما عَمِل فيه، فإن أضمرت الحمّى فى كانت صحت المسألة . ١٥

وأما الفصل والوصل — فهو العلم بمواضع العطف والآستئناف، والتهدّى
إلى كيفيّة إيقاع حروف العطف فى مواقعها، وهو من أعظم أركان البلاغة، حتى إن

(١) أراد بالحسن هنا ما يعم الوجوب .

(٢) فى الأصل : «فكانت» ؛ بالفاء وهو تحريف .

بعضهم حدّ البلاغةَ بأنها معرفة الفصل والوصل . وقال عبد القاهر : إنه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد إلا كمل لسائر معانى البلاغة .

قال : اعلم أن فائدة [العطف](١) التشريكُ بين المعطوف والمعطوف عليه، ثم من الحروف العاطفة مالا يفيد إلا هذا القدْرَ(٢) وهو الواو، ومنها ما يفيد فائدة زائدة كالفاء وثمّ وأو، وغرضنا ها هنا متعلق بما لا يفيد إلا الاشتراك فنقول : العطف إما أن يكون فى المفردات، وهو يقتضى التشريكَ فى الإعراب، وإما أن يكون فى الجمل، وتلك الجملة إن كانت فى قوّة المفرد كقولك : مررت برجل خَلْقه حَسَنٌ وخُلُقه قبيح، فقد أشركتَ بينهما فى الإعراب [والمعنى](٣) لاشتراكهما فى كون كل واحد منهما تقييدا للموصوف، ولا يُتصور أن يكون اشتراك بين شيئين حتى يكون هناك معنى يقع ذلك الاشتراكُ فيه، وحتى يكونا كالنظيرين والشريكين، وبحيث إذا عرف السامع حالَه الأوّلَ عساه يعرف حاله الثانىَ، يدلك على ذلك أنك اذا عطفت على الأول شيئا ليس منه بسبب ولا هو مما يُذكَر بذكره لم يستقم، فلو قلتَ : خرجت اليوم من دارى، وأحسنَ الذى [يقول](٤) بيتَ كذا قلتَ ما يُضحَك منه، ومن هاهنا عابوا على أبى تمّـام قوله :

لا والذى هو عالم أن النوى * صَبِرٌ وأن أبا الحسين كريم .

وإن لم تكن فى قوّة المفرد فهى على قسمين :

الأوّل أن يكون معنى إحدى الجملتين لذاته متعلقا بمعنى الأخرى(٥) كما إذا كانت كالتوكيد لها أو كالصفة، فلا يجوز إدخال العاطف عليه، لأنّ التوكيد والصفة

---

(١) الكلمة التى بين مربعين عن حسن التوسل، واستقامة الكلام تقتضى اثباتها .
(٢) فى الأصل : «ما لا يفيد» وهو غير مستقيم، والصواب حذف اللام كما فى حسن التوسل .
(٣) الزيادة عن حسن التوسل، والمقام يقتضيها . (٤) الزيادة عن حسن التوسل، وصحة التمثيل تقتضيها . (٥) فى الأصل : «الآخر» وصوابه ما أثبتنا .

متعلقان بالمؤكَّد والموصوف لذاتهما، والتعلق الذاتىّ يغنى عن لفظ يدل على التعلق، فمثال التوكيد قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ فلا ريب فيه توكيد لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ كأنه قال: هو ذلك الكتاب، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ تأكيد ثان أبلغ من الأوّل، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ ولم يقل: ويخادعون، لأن المخادعة ليست شيئا غيرَ قولهم: آمنّا مع أنهم غيرُ مؤمنين، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ ولم يقل تعالى: وكأن، وأمثال [ذلك] فى القرآن العزيز كثيرة.

القسم الثانى ألا يكون بين الجملتين تعلق ذاتىّ، فإن لم يكن بينهما مناسَبة فيجب ترك العاطف أيضا، لأن العطف للتشريك ولا تشريكَ، ومن ها هنا أيضا عابوا على أبى تمّام البيتَ المتقدِّمَ، لا والذى هو عالم... ، إذ لا مناسبة بين مرارة النوى وبين كرم أبى الحسين، ولذلك لم يحسُن جوازُ العاطف.

وإن كان بينهما مناسَبة فيجب ذكر العاطف.

ثم إن كان المحدَّث عنه فى الجملتين شيئين فالمناسَبة بينهما إما أن تكون بالذى أخبر بهما، أو بالذى أخبر عنهما، أو بهما كليهما، وهذا الأخير هو المعتبرَ فى العطف. قال: ونعنى بالمناسَبة أن يكونا متشابهين، كقولك: زيد كاتب وعمرو [شاعر](١) [أو متضادّين تضادّا على الخصوص، كقولك زيد طويل وعمرو](٢) قصير، وكقولك: العلم حسن والجهل قبيح، فلو قلت: زيد طويل والخليفة قصير لا ختل معنى عند

(١) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ومن حسن التوسل، وتمام التمثيل يقتضى إثباتها.

(٢) هذه التكملة التى بين مربعين ساقطة من الأصل؛ والسياق يقتضيها كما فى حسن التوسل.

ما لا يكون لزيد تعلق بحديث الخليفة، ولو قلتَ : زيد طويل وعمرو شاعر لاَختل لفظا، إذ لا مناسَبة بين الطويل القامة والشاعر .

وإن كان المحدَّث عنه فى الجملتين شيئا واحدا، كقولك : فلان يقول ويفعل ويضرّ وينفع، ويأمر وينهى، ويسيء ويحسن، فيجب إدخال العاطف فإن الغرض جعلُه فاعلا لأمرين، فلو قلتَ : يقول يفعل بلا عاطف لتُوهِّم أن الثانىَ رجوع عن الأوّل .

وإذا أفاد العاطف الاجتماعَ آزداد الاشتراكُ[1]، كقولك : العجَب من أنك أحسنت وأسأت، والعجَب من أنك تنهىَ عن شيء وتأتى مثله، وكقوله :

لا تَطمَعوا أن تُهينونا ونكرمَكم * وأن نكفَّ الأذى عنكم وتؤذونا

فإن المعنى جعلُ الفعلين فى حُكم واحد، أى لا تطمَعوا أن ترَوا إكرامنا إيّاكم يُوجَد مع إهانتكم إيّانا .

قال : وقد يجب إسقاط العاطف فى بعض المواضع لاختلال المعنى عند إثباته كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ فقوله تعالى : ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ كلام مستأنَف، وهو إخبار من الله تعالى، فلو أَتَى بالواو لكان إخبارا عن اليهود بأنهم وصفوا أنفسَهم بأنهم يُفسِدون فيختل المعنى، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ ٱلسُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَاءُ﴾ وأمثالُ ذلك كثيرة، وإذا كان كذلك فلا حاجة الى العاطف بخلاف قوله تعالى : ﴿يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ فإن كل واحدةٍ من الجملتين خبرٌ من الله تعالى .

(١) فى الأصل : «اشتباك» وهو تحريف .

قال : ومما يجب ذكره هاهنا الجملةُ اذا وقعت حالا فإنها تجىء مع الواو تارة وبدونها أخرى فنقول: الجملة اذا وقعت حالا فلا بدّ أن تكون خبريّة تحتمل الصدقَ والكذبَ، وهو على قسمين (١) :

الأوّل وله أحوال :

الأولى : أن يُجمع لها بين الواو وضمير صاحب الحال، كقولك : جاء زيد ويدُه على غلامه، ولقيتُ زيدا وفرسُه سابقُه، وهذه الواوُ تسمّى واوَ الحال .

الثانية : أن تجىء بالضمير من غير واو، كقولك : كلمتُه فوه الى فىّ، وهو فى معنًى مُشَافِها ، والرابط الضمير ، فلو قلتَ : كلمتُه الى فىّ فوه، ولقيتُه عليه جبةٌ وشْيٍ لم يكن من باب وقوع الجملة حالا ، لأنه يمكننا أن نرفع فُوهُ وجبّةٌ بالجارّ والمجرور فيرجع الكلام الى وقوع المفرد حالا، والتقدير كلّمتُه كائنا الى فىّ فوه، ولقيتُه مستقرّةً عليه جبّة وشيٍ، وعليه قول بشّار :

اذا أنكرتنى بلدة أو نكرتُها * غدوت مع البازى علىّ سوادُ

الثالثة : أن تجىء الواو من غير ضمير وهو كثير، كقولك : لقيتُك والجيشُ قادم وزرتَنا والشتاءُ خارج. ويجوز أن يُجمع بين حالين مفردٍ وجملةٍ اذا أجزنا وقوع حالين كقولك : لقيتُك راكبا والجيشُ قادم، فالجملة حال من التاء أو من الكاف، والعامل فيها لقيتُ، أو من ضمير "راكبا" و"راكبا" هو العامل فيها .

القسم الثانى الجملة الفعليـة ، ولا بدّ أن تكون ماضيـا أو مضارعا أما المـاضى فلابدّ معه من الإتيان بالواو وقد أو بأحدهما، كقولك : تكلمت وقد

(١) كذا فى الأصل وحسن التوسل بتذكير الضمير . وهو عائد على الحال لا على الجملة؛ والحال يذكر ويؤنث . أنظر المصباح مادة «حال» .

عجلت، وجاء زيد قد ضرب عمرا، وجئت وأسرعت فى المجىء، قال الله تعالى : ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ ولم يُجز البصريّون خلوّه عنهما، وقالوا فى قوله تعالى : ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ وفى قول أبى صخر الهُذَلىّ :

وإنى لتعرونى لذكراكِ هِزّة ✽ كما انتفض العصفور بلّله القَطر :

إنّ قد مقدَّرةٌ فيهما، فإنّ الشيء اذا عُرِف موضعُه جاز حذفه .

وأما المضارع فإن كان موجَبا فلا يؤتَى معه بالواو[(1)] ، فتقول : جاءنى زيد يضحك ، ويجىء عمرو يسرع ، واجلس تحدّثُنا بالرفع أى محدِّثا لنا ، لأنه بتجرّده عما يغير معناه أشبهَ اسمَ الفاعل اذا وقع حالا .

وإن كان منفيا جاز حذف الواو مراعاةً لأصل الفعل الذى هو الإيجابُ وجاز إثباتها، لأن الفعلَ ليس هو الحالُ ، فإن معنى قولك : جلس زيد ولم يتكلّم جلس زيد غيرَ متكلّم ، بجرى مجرى الجملة الإسمية ، فالحذف كقولك : جاء زيد ما يقُوهُ ببنت شَفة، قال الله تعالى : ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ فقوله : لا يمسّنا فى موضع نصبٍ على الحال من ضمير المرفوع فى أحلّنا، والإثبات كقولك : جلس زيد ولم يتكلّم، قال الله تعالى : ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾. قال: وشبهوا به الفعلَ الماضىَ فقالوا : جاء زيد ما ضرب عمرا، وجاء زيد وما ضرب عمرا .

وأما الحذف والإضمار — فقد قال: الأفعالُ المتعدّيةُ التى تُرِك ذكر مفعولاتها على قسمين :

الأوّل: ألا يكونَ له مفعول معيّن، فقد يُترك مفعولُه لفظا وتقديرا ويُجعل حاله كحال غير المتعدّى، كقولهم : فلان يَحُلّ ويَعْقِد ، ويأمر وينَهى ، ويضرّ وينفع

(١) فى الأصل : «إلا بالواو» وقوله : «إلا» زيادة من الناسخ، إذ هي تفيد خلاف المراد .

والمقصود إثباتُ المعنى فى نفســه للشىء من غير التعرّض لحديث المفعول، فكأنك قلت : بحيث يكون منه حَلّ وعَقد وأمر ونهى ونفع وضرّ، وعليه قوله تعالى : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى هل يستوى من له علم ومن لا علم له من غير أن ينص على معلوم، وكذلك قوله تعالى : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ الى قوله : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى﴾ وبالجملة فمتى كان الغرض بيانَ حال الفاعل فقط فلا تُعدِّ الفعلَ، فإنّ تعديتَه تنقُض الغرض . ألا ترى أنك اذا قلت : فلان يُعطِى الدنانيرَ كان المقصود بيانَ جنس ما يتناوله الإعطاءُ لا بيانَ حالِ كونه معطيا ؟ .

الثانى : أن يكون له مفعول معلوم إلا أنه يُحذَف فى اللفظ لأغراض :

الأوّل : أن يكون المراد بيانَ حالِ الفاعلِ وأنّ ذلك الحالَ[1] دأبه لا بيانَ المفعول كقول طُفَيــل :

جزى الله عنا جعفرا حين أُزْلِقَتْ * بنــا نعلُنا فى الواطئين فَزَلَّتِ
أبَوا أنْ يَمَلُّونا ولو أنّ أمنا * تُلاقِى الّذى لاقَوْه منّـا لَمَلَّتِ
هُمُ خلطــونا بالنفوس[2] وألجؤا * الى حُجُرات أدفأت وأظلّت

والأصل أن تقول : لَمَلّتنا وألجؤونا وأدفأتنا وأظلّتنا، فحذَف المفعولَ المعيّن من هذه المواضع الأربعة، وكأنه[3] قد أبهم ولم يَقصِد قصدَ شىء يقع عليه، كما تقول : قد ملّ فلان، تريد قد دخل عليــه المَلاَلُ من غير أن تخصّ شيئا بل لا تريد على أن تجعل

(١) فى حسن التوسل : «الفعل» والمعنى يستقيم على كليهما .

(٢) فى الاصل : «من النقوش» بقاف مثناة وشين معجمة، وهو تحريف، والتصويب عن دلائل الإعجاز وغيره من كتب البلاغة والأدب .

(٣) كذا فى الأصل وحسن التوســل . وعبارة دلائل الإعجاز ص ١١٥ ط المنار : «وكأن الفعل قد أبهم أمره ولم يقصد به قصد شىء يقع عليه» وهى أظهر .

الْمَلَال من صفته، فلذلك الشاعرُ جعل هذه الأوصافَ من دأبهم، ولو أضاف الى مفعول معيّن لبطَل هذا الغرض، وعليه قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ الى قوله تعالى : ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ فقد حذف المفعول فى أربعة مواضعَ، فإن ذكره ربما يُخلّ بالمقصود، فلو قال تعالى مثلا : تذودان غنمَهما لَتُوُهِّمَ أنّ الإنكارَ إنما جاء من ذَوْدِهما الْغَنَمَ لا من مطلق الذَّوْد، كقولك : مالك تمنع أخاك ؟ فإنّ الإنكار من منع الأخ لا من مطلق المنع .

الثانى : أن يكون المقصود ذكره إلا أنك لا تذكره إيهاما بأنك لا تقصد ذكره كقول البحترىّ :

شَجْوُ حسّاده وغيظُ عِداه * أن يَرَى مبصر ويَسمعَ واع

المعنى أن يرى مبصرٌ محاسنَه ، أو يَسمَعَ واعٍ أخبارَه، ولكنه تغافل عن ذلك إيذانا بأن فضائله يكفى فيها أن يقع عليها بصرٌ أو يَعِيهَا سمع حتى يُعلَمَ أنه المتفرّد بالفضائل، فليس لحسّاده وعِداه أشجى من عِلمٍ بأن هنا مبصرا وسامعا .

الثالث : أن يُحذَف لكونه بيّنا، كقولهم : أصغَيت اليك، أى أذنى، وأغضَيت عليك، أى جَفنى .

فصل فى حذف المبتدإ والخبر

قال : قد يحسُن حذف المبتدإ حيث يكون الغرضُ أنه قد بلغ فى استحقاق الوصف بما جُعِل وصفا له الى حيث يُعلَمُ بالضرورة أن ذلك الوصفَ ليس إلا له سواء كان فى نفسه كذلك، أم[1] بحسب دعوى الشاعر على طريق المبالغة ، فذكره

(١) فى الأصل : «أو» والصواب ما أثبتنا كما تقتضيه القواعد ؛ قال فى مغنى اللبيب ص ٤٢ ط الحلبى : إذا عطفت بعد الهمزة بأو فان كانت همزة التسوية لم يجز قياسا ، وقد أولع الفقهاء وغيرهم بأن يقولوا : سواء كان كذا أو كذا ، وهو نظير قولهم : يجب أقل الأمرين من كذا أو كذا ؛ والصواب العطف فى الأوّل بأم ... الخ .

يُبطِل هــذا الغرضَ، ولهذا قال الإمام عبدُ القاهرِ : ما من آسم يُحذفُ فى الحالة التى ينبغى أن يُحـذفَ فيها إلا وحذفُه أحسن مِن ذِكره ، فمن حذف المبتـدإ قوله تعالى : ﴿ سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا ﴾ أى هذه سورة، وقول الشاعر :

لا يُبعِـــد الله التلبُّبَ والـ * ـغارات إذ قال الخميس نَعَمْ [(١)]

أى هــذه نَعَم . قال عبدُ القاهرِ : ومن المواضع التى يَطَّرِد فيها حذف المبتدإ بالقطع والاستئناف [(٢)] أنهم يبـدءون بذكر الرجل ويقدّمون بعض أمره ، ثم يَدَعون الكلام الأوّلَ ويستأنفون كلاما [آخر] [(٣)] واذا فعلوا ذلك [(٤)] أتَوا فى أكثر الأمر بخبر من غير مبتدإ، مثال ذلك قوله :

وعلمتُ أنّى يوم ذا * ك مُنَازِلٌ كَعبا ونَهْدا

قوم إذا لبِسوا الحديـ * ـد تَنمَّروا خُلُقًا [(٥)] وقِدّا

وقال الحُطَيئة :

هُمُ حَلُّوا من الشرف المعــلَّى * ومن حَسَبِ العشيرة حيث شاءوا

بُنـاة مكـارم وأُسـاة كَلْمٍ * دماؤهمُ من الكَلَبِ [(٦)] الشفاء

وأمثلة ذلك كثيرة .

---

(١) التلبب : التحزم بالسلاح، يريد التهيؤ للحرب . (٢) كذا فى الاصل . وعبارة دلائل الإعجاز ص ١٠٦ ط المنار : «القطع والاستئناف يبدءون» الخ بسقوط الباء وقوله : «أنهم» ، والمعنى يستقيم على كلتا العبارتين . (٣) الزيادة عن دلائل الإعجاز . (٤) فى الأصل : «فى ذلك» وقوله «فى» زيادة من الناسخ . (٥) كذا فى الأصل بالخاء المعجمة . وفى دلائل الإعجاز ص ١٠٧ ط المنار : «حلقا» بالحاء المهملة، والمعنى يستقيم على كل من الروايتين، والقدّ بكسر القاف : الجلد .
(٦) الكلب بالتحريك : داء يعرض للانسان من عض الكلب الكلِب فيصيبه شبه الجنون فلا يعض أحدا إلا كلب، وتعرض له أعراض رديئة، ويمتنع من شرب الماء حتى يموت عطشا . وأراد الحطيئة بهذه العبارة وصف من يمدحهم بالشرف والسيادة، قال اللحيانى : إن الرجل الكلب يعض إنسانا فيأتون رجلا شريفا فيقطر لهم من دم أصبعه فيسقون الكلب فيبرأ .

ومن حذف الخبر قوله تعالى : ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ أى لولا أنتم مضلونا وقولُ عمرَ بنِ الخطاب رضى الله عنــه : لولا علىٌّ لهلك عمر، أى لولا علىٌّ حاضر أو مُفْتٍ .

فصــــل

الإضمـار على شريطة التفسير كقولهم : أكرمنى وأكرمت عبــدَ الله أى أكرمنى عبــدُ الله وأكرمت عبدَالله، ومما يشبه ذلك مفعول المشيئة اذا جاءت بعد لو، فإن كان مفعولها أمرا عظيما أو غريبا فالأَولى ذكرُه، كقوله :

ولو شئتُ[1] أن أبكى دَما لبكَيتُه ✽ عليه ولٰكن ساحةُ الصبر أَوسع

فإن بكاءَ الإنسان دما عجيبٌ ، وإن لم يكن كذلك فالأَولى حذفه، كقوله تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ والتقدير لو شاء الله أن يجمعهم على الهدى لجمعهم، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ و﴿مَنْ يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ .

قال : واعلم أنه قد تُترك الكناية الى التصريح لمـا فيه من زيادة الفخامة كقول البحترىّ :

قد طَلَبْنا فلم نَجد لك فى السُّو ✽ دَدِ والمجـد والمكارم مِثـلا

المعنى قد طلبنا لك مِثلا، ثم حُذف، لأن هذا المدحَ إنما يتم بنفى المِثل، فلو قال: قد طلبنا لك مِثلا فى السُّودَدِ والمجد فلم نجــده لكان قد أوقع نَفْىَ الوجود على ضمير المِثل، فلم يكن فيه من المبالغة ما اذا أوقعه على صريح المِثل، فإن الكناية لا تبلغُ مَبلغ

(١) البيت للخزيمى، وهو إسحاق بن حسان، ويكنى بأبى يعقوب، وكان من العجم، وكان مولى ابن خزيم الذى يقال لأبيه خزيم الناعم . وهــذا البيت من قصيدة يرثى بها أبا الهيذام، وهو عامر بن عمارة الخزيمىّ، وهو والد موسى بن عامر المحدّث . أنظر معاهد التنصيص ص ١١٣ و١١٦ ط بولاق.

الصريح ، ولهذا لوقلت : وبالحق أنزلناه وبه نزل، وقل هو الله أحد. وهو الصمد لا تجدُ من الفَخامة ما تجدُه فى قولِه تعالى : ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ و ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ وعلى ذلك قول الشاعر :

لا أَرى الموتَ يسبِق الموتَ شيءٌ * نَغَّصَ المــوتُ ذا الغنى والفقيرا.

وأما مباحث إنّ وإنما — فإنه قال : أما إنّ فلها فوائد : ٥

الأولى أن تربُط الجملةَ الثانيةَ بالأُولى، وبسببها يحصل التأليف بينهما حتى كأن الكلامين أُفرِغا إفراغا واحدا ، ولو أسقطْتَها كان الثـانى نائيا عن الأوّل ، كقوله تعـالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ وقوله تعـالى : ﴿أَقِمِ ٱلصَّـلَاةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ . وقوله تعالى : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ وقد تتكرر فى كلام واحد، كقوله تعالى : ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِٱلسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ . ثم متى أسقطْتَ « إنّ » من الجملة التى أدخلتها عليها ، فإن كانت الجمـلةُ الثانيةُ إنمـا تذكَر لإظهار فائدةِ ما قبلها كما فى الآياتِ المذكورة احتجتَ إلى الفـاء ، وإلا فلا ، كما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ فلو قلت : فالمتقون لم يكن كلاما، وكذلك قوله تعـالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلصَّابِئِينَ وَٱلنَّصَارَى وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾ فقوله تعـالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ فى موضع خبر إنّ، فدخول الفاء يوجب عطفَ الخبر على المبتدإ، وهو غير جائز عند أكثر النحويين .

الثانية : أنك ترى لضمير الشأن والقصة فى الجملة الشرطيّة مع «إنّ» من الحسن واللطف مالا تراه إذا هى لم تدخل عليها، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وقوله تعالى : ﴿أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ وقوله تعالى : ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

الثالثة : أنها تهيّئ النكرة وتُصلحها لأن يحدَّث عنها، كقوله[1] :

إنّ شِواءً ونَشْـوةً * وخَبَبَ[2] البازِلِ الأَمُونِ

فلولا هى لم يكن كلاما ؛ وإن كانت النكرة موصوفةً جاز حذفها ولكن دخولُها أصلحُ، كقول حسّانَ :

إنّ دهرا يَلُفُّ شملى بجُمْلٍ * لزمانٌ يَهُمُّ بالإحسانِ .

الرابعة : أنها قد تُغنِي عن الخبر، كما اذا قيل لك : الناس إِلْبٌ[3] عليكم فهل لكم أحد؟ فقلتَ : إنّ زيدا وإنّ عمرا، أى لنا، قال الأعشى[4] :

إنّ محَلًّا وإنّ مُرتحَلا * وإنّ فى السَّفْرِ إذ مضَوا مَهَلا[5] .

(١) البيت لسلمى بن ربيعة .

(٢) الخبب هو المراوحة بين اليدين والرجلين فى السير، أو هو نقل الأيامن جميعا والأياسر جميعا فيه . والأمون : الناقة الوثيقة الخلق، المأمونة العثار والإعياء، جمعه أمن ككتب .

(٣) الإلب بكسر الهمزة، وتفتح فى لغة : الجماعة .

(٤) هو الأعشى الأكبر واسمه ميمون بن قيس بن جندل بفتح الجيم .

(٥) كذا فى الأصل وحسن التوسل . والذى فى معاهد التنصيص ص ٩٢ ط بولاق : (وإن فى شعر من مضى مثلا) وكلتا الروايتين تؤدّى معنى صحيحا ؛ ورواية اللسان مادة «حلل» : «وإن فى السفر ما مضى مهلا» ، وقال فى تفسيره : أراد بالسفر الذين ماتوا فصاروا فى البرزخ ، والمهل : البقاء والانتظار .

الخامسة : قال المُبرِّد : اذا قلت عبد الله قائم ، فهو إخبار عن قيامه ، فاذا قلتَ : إنّ عبـد الله قائم ، فهو جواب عن إنكارِ مُنكِرٍ لقيامه ، سواء كان المنكر هو السائل أو الحاضرين ؛ والدليل على أنّ إنّ (١) إنما تذكر لجواب السائل أنهم ألزموها الجملةَ من المبتدإ والخبر، نحو : والله إنّ زيدا لمنطلق ، فالحاجة إنمـا تدعو الى « إنّ » اذا كان للسامع ظنّ يخالف ذلك ، ولذلك تراها تزداد حسنا اذا كان الخبر بأمر يَبعُد (٢) ، كقول أبي نواس :

عليك باليأس من الناس * إنّ غِنَى نفسك فى الياسِ .

ومن لطيف مواقعها أن يُدّعَى على المخاطَب ظنٌّ لم يظنّه ولكن [صدر] (٣) منه فعل يقتضى ذلك الظنّ ، فيقال له : حالك تقتضى أن تكون قـد ظننت ذلك ، كقول الشـاعر (٤) :

جاء شَقيقٌ عارضا رمحَه * إنّ بنى عمّك فيهم رماح

أى مجيئك هـذا مُدِلًّا بنفسك مجيءُ من يَعتقِد أنه ليس مع أحد رمحٌ غيره . وقد تجيء اذا وُجد أمر كان المتكلّم يظنّ أنه لا يُوجد ، كقولك للشيء الذى يراه المخاطَب ويسمعه : إنه كان من الأمر ما تَرى ، إنه كان منى إليه (٥) إحسان فقابلنى بالسـوء كأنك تردّ على نفسك ظنّك الذى ظننتَ ، وعليه قوله عز وجل حكايةً عن أمّ مريمَ : ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ وحكايةً عن نوح : ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ﴾ .

(١) فى الأصل : « بأن » ؛ والباء زيادة من الناسخ .

(٢) فى الأصل : « يبعد » ؛ وفى حسن التوسل : « متعد » وهو تحريف فى كليهما .

(٣) الكلمة التى بين مربعين ساقطة من الأصل ؛ واستقامة الكلام تقتضى اثباتها . انظر حسن التوسل ص ٣٩ ط الوهابية .

(٤) هو حجل بن نضلة .

(٥) كذا فى حسن التوسل ص ٣٩ ط الوهابية . والذى فى الأصل : « له » .

وأما إنما — فتارة تجيء للحصر بمعنى أنّ هذا الحكم لا يوجد فى غير المذكور وهى بمنزلة ليس إلا، كقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ وقوله : ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ وقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾ .

وتارة تجيء لبيان أن هذا الأمر ظاهر عند كلّ حدّ، سواء كان كذلك أم[1] فى زعم المتكلّم، ومنه قول الشاعر[2] :

إنما مُصْعَب شِهاب من اللّـ * ـه تجلّت عن وجهه الظّلماء

مدّعيا أنّ ذلك مما لا يُنكِره أحد من الناس . قال : وآعلم أنه يُستعمل للتخصيص ثلاثُ عبارات :

الأولى : إنما جاء زيد؛

الثانية : جاءنى زيد لا عمرو، والفرق أنّ فى الأولى يُفْهَم إيجابُ الفعل من زيد ونفيهُ عن غيره دَفعة واحدة، ومن الثانية دَفعتين، ثم إنهما كلتيهما[3] يُستعمَلان لإثبات التخصيص لا لنفى التشريك؛ وفيه نظر .

الثالثة : ما جاءنى إلا زيد، وهى بأصل الوضع تفيد نفىَ التشريك، ولهذا لا يصحّ ما زيد إلّا قائمٌ لا قاعد، لأنك بقولك : إلا قائم نَفيتَ عنه كلّ صفة تنافى القيامَ، فيندرج فيه نفىُ القعود، فاذا قلتَ بعده : لا قاعد كان تَكرارا لأن لفظةَ «لا» موضوعةٌ لأن يُنفَى بها ما أَوجب الأوّلُ لا لأن يعاد[4] بها نفىُ ما نُفِىَ أوّلا، ويصح إنما زيد قاعد لا قائم، لأن صيغةَ «إنما» بأصل وضعها تدُلّ على تخصيص الحكم بالمذكور،

(١) فى الأصل : «أو» ؛ والصواب ما أثبتنا كما تقتضيه القواعد، انظر مغنى اللبيب ص ٢٤ ط الحلبى .

(٢) هو عبد الله بن قيس الرقيات، قاله فى مصعب بن الزبير، وكان منقطعا اليه كثير المدح له .

(٣) فى الأصل : «كلاهما» بالألف، واللغة تقتضى ما أثبتنا .

(٤) فى حسن التوسل ص ٣٩ ط الوهابية : «يفاد» بالفاء الموحدة؛ والمعنى يستقيم على كلتيهما .

وأما نفى الشِّرْكة فهو لازمٌ من لوازمها، فليس له من القوة ما لما يدلّ عليه بوضعه، ولهذا يصحّ : زيد هو الجائى (١) لا عمـرو، فثبت أنّ دَلالة الأوّليْن على التخصيص أقوى، ودَلالة الثالثة على نفى التشريك [أقوى] (٢)، لكن الثالثةُ قد تقام مُقامَ الأوّليْن فى إفادة التخصيص، كما اذا ادعى واحد أنك قلتَ قولا ثم قلتَ بخلافه، فقلتَ له : ما قلتُ الآن إلا ما قلتُه قبلُ، وعليه قولُه تعالى حكايةً عن عيسى عليه السـلام : ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ ليس المعنى أنى لم أزِدْ على ما أمرتَنى به شيئا، ولكن المعنى أنّى لم أَدَعْ مما أمرتَنى به [أن] (٣) أقولَه شيئا .

قال : وحكم «غير» حكم «إلّا» فاذا قلتَ: ما جاءنى غيرُ زيد احتمل أن يكون المرادُ نفىَ أن يكون جاء معه إنسان آخر، وأن يكون المراد تخصيصَ الحكم بالمذكور لا نفيَه عما عداه .

فصـــل

(٣٢)

إذا دخل ما و إلّا على الجملة المشتملة على المنصوب كان المقصـود بالذكر ما اتصـل بإلّا (٤) متأخرا عنها، فاذا قلتَ : ما ضرب عمرا إلا زيد، فالمقصود المرفوع، واذا قلتَ : ما ضرب زيد إلا عمرا، فالمقصود المنصوب، واذا قلتَ : ما ضرب [إلا] (٥) زيد عمرا، فالاختصاص للضارب، واذا قلتَ: ما ضرب إلا زيدا عمرو، فالاختصاص للمضروب، فاذا قلتَ: لم أَكْسُ إلا زيدا جبّةً، فالمعنى تخصيصُ

(١) فى الأصل : «الجافى» وهو تحريف .

(٢) الكلمة التى بين مربعين ساقطة من الأصل، وقد نقلناها عن حسن التوسل، والمقام يقتضى إثباتها .

(٣) عبارة الأصل : «به أقوله» بسقوط لفظة «أن»؛ وما أثبتناه عن حسن التوسل من نسخته المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٧٧ أدب .

(٤) فى الأصل : «من الذكر»؛ والسياق يقتضى الباء كما أثبتنا .

(٥) الكلمة الموضوعة بين مربعين عن حسن التوسل، وصحة التمثيل تقتضيها .

زيد من بين الناس بكسوة الجبّة، وإن قلتَ : لم أَكْسُ إلا جبةً زيدا، فالمعنى تخصّص كسوةُ الجبّة من بين الناس بزيد؛ وكذلك الحكم حيث يكون بدلَ أحد المفعولين جارٌّ ومجرورٌ، كقول السيد الحِمْيَرىّ :

لو خيِّرَ المنــبرَ فُرسانُه * ما آختار إلّا منكمُ فارسا.

٥ وكذلك حكم المبتدإ والخبر والفعل والفاعل، كقولك : ما زيد إلا قائم، وما قام إلا زيد .

وأما إنما فالاختصاص فيها يقع مع المتأخر، فاذا قلتَ : إنما ضرب زيدا عمرو فالاختصاص فى الضارب، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ فالغرض بيانُ المرفوع وهو أن الخاشين هم العلماءُ، ولو قُدّم المرفوعُ لصار المقصود بيانَ المخشىّ

١٠ منه، والأوّل اتمّ، ومنه قول الفرزدق :

أنا الذائد الحامى الذِّمارَ وإنمـا * يدافِـع عن أحسابكم أنا أو مثلى

. فإن غرضه أن يحصر المدافِـعَ بأنه هو لا المدافَعَ عنه، ولو قال : إنما أنا أدافع عن أحسابكم، تَوجّه التخصيص الى المدافَع عنه؛ [وحكم المبتدا والخبر](١) اذا أدخلتَ عليهما إنمـا، فإن قدّمت الخبر فالاختصاص للمبتـدا ، وإن لم تقدّمه فللخبر، فاذا

١٥ قلتَ : إنما هذا لك فالاختصاص فى "لك"(٢) ، بدليل أنك بعده تقول : لا لغيرك، فاذا قلتَ إنما لك هذا فالآختصاص فى "هذا"، بدليل أنك بعده تقول: لا ذاك، وعليه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ وقولُه تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ﴾ فالآختصاص فى الآية الأولى للبلاغ والحساب، وفى الثانية فى الخـبر الذى هو على الذين دون المبتدإ الذى هو السبيل .

---

٢٠ (١) هذه التكملة الموضوعة بين مربعين ساقطة من الأصل ومن حسن التوسل ؛ وسياق الكلام يقتضيها .

(٢) فى الأصل : «ذلك» وهو تحريف .

وإذا وقع بعدها الفعل فالمعنى أن ذلك الفعلَ لا يصح إلا من المذكور، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾؛ ثم قد يجتمع معه حرف النفى، إما متأخرا عنه كقولك، إنما يجىء زيد لاعمرو: قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ وقال لَبِيـــد:

فإذا جوزيت قـرضا فاْجزِه * إنمـا يَجزِى الفتى ليس الجَمَل[1]

وإما مقدّما عليه[2]، كقولك: ما جاءنى زيد وإنمـا جاءنى عمرو، فها هنا لو لم تقل: إنمـا، وقلت: ما جاءنى زيد وجاءنى عمرو لكان الكلام مع من ظَنّ أنهما جاءاك جميعا، وإذا أدخلْتَها فإن الكلام مع من غلِط فى الجائى أنه زيد لا عمرو.

قال: واعلم أنّ أقوى ما تكون «إنّما» اذا كان لا يراد بالكلام الذى بعدها نفسُ معناه، ولكن التعريضُ بأمر هو مُقتضاه، فإنا نعلم أنه ليس الغرض من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أن يعلم السامعون ظاهرَمعناه، ولكن أن يذُمّ الكفّار ويقالَ لهم: إنهم من فرط العناد فى حكم من ليس بذى عقل، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾ و﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ والتقدير إنّ من لم تكن له هذه الخشيةُ، فهو كمن لم تكن له أذنٌ تَسمع وقلبٌ يَعقِل، فالإنذار معه كلا إنذار، وهذا الغرض لا يحصل دون «إنمـا» لأن من شأنها تضمينُ الكلام معنى النفى بعد الإثبات، فإذا أُسقطتْ لم يبق إلا إثبات الحكم للمذكورين، فلا يدلّ على نفيه[3] [عن] غيرهم إلا أن يُذكَر فى مَعـرِض مدح الإنسان بالتيقّظ والكرم وأمثالها، كما يقـال: كذلك يفعل العاقل، هكذا يفعل الكريم.

---

(١) عجز هذا البيت يضرب مثلا فى المكافأة، والمراد: إنمـا يجزيك من فيه إنسانية لا بهيمية.

(٢) فى الأصل: «وما تقدّم» وهو تحريف. (٣) عبارة الأصل وحسن التوسل: «نفى غيرهم» وفيها نقص لا يستقيم به المعنى. وما أثبتناه تقتضيه صحة العبارة، وما قبله يؤيده.

تنبيه — قال : كاد تقرِّب الفعل من الوقوع ، فنفيُها يَنفِي القُربَ ، فإن لم يكن في الكلام دليل على الوقوع فيفيد نفيَ الوقوع ونفيَ القرب منه ، كقوله تعالى : ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ [أى لم يرها] (١) ولم يقارب رؤيتها ، وكقول ذى الرمّة :

إذا غيّر النأىُ المحبّين لم يكَدْ (٢) * رَسيسُ الهوى من حب ميّة يبرحُ

٥ المعنى أن بَرَاح حبّها (٣) لم يقارب الكونَ فضلا عن أن يكون .

وأما النظم — فهو عبارة عن توخى معانى النحو فيما بين الكَلِم ، وذلك أن تضَعَ كلامك الوضعَ الذى يقتضيه علم النحو بأن تنظر فى كل باب إلى قوانينه والفروق التى بين معانى آختلاف صِيَغه (٤) ، وتضعَ الحروف مواضعَها وتراعىَ شرائط التقديم والتأخير، ومواضعَ الفصل والوصل، ومواضعَ حروف العطف على آختلاف ١٠ معانيها ، وتعتبرَ الإصابة فى طريق التشبيه والتمثيل .

وقد أَطبق العلماء على تعظيم شأن النظْم ، وأن لا فضل مع عدمه ولو بلغ الكلام فى غرابة معناه إلى ما بلغ ، وأنّ سببَ فساده [تركُ] (٥) العمل بقوانين النحو وآستعمالُ الشىء فى غير موضعه .

ثم قال : الجُمَلُ الكثيرة إذا نُظمت نظما واحدا فهى على قسمين :

١٥ الأوّل : أن لا يتعلّق البعض بالبعض ولا يحتاج واضعه إلى فكر وروية فى آستخراجه ، بل هو كمن عَمَد إلى اللآلئ ينظمها فى سلك ، ومثاله قول الجاحظ

---

(١) التكلة الموضوعة بين مربعين عن حسن التوسل ؛ والمقام يقتضى إثباتها .

(٢) فى الأصل : «ما» والتصويب عن حسن التوسل وغيره . ورسيس الهوى : بقيته وأثره ، أو هو الثابت الذى قد لزم مكانه ولم يبرحه .

٢٠ (٣) فى الأصل : «مقاربتها» وهو تحريف ؛ والتصويب عن حسن التوسل .

(٤) فى الأصل : «صنعته» ؛ وهو تحريف .

(٥) الكلمة الموضوعة بين مربعين عن حسن التوسل ؛ واستقامة الكلام تقتضى إثباتها .

فى مصنّفاته : جَنّبك الله الشُبهةَ، وعصمك من الحيْرةِ، وجَعل بينك وبين المعروف نَسَبا، وبين الصدق سببا، وحَبَّب اليك التثبُّت، وزَيّن فى عينك الإنصاف وأذاقك حلاوةَ التقوى، وأَشعَر قلبَك عِزّ الحقّ، وأَودَع صدرك بَردَ اليقين، وطَرد عنك ذلَّ الطمع، وعرّفك مافى الباطل من الذِّلّه، وما فى الجهل من القِلّه . وكقول النابغة للنُّعمان وتفضيله إياه على ذى فائش يزيدَ بنِ أبى جَفْنَة(١)، وكقول حسّان ابن ثابت للحارث الجَفْنىّ يفضّله على النعمان بن المنذر، وكقول ضِرارِ بنِ ضَمْرةَ لمعاوية فى وصف علىّ؛ وقد تقدّم شرح أقوالهم فى الباب الأوّل من القسم الثالث من هذا الفن فى المدح، وهو فى السِفْر الثالث فلا حاجة بنا الى إعادته . وهذا النظْم لا يستحق الفضل إلا بسلامة معناه وسلامة(٢) ألفاظه، إذ ليس فيه معنًى دقيقٌ لايُدرَك إلا بثاقب الفكر .

قال : وربما ظُنّ بالكلام أنه من هذا الجنس ولا يكون منه، كقول الشاعر:

سالت عليه شِعابُ الحىّ حين دعا * أنصارَه بوجوه كالدنانير

فإن الحسن فيه ليس مُجرّدَ الاستعارة(٣)، بل لما فى الكلام من التقديم والتأخير، ولهذا لو أزلْتَ ذلك وقلتَ : سالت شِعابُ الحىّ بوجوه كالدنانير عليه حين دعا أنصاره، فإنه يذهب بالحسن والحلاوة .

(١) كذا فى الأصل . وصوابه سلامة بن يزيد بن سلامة من ولد يعصب بن مالك، وكان النابغة منقطعا اليه قبل اتصاله بالنعمان، كما فى السفر الثالث من هذا الكتاب الذى أحال عليه . وفائش : موضع باليمن كان يحميه سلامة بن يزيد كما فى شرح القاموس . وقال ياقوت فى معجم البلدان ج ٣ ص ٨٤٩ ط المدرسة المحروسة بمدينة غتنغة : « وفائش واد فى أرض اليمن »، وبه سمى سلامة بن يزيد بن عريب بن تريم بن مرثد : ذا فائش .

(٢) فى حسن التوسل ص ١٤ ط الوهابية : « وسلاسة » بالسين المهملة، والمعنى يستقيم على كل منهما .

(٣) فى الأصل : « الكتاب » وهو تحريف .

الثـانى : أن تكون الجمل المذكورة يتعلّق بعضها ببعض ، وهنالك تَظْهَـر قوةُ الطبع ، وجَودةُ القريحة ، وٱستقامةُ الذّهن .

ثم [ليس][1] لهذا الباب قانون يُحفَظ ، فإنه يجىء على وجوه شتّى :

منهـا الإيجاز ، وهو العبارة عن الغرض بأقلّ ما يمكن من الحروف ، وهو على ضربين : إيجاز قَصر ، و إيجاز حَذف ، وقد تقدّم الكلام على ذلك وذكرُ أمثلته عند ذكر الفصاحة .

ومنها التأكيـد — وهو تَقوِيَة المعـنى وتقريرُه ، إما بإظهار البرهان ، كقول قابوس :

ياذا الذى بصُروف الدهر عيَّرنا * هل عاند الدهرُ إلا من له خَطَر

أما ترى البحر تعلو فوقه جيَف * وتَسـتقرُّ بأقصى قعـره الدّرر

وفى السماء نجـوم ما لهـا عَدد[2] * وليس يُخسَف إلا الشمس والقمر

و إما بالعزيمة ، كقوله تعالى : ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ وقوله تعالى : ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ وكقول الأَشْتَر النَّخَعىّ :

بَقَّيتُ وَفْرِى وٱنحرفتُ عن العلا * ولقيتُ أضـيافى بوجهٍ عَبوس

إن لم أَشُنّ على ٱبن حَرب غارةً * لم تَخْلُ يوما من نِهاب نفوس

يريد معاويةَ بنَ أبى سُفيانَ ، وكقول أبى نُواس .

لافرّج الله عنّى إن مَددت يدى * إليـه أسألُه مِن حبّـك الفرجا

(١) الكلمة التى بين مربعين ساقطة من الأصل ؛ واستقامة العبارة تقتضى إثباتها . انظر حسن التوسل ص ٤١ ط الوهابية .

(٢) فى الأصل و فى حسن التوسل : « غير ذى عدد » ، وهو غير مستقيم ؛ والتصويب عن الذخيرة لابن بسام المحفوظ منها بعض أجزاء مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٣٤٨ أدب .

وكقول أبى تمّـام :

حُرِمتُ مُنایَ منك إن كان ذا الذى * تقوّله الواشـــون حقًّا كما قالوا .

أو بالتكرار، كقولهم : اللهَ اللهَ، والأسدَ الأسدَ، وكقول الحادرة [1] :

أظاعنـــةٌ وما تودِّعنا هنـــدُ * وهند أتى من دونها النأىُ والبعد

وهذا فى التنزيل كثير، والعَلَم فيه سورة الرحمٰن .

وأما التجنيس — فهو يتشعّب منه شُعب كثيرة :

فمنه المستوفِى التامّ — وهو أن يجىء المتكلّم بكلمتين متفقتين لفظا، مختلفتين معنى، لا تفاوتَ فى تركيبهما، ولا اختلافَ فى حركاتهما، كقول الغَزِّىّ :

لم يَبقَ غيرُك إنسانٌ يلاذُ به * فلا بَرِحتَ لعين الدهر إنسانا

وقولِ عبدالله بن طاهر :

وإنّى للثّغر المَخُوف لكالئٌ * وللثغر يَجرى ظَلْمُه [2] لَرَشـــوف

وكقول البُسْتىّ :

سما وحمى بنى سامٍ وحامٍ * فليس كمثـــله سام وحامى

وذكر التِّبريزىّ أن التجنيس المستوفِى كقول أبى تمّام :

ما مات من كرم الزمان فإنه * يحيا لدى يحيى بن عبد الله

وقال : وإنمـا عُدّ من هذا الباب لاختــلاف المعنيين، لأن احدَهما فعــل، والآخر اسم .

(١) هو قطبة بن أوس الثعلبىّ، والحادرة لقبه .

(٢) الظلم بفتح الظاء المعجمة : ماء الأسنان وبريقها .

ومنه المختلف — ويسمّى التجنيسَ الناقصَ — وهو مِثل الأوّل فى آتفاق حروف الكلمتين إلا أنه يخالفه : إما فى هيئة الحركة، كقوله صلى الله عليه وسلم "اللهم كما حسّنت خَلْقى فحسّن خُلُقى"؛ وكقول مُعاذ رضى الله عنه : الدِّين يهدم الدَّين؛ وكقولهم : جُبَّة البُرد جُنّة البَرد؛ وكقولهم : الصديق الصدوق أوّل العَقْد

٥ وواسطة العِقْد؛ وكقول المعرّى :

لغيرى زكاة من جمال فإن تكن * زكاةُ جَمال فاذكرى آبنَ سبيل

أو بالحركة والسكون، كقولهم : البِدعة شَرَك الشِّرك. أو بالتخفيف والتشديد كقولهم : الجاهل إما مفرِط وإما مفرِّط .

ومنه المذيَّل — ويقال له : التجنيس الزائد والناقص أيضا — وهو أن تجىء

١٠ بكلمتين متجانستَى اللفظ متّفقتَى الحركات، غيرَ أنهما يختلفان بحرف، إما فى آخرهما كقولك : فلان حامٍ حاملٌ لأعباء الأمور، كافٍ كافلٌ لمصالح الجمهور؛ وقولهم : أنا من زمانى فى زَمانه(١)، ومن إخوانى فى خيانه(٢)؛ وقولهم : فلان سالٍ عن إخوانه، سالم من زمانه؛ ومن النظم قول أبى تمّام :

يمُدُّون من أيدٍ عواصٍ عواصمٍ * تصول بأسياف قواضٍ قواضبِ

١٥ وقولُ البحترىّ :

لئن صَدفتْ عنّا فَرُبَّتَ أنفس * صَوادٍ إلى تلك النفوس الصوادف

وإما من أوّلها، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِالسَّاقِ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ ومن النظم ما أنشده عبد القاهر :

وكم سَبقتْ منه إلىّ عوارف * ثنائى من تلك العوارف وارفُ

٢٠ وكم غُررٍ من برّه ولطائفٍ * لَشكرى على تلك اللطائف طائف.

(١) كذا فى الأصل وحسن التوسل . ووجه التمثيل بها خفىّ ، والظاهر أن محل التمثيل أوّل العبارة .

(٢) كذا فى الأصل وخزانة الأدب للحموى ص ٤٠٣ ط بولاق ؛ والذى فى حسن التوسل : «من أحزانه» .

ومنه المركب وهو على ضربين :

الأوّل : ما هو متشابه لفظا وخطا ، كقولهم : هِمّتك الهِمّة الفاتره ، وفى صميم قلبك ألفاتره ، ومن النظم قول البُسْتىّ :

إذا ملِك لم يكن ذاهِبه * فدعه فدولته ذاهبـــه

وقولُ الآخر : ٥

عضّنا الدهر بنـابه * ليت ما حَلّ بنـابه

وقولُ طاهر البَصرى :

ناظِـراه فيما جنى ناظِـراه * أودَعانى رهنا بمـا أَودَعانى .

الثـانى : ما هو متشابه لفظا لاخطا ويسمّى التجنيسَ [المفروقَ] (١) ، كقوله :

كنت أطمع فى تجريبك ، ومطايا الجهل تجرى بك ؛ ١٠

ومن النظم قول الشاعر :

لا تَعرِضنّ على الرواة قصـــيدة * ما لم تكن بالغتَ فى تهذيبهـا

فإذا عرضتَ القَوْلَ غيرَمهذّب * عَدُّوه منك وساوسا تهذِى بهـا

وأمثالُ ذلك كثيرة .

ومن أنواع المركّب المرفُوّ ، وهو أن تجمع بين كلمتين إحداهما أقصر من ١٥ الأخرى ، فتضمّ الى القصيرة حرفا من حروف المعانى أو من حروف الكلمة المجاورة لها حتى يعتدلَ ركنا التجنيس ، كقولهم :

يامغرور أمسِك ، وقِس يومك بأمسك ؛

ويقرُب منه قول الهمذانىّ :

إن لم يكن لنا حَظٌّ فى دَرَكِ دَرّك ، نخلّصنا من شَرَكِ شرّك ؛ ٢٠

(١) الكلمة التى بين مربعين عن حسن التوسل ص ٤٤ ط الوهابية ؛ واستقامة الكلام تقتضي إثباتها .

وقول الحريرى :

إن أخليتَ منّا مباركَ مَبارِكَ، خلّصنا من مَعارك مَعارِكَ؛

ومن النظم قول البُستىّ :

فهمتُ كتابك ياسـيّدى * فهِمتُ ولا عَجَبٌ أن أهيما

٥ ومنه قول الآخر :

ذو راحةٍ وكَفَتْ ندًى وكَفتْ ردًى * وقضت بِهُلْك عُـداته وعِداته

كالغيث فى إروائه ورُوائه * والليث فى وثَبـاته وثبـاته .

ومنه المزدوِج — ويقال له التجنيس المردَّد والمكرر أيضا — وهو أن يأتى فى أواخر الأسجاع وقوافى الأبيات بلفظتين متجانستين إحداهما تميمة الأخرى

١٠ وبعضُها، كقولهم : الشراب بغير النَّغَم غمّ، وبغير الدَّسم سمّ؛

وقول البستىّ :

أبا العباس لا تحسَب لشَيْنى(١) * بأنّى من حُلَى الأشعار عارى

فلى طبـع كسَلسال مَعين * زُلالٍ من ذُرَى الأحجار جارى

اذا ما أكبت الأدوار زَندا * فلى زَند على الأدوار وارى .

١٥ ومن أجناس التجنيس المصحَّف — ويقال له تجنيس الخط أيضا — وهو أن تأتىَ بكلمتين متشابهتين خطّا لا لفظا، كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ﴾ وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ وقوله صلى الله عليه وسلم : « عليكم بالأبكار فإنهنّ أشدُّ حُبّا وأقلّ خِبّا » وقول [النبىّ صلى الله عليه وسلم](٢) لعلىّ رضى الله عنه : قصِّر من ثيابك فإنه أبقىٰ وأنقىٰ وأتقىٰ .

٢٠ (١) فى حسن التوسل : « لشيبى » بالباء، وهو تحريف . (٢) عبارة الأصل وحسن التوسل : « وقول علىّ » وفيها نقص ؛ والتكملة عن خزانة الأدب للحموى ص ٤٤ ط بولاق .

وكقول أبى فراس :

من بحر شـعرك أغترِف * وبفضلِ علمك أعترِف .

ومنه المضارِع — ويسـمّى المطمِّع — وهو أن يُجاء بالكلمة ويُبدأ بأختها على مِثل أكثر حروفها، فتطمع فى أنها مِثلُها ، فتخالفها بحرف؛ ويسـمى المُطرَّف وهو أن تجمع بين كلمتين متجانسـتين لا تَفاوتَ بينهما إلا بحرف واحد من الحروف المتقارِبة ، سواء وقع آخرا أوحشوا، كقوله صـلى الله عليه وسلم : « الخيل معقود بنَواصيها الخير » ومنه قول الحطيئة :

مَطاعِينُ فى الهَيجا مَطاعيمُ فى الدّجى * بنى لهمُ آباؤهـــم وبنَى الجَـــدّ

وقولُ البحترىّ :

ظللتُ أرجّم فيك الظنون * أحاجمُهُ أنت أم حاجبُهْ؟

وإن كان التفاوت بغيرالمتقارِبة سُمّىَ التجنيسَ اللاحقَ(1)، كقوله تعالى : ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ﴾ وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ عَلَى ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ وقولِ البحترىّ :

هل لمــا فات من تَلاقٍ تَلافٍ * أم لشاكٍ من الصبابة شافِ .

ومنــه المشوَّش — وهو كل تجنيس يتجاذبه طرَفان من الصنعة(2) فلا يمكن إطلاق آسم أحدهما عليه ، كقولهم : فلان مليح البلاغة، صحيح البراعة(3)

(1) فى الأصل : « الالتفات » وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يدل عليه السياق .

(2) فى الأصل وحسن التوسل : (الصيغة) بياء مثناة بعدها غين معجمة؛ وهو تحريف، والتصويب عن شرح الباعونية المحفوظ منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٨٣ بلاغة؛ وهو شرح على بديعيتها الموسومة بالفتح المبين فى مدح الأمين .

(3) كذا ورد هــذا المثال فى الاصل وحسن التوسل . ووجه التمثيل به خفىّ، ولم نقف عليــه فيما لدينا من المراجع .

ومنه تجنيس الاشتقاق — ويسمّى الاقتضابَ أيضا، ومنهم من عدّه أصلا برأسه، ومنهم من عدّه أصلا فى التجنيس — وهو أن يجىء بألفاظ يجمعها أصل واحد فى اللغة، كقوله تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ وقوله تعالى : ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ وقوله تعالى : ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ وقولِ النبى صلى الله عليه وسلم : « ذو الوجهين لا يكون عنـد الله وجيها » وقولِه : « الظلم ظُلُمات يوم القيامة »
٥
ومن النظم قول أبى تمّام :

عَمَمْتَ الخلق بالنَّعماء حتى * غدا الثقـلان منها مُثْقَلَين

وقولُ المُطَرِّزى :

وإنى لأستحيى من المجد أن أُرَى * حَليفَ غَوانٍ أو أليفَ أغانى(١)

١٠ وقولُ الصاحب بنِ عبّاد :

وقائلةٍ لِمْ عَرَتْكَ الهمومُ * وأمرك ممتثَـل فى الأمم

فقلت ذرِينى على غُصّتى * فإن الهموم بقدْر الهمم

وقولُ آخرَ :

إن ترى الدنيا أغارت * ونجومَ السـعد غارت

١٥ فصُروف الدهر شتّى * كلّمـا جارت أجارت

وممـا يشبِه المشتقّ(٢) — ويسـمّيه بعضهم المشابِه، وبعضهم المغايِرَ(٣) — قولُه تعـالى : ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ وقولُه تعالى : ﴿لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾

---

(١) فى الأصل : «غوانى» ؛ وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : «المشتق» ؛ وهو تحريف .

٢٠ (٣) فى الأصل : «المشابهة والمغايرة» ، بتأنيث اللفظين ؛ والتصويب عن حسن التوسل .

وقولُه تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ وقولُه تعالى: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ﴾

ومن النظم قول البحترى:

واذا ما رياح[1] جُودك هبّت * صار قول العذّال فيها هباءَ.

ومن أجناس التجنيس تجنيس التصريف — وهو ما كان كالمصحَّف [إلا][2] فى اتحاد الكتابة، ثم لا يخلو من أن تتقاربَ[3] فيه الحروف بأعتبار المخارج أو لا تتقارب فإن تقاربت سُمِّىَ مضارعا، و إن لم تتقارب سُمِّىَ لا حقا.

مثال الأوّل قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ وقولُه تعالى ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ وقولُ قُسِّ بنِ ساعدةَ الإيادى:

"من مات فات"

وقولُ الشاعر:

فيالك من حزم وعزم طواهما * جديدُ البِلى تحت الصفا والصفائح

وهذا البيت يشتمل على المضارع والمتمِّم؛

ومثال الثانى قول على رضى الله عنه: الدنيا دار ممَرّ، والآخرة دار مَقرّ، وقولُ عبد الله بنِ صالح وقد وصف اليمنَ: ليس فيه إلا ناسج بُرد، أو سائس[4] قرد.

---

(١) فى الأصل: «رماح» بالميم، وهو تحريف.

(٢) هذه الكلمة ساقطة من الأصل؛ وقد نقلناها عن حسن التوسل ليستقيم بها التعريف ويصح بها التمثيل الآتى، فإنه ليس بين قوله: «ينهون» و «ينئون» اتحاد فى الكتابة. وعبارة ابن أبى الإصبع فى تحرير التحبير المحفوظ منه نسخه مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٦٥ بلاغة فى تعريف هذا النوع: «وهو اختلاف صيغة الكلمتين بإبدال حرف من حرف إما من مخرجه أو من قريب منه».

(٣) عبارة الأصل: «من أن تتفاوت فيه الحروف باعتبار المخارج أو لا تتفاوت، فإن تفاوتت» الخ. بفاء موحدة فى الكلمات الثلاث وواو وتاء مثناة فوقية؛ وهو تصحيف لا يستقيم به المعنى.

(٤) فى الأصـل: «سامس»؛ وما أثبتناه عن حسن التوسل.

ومنها التجنيس المخالف — وهو أن تشتمل كلُّ واحدة من الكلمتين على حروف الأخرى دون ترتيبها، كقول أبي تمّام :

بِيضُ الصفائحِ لا سُودُ الصحائف في * متونهنّ جَلاء الشكّ والرِيَبِ

وقولِ البحتريّ :

٥ شَواجرُ أرماحٍ تُقطِّع بينهم * شواجِرَ أرحامٍ مَلُومٍ قطوعُها

وقولِ المتنبيّ :

ممنَّعـةٌ منعَّـمةٌ رَداحٌ * يكلِّف لفظُها الطيرَ الوُقوعا

(٣٧)

فإن آشتملت كل كلمة على حروف الأخرى، وكان بعض هذه قلبَ حروف هذه خُصّ باسم جناس العكس، كقول النبي صلى الله عليه وسلم: «يقال لصاحب القرآن ١٠ يوم القيامة آقرأ وآرقَ» وقولِ عبد الله بنِ رَواحةَ يمدح [النبي](١) صلى الله عليه وسلم:

تَحمِلُه الناقة الأَدْماءُ معتجِرا * بالبُرد كالبدر جلّى نُورُه الظُلَما.

ومنها تجنيس المعنى — وهو أن تكون إحدى الكلمتين دالّةً على الجناس بمعناها دون لفظها، وسبب آستعمال هذا النوع أن يقصد الشاعر المجانَسةَ لفظا ولا يوافقه الوزن على الإتيان باللفظ المجانِس فيعدل إلى مُرادِفه، كقول الشاعر يمدح المهلَّب ١٥ ويذكر فعله بقَطَرِيّ بن الفُجاءة، وكان قَطَرِيّ يُكنَى أبا نَعامةَ :

حدا بأبي أمِّ الرِّئال فأجفلتْ * نَعامتُه من عارضٍ متلبِّب(٢)

أراد أن يقول : حدا بأبي نَعامةَ فأجفلتْ نعامته أي روحه، فلم يستقم له فقال : بأبي أمّ الرِّئال، وأمّ الرِّئال هي النعامة، وكقول الشّماخ :

---

(١) التكملة عن حسن التوسل. (٢) في الأصل: «متهلب»، وما أثبتناه عن حسن التوسل إذ هو ٢٠ المناسب لما هنا، ولعل ما في الأصل مقلوب عن متلهب، أي متوقّد غيرة وحميّة. والمتلبّب : المتحزم بالسلاح، يريد المتهيّئ للقتال.

وما أَرْوَى وإن كَرُمتْ علينا * بأدنى من موقَّفــة حَرون[1]

أَرْوَى : اسم امرأة . والموقَّفة الحرون من الوحش : أَرْوَى ، وبها سميت المرأة فلم يمكنه أن يأتىَ باسمها فأتى بصفتها ، وقد صرح بذلك المَعَرِّى فى قوله :

أَرْوَى النِّياق كأَرْوَى النِّيق يَعصِمها[2] * ضرب يظــلّ له السِّرحان مبهوتا

وبعضهم لا يُدخل هذا فى باب التجنيس . قال : وإنما يحسُن التجنيس إذا قلّ ، وأتَى فى الكلام عفوا من غير كدّ[3] ولا استكراه ، ولا بُعد ولا مَيل إلى جانب الرِّكّة ولا يكون كقول الأعشى :

وقد غدوت إلى الحانوت يَتبَعُنِى * شاوٍ مِشَــلٌّ[4] شَلُولٌ شُلْشُلٌ شَوِلُ

ولا كقول مسلم بن الوليد :

سُلَّت وسُلَّت ثم سُلّ سليلُها * فأتى ســليل سليلِها مســلولا

ولا كقول المتنبىّ :

فقَلْقَلْتُ بالهمّ الذى قَلقل الحشا * قَلاقلَ عيش كلّهن قَلاقلُ .

وأما الطِّباق — قال : المطابقة أن تجمع بين ضدّين مختلفَين ، كالإيراد والإصدار والليل والنهار ، والسواد والبياض ؛ قال الأخفش وقد سئل عنه : أجد قوما يختلفون

---

(١) الموقفة من الوقف ، وهو الخلخال أو السوار من العاج وغيره ، وأراد به هنا : الأروى التى فى رجليها أو يديها بياض تشبيها لها بلابسة الخلخال أو السوار .

(٢) النيق بالكسر : أرفع موضع فى الجبل ، جمعه نياق وأنياق ونيوق .

(٣) فى الأصل : «كدر» براء زائدة فى آخره ، وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا .

(٤) قال فى اللسان مادة شل : الشاوى : الذى شوى . والشلول : الخفيف . والمشل : المطرد . والشلشل : الخفيف القليل . وكذلك الشول . والألفاظ متقاربة أريد بذكرها والجمع بينها المبالغة .

فيه، فطائفة — وهم الأكثر — يزعمون أنه الشيءُ وضدُّه، وطائفة تزعم أنه آشتراك المعنيين فى لفظ واحد، كقول زِياد الأعجم :

ونُبِّئتُهم يَستنصِرون بكاهل * ولَلُّؤمُ فيهم كاهلٌ وسَنام

ثم قال : وهذا هو التجنيس بعينه، ومن آدعى أنه طباق فقد خالف الأصمعىّ والخليل، فقيل له : أوَ كانا يعرفان ذلك؟ فقال : سبحان الله ! وهل أعلم منهما بالشعر وتمييز خبيثه من طَيِّبه؟ . ويسمونه المطابَقةَ والطِّباقَ والتضادَّ والتكافؤَ وهو أن تجمَع بين المتضادَّين مع مراعاة التقابل، فلا تجىء بآسم مع فعل ولا بفعل مع آسم، مثاله قوله تعالى : ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ وقولُه تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ وقولُه تعالى : ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ وقولُه تعالى:﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ إلى قوله : ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وقوله صلى الله عليه وسلم للأنصار : « إنكم لتكثُرون عند الفزع وتقِلّون عند الطمع » ومن النظم قولُ جرير :

وباسط خير فيكمُ بيمينه * وقابض شرّ عنكمُ بشماليا

وقولُ البحترىّ :

وأمّة كان قبح الجَور يُسخِطها * حِينا فأصبح حسن العدل يرضيها

وقولُه أيضا :

تبسّمٌ وقُطوبٌ فى ندًى ووغًى * كالبرق والرعد وَسْطَ العارض البردِ

وقولُ دِعبِل :

لا تعجبى يا سَلْمُ من رجل * ضَحِكَ المَشيب برأسه فبكى

وقول آبن المعتز :

مَها الوحش إلا أنّ هاتا أوانس * قَنا الخَطّ إلا أنّ تلك ذوابل

فإنّ هاتا للحاضر، وتلك للغائب، فكانتا متقابلتين؛ وقد تجىء المطابقـة بالنفى [والإثبات][(١)] كقول البحترىّ :

تُقَيَّضُ[(٢)] لى من حيث لا أعلم النـوى * ويَسرى إلىّ الشوق من حيث أعلم.

وقال الزكىّ بنُ أبى الإصبَع المصرىّ فى الطباق: وهو على ضربين : ضرب يأتى بألفاظ الحقيقة ، وضرب يأتى بألفاظ المجاز ، فما كان بلفظ [الحقيقة][(٣)] سمّى طباقا وما كان بلفظ المجاز سمّى تكافؤا، فمثال التكافؤ قول أبى الأشعث العبسىّ من إنشادات قُـــدامةَ :

حلو الشمائل وهو مرّ باســـل * يحمى الذِّمارَ صبيحة الإرهاق

لأن[(٤)] قوله : حلو ومرّ خارج مَخرجَ الاستعارة، إذ ليس الإنسانُ ولا شمائلُه ممـا يذاق بحاسّة الذوق .

ومن أمثلة التكافؤ قول ابن رَشيق :

وقد أطفأوا شمس النهار وأوقدوا * نجـــومَ العـــوالى فى سمـاء عَجاج

وقد جمع دِعبِل فى بيته المتقدّم بين الطباق والتكافؤ، وهو :

لا تَعجَبى يا سَـــلْمَ من رجل * ضَحِـــكَ المشيب برأســـه فبكى

لأن ضحكَ المشيب مجاز، وبكاءَ الشاعر حقيقة .

قال : هكذا قال ابن أبى الإصبَع، وفيه نظر، لأنه إذا كان الطباق عنده هو التضادّ من حقيقتين ، والتكافؤ التضادّ من مجازين، فليس فى البيت ما شرَطه .

---

(١) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ومن حسن التوسل؛ والمقام يقتضى إثباتها .

(٢) فى الأصل : «يقتص» وهو تحريف .

(٣) التكملة عن حسن التوسل ص ٤٨ ط الوهابية؛ واستقامة الكلام تقتضيها .

(٤) فى الأصل : «لما كان» وما أثبتناه عن حسن التوسل، إذ به يستقيم الكلام .

قال : ومما جمع بين طباق السلب والإيجاب قولُ الفرزدق من إنشادات ابن المعتز :

لعن الإله بنى كُليب إنهم * لا يَغدُرون ولا يفون لجار
يستيقظون إلى نهيق حميرهم * وتنام أعينهم عن الأوتار.

٥ وذكر فى آخر الباب طباق الترديد، وهو أن يردّ آخر الكلام المطابَق إلى أوله فإن لم يكن الكلام مطابَقا فهو ردّ الأعجاز على الصدور، ومثاله قول الأعشى :

لا يَرقع الناس ما أَوهَوا وإن جَهَدوا * طُول الحياة ولا يُوهون ما رَقعوا.

وأما المقابلة[1] — وهى أعم من الطباق، وذكر بعضهم أنها أخص، وذلك أن تضع معانىَ تريد الموافقة بينها وبين غيرها أو المخالفة، فتأتى فى الموافق بما وافق،
١٠ وفى المخالف بما خالف أو تشرُط شروطا وتعُدّ أحوالا فى أحد المعنيين فيجب أن تأتىَ فى الثانى بمثل ماشرطتَ وعددتَ [فى الأوّل][2]، كقوله عزّ وجلّ : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ وقوله تعالى : ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ ومثاله
١٥ من النظم قولُ الشاعر :

فيا عَجبا كيف اتفقنا فناصح * وفىٌّ ومطوىٌّ على الغِلّ غادر!

وقولُ آخرَ :

تقاصرن واحْلَوْلَين لى ثم إنه * أتت بعدُ أيامٌ طِوالٌ أمرّتِ

---

(١) عنوان هذا الفصل ساقط من الأصل؛ والسياق يقتضى إثباته.

٢٠ (٢) التكملة عن حسن التوسل.

وقولُ زهيرِ بنِ أبى سُلْمى :

حُلَماءُ فى النـادى إذا ما جئتَهم * جُهــلاءُ يومَ عَجاجةٍ ولقـاء.

ومن فساد ذلك أن يقابَل الشىءُ بمـا لا يوافقه ولا يخالفــه، كقول أبى عدىّ القــرشىّ :

يا آبنَ خيرِ الأخيارِ من عبد شمس * أنت زينُ الدنيـا وغيثُ الجُــود

(٣٩) فليس قوله : غيث الجود موافقا لقوله : زين الدنيا ولا مخالفا له

وكقول الكُميت :

وقد رأينا بهـا حورا منعَّــمةً * بيضا تَكامَلَ فيها الدَّلّ والشَّنَب

فالشنب لا يشاكل الدَّلّ .

وقولِ آخرَ :

رُحَمــاءُ بذى الصلاح وضــرّابون قِــدما لهـامة الصِّــنديد.

قال : وقد ذكر بعض أئمة هذا الفن تفصيلا فى المقابلة فقال :

فمن مقابلة آثنين بآثنين قوله تعالى : ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾؛ وقولُ النـابغــة :

فتًى تمّ فيــه ما يَسُرّ صديقه * على أنّ فيــه ما يسـوء الأعاديا؛

ومن مقابلة ثلاثة بثلاثة قول الشاعر(١) :

ما أحسنَ الدينَ وآلدنيا إذا آجتَمعا * وأقبحَ آلكفرَ وآلإفلاسَ بالرجل

وقولُ أبى نُواس :

أنا آســتدعَيت عفوك من قريب * كما آستعفَيت سُخطَك من بعيــد؛

(١) يعزى هذا البيت لأبى دلامة .

٥ ١٠ ١٥ ٢٠

ومن مقابلة أربعة بأربعة قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ المقابَل بقوله تعالى : « اسْتَغْنَى » قوله تعالى : «وَاتَّقَى» لأن معناه : زهد فيما عند الله واستغنى بشهوات الدنيا عن نعم الآخرة، وذلك يتضمّن عدَمَ التقوى، ومنه قول النابغة :

إذا وَطئا سهلا أثارا عَجاجةً * وإن وَطئا حَزْنًا تَشَظَّى الجنادلُ؛

ومن مقابلة خمسة بخمسة قول المتنبّى :

أزورهم وسواد الليل يَشفَع لى * وأنثنى وبياض الصبح يُغرِى بى

قابَل أزور بأنثنى ، وسواد ببياض، والليل بالصبح ، ويَشفع بيُغْرِى ، ولى بقوله : بى .

وأما السجع — فهوأن كلماتِ الأسجاع موضوعةٌ على أن تكون ساكنة(١) الأعجاز موقوفا عليها ، لأن الغرض أن يجانس بين قرائنَ ، ويزاوِج بينها، ولا يتمّ ذلك إلا بالوقف، ألا ترى الى قولهم : «ما أَبعَد ما فات، وما أقربَ ما هو آت» فلو ذهبتَ تصل لم يكن بُدّ من إعطاء أواخر القرائن ما يقتضيه حكم الإعراب ، فتختلف أواخرُ القرائن، ويفوت الساجعَ غرضُه، واذ رأيناهم يخرجون الكلمة عن أوضاعها للازدواج فيقولون : أتيتك بالغدايا والعشايا، وهنأنى الطعام ومَرأنى، وأخذه ما قدُم وما حدُث، « وانصرفن مأزوراتٍ غيرَ مأجورات » ، يريد الغَدَوات ، وأمرأنى وحدَث، وموزورات، مع أن فيه ارتكابا لمخالفة اللّغة [فما(٢) الظنّ بأواخر الكلم المشبّهة بالقوافى] .

---

(١) فى الأصل : «سالفة» ؛ وهو تصحيف .

(٢) التكلة عن حسن التوسل ص ٤٩ ط الوهابية .

قال : والسجع أربعة أنواع وهى : الترصيع والمتوازى والمطرّف والمتوازن .

أما الترصيع — فهو أن تكون الألفاظ مستويةَ الأوزان متّفقةَ الأعجاز، كقوله تعالى : ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ وقوله تعالى : ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ وقولِ النبي صلى الله عليه وسلم : "اللهم اقبل توبتى، واغسل حَوبتى" وقولهم : فلان يَفتخر بالهمم العاليه، لا بالرمم الباليـه؛ وقولِهم : عاد تعريضك تصريحا، وتمريضك تصحيحا؛

ومن النظم قولُ الخنساء :

حامِى الحقيقة محمودُ الخليقة مهـ * ـدِىُّ الطريقة نفّاعٌ وضرّار

جوّاب قاصية جزّاز ناصية * عقّاد ألوية للخيـل جرّار

وقد يجىء مع التجنيس، كقولهم :

اذا قلّت الأنصار، كلّت الأبصار؛ وما وراءَ الخَلْق الدّميم، إلا الخُلُقُ الذميم؛

ومن النظم قولُ المطرِّزى[1] :

وزَنْدُ نَدَى فواضلِه ورِىٌّ * ورَنْدُ رُبَا فضائلِه نَضير

ودُرّ جلاله أبدا ثمينٌ * ودَرّ نَواله أبدا غـزير.

وأما المتوازى — فهو أن يراعَى فى الكلمتين الأخيرتين من القرينتين الوزنُ مع اتفاق الحرف الأخير منهما، كقوله عزّ وجلّ : ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾ .

(١) فى الأصل : « المطرز » بدون ياء، والتصويب عن حسن التوسل، وهو ناصر بن أبى المكارم عبد السيد بن على، ويكنى أبا الفتح؛ وكانت وفاته سنة عشر وستمائة هـ . انظر وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٢٤ ط دار الطباعة المصرية .

وقولِ الحريرىّ : أَلجأنى حكمُ دهرٍ قاسط، الى أن أنتجعَ أرضَ واسط[1] .

وقوله : وأَودَى الناطق والصامت، ورثى لنا الحاسد والشامت .

وأما المطرّف — فهو أن يراعَى الحرفُ الأخيرُ فى كلمتى قرينتيــه من غير مراعاة الوزن، كقوله تعـالى : ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ وقولِهم : جنابه مَحطّ الرحال، ومُخيِّم الآمال .

وأما المتوازن — فهو أن يراعَى فى الكلمتين الأخيرتين من القرينتين الوزنُ مع اختلاف الحرف الأخير منهما، كقوله تعالى: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ وقولِهم : اصبر على حَرّ القتال، ومَضَض النِّزال[2]، وشدّةِ المِصاع، ومداومَةِ المِراس؛ فإن راعى الوزنَ فى جميع كلمات القرائن أو أكثرها، وقابَل الكلمة منها بمـا يعادلها وزنا كان أحسنَ، كقوله تعالى : ﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وقولِ الحريرىّ : اسـودّ يومى الأبيض ، وابيضّ فَودى الأسوَد؛ ويسمَّى هذا فى الشعر الموازَنة، كقول البحترىّ :

فقف مُسعِدا فيهنّ إن كنت عاذرا * وسِر مُبعِدا عنهنّ إن كنت عاذلا

---

(١) قال فى معجم البـلدان ص ٨٨١ ج ٤ ط المدرسة المحروسـة بمدينة غتنغه : واسـط فى عدّة مواضع : نبدأ أوّلا بواسط الحجاج لأنه أعظمها وأشهرها ثم نتبعها الباقى . فأوّل ما نذكر لم سميت واسطا ولم صرفت ؟ فأما تسميتها فلأنها متوسـطة بين البصرة والكوفة لأن منها الى كل واحدة منهما خمسـين فرسخا الخ . ثم ذكر بعد ذلك نقلا عن أبى حاتم أنه مصروف لأنه مذكر، فإنهم أرادوا به بلدا واسطا أو مكانا واسـطا ؛ وأنه قد يذهب به مذهب البقعة أو المدينـة فيمنع من الصرف للتأنيث حينئذ . وقد ابتدأ الحجاج فى عمارتها سنة أربع وثمانين وفرغ منها سنة ست وثمانين .

(٢) كذا فى الأصل وحسن التوسل . ومحل التمثيل هذه القرينة مع القرينتين اللتين بعدها دون التى قبلها لاتفاق الحرف الأخير فيهما .

قال : ومما هو شرطُ الحسْن فى هذا المحافظةُ على التشابه ، وهو ٱسم جامع للملاءمة والتناسب .

فالملاءمة : تأليف الألفاظ الموافيةِ بعضُها لبعض على ضرب من الاعتدال كقول لَبِيد :

وما ٱلمرء إلا كالشهاب وضَوئه * يعود رَمادا بَعْدُ إذ هو ساطع
وما ٱلمال والأهلون إلا وديعةٌ * ولا بدّ يوما أن تُرَدّ الودائع

وبعضهم يَعُدُّ التلفيق من باب الملاءمة، وهو أن تضمّ الى ذكر الشىء مايليق به ويجرى مَجراه، أى تجمع الأمورَ المناسِبة، ويقال له : مُراعاة النظير أيضا، كقول ٱبنِ سَمْعُون للمهلّبىّ (١) :

أنت أيها الوزير إبراهيمىّ الجُود ، إسماعيلىّ الوعد ، شعَيبىّ التوفيق ، يوسفىّ العفو ، محمدىّ الخلُق .

وكقول أبى الفوارس الحَمْدانىّ (٢) :

أأخا الفوارس (٣) لو رأيتَ مواقفى * والخيلُ من تَحت الفوارس تَنحِط (٤)
لقرأتَ منهـا ما تخُطّ يد الوغى * والبيض تَشكُل والأسنّة تَنقُط

(١) فى الأصل : «ابن شمعون المهلبى» بالشين المعجمة وسقوط اللام ؛ وفى حسن التوســل : «ابن سمعون المهلبى» بالمهملة ، ولم نقف على هذه النسبة لكلا الشخصين فيما بين أيدينــا من كتب التراجم ومعاجم الأعلام ، ولعل صواب العبارة ما أثبتنا ؛ والمهلبى هو الوزير أبو محمــد الحسن بن محمد بن هارون يتصل نسبه بالمهلب بن أبى صفرة ؛ وكان وزيرا لمعز الدولة بن بويه . وكانت وفاته سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة انظر وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٠١ ط دار الطباعة المصرية . وابن سمعون هو أبو الحسين محمد بن أحمد ابن اسماعيل الواعظ البغدادى ؛ وتوفى سنة سبع وثمانين وثلاثمائة ه وفيات الأعيان ج ١ ص ٧٠١ .

(٢) كذا فى الأصل . والذى فى حسن التوسل : (أبو العشائر) وكلاهما من آل حمدان ، ولم نعثر فيما بين أيدينا من المظان على ما يرجح إحدى الروايتين ، كما أننا لم نقف على هذين البيتين فى شعر أبى فراس الحمدانى كما يتوهم تحريف ما هنا عنه .

(٣) فى الأصل : «أأجاد» وهو تحريف .

(٤) تنحط : من النحط ، وهو صوت الخيل من الثقل والإعياء ، يكون بين الصدر الى الحلق .

وكقول آخر :

وكم سائلٍ بالغيب عنك أجبتُه * هناك الأيادى الشَّفعُ والسُّودَدُ الوَتر

عطاءٌ ولا منٌّ وحُكم ولا هوًى * وحِلم ولا عجز وعزٌّ ولا كِبرْ

وقولِ ابن حَيُّوس[(١)] :

٥ يقينُك والتقوى وجُودُك والغنى * ولفظُك والمعنى وسيفُك والنصر

والتناسب : هو ترتيب المعانى المتآخية التى تتلاءم ولا تتنافر، كقول النابغة :

والرفق يُمْن[(٢)] والأَناةُ سعادة * فاستأنِ فى رزق تنال نجاحا

واليأس عمّا فات يُعقِب راحةً * ولَرُبَّ مَطمَعة تعود ذُباحا

ويسمّى التشابهَ أيضا، وقيل : التشابه أن تكون الألفاظ غيرَ متباينة بل متقاربة

١٠ فى الجَزالة والرِّقة والسَّلاسة، وتكونَ المعانى مناسبة لألفاظها من غير أن يكسُوَ[(٣)] اللفظَ الشريفَ المعنى السخيفَ، أو على الضدّ، بل يصاغان معا صياغةً تناسُب وتلائم .

فصل فى الفِقَر المسجوعة ومقاديرها

(٤١)

قال : قِصَر الفقَرات يدلّ على قوة التمكّن وإحكام الصناعة ، وأقلّ ما تكون كلمتان، كقوله تعالى : ﴿يَأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ وأمثالُ ذلك

١٥ فى الكتاب العزيز كثيرة، لكن الزائد على ذلك هو الأكثر، وكان بديع الزمان يُكثِر من

---

(١) هو محمد بن سلطان بن محمد بن حيوس، ويكنى أبا الفتيان، ويلقب بصفىّ الدولة .

(٢) فى الأصل : «والرزق» بالزاى المعجمة، وهو تحريف، والتصويب عن حسن التوسل .

(٣) فى الأصل : «يكثر» بالثاء المثلثة والراء المهملة، وهو تحريف .

ذلك فى رسائله ، كقوله : كُمَيْتٌ[(١)] نَهْـد ، كأنّ راكبَه فى مَهْـد ؛ يَلطِم الأرض بزُبَر ويتزل من السماء بخَبَر . قالوا : لكن التذاذُ السامع بما زاد على ذلك أكثرُ، لتشوّقه الى ما يَرِد متزايدا على سمعه .

فأما الفقَر المختلفة فالأحسن أن تكون الثانيــة أزيَدَ من الأولى ولكن لا بقدر كثير لئلا يبعد على السامع وجودُ القافيــة فيقلّ الآلتذاذُ بسماعها ، فإن زادت القرائن على اثنين فلا يضرّ تساوى القرينتين الأُولَيَيْن وزيادةُ الثالثـة عليهما وإن زادت الثانيــة عن الأولى يسيرا ، [والثالثةُ على الثانيــة][(٢)] فلا بأس، لكن لا يكون أكثرَ من المِثل، ولا بدّ من الزيادة فى آخر القرائن، مثاله فى القرينتين : ﴿وَقَالُوا ٱتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ وَلَدًا﴾ ومثاله فى الثالثة قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ وأقصرُ الطِّوال ما كان من[(٣)] إحدى عشرةَ لفظــةً وأكثرُها غيرُ مضبوط ، مثاله من إحدى عشرةَ لفظةً : ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ والتى بعدَها[(٤)] من ثلاثَ عشرةَ كلمةً ؛ ومثاله من عشرين لفظةً قوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللّٰهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلٰكِنَّ اللّٰهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ .

---

(١) الكميت من الخيل يستوى فيه المذكر والمؤنث ، ولونه الكمتة ، وهى سواد تشوبه حمرة تكون فى الإبل والخيل . والنهد من الخيل : الحسن الجسم المشرف .

(٢) التكملة عن حسن التوسل .

(٣) فى الأصل : «فى» وما أثبتناه عن حسن التوسل .

(٤) فى الأصل : «وأى» وهو تحريف .

وأما ردّ العَجُز على الصدْر — فهو كل كلام منثور أو منظوم يلاقى آخرُه أوّلَه بوجه من الوجوه، كقوله تعالى : ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ وقولِه تعالى : ﴿لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾ وقولِهم : "القتل أنفى للقتل" و"الحيلة تركُ الحيلة" وقولِهم : طَلَبَ مُلكَهم فسلب ما طَلَب، ونَهب مالَهم فوَهب ما نَهب .

وهو فى النَّظم على أربعة أنواع :

الأوّل : أن يقَعا طَرَفين، إما متفقين صورة ومعنى، كقوله :

سريع إلى ٱبن العم يشتِم عِرضه * وليس إلى داعى الندى بسريع

وقـولِه :

سُكْران سُكْرُ هوًى وسُكْرُ مُدامة * أنّى يُفيق فتًى به سُكْران؛

أو متفقين صورةً لا معنًى، وهو أحسن من الأوّل، كقول السَّرِىّ :

يَسارٌ من سجيّتها المنايا * ويُمْنى من عطيّتها اليسار

وقولِ الآخَرِ :

ذَوائبُ سُودٌ كالعناقيد أُرسلت * فمن أجلها منّا النفوسُ ذَوائبُ؛

أو معنًى لا صورة، كقول عمرَبنِ أبى ربيعةَ[1] :

واستَبَدّت مرّة واحـدة * إنمـا العاجز من لا يَسْتَبِد

وقولِ السَّرِىّ :

ضرائبُ أَبْدَعْتَها فى السَّماح * فلسنا نرى لك فيها ضريبا

(١) فى الأصل : «لا صورة له» وقوله : «له» زيادة من الناسخ .

(٤٢)

وقولِ الآخَر :

ثلبُك أهلَ الفضل قد دلَّنى * أنك منقوص ومثـــلوب

أو لا صورةً ولا معنًى ولكن بينهما مشابَهة اشتقاق، كقول الحرِيرى :

ولاحَ يلْحَى على جَرْى العِنان الى * مَلْهًـا فسُحقا له من لائح لاحِى

الثانى : أنــ يقعا فى حَشو المِصراع الأوّل وعَجُز الثانى، إما متفقين صورةً ٥
ومعنًى كقول أبى تمّــام :

ولم يَحفظ مُضاعَ المجد شىءٌ * من الأشياء كالمـال المُضَاع

وقولِ آخَرَ :

أمّا القبــور فإنهن أوانس * بجوار قبرك والديارُ قبور

أو صورةً لا معنًى، كقول الثعالبىّ : ١٠

وإذا البلابل أفصحت بلُغاتها * فأنفِ البلابل باحتِساءِ بلابِلِ

فالأوّل جمعُ بُلبُل ، والثانى جمعُ بَلبَلة وهى الهمّ [والثالث جمعُ بُلبُـلَة الإبريق](١)

وقولِ الزمخشرىّ :

وأخّرنى دَهرى وقدّم معشرا * لأنهــمُ(٢) لا يعلمون وأعلم

فمذ أفلح الجُهّال أعلم أننى(٣) * أنا الميم والأيام أفلحُ(٤) أعــلمُ ١٥

(١) التكملة عن حسن التوسل ، وتمام الكلام يقتضى إثباتها . والذى فى كتب اللغة : ان البلبلة بضم الباءين وسكون اللام بينهما : كوز فيه بلبل الى جنب رأسه .

(٢) كذا فى الأصل . والذى فى حسن التوسل ص ٥٣ ط الوهابية : «على أنهم» ؛ وكلتا الروايتين تؤدى معنى صحيحا .

(٣) فى حسن التوسل : «أيقنت» ؛ ولا شاهد فيه على هذه الرواية . ٢٠

(٤) الأفلح : المشقوق الشفة السفلى . والأعلم : المشقوق الشفة العليا ؛ يريد تشبيه الأيام فى جهل قدره بالأفلح الأعلم الذى لا يستطيع النطق بالميم .

أو معنًى لا صورةً، كقول امرئ القيس :

إذا المرء لم يَخزُن عليه لسانَه * فليس على شيء سواه بخزّان

وقولِ أبي تمّــام :

دِمَن أَلَمّ بهــا فقال ســلام * كم حَلّ عُقدةَ صبره الإلمــام

٥ وقولِ أبي فِراس :

وما إن شبتُ من كِبَرٍ ولكن * لقيتُ من الأحبّــة ما أشابا ؛

أو في الاشتقاق فقط، كقول أبي فِراس :

مَنحناها الحَرائبَ[1] غيرَ أنّا * إذا جُرنا مَنحناها الحِرابا ؛

الثالث : أن يقعا في آخر المِصراع الأوّل وعَجُزِ الثـاني، إما متفقَين صورةً

١٠ ومعنًى كقول أبي تمّام :

ومن كان بالبِيض الكواعب مغرما * فما زِلتَ بالبِيض القواضب مُغرما ؛

أو صورةً لا معنًى، كقول الحرِيريّ :

فمشغوف بآيات المثاني * ومفتون برنّات المثـاني ؛

أو معنًى لا صورةً، كقول البحتريّ :

١٥ ففعلُك إن سُئلتَ لنامطيع * وقولُك إن سألتَ لنا مطاع ؛

الرابع : أن يقعا[2] في أوّل المِصراع الثاني والعَجُز، إما متّفقَين صورةً ومعنًى

كقول الحَماسيّ :

---

(١) واحده حريبة، وهو المال الذي يعاش به، أو هو المال المسلوب، يريد : رددنا عليها ما سلبه فرساننا من أموالها فيما سلف .

٢٠ (٢) في الأصل : «يتفقا» ؛ وما أثبتناه عن حسن التوسل، وهو أنسب ليوافق ما قبله .

فإلا يكن إلا مُعَلَّل(١) ساعةٍ * قليــلا فإنى نافعٌ لى قليلُها

أو صورةً لامعنًى، كقول أبى دؤاد :

عهدتُ(٢) لها منزلا داثرا * وآلًا على المــاء يحملن آلا

فالأول الأتباع(٣)، والثانى أعمدة الخيام، وكقول آخر :

رماك زمان السُّوء من حيث لا ترى * فرامَى ولم يَظفَر بمـا هو راما

أو معنًى لا صورةً، كقول أبى تمّام :

ثوَى فى الثرى من كان يحيا به الثرى * ويغمُر(٤) صَرفَ الدهر نائلُه الغَمْر

وقد كانت البِيضُ البَوَاتِرُ فى الوغى * بَوَاتِرَ فهى الآن من بَعــده بُتْر

قال : ومن نوادر هذا الباب بيتا الحريرى اللذان سمّاهما المطرّفين، وهما :

سِمْ سِمَةً تحسُن آثارُها * وٱشكر لمن أعطى ولو سمسمه

والمكرُ مهما ٱسطعتَ لا تأته * لتبتغى السُّودَد والمَكرُمَه.

قال : فإن لم يقع فى العَجُز فليس من هذا الباب، كقوله :

ونُبِّئتُهم يَستنصِرون بكاهل * وللُّؤمُ فيهــم كاهلٌ وسَنام

---

(١) فى ديوان الحماسة ج ٢ ص ١٣٥ ط التوفيق : « معرّج » بفتح الراء المهملة مع التشـــديد والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين .

(٢) فى اللسان مادة أول : « عرفت » وكلاهما يستقيم به المعنى . وداثر كدارس وزنا ومعنى، والأخيرة رواية اللسان . (٣) فسر فى اللسان ا لآل الأوّل بأنه عيدان الخيمه، والثانى بأنه الشخص .

(٤) كذا فى الأصل وديوان أبى تمـام ص ٣٣١ ط الأدبية ببيروت . والذى فى حسن التوسل :

* ويأمن صرف الدهر جاهله الغمر * ومؤدى الروايتين مختلف . والغمر بفتح الغين على رواية الأصل والديوان : الكثير . وبالضم على رواية حسن التوسل : من لا خير فيه ولا غناء عنده فى عقل ولا رأى ولا عمل .

وكقول الأَفْوه الأَوْدىّ :

وأَقطع الهَوْجل مستأنِسا * بِهَوْجل عَيْرانةٍ[1] عَنتريس

فالهَوْجَل الأوّل : الفَلاة، والثانى : الناقة السريعة .

وأما الإعنات — ويقال له التضييقُ والتشديدُ ولزومُ مالا يلزم — فهو أن يُعْنِت نفسه فى ٱلتزام رِدْفٍ أو دَخيل أوحرف مخصوص قَبْلَ حرف الروىّ، أو حركةٍ مخصوصة ، كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا ٱلسَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾، وقولِ النبى صلى الله عليه وسلم : «اللهم بك أُحاول، وبك أُصاوِل» وقولِه عليه الصلاة والسلام « شرّ ما فى المرء شُحٌّ هالع، أو جُبنٌ خالع[2] » وقولِه عليه الصلاة والسلام : « زُرْ غِبًّا تزدد حُبًّا » وقولِ عمرَ رضى الله عنه : لا يكن حبُّك كَلَفا، ولا بُغضُك تَلَفا ؛ وقولِ المَعرّى :

ضحكنا وكان الضِّحك منا سفاهةً * وحَقَّ لسُكّان البسيطة أن يبكوا

يُحطِّمنا صَرف الزمان كأننا * زُجاج ولكن لا يعادُ لهُ السَّبك

وقولِ آخرَ :

يقولون فى البستان للعَين لذّة * وفى الخمر والماء الذى غيرُ آسن

إذا شئتَ أن تلقَى المحاسن كلَّها * ففى وجه من تهوَى جميعُ المحاسن

وقد ٱلتزم ٱبن الرومىّ الفتحَ قَبْلَ حرف الروىّ — وكان أَولعَ الناس بذلك — فقال :

لِما تؤذِن الدنيا به من صُروفها * يكون بُكاءُ الطفل ساعةَ يولد

---

(١) العيرانة من النياق : الناجية فى نشاط . والعنتريس : الغليظة الوثيقة .

(٢) قال فى النهاية مادة خلع فى تفسير هذه الكلمة : أى شديد، كأنه يخلع فؤاده من شدّة خوفه .

وإلا فما يُبكيه فيها وإنّها * لَأَوْسَعُ ممّا كان فيه وأرغد (١)
إذا أبصر الدنيا آستهلّ كأنه * بما سيلاقي من أذاها يُهَدَّد

وأمثالُ ذلك فى الشعر كثيرة .

وأما المذهب الكلامىّ — فهو إيراد حُجّة للطلوب على طريقة أهل الكلام نحو قوله عز وجل : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ ومنه قولُ النابغة يعتذر إلى النُّعمان :

حلفتُ فلم أترك لنفسك رِيبةً * وليس وراءَ الله للمرء مَذهَب
لئن كنتَ قد بُلِّغتَ عنّى جناية * لَمبلغُك الواشى أغشّ وأكذَب
ولكنّنى كنت امرءا لىَ جانب * من الأرض فيه مُستَراد ومذهب
ملوك وإخوان اذا ما مدحتُهم * أحكَّم فى أموالهم وأقرَّب
كفعلك فى قوم أراك آصطنعتَهم * فلم ترَهُمْ فى مدحهم لك أذنبوا

يقول : أنت أحسنت إلى قوم فمدحوك، وأنا أَحسن إلىّ قوم فمدحتُهم، فكما أنّ مدح من أحسنتَ إليه لا يُعَدّ ذنبا فكذا مدحى لمن أَحسن إلىّ لا يُعَدّ ذنبا . قال آبن أبى الإصبع، ومن شواهد هذا الباب قولُ الفرزدق :

لكلّ آمرئ نفسان نفسٌ كريمةٌ * ونفسٌ يعاصيها الفتى ويطيعها
ونفسُك من نفسَيْك تَشفَع للندى * إذا قلّ من أحرارهنّ شفيعها

يقول : لكلّ إنسان نفْسان : نفس مطمئنّة تأمره بالخير، ونفس أمّارة تأمره بالشرّ، والإنسان يعاصى الأمّارة مرّة ويطيعها أخرى، وأنت إذا أمرتْك الأمّارة

---

(١) فى رواية : « منها » .

(٤٤) بترك النّدى شفَعت المطمئّنة إليها فى النّدى فى الحالة التى يَقلّ فيها الشفيع فى النّدى من النفوس، فأنت أكرم الناس .

وأما حسن التعليل — فهو أن يُدَّعَى لوصفٍ عِلّةٌ مناسِبةٌ له باعتبارٍ لطيف وهو أربعة أضرب : لأنّ الصفة إمّا ثابتةٌ قُصِد بيانُ عِلّتها، أو غيرُ ثابتةٍ أريد إثباتُها

٥ فالأُولى إمّا لا يَظهر لها فى العادة علّة، كقوله :

لم يَحكِ نائلَك السحابُ وإنّما * حُمّتْ به فصبيبُها الرُّحَضاء [(١)]

أو يَظهَر لها علّة، كقوله :

ما به قتلُ أعاديه ولكن * يتّقى إخلافَ ما ترجو الذئاب [(٢)]

فإنّ قتلَ الأعداء فى العادة لدفع مضرّتهم لا لما ذكره .

١٠ والثانية إما مُمْكنةٌ [(٣)]، كقوله :

يا واشيا حسُنت فينا إساءتُه * نجّى حِذارُك [(٤)] إنسانى من الغرق

فإن آستحسان إساءةِ الواشى ممكن، لكن لمّا خالف الناس فيه عقّبه بما ذكر.

أو غيرُ مُمْكِنة، كقوله :

لو لم تكن نيّةُ الجوزاء خدمتَه * لما أتت وعليها عَقدُ منتطِق . [(٥)]

---

١٥ (١) البيت لأبى الطيب المتنبّى؛ والرحضاء بضم الراء وفتح الحاء المهملة : العرق أثر الحمى .

(٢) البيت لأبى الطيب المتنبّى كسابقه؛ انظر معاهد التنصيص ص ٣٥٨ ط بولاق .

(٣) فى الأصل : «بركة»؛ وهو تحريف، ولا معنى له .

(٤) فى الأصل : «جدواك» وهو تحريف؛ والتصويب عن معاهد التنصيص ص ٣٥٩، والبيت لمسلم بن الوليد .

٢٠ (٥) فى معاهد التنصيص ص ٣٦٧ ط بولاق أن هذا البيت مترجم من الفارسية ولم يسم قائله .

قال : وأُلحِقَ به ما بُنىَ على الشكّ، كقول أبى تمّـام :

رُبَّما شَفعت ريح الصَّبا لرياضها * إلى المُزْن حتى جادها وهو هامع

كأنّ السحابَ الغُرَّ غَيَّبن تحتهـا * حبيبا فمـا تَرقا لهنّ مدامع

وقد أحسن آبن رشيق فى قوله :

سألتُ الأرض لِمْ كانت مصلًّى * ولِمْ كانت لنـا طُهـــرا وطِيبـا ٥

فقـالت غـيرَ ناطقـــةٍ لأنّى * حوَيتُ لكلّ إنسـان حبيبـا.

وأما الآلتفات — فقـد فسّره قدامة بأن قال : هو أن يكون المتكلّم[(1)] آخذا فى معنى فيعترضه إما شكٌّ فيه وإما ظنٌّ أنّ رادّا يردّه عليـه، أو سائلا له عن سببه فيَلتفت إليه بعد فراغه منه، فإما أن يُجَلِّىَ الشكّ، أو يؤكّدَه، أو يَذكرَ سببه، كقول الرمّاح بن ميّادة : ١٠

فلا صَرمُه يبدو ففى اليأس راحة * ولا وصلُه يصفو لنـا فنكارمُه

كأنه توهّم أن فلانا يقول : ما تصنع بصَرمه ؟ فقال : لأن فى اليأس راحة . وأما آبن المعتزّ فقال : الآلتفات آنصراف المتكلّم عن الإخبار إلى المخاطَبة ، ومثاله فى القرآن العزيز الإخبار بأنّ الحمدَ لله رب العالمين، [ثم قال][(2)] : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ومثاله فى الشعر قول جرير : ١٥

متى كان الخيـامُ بذى طُلوح[(3)] * سُـقيتِ الغيث أيّتها الخيـام ؛

(١) عبـارة قدامة : « أن يكون الشاعر » ، كما فى كتابه نقد الشـعر ص ٥٣ ط الجوائب ؛ وما هنا أعم .

(٢) التكملة عن حسن التوسل ص ٥٦ ط الوهابية .

(٣) ذو طلوح : موضع فى حزن بنى يربوع بين الكوفة وفيد . ٢٠

أو ٱنصراف المتكلّم عن المخاطبة [الى الإخبار](١)، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ ومثال ذلك فى الشعر قول عنترةَ:

ولقد نزلتِ فلا تظنّى غيرَه * منّى بمنزلة المُحَبّ المكرَم

ثم قال مخبرا عنها:

٥ كيف المَزَار وقد تربّع أهلها * بعُنَيزتين(٢) وأهلنا بالغَيلم؛

أو ٱنصراف المتكلّم من الإخبار إلى التكلّم، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ﴾؛

أو ٱنصراف المتكلّم من التكلّم إلى الإخبار، كقوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ(٣) نُذْهِبْكُمْ وَنَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ وقد جمع ٱمرؤ القيس الالتفاتات

١٠ الثلاثة فى ثلاثة أبيات متواليات، وهى قوله:

تطاوَل ليلُكَ بالإثْمِد(٤) * ونام الخلىّ ولم ترقد

وبات وباتت له ليلة * كليلة ذى العائر(٥) الأرمد

وذلك من نبإ جاءنى * وخُبِّرتُه عن أبى الأسوَد

(١) الزيادة عن حسن التوسل . وصحة العبارة تقتضى إثباتها .

١٥ (٢) عنيزتين تثنية عنيزة، وهو بمعناه : موضع بين البصرة ومكة ، أوهو من أودية اليمامة ؛ والغيلم : موضع ذكره ياقوت ولم يعينه .

(٣) كذا وردت هذه الآية بالنون فى الكلمات الثلاث فى خزانة الأدب للحموى ص ٧٤ ط بولاق وعليه يستقيم التمثيل ، وقال الحموى بعد إيراد الآية : « والقراءة فى الكلمات الثلاث بالنون شاذة نقلها صاحب البحر الزاخر» . والذى فى الأصل وحسن التوسل وشرح الباعونية : « إن يشأ يذهبكم

٢٠ ويأت» بالياء المثناة فى الكلمات الثلاث ؛ والتمثيل بها على هذه القراءة غير مستقيم .

(٤) الإثمد : موضع ذكره ياقوت فى معجمه ولم يعينه .

(٥) العائر : كل ما أعل العين ، أو هو بثر فى الجفن الأسفل منها .

(٤٥) يخاطِب فى البيت الأوّل ، وآنصرف إلى الإخبار فى البيت الثانى ، وآنصرف عن الإخبار الى التكلّم فى البيت الثالث على الترتيب .

وأما التمّام — وهو الذى سماه الحاتمىّ التتميم ، وسماه آبن المعتز آعتراض كلام فى كلام لم يتم معناه، ثم يعود المتكلّم فيتمّمه،وشَرَح حدَّه بأنه الكلمة التى إذا طُرحت من الكلام نَقَص حُسنُ معناه ومبالغتُه ، مع أن لفظه يوهم بأنه تامّ ؛ وهو على ضربين : ضرب فى المعانى وضرب فى الألفاظ، فالذى فى المعانى هو تُتميم المعنى والذى فى الألفاظ هو تُتميم الأوزان، والأول هو الذى قُدّم حدُّه، ومثاله قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ فقوله تعالى: ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ [تتميم]⁽¹⁾، وقوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ تُتميم ثان فى غاية البلاغة،ومن هذا القسم قول النبي صلى الله عليه وسلم: « ما من عبد مسلم يصلى لله كل يوم آثنتى عشرة ركعة من غير الفريضة إلا آبتنى الله له بيتا فى الجنة » فوقع التتميم فى هذا الحديث فى ثلاثة مواضعَ: قوله عليه السلام : مسلم، ولله، ومن غير الفريضة،ومن أناشيد قدامة على هذا القسم قولُ الشاعر⁽²⁾ :

أناس إذا لم يُقبَــل الحقّ منهــمُ * ويعطَوْه عادوا⁽³⁾ بالسيوف القواضب.

وأما الذى فى الألفاظ فهو الذى يُؤتى به لإقامة الوزن بحيث لو طُرحت الكلمة آستقلّ معنى البيت بدونها؛ وهو على ضربين :أحدهما مجىء الكلمة لا تفيد غير إقامة

(١) التكلة عن حسن التوسل . واستقامة الكلام تقتضيها .

(٢) هو نافع بن خليفة الغنوى؛ انظر نقد الشعر لقدامة ص ٤٩ ط الجوائب .

(٣) كذا فى الأصل وحسن التوسل بالدال المهملة . وفى نقد الشعر لقدامة : « عاذوا » بالذال المعجمة، والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين .

الوزن فقط، والثانى : مجيئها تفيد مع إقامة الوزن نوعا من الحسن، فالأوّل من العيوب والثانى من المحاسن؛ قال : والكلام هنا فى الثانى، ومثاله قول المتنبىّ :

وخُفوق قلبٍ لو رأيتِ لهيبــه * يا جَنّتى لظننتِ فيـــه جهنّما

فإنه جاء بقوله يا جنتى لإقامة الوزن، وقصَدَ بها دون غيرها مما يسدّ مسدّها أن

٥ يكون بينها وبين قافية البيت مطابقةٌ لا تحصل بغيرها .

وأما الاستطراد — وهذه التسمية ذكر الحاتمىّ فى حلية المحاضرة أنه نقلها عن البحترىّ، وقيل : أن البحترىّ نقلها عن أبى تمّام، وسماه ابن المعتز : الخروج من معنى إلى معنى، وفسّره بأن قال : هو أن يكون المتكلّم فى معنى فيخرج منه بطريق التشبيه أو الشرط أو الإخبـار أو غير ذلك إلى معـنى آخَر يتضمّن مدحا أو قدحا

١٠ أو وصفا ما، وغالب وقوعه فى الهجاء، ولا بد من [ذكر](1) المستطرَد به باسمه بشرط أن لا يكون تقدّم له ذكر .

فمن أوّل(2) ما ورد فى ذلك من النظم قولُ السمَوءل بن عادياء :

وإنّا لَقوم مانرى القتل سُبّةً * إذا ما رأته عامر وسَـلول

ومنه قول حسّان :

١٥ إن كنتِ كاذبة الذى حدّثتِنى * فنجوتِ مَنجا الحارث بن هشام

تركَ الأحبّــة لم يقاتل دونهــم * ونجـا برأس طِمِـرّة(3) ولجـام

---

(١) هذه الكلمة ساقطة من الأصل . وقد نقلناها عن حسن التوسل إذ لا يستقيم الكلام بدونها .

(٢) فى الأصل : «فن أوّلها» والسياق يقتضى حذف الهاء .

(٣) الطمرّة من الأفراس : المستعدّة للعـدو . وقد أشار حسان فى هذين البيتين الى فرار الحارث

٢٠ ابن هشام بن المغيرة يوم بدر : انظر سيرة ابن هشام وغيرها من كتب السيرة .

وقولُ أبى تمّـام فى وصف حافر الفرس بالصلابة[1] :

أيقنتَ[2] إن لم تَثَبَّت أنّ حافرَه * من صخر تَدْمُرَ أو من وجه عثمانِ

ومن أحسن ما قيـل فى ذلك قولُ ابنِ الزَّمَكْدَم أربعةَ آستطرادات متواليـة :

وليـلٍ كوجه البَرْقَعِيدىّ[3] ظُلمةً * وبَردِ أغانيـه وطولِ قـرونه

سَرَيت ونومى فيه نومٌ مشرَّدٌ * كعقل سليمانَ بن فَهد[4] ودِينه

على أَولَقٍ[5] فيـــه آلتفاتٌ[6] كأنه * أبو صالحٍ[7] فى خبطـه وجنونه

إلى أن بدا ضوء الصباح كأنه * سنا وجهِ قِرْواش[8] وضوءُ جبينه

وقولُ البحترىّ فى الفَرَس أيضا :

ما إن يَعاف قذًى ولو أَوردته * يوما خلائقَ حَمدَوَيهِ الأحول

ومما جمع المدح والهجاء قول بَكر بن النَّطّاح :

فتًى شَقيَتْ أموالُه بنواله * كما شَقِيَتْ بَكرٌ بأرماح تَغلِب

(١) فى الأصل : «جاء فى الفرس» وما أثبتناه عن حسن التوسل وهو أنسب بقوله بعد : «بالصلابة» .

(٢) فى الأصـــل : « اتقيت » بالقاف الموحدة بعدها ياء مثناة ، وهو تصحيف . وتدمر : مدينة قايمة فى برية الشام بينها وبين حلب خمسة أيام ياقوت . ويريد بعثمان المذكور فى البيت : عثمان بن إدريس السامى؛ انظر ديوان أبى تمـام ص ٢٠١ ط الوهبية .

(٣) البرقعيدى : نسبة الى برقعيد، وهى بليدة فى طرف بقعاء الموصل من جهة نصيبين .

(٤) فى الأصـــل : « وهب » وهو تحريف ؛ والتصويب عن معجم ياقوت ج ١ ص ٥٧٢ ط المحروسة بمدينة عتنغه والوافى بالوفيات للصفدى .

(٥) فى الأصل : «أورق» وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما فى المعجم ، والأولق : الجنون ، يريد : على فرس ذى أولق . (٦) كذا فى الأصل . ولعله يريد وصف الفرس بأنه يلتفت فى سيره يمنة ويسرة فلا يستقيم فى وجهـة واحدة ، بل يخبط فى سيره كما يدل عليـه عجز البيت . وفى معجم البلدان : «الهباب» ؛ والهباب بكسر الهـاء : النشاط والسرعة . (٧) فى معجم ياقوت : « أبو جابر » .

(٨) هو قرواش بن مقلد أمير بنى عقيل .

ومما جاء به[1] على وجه المجون قولُ بعضهم :

اكشفى وجهك الذى أوحلتنى * فيه من قَبل كشفه عيناك

غلطى فى هواكِ يشبه عندى * غلطى فى أبى علىّ بن زاكى

ومما جاء فى النسيب على وجه التشبيه[2] قولُ آمرئ القيس :

٥ عُوجا على الطلل المُحيل لعلّنا[3] * نبكى الديار كما بكى آبن حمام[3]

وأما تأكيد المدح بما يشبه الذمّ — فهو ضربان : أفضلهما أن يستثنى من صفة ذمّ[4] منفيّة عن الشىء صفةَ مدح[4] بتقدير دخولها فيها، نحو قوله تعالى : ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ فالتأكيد فيه من جهة أنه كدعوى الشىء ببيّنة ، وأن الأصل فى الآستثناء الآتصال، فذكرُ أداته قَبل ذكرِ

١٠ ما بعدها يوهم إخراجَ الشىء ممّا قبلها، فإذا وليَها صفةُ مدحٍ جاء التأكيد .

والثانى : أن يُثبت لشىء صفة مدح ويعقّب بأداة آستثناء تليها صفةُ مدح أخرى له ، كقوله صلى الله عليه وسلم : «أنَا أَفصح العرب بَيْدَ أنّى من قريش» وأصل الآستثناء فى هذا الضرب أيضا أن يكون منقطعا، لكنه باق على حاله لم يقدّر

(١) به، أى بالآستطراد . وعبارة حسن التوسل : « ومما جاء على وجه » الخ .

١٥ (٢) فى الأصل : «التشبيه» ؛ وهو تحريف .

(٣) كذا فى الأصل وحسن التوسل ، والذى فى شرح ديوان امرئ القيس للوزير أبى بكر عاصم ابن أيوب ص ١٤٤ ط الخيرية : « لأننا » بهمز بعده نون ، وهى لغة فى « لعلنا » حكى الخليل : أن بعض العرب يقول : إيت السوق أنك تشترى لنا سويقا ، أى لعلك . وابن حمام : شاعر يقال له : امرؤ القيس أيضا كما فى الشرح ؛ ولم نقف على ضبطه ؛ ورواية الديوان « ابن حذام » بالذال المعجمة ،

٢٠ ولم يسمه شارحه الوزير أبو بكر المتقدم ؛ وروى أبو عبيدة : « ابن خزام » بالخاء المهملة والزاى المعجمة ؛ وليس هو عروة بن حزام العذرى كما يتوهم . (٤) فى الأصل : « أن يستثنى من صفة مدح منفية عن الشىء صفة ذم » والصواب العكس كما يقتضيه التمثيل .

متصلا فلا يفيد التأكيد إلا من الوجه الثانى من الوجهين المذكورين، ولهذا كان الأوّل أفضل .

ومن أمثلة الأوّل قولُ النابغة الذُّبيانى :

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنّ سيوفَهم * بهنّ فُلول من قِراع الكتّائب

ومن أحسن ما قيل فى ذلك قولُ حاتم الطائىّ :

ولا تشتكينى جارتى غيرَ أننى * إذا غاب عنها بعلها لا أزورها

ومن الثانى قولُ النابغة الجَعْدىّ :

فتًى كَمُلت أخلاقه غـيرَ أنه * جواد فما يُبقِى من المـال باقيا

ومن أحسن ما ورد فى هذا الباب قولُ بعضهم[1] :

ولا عيب فينا غير أنّ سماحَنا * أضرّ بنا والبأسَ[2] من كلّ جانب

فأفـنى الردى أعمـارنا غيرَ ظالم * وأفنى الندى أموالَنا غيرَ عاتب.

وأما تأكيد الذمّ بمـا يشبه المدح — فهو ضربان :

أحدهما أن يُستثنَى من صفة مدح منفيّةٍ عن الشىء صفةَ ذمّ بتقدير دخولها فيها كقولك : فلان لاخير فيه إلّا أنه يسىء[3] إلى من أحسن اليه .

والثانى : أن تُثبت للشىء صفة ذمّ وتعقّب بأداة ٱستثناء تليه صفة ذمّ له أخرى كقولك : فلان فاسق إلّا أنه جاهل، وتحقيق القول فيها على قياس ماتقدّم .

---

(١) هو أبو هفان . انظر معاهد التنصيص ص ٣٨٩ ط بولاق .

(٢) فى الأصـل وحسن التوسل ص ٥٨ ط الوهابيـة : « والناس » بالنون، وهو تحريف؛ والتصويب عن معاهد التنصيص . وصدر البيت الثانى يدل عليه أيضا .

(٣) فى الأصل : « لا يسىء »؛ وصحة التمثيل تقتضى حذف اللام .

وأما تجاهل العارف — فهو سؤال المتكلّم عمـا يعلمه حقيقة تجاهلا منه ليُخرج كلامه مُخْرَج المدح أو الذمّ، أو ليدُلّ على شـدّة التدلّه فى الحبّ، أو لقصد التعجّب أو التوبيخ أو التقرير؛ وقال السكاكىّ[1]: هو سَوق المعلوم مَساقَ غيره لنكتة كالتوبيخ، كما فى قول الخارجيّة وهى ليلى بنت طَرِيف:

٥ أيا شجر الخـابور[2] مالك مُورقا * كأنك لم تجزَع على آبن طَرِيف

والمبالغة فى المدح، كقول البحترىّ:

ألمعُ برق سرى أم ضوءُ مصباح * أم آبتسامتُها بالمَنظَـر الضاحى

أو الذمّ، كما قال زُهير:

وما أدرِى ولستُ[3] إخال أدرِى * أقـومٌ آلُ حِصن أم نسـاء

١٠ أو التدلّه فى الحبّ، كقوله:

بالله ياظَبيَاتِ القاع[4] قلن لنـا * ليلاى منكنّ أم ليلَى من البشر

وقول البحترىّ:

بدا فراع فؤادى حسنُ صُورتِه * فقلت هل مِلكٌ ذا الشخصُ أم ملَك.

---

(١) فى الأصل: «لكنه»؛ وهو تحريف.

١٥ (٢) الخابور: نهر كبير، بين رأس عين والفـرات من أرض الجزيرة ولاية واسعة وبلدان جمة غلب عليها اسمه فنسبت اليـه، وأصل هـذا النهر من العيون التى برأس عين، وينضاف اليه فاضل الهرماس ومدّ وهو نهر نصيبين فيصير نهرا كبيرا انظر معجم البلدان ج ٢ ص ٣٨٣ ط جوتنجن.

(٣) فى معاهد التنصيص ص ٤١٧ ط بولاق: «وسوف» والبيت يستقيم على كلتا الروايتين.

(٤) نسب هذا البيت الى ذى الرمة والمجنون والعرجى، وأكثرهم على أنه للا خير؛ انظر معاهد

٢٠ التنصيص الصفحة المتقدمة الذكر.

وأما الهزل الذى يراد به الجِدّ — فهو أن يقصد المتكلّم ذمَّ إنسان أو مدحَه فيُخرِجَ ذلك مُخرَج المجون[1]، كقول الشاعر :

إذا ما تميمىٌّ أتاك مُفاخرا * فقُل عَدِّ عن ذا كيف أكْلُك للضبّ.

وأما الكنايات — فهى أن يُعبِّر المتكلّم عن المعنى القبيح باللفظ الحسَن وعن الفاحش بالطاهر ، وقد تقدّم الكلام على ذلك فى باب الكناية والتعريض وهو الباب الرابع من القسم الثانى من هذا الفنّ ،وهو فى السِّفر الثالث من كتابنا هذا .

وأما المبالغة — وتسمَّى التبليغَ والإفراطَ فى الصفة — فقد حدّها قُدامةُ بأن قال : هى أن يذكر المتكلّم حالا من الأحوال لو وَقف عنـدها لأجزأت فلا يقف حتى يزيد فى معنى ما ذكره ما يكون أبلغَ فى معنى قصْده، كقول عُمَير[2] بن كريم التغلبىّ :

ونُكرِم جارنا ما دام فينا * ونُتبِعه الكرامة حيث مالا

ومن أمثلة المبالَغة المقبولة قولُ امرئ القيس يصف فرَسًا :

فعادَى عِداءً[3] بين ثور ونعجة * دِراكا ولم يُنضَح بماء فيُغسَلِ

يقول : إنه أدرك ثورا وبقرة فى مِضْمار واحد ولم يَعرَق .

وقولُ المتنبى :

وأَصرَع أىَّ الوحش قفَّيتُه به * وأَنزِل عنه مِثلَه حين أركَب

(١) هو أبو نواس ، والبيت من قصيدة يهجو بها تميما وأسدا و يفتخر بقحطان ؛ انظر معاهد التنصيص ص ٤١٣ ط بولاق .

(٢) كذا ورد هذا الاسم فى الأصل وحسن التوسل ص ٥٩ وخزانة الأدب للحموى ص ٢٧٩ ط بولاق . والذى فى معاهد التنصيص ص ٣٤٤ ط بولاق عمرو بن الأهتم . قال : ولم أقف على ترجمة ابن الأهتم التغلبى قائل البيت . وفى الصناعتين لأبى هلال العسكرى ص ٢٨٨ ط الأستانة : عميرة ابن الأهتم ، ولم نقف فيا بين أيدينا من المراجع على ما يرجح إحدى هذه الروايات الثلاث .

(٣) العداء : الطلق الواحد بكسر الطاء وسكون اللام ، وهو الشوط .

ولا يعاب فى المبالَغة إلا ما خرج عن حدّ الإمكان، كقوله :

وأَخَفْتَ أهلَ الشرك حتى إنه * لَتخافك النُّطَف التى لم تُخلَق[1]

وأما إذا كان كقول قيس بن الخطيم :

طعنتُ ٱبنَ عبد القيس طعنةَ ثائر * لها نَفَذٌ لولا الشُّعاعُ أضاءها

٥ ملكتُ بها كَفِّى فأَنهرتُ[2] فَتقَها * يُرَى قائما من دونها ماوراءها

فإنّ ذلك من جيّد المبالَغة إذ لم يكن قد خرج مَخرج الأستحالة مع كونه قد بلغ النهايةَ فى وصفِ الطعنة، ومن أحسنِ ذلك وأبلغه قولُ أحد شعراء الحماسة :

رَهنتُ يدى بالعجز عن شكر بِرّه * وما بَعد[3] شكرى للشكور مَزيد

ولو كان مما يستطاع ٱستطعتُه * ولكنّ مالا يستطاع شديد

١٠ وأما عتاب المرء نفسَه — فهو من أفراد ٱبن المعتزّ، ولم يُنشِد عليه سوى بيتين ذكر أن الآمدىّ[4] أنشدهما عن الجاحظ وهما :

عصانىَ قومى فى الرشاد الذى به * أَمرتُ ومن يعصِ المجرِّب يندم

فصبرا بنى بكر على الموت إننى * أرى عارضا ينهلّ بالموت والدم

قال : ولا يصلح أن يكون شاهدا لهذا الباب إلا قولُ أحد شعراء الحماسة :

١٥ أقول لنفسى فى الخلاء ألومها * لكِ الويلُ ما هذا التجلّد والصبر

---

(١) البيت لأبى نواس من قصيدة يمدح بها الرشيد انظر معاهد التنصيص ص ٣٤٥ ط بولاق .

(٢) أنهرت : وسعت .

(٣) فى الحماسة : «وما فوق» ومعنى البيت يستقيم على كلتا الروايتين .

(٤) كذا فى الأصل وحسن التوسل . والذى فى تحرير التحبير لابن أبى الإصبع المحفوظ منه

٢٠ نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٦٥ بلاغة، وخزانة الأدب للحموى ص ١٨٠ ط بولاق : « الأسدىّ » ولم نقف فيا بين أيدينا من المظان على ما يرجح إحدى الروايتين .

وقولُ الآخرِ :

فَقَـدتُكِ من نفس شَعاعٍ فإننى * نَهيتُكِ عن هذا وأنتِ جميع[(١)]

(٤٨)

وما ناسب ذلك من الأمثلة .

وأما حُسن التضمين — فهو أن يضـمِّن المتكلِّم كلامَه كلمـةً من آية أو حديث أو مَثلٍ سائر أو بيت شعر ؛ ٥

ومن إنشادات ابن المعتزّ عليه :

عَـوَّذَ لـا بتُّ ضيفا له * أقراصَـه منِّى بياسينِ

فبِتُّ والأرض فراشي وقد * غنَّت قِفا نبْكِ مَصارينى

فضَمَّن بيتَه الأوّلَ كلمةً من السورة بتوطئة حَسَنة ، وبيتَه الثانىَ مَطلعَ قصيدة امرئ القيس . ١٠

ومما ضُمِّن معنى حديث النبىّ صلى الله عليه وسلم قولُ الآخرَ :

وأخٍ مسَّـه نزولى بقَـرْحٍ * مِثلَما مسَّنى من الجوع قَرْح[(٢)]

بتُّ ضَـيفا له كما حكم الدهـ * ـرُ وفى حكمه على الحرّ قبح

قال لى مذ نزلتُ وهـو من السكـ * ـرة بالهمّ طافحٌ ليس يصحو :

لِمْ تغرَّبتَ؟ قلت : قال رسول اللـ * ـه والقولُ منـه نُصحٌ ونُجْح : ١٥

« سافروا تغنموا » فقال : وقد قـ * ـال تمامَ الحديث : «صوموا تصِحّوا»

ومن تضمين الشعر قولُ بعضهم :

وقفنا بأنضاء حكَتنا لَواغب[(٣)] * «على مِثلها من أربُعٍ ومَلاعب»

وهو مطلع قصيدة لأبى تمّام ،

(١) الشعاع من النفوس : ما تفرقت همومها . والجميع : المجتمعة . (٢) فى الأصل : «داح» ٢٠
وهو تحريف ، والتصويب عن حسن التوسل . (٣) فى الأصل : «حكينا» بالياء المثناة التحتية ،
وفى حسن التوسل : «حنينا» بنون موحدة بعدها ياء مثناة ، وهو تحريف فى كليهما .

ومنه قولُ الغَزّى :

طُولُ حيـاة ما لهـا طائـل * نَغّص عنـدى كُلَّ ما يُشتهى
أصبحتُ مثلَ الطفل فى ضعفه * تَشـابَه المبـدأ والمنتهى
فلا تـلـم سمعى إذا خاننى * « إنّ الثمانين وبُلِّغتَهـا »

٥ المراد من التضمين هاهنا تمامُ البيت : * قد أحوجتْ سمعى إلى تُرْجُمان *
وإنما تركه لأن أوّل البيت يدُلّ عليه لاشتهاره، وهذا قد أكثر المتأخرون من استعماله فى أشعارهم، وضمّنوا البيت الكامل بعد التوطئة له .

وأما التلميح — وهو من التضمين، وإنما بعضهم أفرده — فهو أن يشير فى فحوى الكلام إلى مَثَلٍ سائر، أو بيت مشهور، أو قضية معروفة من غير أن يذكُره،

١٠ كقول الشاعر :

المستغيثُ بعمرو عند كُربته * كالمستغيث من الرمضاء بالنار

أشار إلى قضيّة كُليب حين استغاث بعمرو بن الحـارث ؛ ومنهم من يسمّى ذلك اقتباسا، وإيرادَ المثل كما هو تضمينا .

وأما إرسال المَثَل — فهو كقول أبى فِراس :

١٥ تهون علينا فى المعالى نفوسُنـا * ومن يخطب العلياء لم يُغـلِه المهر[1]

وكقول المتنبى :

تُبَكّى عليهنّ البطاريقُ فى الدجى * وهنّ لدينـا مُلقَيات كواسـد
بذا قضت الأيام ما بين أهلِها * مصائبُ قوم عنـد قوم فوائد .

(١) لم يغله المهر : أى أن مهرها لم يجعل من يخطبها غاليا عليها ؛ يريد أن مهرها نفس خاطبها
٢٠ وفى حسن التوسل وغيره : «لم يغلها» بتأنيث الضمير ، والمعنى عليه أن المهر الذى يدفع لها لا يصيرها غالية عليه أيا كان نوعه وقيمته .

وأما إرسال مَثَلين — فهو الجمع بين مَثَلين، كقول لَبيد :

ألا كلُّ شيء ما خلا اللهَ باطل * وكلُّ نعيم لا مَحالةَ زائـل

وابيات زهير بن أبى سُلمى التى فيها ومَن ومَن ، وقـد تقدّم ذكر ذلك مستوفًى فى باب الأمثال، وهو الباب الأوّل من القسم الثانى من هذا الفنّ، وهو فى السِّفر الثالث.

وأما الـكلام الجامع — فهو أن يكون البيت كلُّه جاريا مَجرى مَثَـل واحد ٥ كقول زهير :

ومن يك ذا فَضْلٍ ويبخَلْ بفضله * على قومه يُستغنَ عنـه ويُذمَمِ

ومن لا يصانِـع فى أمور كثيرة * يُضرَّس بأنيـاب ويُوطأ بمَنْسِمِ(١)

ومهما تكن عند آمرئ من خَلِيقة * وإن خالها تَخفى على الناس تُعـلَمِ

وكقول أبى فراس : ١٠

إذا كان غيرُ الله فى عُدّة الفـتى * أتتـه الرزايا من وجوه الفوائد

وكقول المتنبىّ :

وكم من عائب قولا صحيحا * وآفتُـه مِن الفهـم السـقيمِ

وقـولِه :

ومن نَكَد الدنيا على الحرّ أن يَرَى * عدوّا له ما من صداقته بـدّ ١٥

وقـولِه :

ومن البليّـة عَذْلُ من لا يرعوِى * عن جهله وخطابُ من لا يَفهمُ

وقـولِ :

إنا لفى زمن تركُ القبيـح به * مِن أكثرِ الناس إحسانٌ وإجمال.

(١) المنسم : خف البعير. ٢٠

وأما اللّفّ والنشر — فهو أن يذكُر آثنين فصاعدا ثم يأتى[1] بتفسيرذلك بجملة مع رعاية الترتيب ثقةً بأن السامع يردّ إلى كل واحد منها ما له، كقوله تعالى : ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾؛

ومن النظم قولُ الشاعر :

٥ ألستَ أنت الذى من وَرْد نعمته * ووِرْد راحتـــه أَجنِى وأغترِف

وقد لا يراعَى فيه الترتيبُ ثقةً بأن السامع يردّ كل شىء إلى موضعه سواء تقدّم أو تأخر، كقول الشاعر :

كيف أسلو وأنتَ حِقْف[2] وغصن * وغزال لحـــظا وقَـــدًّا ورِدفا.

وأما التفسير — وهو قريب منه — فهو أن يذكُر لفظا ويَتوهّمَ أنه يحتاج

١٠ إلى بيانه فيعيده مع التفسير، كقول أبى مُسْهِر :

غيثٌ وليثٌ [فغيث][3] حين تسأله * عُرفا وليثٌ لدى الهيجاء ضِرغام

ومنه قول الشاعر :

يُحيِي ويُردِى بجَـــدواه وصارمِه * يُحيِي العُفاةَ ويُردِى كلَّ من حَسدا

ومن ذلك أن يذكر معانىَ ويأتىَ بأحوالهـا من غير أن يزيد أو ينقُص

١٥ كقول الفرزدق :

لقد جئتَ قوما لو لجأتَ إليهمو * طريدَ دم أو حاملا ثِقْــل مَغْرَم

لأَلفَيتَ فيهم معطيـا ومُطاعنا * وراءك شَزْرا بالوشِــيج[4] المقوَّم

لكنه لم يراع شرط اللّفّ والنشر

(١) فى الأصل : «يرمى تفسير» وفيه نقص وتحريف ، والتصويب عن حسن التوسل .

٢٠ (٢) الحقف بالكسر : الرمل المعوجّ . (٣) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ؛ وقد نقلناها عن حسن التوسل إذ بها يستقيم الوزن والمعنى . (٤) أراد بالوشيج الرماح .

وقولِ آخر :

فوا حسرتا حتى متى القلبُ مُوجَعٌ * بفقد حبيب أو تعـــذّرِ إفضال

فراقُ حبيب مِثلُه يورث الأَسى * وخَـلّة حرّ لا يقــوم بهـا مالى (١)

ومنه قول ٱبن شَرَف :

سل عنه وٱنطق به وٱنظر إليه تجدْ * مِلءَ المسامع والأفواه والمُقَـــل

ومن احسن ما فى هذا الباب قول ابن الرومىّ :

آراؤكم ووجوهــكم وســيوفكم * فى الحـادثات إذا دَجَون نجوم

منهـا مَعـالمُ للهـدى ومصابح * تجــلو الدجى والأخرَياتُ رُجوم

وفسادُ ذلك أن يأتى بإزاء الشيء بما لا يكون مقابِلا له ، كقول الشاعر :

فيأيها الحـيران فى ظُـــلَمَ الدجى * ومن خاف أن يلقاه بغىٌ من العدا

تعالَ إليــه تلق من نور وجهه * ضياءً ومن كفّيْه بحرا من الندى

فأتى بالنــدى بإزاء بَغْى العدا ، وكان يجب أن يأتىَ بإزائه بالنصر أو العصمة أو الوَزَرِ وما جانسه ، أو يذكُرَ فى موضع البغى الفقرَ والعُدْمَ وما جانس ذلك .

وأما التعديد — ويسمّى سـياقةَ الأعداد — فهو إيقاع أسماء مفردة على سـياق واحد ، فإن روعى فى ذلك ٱزدواج أو جناس أو تطبيــق أو نحو ذلك كان غايةً فى الحسن ، كقولهم : وضع فى يده زمام الحَلّ والعَقْد ، والقبولِ والردّ ، والأمرِ والنهى ، والبَسْطِ والقبض ، والإبرامِ والنقض ، والإعطاءِ والمنع ؛ ومن النظم قول المتنبىّ :

الخيــلُ والليــلُ والبَيْداءُ تعرفنى * والضربُ والطعنُ والقرطاسُ والقلمُ

(١) فى الأصل : « يالى » بالياء المثناة ، وهو تحريف ؛ والخلّة : الحاجة .

وأما تنسيق الصفات — فهو أن يذكر الشيء بصفات متوالية، كقوله عزّ وجلّ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ وقولِ النبي صلى الله عليه وسلم: "ألا أخبركم بأحبِّكم إلىّ وأقربِكم منّى مجالسَ يوم القيامة؟ أَحاسنُكم أخلاقا، الموطَّئون أكنافا، الذين يألفون ويؤلفون"؛

٥

ومن النظم قولُ أبى طالب فى النبى صلى الله عليه وسلم:

وأبيضَ يُستسقَى الغمامُ بوجهه * ثِمالُ اليتامى عِصمةٌ للأرامل

وقولُ المتنبىّ:

دانٍ بعيدٌ مُحِبٌّ مبغضٌ بَهِجٌ * أغرُّ حُلْوٌ مُمِرٌّ لَيِّنٌ شرِس.

١٠

وأما الإيهام — ويقال له التورية والتخييل — فهو أن يذكر ألفاظا لها معانٍ قريبة وبعيدة، فإذا سمعها الإنسان سبق إلى فهمه القريبُ، ومرادُ المتكلّم البعيدُ مثاله قول عمرَ بنِ أبى ربيعةَ:

أيها المنكِح الثريّا سُهيلًا * عَمرَكَ اللهَ كيف يلتقيان

هى شاميّة إذا ما ٱستقلّت * وسُهَيْلٌ إذا استقلّ يمانى

١٥

فذكر الثريا وسهيلا ليوهم السامعَ أنه يريد النجمين، ويقول: كيف يجتمعان والثريّا من منازل القمر الشاميّة، وسهيل من النجوم اليمانيّة؟ ومرادُه الثريّا التى كان يتغزّل بها لمّا زُوّجت بسهيل؛ ومن ذلك قولُ المعرّى:

إذا صدق الجَدّ ٱفترى العمّ للفتى * مكارمَ لا تَخفى وإن كَذَب الخال

فإنّ وهم السامع يذهب إلى الأقارب، ومراده بالجَدّ : الحظُّ، وبالعَمّ : الجماعةُ من الناس، وبالخال : المَخيلةُ، ومن ذلك قولُ الحريريّ في [وصف الإبرة والمِيلِ في] المقامة الثامنة :[1]

وقولُه أيضا :

يا قـــوم كم من عاتقٍ[2] عانسٍ * ممدوحةِ الأوصافِ في الأنديه
قتلتُهـا لا أتّـــقي وارثا * يَطلب منّي قَوَدا أو ديه

يريد بالعاتق العانس : الخمر، وبقتلها : مَزْجَها، كما قال حسّان :

إن التى عاطَيْتَنِي فـــرددتُها * قُتلتْ قُتلتَ فهاتها لم تُقتَلِ

وأمثالُ ذلك كثيرة .

وعنـــد علماء البيان : التخييل تصوير حقيقة الشيء للتعظيم، كقوله تعالى : ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ والغرض منـه تصوير عَظَمته والتوقيفُ[3] على كُنه جلاله من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهةِ حقيقةٍ أو مجاز، وكذلك قوله صـلّى الله عليـه وسلم : " إنمـا نحن حَفْنةٌ من حَفَنات ربّنـا " قال الزمخشري : ولا يُرَى باب في علم البيان أدقّ ولا ألطفَ من هذا الباب .

(١) هذه التكملة ساقطة من الأصل . وقد نقلناها عن حسن التوسل لاقتضاء المقام إثباتها .

(٢) العاتق : الجارية التى أدركت وبلغت في بيت أبيها فخدّرت فيه ولم تتزوّج ، سميت بذلك لأنها عتقت من الصبا ومن خدمة أبويها ولم يملكها زوج بعد ، والجمع عواتق . والعانس التى كبرت في بيت أبيها ولم تتزوج .

(٣) كذا في حسن التوسـل وغيره . والذى في الأصـل : « والتوقف في كنه » وما أثبتناه أظهر في المراد وأدلّ على الغرض .

وأما حُسن الابتداءات — قال: هذه تسمية ٱبن المعتزّ، وأراد بها ٱبتداءاتِ القصائد، وفرّع المتأخرون من هذه التسمية براعةَ الاستهلال، وهو أن يأتىَ الناظم أو الناثر فى ٱبتداء كلامه ببيت أو قرينة تدلّ على مراده فى القصيدة أو الرسالة أو مُعظَمِ مراده؛ والكاتب أشدّ ضرورةً إلى ذلك من غيره ليَبْنىَ كلامه على نَسَق واحد دَلّ عليه من أوّل عِلْمٍ بها مقصده[1]، إما فى خُطبة تقليد، أو دعاء كتاب، كما قيل لكاتب: ٱكتب إلى الأمير بأن بقرة ولدت حيوانا على شكل الإنسان، فكتب: أما بعد حمد الله خالق الإنسان فى بطون الأنعام

وكقول أبى الطيّب فى الصلح الذى وقع بين كافور وبين ابن مولاه:

حَسَم الصلحُ ما ٱشتهته الأعادى * وأذاعتــه ألسُنُ الحسّاد

وأمثال ذلك.

قال: وينبغى أن لا يَبتدئَ بشىء يُتطيَّر منه، كقول ذى الرّمّة:

* ما بال عينِك منها الماء يَنسكب *

وقولِ البحترىّ:

* لكَ الويل من ليل تَقاصَر آخرُه *

وكقول المتنبىّ:

كفى بك داءً أن تَرى الموت شافيا * وحسبُ المنايا أن يكنّ أمانيا

وكقوله:

مُلِثُّ[2] القَطْر أَعطِشْها رُبوعا * وإلّا فاسـقها السّمّ النقيعا

(١) كذا فى الأصل. وهو غير ظاهر، والذى يلوح لنا أن فى هذه العبارة تقديما وتأخيرا وزيادة «ها»، والأصل فيها هكذا: «دل على مقصده من أول علم به» أخذا من عبارة حسن التوسل ص ٦٥ ط الوهابية، ونصها: «فيبنى كلامه على نسق يستدل منه على مقصده من أوّل وهلة».

(٢) الملث: من اللث، وهو دوام المطر.

قال : وينبغى أن يراعىَ فى الابتداءات ما يقرُب من المعنى إذا لم تتأتّ له براعةُ الاستهلال، وتسهيلَ اللفظ وعذوبتَه وسلاسةَ ألفاظِه، وقيل : إن أحسن ابتداء ابتدأت به العرب قولُ النابغة :

كِلينى لهمّ يا أُميمــة ناصب * وليلٍ أقاسيه بطىء الكواكب

ومن أحسن ما ابتدأ به مولَّدٌ قول إسحاقَ بنِ إبراهيم المَوْصِلىّ :

هل إلى أن تنام عينى سبيــل * إنّ عهدى بالنوم عهد طويل

ويحسن أن يبتدئ فى المديح بمثل قول أَبْزُون العُمانىّ :

على مِنبر العلياء[1] جَدُّك يَخطب * ولِلبَلدة العذراء سَـيفُك يَخطب

وقولِ المتنبىّ :

عدوّكَ مــذموم بكلّ لسان * وإن كان من أعدائك القمَرَان

وقولِ التِّيفاشى :

ما هزّ عِطفيه بين البِيض والأَسَل * مِثلُ الخليفة عبـدِ المؤمن بنِ على

وفى التشبيب كقول أبى تمّام :

على مِثلِها من أربُعٍ وملاعب * أُذيلت مصُوناتُ الدموع السواكب

وفى النسيب كقول المتنبىّ :

أتراها لكثرة العشّاق * تحسَب الدمع خِلْقةً فى المآقى

وفى المَرَاثى كقول أبى تمّام :

كذا فَلْيجِلَّ الخطب ولْيَفدَح الأمر * وليس لعين لم يَفض ماؤها عذر .

(١) فى الأصل : «العلماء» وهو تحريف .

وأما براعة التخليص — فهو أن يكون التشبيب أو النسيب ممزوجا بما بعده من مدح وغيرِه غيرَ منفصل عنه، كقول مسلم بن الوليد :

أجِدَّكِ هل تَدرِين أن ربّ ليـلةٍ * كأنّ دجاها من قرونكِ تُنشَر

نَصبتُ لها حتى تجلّت بغُـرّة * كغرّة يحيى حين يُذكَر جعفر

٥ وكقول المتنبّى :

نودّعهم والبين فينا كأنه * قَنا ابنِ أبى الهيْجاء فى قلب فَيلَق.

وأما براعة الطلب — قال : وهو أن تكون ألفاظ الطلب مقترنة بتعظيم الممدوح، كقول أميّة بنِ أبى الصَّلْت :

أأذكر حاجتى أم قد كفانى * حياؤك إنّ شيمتَك الحياء

١٠ إذا أثنى عليك المرء يوما * كفاه مِن تعرّضِه الثناء

وكقول المتنبى :

وفى النفس حاجاتٌ وفيكَ فَطانةٌ * سكوتى بيانٌ عندها وخطاب.

وأما براعة المقطع — فهو أن يكون آخرُ الكلام الذى يقف عليه المترسِّل أو الخطيب أو الشاعر مستعذَبا حَسَنا، لتَبقَى لذّته فى الأسماع، كقول أبى تمّام :

١٥ أبقت بنى الأصفَر المصفرِّ كاسمهِم * صُفرَ الوجوه وجلّت أوجهَ العرب

وكقول المتنبى :

وأُعطيتَ الذى لم يُعطَ خَلقٌ * عليك صلاة ربّك والسلام

وكقول الغزّى :

بقِيتَ بقاءَ الدهر يا كهفَ أهله * وهذا دعاء للبريّة شامل .

وأما السؤال والجواب — فهو كقول أبى فِراس :

لك جســمى تُعِلّه * فــدمى لِمْ تَطُــلُّه؟[1]

قال إن كنتُ مالـكا * فلىَ الأمر كلُّه

وأمثالِ ذلك . وقد أوردنا منه فى باب الغزل ما فيه كفاية .

وأما صحة الأقسام — فهو عبارة عن استيفاء أقسام المعنى الذى هو آخذ فيه بحيث لا يغادر منه شيئا ؛ ٥

ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ وليس فى رؤية البرق إلا الخوفُ من الصواعق ، والطمعُ فى المطر ؛

وقولُه تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ فلم يُبقِ قسما من أقسام الهيئات حتى أتى به ؛ ١٠

وقولُه تعـالى : ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَـاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ ٱلذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾ ، ومن ذلك قولُه صلّى الله عليه وسلم: "ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدّقت فأمضَيت" ولا رابع لهذه الأقسام ؛

ووقف أعرابىّ على حَلْقة الحسن البَصرىّ فقال : رحم الله من تصـدّق من فَضل ، أو واسى من كَفاف ، أو آثر من قوت ؛ فقال الحسن : ما ترك الأعرابىّ منكم أحدا حتى عمّه بالمسألة ؛ ١٥

ومن أمثلة هذا الباب فى الشعر قولُ بشّار :

فراح فريق فى الإسار ومِثـلُه * قتيل ومِثـلٌ لاذ بالبحر هارِبه

(١) فى حسن التوسل : «تحله» ومعنى البيت يستقيم على كلتا الروايتين ، وتطله : من طل دمه إذا أهدر ولم يؤخذ بثأره . ٢٠

وأصله قول عمرو بن الأهتم :

إشـــربا ما شربتما فهُـــذَيلٌ * من قتيـــل وهارب وأســير

ومن جيد صحة الأقسام قولُ الحماسيّ :

وهبْها كشيء لم يكن أو كنازح * به الدار أو من غَيّبتـــه المقابر

فاستوفَى جميع أقسام المعدوم ؛

وقولُ أبى تمّـام فى الأَفْشِين لمّـا احتَرق بالنار :

صلّى لهـا حيّا وكان وَقودَها * ميـــتا ويَدخلها مـــع الفجّار

ومن قديم ما فى ذلك من الشعر قولُ زهير :

وأعلم ما فى اليوم والأمس قَبله * ولكننى عن علم ما فى غدٍ عَمِى

ومن النادر فى صحة الأقسام قولُ عمَرَ بنِ أبى ربيعة :

تهيم إلى نُعْم فلا الشّـمل جامعٌ * ولا الحبل موصول ولا أنت مُقصِر

ولا قُربُ نُعْم إن دنت لك نافعٌ * ولا بُعدها يُسلِى ولا أنت تصبر.

وأما التوشيح — فهو أن يكون معـنى الكلام يَدُلّ على لفظ آخره، فيَتنزل المعنى منزلة الوِشاح ، ويَتنزّل أوّلُ الكلام وآخرُه منزلة العاتق والكشح اللذين يجول عليهما الوشاح .

وقال قُدامةُ : هو أن يكون فى أوّل البيت معنى إذا عُلم عُلمتْ منه قافية البيت بشرط أن[1] يكون المعنى المقدَّمُ بلفظه من جنس معنى القافيـة بلفظه ، كقول الراعى النُّمَيْرِىّ :

(١) كذا ورد هذا التعريف فى الأصل وحسن التوسل فى النسخة المخطوطة منه المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٧٧ أدب ؛ وعبارة قدامة فى كتابه نقد الشعر ص ٦٣ ط الجوائب : هو أن يكون أوّل البيت شاهداً بقافيته ومعناها متعلقا به حتى أن الذى يعرف قافية القصيدة التى البيت منها إذا سمع أوّل البيت عرف آخره وبانت له قافيته .

فإن وُزن الحصى فوزنت قومى * وجدت حصى ضريبتهم رزينا (١)

فإن السامع إذا فهم أن الشاعر أراد المفاخرة برزانة الحصى ، وعَرف القافيــة والروىّ ، عَلم آخر البيت ؛ ومن أمثلته ما حُكىَ عن عمَر بنِ أبى ربيعة أنه أنشد عبد الله ابنَ عباس رضى الله عنهما :

* تَشُطّ غدا دار أحبابنا *

فقال له عبد الله :

* ولَلدارُ بعــد غد أبعَدُ *

فقال له عمر : هكذا والله قلتُ ، فقال له عبد الله : وهكذا يكون .

وأما الإيغال — فمعناه أن المتكلّم أو الشاعر إذا انتهى إلى آخر القرينة أو البيت آستخرج سجعةً أو قافيــةً تفيد معنى زائدا على معنى الكلام ، وأصــله من أوغل فى السير إذا بلغ غاية قصده بسرعة .

وفسّره قُدامةُ بأن قال : هو أن يَستكمل الشاعر معنى بيته بتمــامه قبــل أن يأتىَ بقافيته ، فإذا أراد الإتيان بها أفاد معنى زائدا على معنى البيت ، كقول ذى الرُّمّة :

قِف العِيسَ فى آثار ميّةَ واسألِ * رسوما كأخلاق الرداء المسلسَل (٢)

فتَمّم كلامه قبل القافية ، فلما آحتاج إليها أفاد بها معنى زائدا ، وكذلك صَنع فى البيت الثانى فقال :

أَظُنّ الذى يُجدِى عليك سؤالُها * دموعا كتبذير الجمــان المفصَّل

فإنه تمّم كلامه بقوله : كتبذير الجمــان ، وآحتاج إلى القافيــة ، فأتى بهــا تفيد معنى زائدا لو لم يؤتَ بها لم يحصل .

(١) الضريبة : السجية والطبيعة ، يصفهم برجاحة الحلم وسكون الطبع .

(٢) الثوب المسلسل : الردىء النسج .

وحكي عن الأصمعيّ أنه سئل عن أشعر الناس فقال : الذى يأتى إلى المعنى الخسيس فيجعله بلفظه كثيرا ، وينقضى كلامه قبل القافية، فإن آحتاج إليها أفاد بها معنى ، فقيل له : نحوُ من ؟ فقال : نحوُ الفاتح لأبواب المعانى آمرئ القيس حيث قال :

كأنّ عيونَ الوحش حول خبائنا * وأرحُلنا الجَزْعُ(١) الذى لم يثقّبِ

ونحوُ زُهير حيث يقول :

كأنّ فُتاتَ العِهن فى كلّ منزل * نزلن به حَبُّ الفَنا(٢) لم يحطَّمِ

ومن أبلغ ماوقع فى هذا الباب قولُ الخنساء :

وإنّ صخرا لتأتمّ العُفاة(٣) به * كأنه عَلَمٌ فى رأسه نار

ومنه قول آبن المعتزّ لآبن طَباطَبا العَلَوى :

فأنتم(٤) بنوا بنته دوننا * ونحن بنوا عمّه المسلم

ومن أمثلة ذلك من شعر المتأخّرين قولُ الباخَرْزىّ :

أنا فى فؤادكَ فارمِ طرْفكَ نحوَه * ترنى فقلت لها وأين فؤادى

وقولُ آخرَ :

تعجّبتْ من ضنى جسمى فقلت لها * على هواكِ فقالت عندىَ الخبَرُ

(١) الجزع بفتح الجيم وتكسر : الخرز اليمانىّ فيه سواد وبياض تشبّه به الأعين .

(٢) ألفنا بالقصر : عنب الثعلب، الواحد فناة . وفى الأصل : « القنا » بالقاف المثناة؛ وهو تحريف .

(٣) فى رواية : « الهداة » كما فى حسن التوسل وغيره ، ومعنى البيت يستقيم على كلتا الروايتين .

(٤) فى الأصل : « فنحن بنوا بيته » وهو تحريف لايستقيم به معنى البيت ، والتصويب عن حسن التوسل وغيره من كتب الأدب .

وأما الإشارة — فهى أن يشتمل اللفظ القليل على معان كثيرة بإيماء إليها، وذكرِ لمحة تدلّ عليها، كقوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾، ﴿ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ .

وكقول امرئ القيس :

فإن تَهلِك شَنوءة أو تُبَدَّلْ[1] * فسيرى إنّ فى غَسّان خالا

بعزّهمو عَزَزتِ وإن يَذِلّوا * فذلّهمــو أنالك ما أنالا

وكقوله أيضا :

فظــلّ لنا يوم لذيذ بنَعْمة * فقل فى نعيم نحسه متغيّب .

وأما التذييل — وهو ضــدّ الإشارة — فهو إعادة الألفــاظ المترادفة على المعنى الواحد حتى يظهر لمن لم يفهمه، و يتوكّد عند مَن فهِمه، كقوله :

إذا ما عقــــدنا له ذمّـــةً * شددنا العِناج[2] وعقد الكَرَب

وقول آخرَ :

ودَعَوا نَزالِ فكنتُ أوّل نازل * وعلام أركبــه إذا لم أنزِلِ

ويقرب منه التكرار، كقول عَبيد :

هل لا سألت جموع كِنْــدَةَ يوم ولّوا أين أينــا؟

(١) يريد أزد شنوءة؛ قال ياقوت : شنوءة بالفتح ثم الضم وواو ساكنة ثم همزة مفتوحة وهاء : مخلاف باليمن بينها وبين صنعاء اثنان وأربعون فرسخا ، تنسب اليها قبائل من الأزد يقال لهم : أزد شنوءة. ثم قال : والنسبة اليهم شــنائىّ ؛ قال ابن السكيت : ربمــا قالوا أزد شنوه بالتشديد بغير همزة ، ينسب اليهم : شنوىّ .

(٢) العناج : حبل يشد فى أسفل الدلو العظيمة ثم يشد فى العراقىّ . والكرب بالتحريك حبــل يشد فى وسط العراقى ليلى الماء فلا يعفن الحبل الكبير .

وكقول آخر :

وكانت فزارةُ تَصلى بنـا * فأَولى فَزَارةُ أَولى فزارا .

وأما الترديد — فهو أن تعلّق لفظـة فى البيت بمعنى ، ثم تردّها فيـه بعينها وتعلّقها بمعنى آخر ،

كما قال زهير :

من يَلقَ يوما على عِلّاته هَرِما * يلق السماحة منـه والندى خُلُقا

وكقول آخر :

وأحفظ مالى فى الحقوق وإنه * لَجَمٌّ وإنّ الدهر جَمٌّ عجائبـه

وكقول أبى نواس :

صفراء لا تَنزِل الأحزان ساحتَها * لو مسّهـا حَجَر مسّـــته سرّاء .

وأما التفويف — فهو مشتق من الثوب المفوَّف ، وهو الذى فيـه خطوط بيض ، وهو فى الصناعة عبارة عن إتيـان المتكلم بمعانٍ شتّى من المـدح أو الغزل أو غير ذلك من الأغراض ، كلُّ فنّ فى سجعـة منفصلة عن أختها مع تساوى الجمل فى الوزنيّة ، وتكون فى الجمل الطويلة والمتوسّطة والقصيرة ؛

فمثال ما جاء منه فى الجمل الطويلة قولُ النابغة الذُّبيانىّ :

فلله عينا من رأى أهلَ قُبّةٍ * أضرَّ لمن عادى وأكثرَ نافعا

وأعظمَ أحلاما وأكبرَ سيّدا * وأفضلَ مشفوعا إليه وشافعا

ومثال ما جاء منه بالجمل المتوسطة قولُ أبى الوليد بن زيدون :

تِهْ أَحتملْ ، واستطِلْ أصبِرْ ، وعِزَّ أَهُنْ * ووَلِّ أُقبِـلْ ، وقُـلْ أسمَعْ ، ومُرْ أُطِعِ

ومثال ما جاء منه بالجمل القصيرة قولُ المتنبىّ :

أَقِلْ أَنِلْ أَقطِع آ ـلِ عَلِّ سَلِّ أَعِدْ * زِدْ هَشِّ بَشِّ تَفَضَّلْ أَدنِ سُرَّ صِلِ .

وأما التسهيم — فهو مأخوذ من البُرد المسهَّم، وهو المخطَّط الذى لا يتفاوت ولا يختلف، ومنهم من يجعل التسهيم والتوشيح شيئا واحدا، ويُشرِك بينهما بالتسوية، والفرق بينهما أنّ التوشيح لا يدلّك أوّله إلا على القافية فَحَسْب، والتسهيم تارة يدلّ على عَجُز البيت، وتارة على ما دون العجز؛

٥ وتعريفه أن يتقدّم من الكلام مايدلّ على ما يتأخر، تارة بالمعنى، وتارة باللفظ، كأبيات جَنوب أختِ عمرو ذى الكلْب، فإن الحذّاق بمعنى الشعر وتأليفه يعلمون أن معنى قولها :

* فأُقسم ياعمرو لو نَبّهاك *

يقتضى أن يكون تمامه :

١٠ * إذن نَبّها منكَ داءً عُضالا *

دون غيره من القوافى، كما لو قالت مكانَ «داء عضالا» : ليثا غَضوبا، أوأفعى قَتولا، أو سمّا وَحِيّا، أو ما يناسب ذلك، لأن الداء العضال أبلغُ من جميع هــذه الأشــياء وأشد، إذ كلٌّ منها يمكن مغالبته أو التوقّى منه، والداء العُضال لادواء له، فهذا مما يُعرَف بالمعنى؛

١٥ وأما ما يدلّ فيه الأوّل على الثانى دَلالة لفظيّة فهو قولها بعده[1] :

إذن نَبّها ليثَ عِرّيسة * مُفِيتا مُفيدا نفوسا ومالا

فإن الحاذق بصناعة الكلام إذا سمع قولهــا : « مفيتا مفيدا » تحقّق أن هذا اللفظ يقتضى أن يكون تمامه : « نفوسا ومالا »؛ وكذلك قولها :

* فكنتَ النهار به شمسه *

٢٠ (١) فى الأصل : «من قولهــا»، وقوله «من» زيادة من الناسخ .

يقتضى أن يكون [بعده][1] :

* وكنتَ دجى الّليل فيه الهلالا *

ومن ذلك قولُ البحترىّ :

* وإذا حاربوا أذلّوا عزيزا *

٥ يحكُم السامع بأن تمامه :

* وإذا سالموا[2] أعزّوا ذليلا *

وكذلك قوله :

أَحلّت دمى من غير جرم وحَرّمت * بلا سبب يوم اللقاء كلامى

* فليس الذى حلّلته بمحلَّل *

١٠ يعرف السامع أن تمامه :

* وليس الذى حَرّمتِه بحرام * .

وأما الاستخدام — فهو أن يأتىَ المتكلّم بلفظة لها معنيان، ثم يأتى بلفظتين يستخدم كلّ لفظة منهما فى معنى من معني[3] تلك اللفظة المتقدّمة، وربما ٱلتبس الآستخدام بالتورية من كون كل واحد من البابين[4] مفتقرا إلى لفظة لها معنيان ، ١٥ والفرق بينهما أن التورية ٱستعمالُ أحد المعنيين من اللفظة، وإهمالُ الآخَر، والآستخدام ٱستعمالها معا، ومن أمثلته قولُ البحترىّ :

فسَقَى الغَضى والسّاكنيه وإن همو * شَبّوه بين جوانح وقلوب

---

(١) هذه الكلمة التى بين مربعين ساقطة من الأصل ، والسياق يقتضى إثباتها أخذا من عبارة حسن التوسل ص ٧١ ط الوهابية وغيره ، فإن عبارته : « يقتضى أن يتلوه » .

٢٠ (٢) فى الأصل : «وان» وهو تحريف .

(٣) عبارة الأصل : « من معانى ذلك » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق .

(٤) فى الأصل : «الناس» ؛ وهو تحريف .

فإن لفظة الغضى محتملةٌ للوضع والشجر، والسُّقيا صالحة لها، فلمّا قال: «والساكنيه» استعمل أحد معنيي اللفظ، وهو دَلالته بالقرينة على الموضع، ولمّا قال: «شَبُّوه» استعمل المعنى الآخر، وهو دَلالته بالقرينة على الشجر؛ ومن ذلك قولُ الشاعر[1]:

إذا نزل السماءُ بأرض قوم * رَعَيناه وإن كانوا غِضابا

أراد بالسماء الغَيثَ، وبضميره النَّبتَ.

وأما العكس والتبديل — فهو أن يقدِّم فى الكلام أحدُ جزئيه ثم يؤخَّر، ويَقعُ على وجوه:

منها أن يقع بين طرَفَى الجملة، كقول بعضهم: عادات السادات، ساداتُ العادات؛

ومنها أن يَقع بين متعلِّقَى فعلين فى جملتين، كقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ ومنه بيت الحماسة:

فردّ شـعورَهن السود بِيضا * وردّ وجوهَهن البِيض سُودا؛

ومنها أن يَقع بين كلمتين فى طرَفَى جملتين، كقوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ وقولِه تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ وقـولِ أبى الطيّب:

ولا مجدَ فى الدنيا لمن قَلّ ماله * ولا مالَ فى الدنيا لمن قَلّ مجده.

وأما الرجوع — فهو أن يعود المتكلّم على[2] كلامه السابق بالنقض لنكتة كقول زهير:

قف بالديار التى لم يَعفُها القِدَم * بَـلى وغـيّرها الأرواحُ والدِّيَم

(١) هو جرير بن عطية الخطفى.

(٢) فى الأصل: «من» وما أثبتناه عن حسن التوسل.

كأنه لمّا وقف على الديار عَرته رَوعة ذَهَل بها عن رؤية ما حصل لها من التغيّر فقال : «لم يَعفُها القِدم» ثم ثاب إليه عقله وتحقّق ماهى عليه من الدروس، فقال:
بلى عَفَتْ وغيّرها الأرواح والدِّيَمُ ؛

ومنه بيت الحماسة :(١)

أليس قليلا نظرةٌ إن نظرتُها * إليك وكَلّا ليس منكِ قليل.

وأما التغاير — فهو أن يغاير المتكلّم الناسَ فيما عادتهم أن يمدحوه فيذمّه أو يذمّوه فيمدحَه ؛

فمن ذلك قولُ أبى تمّام يغاير جميع الناس فى تفضيل التكرّم على الكرم :

قد بلَونا أبا سَعيدٍ حديثا * وبلَونا أبا سَعيدٍ قديما
فوردناه سائحا وقَليبا * ورَعيناه بارِضا وجَميما(٢)
فعلمنا أن ليس إلا بشِقّ النفس صار الكريم [يدعى](٣) كريما

وهو مغاير لقوله على العادة المألوفة :

لا يُتعِب النائل المبذول هِمّتَه * وكيف يُتعِب عينَ الناظر النظر

ومنه قول ابن الرومىّ فى تفضيل القلم على السيف :

إن يخدُم القلمَ السيفُ الذى خَضَعت * له الرقابُ ودانت خوفَه الأمم
فالموتُ والموتُ لا شىءٌ يعادِله * ما زال يَتبَع ما يَجرِى به القلم

(١) البيت ليزيد بن الطثرية .

(٢) البارض : أوّل ما يظهر من نبات الأرض، والجميم : النبات الكثير، أو هو ما نهض وانتشر منه . وفى الأصل : «سنيا» وفى حسن التوسل : «هشيا»، وهو تحريف فى كليهما، والتصويب عن ديوان أبى تمام ص ٣٦٠ ط الأدبية .

(٣) هذه الكلمة ساقطة من الأصل . وقد نقلناها عن ديوان أبى تمام إذ بها يستقيم البيت .

كذا قضى الله للأقلام مـذ بُرِيَت * أنّ السيوف لهـا مذ أُرهِفت خَدَم

وغايره المتنبيّ على الطريق المـألوف فقال :

حتى رجعتُ وأقلامى قـوائلُ لى * المجـد للسيف ليس المجــد للقلم

اكتب بها أبدا قبل الكِتاب بنـا * فإنما نحن للأسـياف كالخَدَم.

٥ وأما الطاعة والعصيان — فإنه قال : هذا النوع آستنبطه أبو العلاء المَعرّى عند نظره فى شعر أبى الطيّب، وسمّـاه بهـذه التسمية، وقال : هو أن يريد المتكلّم معنى من المعانى التى للبديع[1] فيَستعصِى عليه لتعذّر دخوله فى الوزن الذى هو آخذ فيـه فيأتى موضعَه بكلامٍ غيرِه يتضمّن معنى كلامه، ويقوم به وزنُه، ويحصل به معنى من البديع غير[2] الذى قصَده، كقول المتنبيّ :

١٠ يرُدّ يدا عن ثـوبها وهو قادر * ويَعصِى الهوى فى طَيفها وهو راقد

فإنه أراد[3] أن يقول : يرُدّ يدا عن ثوبهـا وهو مستيقظ ، حتى إذا قال :

* ويَعصِى الهوى فى طَيفها وهو راقد *

يكون فى البيت مطابقة، فلم يطعه الوزن، فأتى بقادر فى مَوضـع مستيقظ لتضمّنه معناه، فإنّ القادر لا يكون إلا مستيقظا وزيادة، فقـد عصاه فى البيت الطباق

١٥ وأطاعه الجناس بين قادر و راقد، وهو جناس العكس ؛

---

(١) كذا فى الأصل وحسن التوسـل وشرح الباعونية المحفوظ منـه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٨٣ بلاغة ؛ وعبـارة ابن أبى الإصبع فى تحرير التحبير المحفوظ منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٦٥ بلاغة : « أن يريد المتكلم معنى من معانى البديع » .

(٢) كذا فى تحرير التحبير وحسن التوسل . والذى فى الأصل : «عن» .

٢٠ (٣) كذا فى حسن التوسل ص ٧٣ ط الوهبية وتحرير التحبير لابن أبى الإصبع . وعبارة الأصل : « فإنه لو أراد » ؛ وقوله : « لو » زيادة من الناسخ بدليل قوله فيما سيأتى « فلم يطعه » بإثبات الفـاء ؛ على أنه يؤخذ مما سبق فى تعريف هذا القسم من قوله : «أن يريد المتكلم» أن التمثيل لا يتم إلا بأن يكون الشاعر قد أراد ذلك بالفعل .

وأنكر آبن أبى الإصبع أن يكون هذا الشاهد من باب الطاعة والعصيان ، لأنه كان يمكنه أن يقول عوض قادر : ساهر ، وإنما المتنبيّ قصد أن يكون فى بيتــه طباقٌ معنوىّ ، لأن القادر ساهر وزيادة ، إذ ليس كلّ ساهر قادرا ، وأن يكون فيه جناس العكس .

٥ وقال : إن شاهــد الطاعة والعصيان عنــده أن تعصيَه إقامةُ الوزن مع إظهار مراده ، فتطيعه لفظة من البديع يتمّم بها المعنى وتزيده حسنا ، كقول عوف بن مُحلِّم:

إن الثمــانين ــ وبُلِّغتَهــا * قدأَحوجَت سمعى إلى تَرجُمان

فإنه أراد أن يقول : إن الثمــانين قد أحوجت سمعى إلى تَرجمان ، فعصاه الوزن وأطاعه لفظة من البــديع وهى التتميم ، فزادته حُسنا وكَمَّلَتْ مرادَه ، وكلّ التتميم ١٠ من هذا النوع .

وأما التسميط — فهو أن يجعل المتكلّم مقاطيعَ أجزاء البيت أو القرينة على سجع يخالِفُ قافيةَ البيت أو آخرَ القرينة ، كقول مروانَ بنِ أبى حفصة :

هم القوم إن قالوا أصابوا وإن دُعوا * أجابوا وإن أَعطَوا أطابوا وأَجزلوا

فإن أجزاء البيت مسجّعة على خلاف قافيته فتكون القافية بمنزلة السمط ، والأجزاء ١٥ المسجّعة بمنزلة حبّ العقد .

وأما التشطير — فهو أن يَقسِم الشاعر بيته شَــطرين ، ثم يُصرِّع كلّ شَطر من الشــطرين ، ولكنه يأتى بكلّ شَطر من بيتــه مخالفا لقافية الآخر ، كقول مسلم ابن الوَليد :

مُوفٍ على مُهَجٍ فى يومِ ذى رَهَجٍ * كأنّه أَجَلٌ يَسعى إلى أمل

٢٠ وكقول أبى تمّام :

تدبــيرُ معتصِمٍ بالله منتقِمٍ * لِله مرتقِبٍ فى الله مرتغِب .

وأما التطريز — فهو أن يبتدئ الشاعر بذكر جُمَل من الذوات غير مفصّلة ثم يُخبِر عنها بصفة واحدة من الصفات مكررةٍ بحسب تَعدادِ جُمَل تلك الذوات تَعدادَ تَكرار واتحاد، لا تَعدادَ تغاير، كقول ابن الرومىّ :

أموركمو [بنى](١) خاقانَ عندى * عُجابٌ فى عُجابٍ فى عُجابِ
قُرونٌ فى رءوس فى وجوه * صِلابٌ فى صِلابٍ فى صِلابِ ٥

وكقوله :

وتَسقينى وتَشرب من رَحيقٍ * خَليقٍ أن يُشبَّهَ بالخَلُوق
كأنّ الكأسَ فى يدها وفيها * عَقِيقٌ فى عقيقٍ فى عقيق.

وأما التوشيع — فهو مشتقّ من الوَشيعة ، وهى الطريقة فى البُرْد، وكأنّ الشاعر أهمل البيت كلّه إلا آخره ، فأتى فيه بطريقة تُعدُّ من المحاسن؛ وهو عند ١٠ أهل هذه الصناعة أن يأتى المتكلّم أو الشاعر باسم مثنًّى فى حَشو العَجز، ثم يأتى بعده باسمين مفردين هما عينُ ذلك المثنّى، يكون الآخِرُ منهما قافيةَ بيته ، أو سجعةَ كلامه كأنهما تفسيرٌ لما ثنّاه(٢)، كقول النبى صلّى الله عليه وسلّم: "يَشيب ابن آدم وتَشِبّ فيه خَصلتان : الحرصُ وطولُ الأمل"

ومن أمثلة ذلك فى النظم قولُ الشاعر : ١٥

أَمسِى وأُصبِح من تَذكاركم وَصِبًا * يَرثِى لىَ المُشفِقان الأهلُ والولد
قد خَدّد الدمعُ خدّى من تذكُّركم * واعتادنى المُضنِيان الوجدُ والكَمَد
وغاب عن مقلتِى نومِى لغَيبتكم * وخاننى المُسعِدان الصبرُ والجَلَد
لم يَبقَ غيرُ خفىِّ الرُّوح فى جسدى * فِدًى لك الباقيان الرُّوحُ والجَسَد.

(١) الكلمة التى بين مربعين ساقطة من الأصل ، وقد نقلناها عن حسن التوسل وغيره ، إذ بها يستقيم الوزن والمعنى . ٢٠
(٢) فى الأصل : «بناه» بالباء الموحدة ، وهو تحريف .

قال ابن أبى الإصبع : وما بما قلته فى هذا الباب من بأس، وهو :

بى محتنان مُلامٌ فى هَـوًى بهما * رَثى لىَ القاسيان الحُبُّ والهَجر(١)

لولا الشفيقان من أمنيّة وأُسًا(٢) * أَودَى بىَ المُرديان الشوقُ والفِكَر

قال : ويحسن أن يسمّىَ ما فى بيتيــه مطرَّف التوشيع، إذ وقع المثنّى فى أوّل

٥ كلّ بيت وآخره .

وأما الإغراق — وهو فوق المبالغة ودون الغُلو، ومن أمثلته قولُ ابن المعتزّ :

صَبَبنا عليهــا ظالمين سِياطَنا * فطارت بها أيدٍ سِراعٌ وأرجُل

فموضـع الإغراق من البيت قولُه : ظالمين، يعنى أنها استفرغتْ جُهدَها فى العَــدْو

فما ضربناها إلا ظلما، فمن أجل ذلك خرجت من الوَحشيّة إلى الطَّيريّة؛ ولو لم يقل :

١٠ « ظالمين » لمـا حسُن قوله : «فطارت» ولكنه بذكر الظلم صارت الاستعارة كأنها

حقيقةً، وقد عُدّ من الإغراق لا المبالَغة قولُ امرئ القيس :

تنوّرتُها من أَذرِعاتٍ(٣) وأهلُها * بيثرِبَ أدنى دارِها نظرٌ عالى.

وأما الغُلو — فمنهم من يجعــلُه هو والإغراقَ شيئا واحدا ، ومن شواهده

قولُ مُهلهِل :

١٥ فلولا الريحُ أَسمـعَ من بحَجْرٍ(٤) * صَليلُ البَيض تُقرَع بالذُّكور(٤)

(١) فى الأصل وحسن التوسل : «لى» باللام؛ وما أثبتناه عن تحرير التحبير لابن أبى الإصبع .

(٢) الأسى بضم الهمزة وكسرها : جمع أسوة بالضم والكسر أيضا ، وهى القدوة؛ يريد اقتداءه بغيره ممن مسهم من المحن ما مسه ، فهو يتأسى بهم فيما ناله منها .

(٣) أذرعات : بلد بأطراف الشام يجاور أرض البلقاء وعمان ، ينسب إليه الخمر، والنسبة إليه أذرعىّ .

٢٠ (٤) حجر بفتح الحاء : مدينــة اليمـامة وأمّ قراها . والبيض بفتح الباء واحده بيضة ، وهى الخوذة التى تلبس على الرأس فى الحرب ، سميت بذلك لأنها تشبه بيضة النعامة . وأراد بالذكور : السـيوف ؛ والذكر من الحديد : أيبسه وأشدّه وأجوده .

ومِثلُه قولُ المتنبيّ فى وصف الأَسَد :

وَرْدٌ[1] إذا وَرَد البُحَيرة شاربا * بَلغ الفراتَ زئيرُه والنِّيــلا

قالوا : ومن أمثلة الغُلوّ قولُ النَّمِر بن تَولَب فى صفة السيف :

تَظَلّ تَحفِر عنه إن ضَربتَ به * بُعدَ الذّراعَيْن والساقَيْن والهادى .

وأما القسَم — فهو أن يريد الشاعر الحلِف على شىء فيأتى فى الحلف بما يكون مدحا [له][2] وما يُكسِبه فخرا ، أو يكون هجاءً لغيره ، أو وعيدا ، أو جاريا مَجرى التغزّل والترقّق ؛

فمثال الأوّل قولُ[3] مالك بن الأَشتَر النَّخعىّ : * بقّيتُ وَفْرِى وانحرفتُ عن العُلَا *

وقد تَقدّم الاستشهاد بهما فى النظْم ، فإنها تَضمّنت فخرا له ، ووعيدا لغيره ؛ وكقول أبى علىّ البصير يعرّض بعلىّ بن الجَهْم :

أَكذبتُ أَحسنَ ما يَظنّ مؤمِّلى * وعَدمتُ ما شادته لى أســلافى

وعَدمتُ عاداتى التى عُوِّدتُهــا * قِــدْما من الإخلاف والإتلاف

وغَضضتُ من نارى ليَخفَى ضوءها * وقَرَيتُ عذرا كاذبا أضـــيافى

إن لم أَشُنّ عـلى علىٍّ (غارةً)[4] * تُضحِى قــذًى فى أعين الأشراف

وقد يُقسم الشاعر بما يزيد الممدوح مدحا ، كقول القائل :

إن كان لى أملٌ سواك أَعُدّه * فكفرتُ نعمتــك التى لا تُكفَر

(١) الورد من الأسود : ما أشبه لونه لون الورد .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ، وقد نقلناها عن حسن التوسل إذ السياق يقتضى إثباتها .

(٣) فى الأصل : « كقول » ، والكاف زيادة من الناسخ .

(٤) كذا فى شرح الباعونية المحفوظة منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٨٣ بلاغة ؛ والذى فى الأصل وحسن التوسل : « خلة » بخاء معجمة بعدها لام ، ولم نجد من معانيه ما يلائم معنى البيت ، ولعله محرف عن « حملة » بحاء مهملة بعدها ميم .

ومما جاء من القَسَم فى النسيب قولُ الشاعر :

فإن لم تكن عندى كعينى ومسمَعى * فلا نَظَرَتْ عينى ولا سَمِعتْ أُذْنى

ومما جاء فى الغزل قولُ الآخر :

لا والذى سَلّ من جفنيه سيفَ ردًى * قُـدّت له من عذارَيه حمائلُه

ما صارمَت مقلتى دمعا ولا وَصلَت * غَمضـا ولا سالَمَتْ قلبى بلابلُه .

وأما الاستدراك — فهو على قسمين : قِسم يتقدّم الاستدراكَ فيه تقريرٌ لما أَخبر به المتكلّمُ وتوكيدٌ، وقِسمٌ لا يتقدّمه ذلك ؛ فمن أمثلة الأوّل قولُ القائل :

وإخوانٍ تخـذْتُهمو دروعا * فكانوها ولكن للاعادى

وخِلتهمو سهـاما صائبـاتٍ * فكانوها ولكن فى فؤادى

١٠ وقالوا قــد صفت منّا قلوبٌ * لقد صدقوا ولكن من ودادى

وقولُ الأَرّجانىّ :

غالطتْنى إذ كست جسمِى ضَـنًى * كُسـوةً أعرت من الجلد العظاما

ثم قالت أنت عنـدى فى الهوى * مِثـلَ عينى صدقتْ لكن سَـقاما

وأما القسم الثانى الذى لا يتقدّم الاستدراكَ فيه تقرير ولا توكيد فكقول زهير:

١٥ أخو ثقة لا يُهلِكُ الخمرُ مالَه * ولكنه قد يُهلك المـالَ نائلُه .

وأما المؤتلِفة والمختلفة — فهو أن يريد الشـاعر التسويةَ بين ممدوحَين فيأتى بمعان مؤتلِفة فى مدحهما ، ويروم بعد ذلك ترجيحَ أحدهما على الآخر بزيادة لا يَنقُص بها الآخر ، فيأتى لأجل الترجيح بمعان تخالف التسوية ، كقول الخنساء فى أخيها وأبيها — وراعت حقّ الوالد بما لم يُنقص الولدَ —

جارَى أَباه فأقبَــلا وهما * يتعاقبان مُلاءةَ الحُضْرِ(١)

وهُما وقــد بَرَزا كأنهما * صَقران [قد](٢) حَطّا الى وَكْرِ

حتى اذا نَزَت القلوب وقد * لُزّت هناك العُــذْرُ(٣) بالعذر

وعَلا هتافُ الناس : أيُّهما * قال المجيب هناك: لا أدرى

بَرَقت صحيــفة وجهِ والده * ومضى على غُلَوائه يجــرى

أَولى فأَولى أن يساويَه * لولا جلالُ السنّ والكِبْرِ .

وأوّل من سبق الى هذا المعنى زهير(٤) حيث قال :

هو الجواد فإن يَلحَق بشأوهما * على تكاليفــه فِمثــلُهُ لَحِقا

أو يسبِقاه على ما كان من مَهَل * فمِثلُ ما قدّما من صالح سَبقا

وتداوله الناس، فقال أبو نواس :

ثم جرى الفضــلُ فانثَنى قَدَمًا * دونـ مَداه بغــير ترهيق

فقيــل راشًا سهما تُراد به الـ * ـغايةُ والنَّصْــلُ سابقُ الفُوق(٥).

وأما التفريق المفرد — فهو كقول الشاعر :

ما نَوالُ الغَمام يوم ربيع * كنوال الأمير يوم سخاء

فَنوالُ الأمير بَدرةُ عَين * ونَوالُ الغمام قَطـرةُ ماء.

(١) الحضر : الارتفاع فى العدو .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من الأصل، وقد نقلناها عن كتب الأدب إذ بها يستقيم الوزن .

(٣) العذر : جمع عذار، وهو السير الذى يكون على خدّ الدابة من اللجام .

(٤) عبارة الأصل : «قول زهير» ؛ وكلمة «قول» زيادة من الناسخ، والصواب إسقاطها كما يقتضيه ما قبله وما بعــده من الكلام . وعبارة حسن التوسل : وأول من سبق الى هذا المعنى زهير بقوله .

(٥) الفوق بضم الفاء، موضع الوتر من السهم، والجمع أفواق .

وأما الجمع مع التفريق[(١)] — فهو أن يشبه شيئين بشئ ثم يفرق بين وجهى الاشتباه، كقول الشاعر :

فوجهك كالنار فى ضوئها * وقلبى كالنار فى حرّها.

وأما التقسيم المفرد[(٢)] — فهو أن يذكر قسمة ذات جزأين أو أكثر، ثم يضم الى كلّ واحد من الأقسام ما يليق به، كقول ربيعة الرّقّى :

يزيدُ سُلَيم سالمُ المال والفتى * فتى الأزد للأموال غيرُ مسالِم

لشتّان ما بين اليزيدَين فى الندى * يزيدِ سُلَيم والأغرّ بن حاتم

فهمُّ الفتى الأزدىّ إتلافُ ماله * وهمُّ الفتى القيسىّ جمعُ الدراهم

فلا يحسَب التمتام[(٣)] أنّى هجوته * ولكننى فضّلت أهل المكارم

وكقول ابن حيّوس :

ثمانيةٌ لم تفترق إذ جمعتَها * فلا افترقت ما ذبّ عن ناظرٍ شفْر

يقينُك[(٤)] والتقوى، وجودُك والغنى * ولفظُك والمعنى، وسيفُك والنصر

---

(١) فى الأصل : «بالتفريق» وما أثبتناه هو المعبر به فى جميع كتب البلاغة، كما أنه هو الموافق لما سيأتى من قوله : «وأما الجمع مع التقسيم . وقال صاحب التجريد ج ٢ ص ٢٣٨ ط الأميرية نقلا عن عبد الحكيم ما نصه : «أورد كلمة : «مع» إشارة الى أن المحسن اجتماعهما .

(٢) فى الأصل : «بالمفرد»، والباء زيادة من الناسخ اذ لا مقتضىً لها فى هذه العبارة، فإن قوله : «المفرد» صفة للتقسيم، يريد التقسيم المنفرد الذى ليس معه جمع كما يدل عليه ما سبق من قوله : «وأما التفريق المفرد»، أى التفريق الذى ليس معه جمع أيضا . وعبارة حسن التوسل وغيره من كتب البلاغة : «التقسيم المفرد» بدون باء .

(٣) تمتم الرجل تمتمة اذا تردّد فى التاء فهو تمتام بالفتح . وقال أبو زيد : هو الذى يعجل فى الكلام ولا يفهمك .

(٤) فى الأصل : «يمينك»، وهو تحريف .

وقولِ آخَر :

لِلتميمى الحاجات جمعٌ ببابه * فهـذا له فنٌّ وهـذا له فنّ

فللخامل العَليا، وللعدِم الغنى * ولِلمذنب الرُّحمى، ولِلخائف الأمن

ويجوز أن يُعَدّ هذا من الجمع مع التقسيم .

وأما الجمع مع التقسيم — فهو أن يَجمع أمورا كثيرة تحت حُكم، ثم يقسِّم بعد ذلك، أو يقسِّم(١) ثم يَجمع، مثال الأوّل قولُ المتنبّى :

حتى أَقام على أَرباض خَرْشَنة(٢) * تَشقَى به الروم والصُّلبانُ والبِيَعُ

لِلسَّبيِ مانكحوا، والقتلِ ماولَدوا * والنهبِ ماجمعوا، والنارِ مازرَعوا

فجَمَع فى البيت الأوّل أرض العـدوّ وما فيها من معنى الشقاوة، وذكر التقسيم فى البيت الثانى .

ومثال الثانى قولُ حسّان :

قوم إذا حاربوا ضَرّوا عدوّهمو * أوحاولوا النفعَ فى أشياعهم نَفَعوا

سجيّـةٌ تلك منهم غيرُ مُحـدَثة * إنّ الحوادث فاعلم شرُّها البِدَع .

وأما التزاوج — فهو أن يزاوِج بين معنيَيْن فى الشرط والجزاء، كقول البُحتُرىّ :

إذا مانَهَى الناهى ولَجَّ بىَ الهوى * أصاخت إلى الواشى فلَجَّ بها الهجر .

وأما السلب والإيجاب — فهو أن يُوقِع [الكلام](٣) على نفيِ شئ وإثباته فى بيت واحد، كقوله :

(١) فى الأصل : «ويقسم» ؛ والمقام يقتضى العطف بأو .

(٢) خرشنة بفتح الخاء وسكون الراء : بلد قرب ملطية من بلاد الروم .

(٣) الكلمة التى بين مربعين ساقطة من الأصل ؛ والسياق يقتضى إثباتها .

ونُنكِر إن شئنا على الناس قولَهم * ولا يُنكِرون القولَ حين نقول

وكقول الشّمّاخ :

هَضيمِ الحشى لا يَملأ الكفَّ خَصرُها * ويُملأ منها كُلُّ حِجْلٍ[1] ودُمْلُجِ

وأما الاطّراد — فهو أن يَطرُد الشاعر أسماءً متتالية يَزيد الممدوحَ بها

٥ تعريفا، لأنها لا تكون إلا أسماءَ آبائه تأتى منسُوقةً غيرَ منقطعة من غير ظهور كُلْفة

على النَّظْم كاطّراد المـاء وانسجامه[2]، وذلك كقول الأعشى :

أقيسُ بنَ مسعودِ بنِ قيسِ بنِ خالدٍ * وأنت الذى ترجو حِبـاءك وائلُ

وكقول دُرَيد :

قَتلنـا بعبـد الله خيرَ لِداته * ذؤابَ بنَ أسماءِ بنِ زيدِ بنِ قارِبِ

١٠ وهذا أحسنُ من الأول، لاطّراد الأسماء فى عَجُز البيت .

وقال ابن أبى الإصبع : وقد أربَى على هؤلاء بعض القائلين حيث قال :

من يكن رام حاجة بعُدت عنـ * ـه وأعيتْ عليه كلَّ العياء

فلها أحمدُ المُرجَّى ابنُ يحيى بـ * ـنِ مُعاذِ بنِ مُسلِمِ بنِ رَجاء

لو لم يقعْ فيه الفصلُ بين الأسماء بلفظة المرجَّى .

١٥ ومنه ما كتب الشيخ مجدُ الدين بنُ الظَّهِير الحنفىّ على إجازة :

أجاز ما قد سألوا * بشرط أهل السَّنَد

محمـد بن أحمدَ بـ * ـنِ عمرَ بنِ أحمـد

فلم يفصل بين الأسماء فى البيت بلفظة[3] أجنبيّة .

(١) الحجل : الخلخال . والدملج والدملوج : المعضد من الحلىّ .

٢٠ (٢) فى الأصل : «واسحابه» ؛ وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : «بدخل» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يدل عليه ثبوت الباء فى قوله بعد : «بلفظه» وقوله فيما سبق : «لو لم يقع فيه الفصل» .

وأما التجريد — فهو أن يَنتزع الشاعر أو المتكلّم من أمر ذى صفة أمرا آخَرَ مثلَه فى تلك الصفة مبالَغةً فى كمالها فيه؛ وهو أقسام : منها نحوُ قولهم : لى [من] (١) فلان صديقٌ حميم، أى بَلَغ من الصداقة حدّا صحّ معه أن يُستخلَص منه صديقٌ آخَرَ؛

ومنها نحو قولهم : لئن سألتَ لَتسألَنّ به البحرَ، ومنه قولُ الشاعر :

وشَوهاءَ تعدو بى إلى صارخ الوغى * بمستلئم مِثـلِ الفَنيق المُـرحَّل

أى تعدو بى ومعى من آستعدادى للحرب لابِسُ لَأْمة؛

ومنها نحوُ قوله تعالى : ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾ لأن جهنم — أعاذنا الله منها — هى دار الخلد، لكن آنتزع منها مثلها وجعل فيهـا مُعَدّا للكفار تهويلا لأمرها؛

ومنها نحوُ قولِ الحماسىّ :

فلئن بقِيتُ لأرحلَنّ بغزوة * نحوَ الغنائم أو يموتَ كريم

وعليـه قراءة من قرأ : ﴿فَإِذَا انْشَـقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةٌ كَالدِّهَانِ﴾ بالرفع، بمعنى فحصَلتْ سماءٌ وَردةٌ، وقيل : تقدير الأوّل أو يموتَ منّى كريم، والثـانى : فكانت منها وَردةٌ كالدّهان، وفيه نظر؛

ومنها نحوُ قولِه :

ياخـيرَ من يَركَب المطِىّ ولا * يَشرب كأسا بكفّ مَن بخِلا

ونحوُ قولِ الآخَر :

إن تَلقَنى — لا تَرَى غيرى بناظره — * تَنْسَ (٢) السلاحَ وتَعرِفْ جَبهةَ الأَسَد

ومنها مخاطَبة الإنسان غيرَه وهو يريد نفسه، كقول الأعشى :

ودِّع هُرَيرةَ إنّ الرَّكْبَ مرتحِل * وهل تُطيق وَداعاً أيها الرجل

(١) الزيادة تقتضيها صحة التمثيل .

(٢) فى الاصل : «بين» ، وهو تحريف؛ والتصويب عن حسن التوسل .

وقولِ المتنبيّ :

لاخيلَ عندك تُهديها ولا مالُ * فليُسعِد النُّطقُ إن لم تسعد الحالُ

ومنه قول الحَيْص بَيْص :

إلام يراك المجد فى زِىّ شاعر * وقد نَحَلَت شــوقا فروع المنابر

كَتَمْتَ بِصيت الشِّعر علما وحكمة * ببعضهما ينقاد صـعبُ المَفاخر

أما وأبيك الخير إنك فارس الـ * ـكلام ومُحيِي الدّارسات الغـوابر

وأما التكميل — فهو أن يأتىَ المتكلّم أو الشاعر بمعنًى من مدح أو غيره من فنون الكَلِم وأغراضه، ثم يَرَى مدحَه بالاقتصار على ذلك المعنى فقط غير كامل، كمن أراد مدح إنسان بالشجاعة، ثم رأى الاقتصارَ عليها دون مدحه بالكرم مثلا غيرَ كامل أو بالبأس دون الحِلم، ومثال ذلك قولُ كعب بن سعد الغَنَوِىّ :

حَليمٌ إذا ما الحـلم زَيّن أهلَه * مع الحِلم فى عين العـدوّ مَهيب

قوله : " إذا ما الحِلم زَيّن أهلَه " احتراس لولاه لكان المدح مدخولا، إذ بعضُ التغاضى قد يكون عن عَجْز، وإنما يزين الحِلمُ أهلَه اذا كان عن قدرة، ثم رأى أن يكونَ[1] مدحه بالحلم وحدَه غير كامل، لأنه اذا لم يُعرَف منه إلا الحِلمُ طَمِع فيـه عدوّه فقال : «فى عين العدوّ مَهيب»؛ ومنه قول السَّموءل بنِ عادياء :

وما مات منّا سيّد فى فراشه * ولا طُلّ منّا حيث كان قتيل

لأنّ صـدر البيت [وإن[2]] تضمّن وصفَهم بالإقدام والصبر ربّما[3] أوهم العَجز

---

(١) كذا فى الأصل . يريد : ثم اعتقد كون مدحه الخ وعلى هذا التفسير لا يحتاج فعل « رأى » الى مفعول ثان . وعبارة حسن التوسل : «ثم رأى أن مدحه» الخ والمعنى عليه يستقيم أيضا .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من الأصل، واستقامة العبارة تقتضى إثباتها؛ انظر حسن التوسل .

(٣) عبارة الأصل : « فيا أوهم الفخر»؛ وهو تحريف لا يستقيم به المعنى .

[لأن][1] قتـل الجميع يدلّ على الوَهن والقِلّة فكمّله بأخذهم للثأر، وكَمَّل حسنَه بقوله : "حيث كان" فإنه أبلغُ في الشجاعة؛ ومن ذلك في النسيب قولُ كُثيِّر :

لو أن عَزّةَ حاكمت شمسَ الضحى * في الحسن عند مُوَفَّقٍ لقَضَى لها

لأن قوله : "عند موفَّق" تكميل للمعنى، إذ ليس كلّ من يحاكَم إليه موفَّقا؛ ومنه قولُ المتنبّي :

أشَدُّ من الرياح الهُوج بطشا * وأسرَعُ في الندى منها هُبوبا .

وأما المناسَبة — فهي على ضربين : مناسَبةٍ في المعنى، ومناسَبةٍ في الألفاظ فالمعنويّة أن يَبتدئَ المتكلّم بمعنًى، ثم يتمّم كلامه بما يناسبه معنًى دون لفظ، كقوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ فقال تعالى في صدر الآية التي الموعظةُ فيها سمعيّةٌ : ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾، وقال بعد ذكر الموعظة: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ وقال في صدر الآية التي موعظتُها مرئيّةٌ : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ وقال بعد الموعظة : ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾

ومن أمثلة المناسَبة المعنويّة قولُ المتنبي :

على سابحٍ مَوْجُ المنايا بنحره * غداةَ كأنّ النَّبلَ في صدره وَبْل

فإنّ بين لفظة السِّباحة ولفظتَي المَوْج والوَبْل تناسبا صار البيت به متلاحما؛ وقولُ ابنِ رَشيق :

أصَحُّ وأقوى ما رَويناه في الندى * من الخبرِ المأثور منذ قديم

(١) التكملة عن حسن التوسل، واستقامة العبارة تقتضي إثباتها .

أحاديثُ تَرويها السيولُ عن الحيِا * عن البحرِ عن جُـود الأميرِ تَميم

فإنه وَفّى المناسَبةَ حقّها فى صحة العنعَنة برواية السيول عن الحيا عن البحر، وجَعَل الغاية فيها جُودَ الممدوح .

والمناسَبة اللفظيّة : تَوخّى الإتيان بكلمات متّزِنات، وهى على ضربين : تامّة وغير تامّة

فالتامّة : أن تكون الكلمات مع الاتّزان مقفّاة، فمن شواهد التامّة قولهُ تعالى: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ ومن الحديث النبوىّ – صلاة الله وسلامه على قائله – قولُ النبى صلى الله عليه وسلم للحسن والحسين – رضى الله عنهما – : "أعيذُكما بكلمات الله التامّه، من كل شيطان وهامّه، ومن كل عين لامّه" ولم يقل : «ملمّه» وهى القياس لمكان المناسَبة اللفظيّة التامّة ؛

ومن شواهد الناقصة قولُه صلى الله عليه وسلم : « ألا أُخبِركم بأحبّكم إلىّ وأقربِكم منّى مَجالسَ يوم القيامة؟ أَحاسنُكم أخلاقا، الموطَّئُون أكنافا »

ومما جَمع بين المناسَبتين قولُه صلّى الله عليه وسلّم : «اللّهم إنى أسألك رحمة تَهدِى بها قلبى، وتَجمع بها أمرى، وتَلُمّ بها شَعَثى، وتُصلح بها غائبى، وتَرفَع بها شاهدى، وتزكّى بها عملى، وتُلهمنى بها رُشدى، وتَردُّ بها أُلفتى، وتَعصمنى بها من كلّ سوء، اللهم إنى أسألك العونَ فى القضاء، ونُزُلَ الشهداء، وعيشَ السعداء، والنصرَ على الأعداء" فناسب صلى الله عليه وسلم بين قلبى وأمرى، وغائبى وشاهدى مناسَبة غير تامّة، لأنها فى الزِّنة دون التقفيَة ، وناسب بين القضاء والشهداء والسعداء والأعداء مناسَبة تامّة فى الزِّنة والتقفية ؛

ومن أمثلة المناسَبتين قولُ أبي تمّام :

مَهَا الوَحشِ إلا أنّ هاتا أَوانسٌ * قَنا الخطِّ (١) إلا أنّ تلك ذوابل

فناسب بين مَهَا وقَنا مناسَبة تامّة ، وناسب بين الوحش والخطّ ، وأوانس وذوابل مناسَبة غيرَ تامّة .

وأما التفريع — فهو أن يُصدِّر المتكلِّمُ أو الشاعرِ كلامَه باسم مَنفيٍّ بـ "ما" خاصّــة ، ثم يصف الاسمَ المنفيّ بمُعظَم أو صافه اللائقةِ به فى الحسن أو القبح ، ثم يجعله أصلا يُفرِّعُ منه جملةً من جارٍّ ومجرورٍ متعلّقةً (٢) [به] تعلّقَ مدحٍ أو هجـاء أو فخرٍ أو نسيب أو غيرِ ذلك ، يُفهِــم من ذلك مساواةَ المذكور بالاسم المنفيّ الموصوف كقول الأعشى :

ماروضةٌ من رياض الحَزْن مُعشِبةٌ * خضراءُ جادَ عليها مُسبِلٌ هطِــل

يضاحِك الشمس منها كوكبٌ (٣) شَرِقٌ * مــؤزَّرٌ بعميم النبت مكتهِل

يوما بأطيَبَ منها طِيبَ رائحــةٍ * ولا بأحسَنَ منها إذ دنا الأُصُــل

وقول عاتِكةَ المرِّيّة :

وما طعــم ماء أيِّ ماء تقــوله (٤) * تحــدّرَ من غُرٍّ طِوال الذوائب

بمنعــرَجٍ مِن بطنِ وادٍ تقابلت * عليه رياحُ الصيف من كل جانب

---

(١) يريد خط عمان ، وهو الذى تنسب اليه الرماح الخطية ، قال ابن سيده : الخط سيف البحرين وعمــان .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من الأصل . وقد نقلناها عن حسن التوسل ص ٨٠ ط الوهبية .

(٣) كوكب الروضة : نورها . قال فى التهذيب : الكوكب معروف من كواكب السماء ، و يشبه به النور فيسمى كوكبا . انظر اللسان مادة كوكب .

(٤) كذا فى الأصــل وزهر الآداب ج ١ ص ١٦٧ ط الرحمانيــة ؛ وعبارة حسن التوسل : « بعزلة » والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين .

نَفتْ جَرْيَةُ المـاء القذى عن مُتونه * فليس بــه عيب تــراه لعائب

بأَطْيَبَ ممن يَقصِر الطـرفَ دونه * تقى الله وٱستحياءُ بعض العواقب

وقد وقع الأصل والفرع لأبى تمّام فى بيت واحد، وهو :

ماربع ميّــةَ معمورا يُطيف بــه * غَيْلانُ أبهى ربًا من رَبعها الخرِب

٥ ولا الخدودُ وإن أُدمين مِن خَجَل * أَشهى إلى ناظرى من خدّها الترِب

ومما ورد فى النثر رسالةُ ٱبنِ القُمّىّ التى كتبها إلى سبإ بن أحمد صاحبِ صنعاءَ :

وأمّا حال عبده بعد فراقه فى الجَلَد، فما أمّ تسعة من الولد، ذكور، كأنهم عِقبانُ وُكور، اخْتُرِم منهم ثمانيه، فهى على التاسع حانيه، فنادى النذير فى الباديه، يااللعادية يااللعاديه ؛ فلما سَمعتْ الداعى(١)، ورأت الخيــل سَواعى، أقبلت تنــادى ولدها :

١٠ الأَناة الأَناه، وهو يناديها : القَناة القَناه

بَطَــلٌ كأنّ ثيابـــه فى سَرْحة(٢) * يُحذَى نعالَ السِبْت(٣) ليس بتَوأم

فلما رَمَقته يختال فى غُضون الزَّرَد المَوْضون(٤) أنشأت تقول :

أَسَــد أَضْبَطُ يمشى * بيـن طَرْفاءَ(٥) وغِيل

لِبسُــه من نسج داو * دَ كضَحْضاح(٦) المَسيل

١٥ (١) فى الأصل : «الكراعى» ؛ وهو تحريف .

(٢) السرحة : واحدة السرح، وهو ما عظم وطال من الشجر، يريد وصفه بطول القامة وضخامة الجسم والبيت لعنترة العبسى .

(٣) السبت بكسر السين : الجلد المدبوغ، وفى المصباح أنه يقال : نعل سبتية : أى لا شعر فيها .

(٤) الموضون : المنسوج حلقتين حلقتين، أو هو المقارب النسيج .

٢٠ (٥) الطرفاء : من العضاه، وله هدب كهدب الأثل، وليس له خشب، وإنما يخرج عصيا سمحة فى السماء، وقد تتحمض به الإبل اذا لم تجد حمضا غيره . والغيل بكسر الغين وتفتح : الشجر الكثير الملتف، أو هو جماعة القصب والحلفاء .

(٦) الضحضاح والضحضح : الماء الذى لا غرق فيه، شبه الدرع به فى بريقه واطراد متنه .

عَرَضَ له فى البادية أَسَدٌ هَصُور، كأنّ ذراعه مَسَدٌ معصور

فتطاعَنا وتواقفتْ خَيْلاهما * وكلاهمـا بَطلُ اللقاء مقنّع

فلمـا سمعَت الرَّعيل، بَرزتْ من الصِّرْم(١) بصبر قد عِيـل؛ فسألت عن الواحد فقيل : لَحَدَه اللاّحد(٢)

فكرّتْ تبتغيه فصادفَتْـهُ * على دمِه ومَصرَعِه السباعا

عبَثن به فلم يَترُكــن إلا * أَديما قد تمزق أو كُراعا

بأشدّ من عبده تأسّفا، ولا أعظم كمدا وتلهّفا .

قال : وذكر آبن أبى الإصبع فى التفريع قسما ذَكَره فى صدر الباب، وقال : إنه هو الذى آستخرجه، وهو أن يبتدئ الشاعر بلفظة هى إما آسم أو صفة، ثم يكرّرُها فى البيت مضافة إلى أسماء وصفات تتفرع عليها جملةٌ من المعانى فى المدح وغيره، كقول المتنبى :

أنا آبن اللقاء أنا آبن السخاء * أنا آبن الضِّراب أنا آبن الطِّعان

أنا آبن الفيافى أنا آبن القوافى * أنا آبن السُّروج أنا آبن الرِّعان(٣)

طَويلُ النِّجاد طَويلُ العماد * طَوِيلُ القناة طويل السِّنان

حَديدُ اللّحاظ حديد الحِفاظ * حَديدُ الحسام حديد الجَنان .

(١) الصرم بكسر الصاد : الجماعة .

(٢) فى الأصل : «الملاحد»، والميم زيادة من الناسخ .

(٣) الرعان : أنوف الجبال المتقدمة منها، واحده رعن؛ يريد أنه لكثرة قطعه للجبال وسلوكه فيها ومعرفته بشعابها كأنه ابن لها .

وأما نفى الشىء بإيجابه — فهو أن يُثبت المتكلّم شيئا فى ظاهر كلامه وينفىَ ما هو [من][1] سببه مجازا ، والمنفىّ فى باطن الكلام حقيقة هو الذى أثبته كقول آمرئ القيس :

على لاحب لا يُهتدَى بمناره * إذا سافَهُ[2] العَودُ النُّباطىّ جَرجَرا

فظاهر هذا الكلام يقتضى إثبات مَنار لهذه الطريق ، ونفىَ الهداية به[3] مجازا وباطنه فى الحقيقة يقتضى نفىَ المَنار جملة ، والمعنى أن هذه الطريق لو كان لها منار ما اهتُدِىَ به ، فكيف ولا مَنارَ لها ، كما تقول لمن تريد أن تَسلُبه الخير : ما أقلّ خيرك ! فظاهر كلامك يدلّ على إثبات خير قليل ، وباطنه نفىُ الخير كثيره وقليله .

وقول الزبير بن عبد المطلب يمدح عُمَيلة بنَ عبد الدار[4] — وكان نديما له — :

صَحِبتُ بهم طَلْقا يَراح الى الندى * اذا ما آنتشى لم تَحتضِره مَفاقِرُه

ضعيف بحَثّ الكأس قَبضُ[5] بنانه * كَليل على وجه النديم أظافره

فظاهر هذا أنّ للمدوح مَفاقرَ لم تحتضره إذا انتشى ، وأنّ له أظافرَ يَخمُش بها وجه نديمه خَمْشا ضعيفا ، وباطن الكلام فى الحقيقة نفىُ المفاقر جملةً ، والأظافرِ بتّة .

---

(١) فى الأصل : «ما هو سببه» بسقوط «من» وقد أثبتناها عن حسن التوسل وغيره .

(٢) فى الأصل : «ساقه» بالقاف المثناة ، وهو تحريف ، ولا معنى له يناسب السياق ، والتصويب عن شرح ديوان آمرئ القيس . وسافه : شمه . والعود : الجمل المسنّ . وجرجر : رغا ، وإنما يرغو الجمل لمعرفته ببعد الطريق .

(٣) وردت هذه العبارة فى الأصل هكذا : « ونفى مد الهداية » وفيها قلب وتحريف لا يستقيم بهما المعنى ؛ وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا . انظر تحرير التحبير لابن أبى الإصبع المحفوظ منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم ٤٦٥ بلاغة .

(٤) هذه نسبة إلى جده ، أما أبوه فهو السباق بن عبد الدار . انظر المقتضب من جمهرة النسب لياقوت المحفوظ منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٧٨٥ تاريخ .

(٥) فى الأصل : « بحيث الكأس فضل » ؛ وهو تحريف لا يستقيم به المعنى ، والتصويب عن حسن التوسل . وفى تحرير التحبير : «فيض» بفاء موحدة بعدها ياء مثناة ؛ وهو تحريف .

وأما الإيداع — قال : وأكثرُ النـاس يجعلونه من باب التضمين ، وهو منـه إلّا أنه مخصوص بالنثر، وبأن يكون المُودَع نصفَ بيت، إما صدرا أو عَجُزا

فمنه قول علىّ رضى الله عنه فى جواب كتاب لمعاوية :

ثم زَعمتَ أنّى لكلّ الخلفاء حَسَدت، وعلى كلّهم بَغَيت، فإن يكن ذلك كذلك فلم تكن الجناية عليك،حتى تكون المعذرة إليك * وتلك شَكاةٌ ظاهرٌ عنكَ عارُها * ٥

وأما الإدماج — فهو أن يُدمِج المتكلم غرضا له فى جملة معنًى من المعانى قد نحاه ليُوهِم السامعَ أنه لم يقصِـده ، و إنمـا عَرض فى كلامه لتتمّة معناه الذى قصده، كقول عبيد الله بن عبد الله لعبيد الله بن سليمانَ بنِ وهب حين وَزَرَ للمعتضـد — وكان ٱبن عُبَيد الله(١) قد ٱختَلّت حاله — فكتب الى ٱبن سليمان :

أَبَى دهرُنا إسعافَنا فى نفوسنا * وأَسـعفنا فيمن نُحِبُّ ونكرِم ١٠

فقلتُ له نُعماك فيهـــم أَتِمَّهـا * ودع أمرَنا إن المهمّ المقـــدَّم

فأَدمج شكوى الزمان فى ضمن التهنئة، وتلطّفَ فى المسألة مع صيانة نفسـه عن التصريح بالسؤال .

وأما سلامة الآختراع — فهو أن يَخترِع الشاعر معنًى لم يُسبَق اليـه ولم يَتبعه أحد فيه، كقول عنترة فى الذباب : ١٥

هَزِجا يَحُـكُّ ذراعَه بذراعه * قَدْحَ(٢) المُكِبّ على الزناد الأجذمِ

وكقول عدىّ بن الرِّقاع فى تشبيه ولد الظبية :

تُزجِى أَغَنَّ كأن إبرة رَوْقِه * قلمٌ أصاب من الدواة مدادَها

(١) عبارة الأصـل : « كقول عبد الله بن عبيد الله لعبد الله » الخ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا انظر معاهد التنصيص ص ٤٠٢ ط بولاق، ووفيات الأعيان ترجمة عبيد الله بن عبد الله بن طاهر . ٢٠

(٢) فى الأصل : « كقدح » ، والكاف زيادة من الناسخ .

وكقول النابغة فى وصف النسور :

تَراهنّ خلف القوم زُورا[1] عيونها * جلوسَ الشيوخ فى مُسوك[2] الأرانب

وكقول أبى تمّـام :

لا تنكرى عَطَل الكريم من الغِنى * فالسَّيل حربٌ للمكان العالى

٥ وقــوله :

ليس الحجاب بمُقْصٍ عنكَ لى أملا * إنّ السماء تُرجَّى حين تحتجب

وقول ٱبن حجّاج :

وإنّى[3] والمولى الذى أنا عبده * طَريفان[4] فى أمر له طَرَفان

بعيدا ترانى منه أقربَ ما تَرَى * كأنّىَ يومُ العيد فى رمضان.

١٠ وأما حُسن الاتّباع — فهو أن يأتىَ المتكلّم إلى معنًى قد ٱخترعه غيره فيتّبعه فيــه ٱتباعا يوجب له ٱستحقاقه ، إما بٱختصـار لفظـه ، أو قِصَر وزنه أو عذوبة نَظْمه ، أو سهولة سَبكه[5] ، أو إيضاح معناه ، أو تتميم نقصه ، أو تحليتـه بما توجبه الصناعة ، أو بغير ذلك من وجوه الاستحقاقات ؛

كقول شاعر جاهلىّ فى صفة جَمَل :

١٥ وعَوْدٍ قليلِ الذنْب عاودتُ ضربه * إذا هاج شوقى من مَعاهدها ذكر

(١) كذا فى تحرير التحبير لابن أبى الإصبع . وهو جمع أزور ، والأزور الناظر بمؤخر عينيه . والذى فى الأصل : « زرقا » ؛ وهو تحريف .

(٢) المسوك : الجلود ، واحده مسك بفتح الميم .

(٣) فى الأصـل وحسن التوسل : « ترانى » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه قوله بعد :

٢٠ « طريفان » بإثبات الألف ؛ وانظر تحرير التحبير لابن أبى الإصبع .

(٤) فى الأصل : « ظريفان » بالظاء المعجمة ؛ وهو تحريف .

(٥) فى الأصل : « مسكه » ؛ وهو تحريف .

وقلت له ذلفـاءُ ويحكَ سَبَّبتْ * لك الضربَ فاصبر إنّ عادتك الصبر

فأحسن ابن المعتز اتّباعه حيث قال يصف خيلَه :

وخيلٍ طواها القَوْدُ[1] حتى كأنها * أنابيبُ سمرٌ من قنا الخَطِّ ذُبَّلُ

صَبَبنا عليها ظالمين سياطَنا * فطارت بها أيدٍ سِراعٌ وأرجل

واتّبع أبو نُواس جريرا فى قوله :

إذا غَضِبت عليك بنو تميم * حَسِبتَ الناسَ كلَّهمُو غضابا

فقال أبو نواس — ونَقل المعنى من الفخر إلى المدح — :

وليس على الله بمستنكَرٍ * أن يجمَعَ العالَمَ فى واحد

وقول النُّمَيرىّ فى أخت الحجّاج :

فهنّ اللواتى إن بَرزن قتلننى * وإن غِبن قَطَّعن الحشى حَسَرات

فاتّبعه ابن الرومىّ فقال :

ويلاه إن نَظَرتْ وإن هى أَعرضتْ * وَقْــعُ السهام ونزعُهنّ ألــيم.

وأما الذمّ فى معرِض المدح — فهو أن يقصِد المتكلّم ذمّ إنسان فيأتىَ بألفاظ موجَّهة، ظاهرُها المدح، وباطنها القَدح، فيُـوهِم أنه يمدحه وهو يهجوه كقول بعضهم فى الشريف بن الشَّجَرىّ :

يا سيّدى والذى يعيذك من * نَظْمِ قريضٍ يَصْدا به الفكْر

مافيك من جَدّك النبىّ سوى * أنك لا ينبغى لك الشــعر.

وأما العُنوان — فهو أن يأخذ المتكلّم فى غرض له من وصف أو فخـر أو مدح أو هجاء أو غير ذلك ، ثم يأتى لقصـــد تكميله بألفاظ تكون عُنوانا لأخبار متقدِّمة ، وقِصص سالفة، كقول أبى نُواس :

(١) كذا فى الأصل . وفى حسن التوسل : «السير» ؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين .

يا هاشم بنَ حُدَيج ليس فخركمو * بقتلِ صِهر رسول الله بالسَّدَد

أَدرجتمو فى إهاب العَير جُثتَه * لبئس ما قدّمت أيديكمو لغد

إن تقتلوا آبنَ أبى بكر فقد قَتلتْ * حُجْرا بدارة مَلْحُوب[1] بنو أَسَد

و يوم قلتم لعمرو وهو يقتلكم * قتل الكلاب لقد أَبرحتَ من ولَد

ورُبَّ كِندِيَّة قالت لجارتها * والدمع ينهلّ من مَثْنَى[2] ومن وَحَد

أَلْهَى آمرأَ القيس تشبيبٌ بغانية * عن ثأره وصفاتُ النُّؤْيِ والوَتَد

فقد أتى أبو نواس فى هذه الأبيات بعدّة عُنوانات : منها قصة قتلِ محمد بن أبى بكر، وقتل حُجْرٍ أبى آمرئ القيس، وقتلِ عمرو بن هندٍ كِنْدَةَ فى ضمن هجو من أراد هجوَه، وعيّر[3] المهجوّ بما أشار اليه من الأخبار الدالّة على هجاء قبيلته ؛

ومثل ذلك قولُ أبى تمام فى آستعطاف مالك بن طَوق على قومه :

رفَدوكَ فى يوم الكُلاب[4] وشَقَّقوا * فيه المَزاد بجحفل غَلّاب[5]

وهمو بَعين أُباغَ[6] راشوا للعدا * سَهمَيك عند الحارث الحَرّاب

(١) فى الأصل : «مكحون» ؛ وهو تحريف . وملحوب : اسم ماء لأسد بن خزيمة .

(٢) فى الأصل : «شتى» ؛ وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : « ومعرة الهجو » وهو غير مستقيم ؛ والتصويب عن حسن التوسل .

(٤) الكلاب بضم الكاف : واد يسلك بين ظهرى ثهلان ، وفيه كان الكلاب الأوّل والكلاب الثانى من أيام العرب المشهورة ، فأما الكلاب الأوّل فقد كان بين شرحبيل بن الحارث وأخيه سلمة ، ومع شرحبيل بكر بن وائل و بنى حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم ، ومع أخيه سلمة بنو قيس . وأما الكلاب الثانى فكان بين بنى سعد والرباب و بين بنى الحارث بن كعب . وقال فى اللسان مادة « كلب» نقلا عن أبى عبيد : كلاب الأوّل وكلاب الثانى : يومان كانا بين ملوك كندة و بنى تميم . وأشار بقوله : «وشققوا فيه المزاد» الى ما فعله السفاح فى هذا اليوم ، وهو أنه ظمأ خيله وسفح ما فى أسقية أصحابه ، وقال : «لا ماء لكم دون الكلاب ؛ والسفاح ، هو مسلمة بن خالد بن كعب من بنى حبيب بضم الحاء المهملة بن عمرو بن غنم بن تغلب .

(٥) فى الأصل : « كلاب» بالكاف ؛ وهو تحريف ، والتصويب عن ديوان أبى تمام .

(٦) عين أباغ بضم الهمزة وفتحها : واد وراء الأنبار على طريق الفرات إلى الشأم ، وكان عندها فى الجاهلية يوم لهم بين ملوك غسان ملوك الشام ، وملوك لخم ملوك الحيرة ، قتل فيه المنذر بن المنذر بن آمرئ القيس اللخمى .

(٦٥)

وليـالىَ الثَّرثار[1] والحَشّاك قــد * جَلبوا الجيـاد لواحقَ الأقراب[2]

فمضت كُهُولهمو ودَبّر أمرَهم * أحداثُهــم تدبيرَ غيرِ صــواب

وقال بعد ذلك :

لك فى رسول الله أعظمُ أُسوة * وأَجلُّهـا فى سُــنّة وكتاب

أَعطى المؤلَّفة القلوبِ رضاهمو * [كَمَلًا][3] وردّ أَخائذَ الأحزاب[3]

والجعفريُّون آستقلّت ظُعْنُهم * عن قومهم وهمو نجوم كِلاب

حتى إذا أَخذ الفراقُ بقسطه * منهم وشَطَّ بهم عن الأحباب

ورأوا بلاد الله قــد لفَظتهمو * أكنافُها رَجعوا إلى جَــوّاب

فأتَوا كريمَ الخِيمِ مِثلَك صافحا[4] * عن ذكر أحقاد وذكر ضِباب

فانظر الى ما أتى به أبو تمّـام فى هــذه الأبيات من العُنوانات من السيرة النبوية وأيام العرب ، وأخبـار بنى جعفر بن كلاب ، ورجوعهم الى آبن عمهم جَوّاب ؛ وكقوله أيضا لأحمد بن أبى دؤاد :

---

(١) الثرثار : واد عظيم بالجزيرة يمدّ اذا كثرت الأمطار، فأما فى الصيف فليس فيه إلا مناقع ومياه حامية وعيون قليلة ، وهو فى البرية بين سنجار وتكريت ، وكان فى القديم منازل بكر بن وائل واختص بأكثره بنو تغلب . والحشاك : هو تل عبدة ، كانت فيه وقعة تغلب على قيس .

(٢) لواحق الأقراب : أى ضمر الخصور .

(٣) هذه الكلمة ساقطة من الأصل . وقد أثبتناها عن ديوان أبى تمام ، وبها يستقيم الوزن . والأخائذ : جمع أخيذة ، وهو فعيلة بمعنى مفعولة ، ولم يرد بالأحزاب هنا من شهدوا غزوة الخندق من المشركين واليهود كما هو المعنى المشهور لهذا اللفظ ، فإنه لم يرو أن النبىّ صــلى الله عليه وســلم قد أخذ منهم أخائذ ثم ردها ولكنه ردّ أخائذ هوازن يوم حنين ، وإذن فراده بلفظ «الأحزاب» المعنى العام ، وهو كل من تحزّب على الإسلام ، كما يستفاد ذلك من شرح ديوان أبى تمـام للخطيب التبريزىّ وغيره من كتب السيرة .

(٤) فى الديوان : « مضت » ؛ ومعنى البيت يسـتقيم على كلتا الروايتين . والضباب : الأحقاد واحده ضب بفتح الضاد وتكسر .

تَثَبَّتْ إنّ قــولا كان زُورا * أتى النعمانَ قَبلَك عن زياد

وأرّث[1] بين حىّ بنى جُلاح * لظى حرب وحىّ بنى مَصاد

وغادَرَ فى صدور الدهر قتْلى * بنى بدر على ذات الإصـاد[2]

فأتى بعنُوان يشير به الى قصة النابغــة حين وُشىَ به الى النعمان، بجز ذلك من

٥ الحروب ما تَضمّنتْ أبياته .

وأما الإيضاح — وهو أن يذكر المتكلّم كلاما فى ظاهره لَبْسٌ، ثم يوضحه فى بقيّة كلامه، كقول الشاعر :

يذكّرنيك الخــيرُ والشرُّ كلُّه * وقِيلُ الخنا والعلمُ والحلمُ والجهلُ

فإن الشاعر لو اقتصر على هذا البيت لأشكل مراده على السامع بجمعه بين ألفاظ

١٠ المدح والهجاء، فلما قال بعد :

فألقــاكَ عن مكروهها متنزّها[3] * وألقاكَ فى محبوبها ولكَ الفضل

أَوضح المعنى المرادَ، وأزال اللّبس، ورَفع الإشكالَ والشك .

وأما التشكيك — فهو أن يأتىَ المتكلّم فى كلامه بلفظة تشــكّك المخاطَب هل هى فَضلةٌ أو أصليّة لا غِنى للكلام عنها؟ مِثلُ قوله تعالى: ﴿يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا

١٥ تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ﴾ فإن لفظة بِدَيْنٍ تشكّك السامعَ هل هى فَضلةٌ أو أصليّة ؟ فالضعيف النظر يظنّها فَضلةً لأن لفظةَ تداينتم تغنِى عنها ، والناظر فى علم البيان يعلم أنها أصليّة

(١) أرّث النار : أوقدها .

(٢) هو اسم ماء لطم عليه داحس فرس قيس بن زهير، فكان من ذلك حرب داحس والغبراء، أو هو ردهة فى ديار عبس وسط هضب القليب يا قوت .

٢٠ (٣) فى الأصل : «عن» ؛ وهو تحريف .

لأن لفظة الدَّين لها مَحامل، تقول : داينتُ فلانا المودّةَ ، يعني جازيتُــه ، ومنه : « كما تَدين تُدان » ومنه قولُ رُؤبة :

داينتُ أَرْوَى والدُّيون تُقضَى * فمَطَلَتْ بعضا وأدّت بعضـا

وكلّ هــذا هو الدَّيــن المجازىّ الذى لا يُكتَب ولا يُشهَد عليه، ولـمّا كان المراد من الآية تمييزَ الدَّين المــالىّ الذى يُكتَب ويُشهَد عليه ، وتيسيرَ[1] أحكامه، أَوجبت البلاغة أن يقول : « بدَين » ليُعلَم حُكمُه .

وأما القول بالموجب — فهو ضربان :

أحدهما أن تقع صفةٌ فى كلامِ مدّعٍ شـيئًا يَعنِى به نفسَه ، فتَثبت تلك الصفة لغيره من غير تصريح بثبوتها له[2]، ولا نفيها عنه، كقوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فإنهم كنَوْا بالأعزّ عن فريقهم، وبالأذلّ عن فريق المؤمنين، فأثبت الله عزّ وجلّ صفةَ العِزّة لله ولرسوله وللمؤمنين من غير تعرّضٍ لثبوت حُكم الإخراج بصفة العزّة ولا لنفيه .

والثانى حَمْلُ كلام المتكلّم مع تقريره على خلاف مراده مما يَحتملُه بذكر متعلَّقــه كقول الشاعر[3] :

---

(١) كذا فى الأصل . والذى فى حسن التوسل : « وتبيين » ؛ والمعنى يستقيم على كليهما .

(٢) كذا ورد هذا التعريف فى الأصل وحسن التوسل . وهو غير ظاهر، إذ أن الذى لا يصرح بثبوته ولا بنفيه إنما هو الحكم الذى ثبتت بواسطته تلك الصفة، لا نفس الصفة، كما يفهم مما يأتى بعد الآية الكريمة . وعبارة التلخيص : « أحدهما أن تقع صــفة فى كلام الغير كناية عن شىء أثبت له حكم فتثبتها لغيره من غير تعرض لثبوته له أو نفيه عنه » . وقال فى الإيضاح فى شرح قوله : « من غير تعرض لثبوته له » ما نصه : « أى ثبوت ذلك الحكم لذلك الغير » الخ .

(٣) هو ابن حجــاج .

قلتُ[(١)] : ثقّلتُ إذ أتيتُ مرارا * قال[(١)] : ثقّلتَ كاهلي بالأيادى

قلتُ : طوّلتُ قال : [لى] بل تطوّلـ[(٢)] * ـتَ : وأبرمتُ قال : حبلَ الوداد

ومنه قولُ الأرّجانىّ : * غالطتْنى إذ كست جسمى ضنًى * البيتين، وقد تقدّم الاستشهاد بهما فى الاستدراك .

٥ وللمولى شهاب الدين محمود الحلبىّ الكاتب فى ذلك :

رأتنى وقد نال منّى النـ * ـحول وفاضت دموعى على الخدّ فيضا

فقـالت : بعينىَ هذا السّقام * فقلتُ : صدقتِ، وبالخصر أيضا

وقولُ محاسن الشّوّاء :

ولمّـا أتانى العاذلون عدمتُهم * وما فيهمو إلا لِلحمىَ قارِض

١٠ وقد بُهتوا لمّـا رأونى شاحبـا * وقالوا : به عينٌ فقلتُ : وعارِض .

وأما القلب — فهو أن يكون الكلام أو البيتُ كيفما انقلبتْ حروفه كان بحاله لا يتغيّر، ومنه فى التنزيل قولُه تعالى : ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ﴾ ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ وقولهم : ساكبُ كاس ؛

ومنه قولُ العماد الأصْفهانىّ للقاضى الفاضل : سِرْ فلا كَبَا بك الفرَس، وجوابُ ١٥ القاضى الفاضل له : دام عُلا العماد، وهى أوّل قصيدة للأرّجانىّ، مَطلَعها : «دام عُلا العماد»، ومن ذلك قولُ الأرّجانىّ :

مَودّتُه تدوم لكلّ هَول * وهـل كلٌّ مَودّتُه تدوم

---

(١) كذا فى الأصل وحسن التوسل . والذى فى خزانة الأدب لابن حجة ص ١٤٥ ط بولاق : «قال ثقلت» فى صدر البيت الأوّل، وفى عجزه : «قلت» وكذلك فى البيت الثانى ؛ وكلتا الروايتين تؤدى ٢٠ معنى صحيحا .

(٢) فى الأصل : «قال بل» بإسقاط «لى» ؛ وقد أثبتناها عن حسن التوسل إذ بها يستقيم الوزن .

وأما التذييل — فهو أن يأتىَ المتـكلّم بنادرة حلوة ، أو نكتة مسـتظرَفة يُعرِّض فيها بمن يريد ذمّه بأمر ، وغالب ما يقع فى الهَزْل ، فمنه قول أبى تمـام فيمن[1] سَرق له شِعرا :

مَن بنُو بَحْدَلٍ ، مَن ٱبنُ الحُباب[2] * مَن بنُو تَغلِب غَداة الكُلاب

مَن طُفَيلٌ ، مَن عامرٌ ، أم مَن الحا * رثُ ، أم مَن عُتَيبةُ بن شِهاب

إنمـا الضَّيغم الهَصُور أبو الأشـ * ـبال هَتّـاكُ كلِّ خِيس[3] وغاب

مَن عدت خيلُه على سَرْح شِعرى * وهو لِلحَين راتعٌ فى كـتاب

ياعَذارى الكلام صرتنّ من بَعـ * ـدى سبايا تُبَعن فى الأعراب

لو تَرى مَنطِق أسـيرا لأصبحـ * ـتَ أسـيرا ذا عَبْرة وٱكتئاب

طال رَغْبى إليك ممـا أقاسيـ * ـه ورُهبى يارَبِّ فاحفظ ثيابى

ومن ذلك ما قاله شهاب الدين بنُ الخَيمى يُعرِّض بنجم الدين بنِ إسرائيلَ لمـا تنازعا فى القصيدة المعروفة لابن[4] الخَيمى التى أوّلهـا :

* يامَطلَبا ليس لى من غيره أَرَب *

فقال من قطعة منها :

هُمُ العُرَيبُ بنجـد مذ عرَفتُهمو * لم يَبقَ لى معهـم مالٌ ولا نَشَب

فمـا أَلمُّوا بحىٍّ أو أَلَمّ بهـم * إلا أغاروا على الأبيـات وٱنتَهَبوا

لم يُبـقِ مَنطِقه قولا يروق لنـا * لقد شكت ظلمه الأشعار والخطب .

---

(١) أراد به محمد بن يزيد الأموىّ . انظر شرح ديوان أبى تمـام للخطيب التبريزى المحفوظ منـه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٠ أدب ش .

(٢) أراد عمير بن الحباب السلمىّ انظر شرح ديوان أبى تمـام المتقدّم .

(٣) فى الأصل : «جيش» بجيم فوقية وشين معجمة ، وهو تصحيف . وخيس الأسد : عرينه .

(٤) فى الأصل « بابن » بالباء ، وهو تحريف ، والسياق يقتضى اللام .

وأما الإسجال بعد المغالَطة — فهو أن يقصد الشاعر غرضا من ممدوح فيَشترِط لحصوله شرطا ، ثم يقدِّر وقوعَ ذلك الشرط مغالَطة ليُسجِّل به آستحقاقَ مقصوده، كقول بعضهم :

جاء الشتاء وما عندى لقِرّته * إلا آرتعادى وتصفيقى بأسنانى

فإن هَلَكتُ فمولانا يكفّننى * هَبنى هَلَكتُ فهَبنى بعض أكفانى .

وأما الآفتنان — فهو أن يأتىَ الشاعر بفنَّين متضادَّين من فنون الشعر فى بيت واحد، مثلِ التشبيب والحماسة، [والمديح](١) والهجاء، والهناء والعزاء

فأما ماجُمِع فيه بين التشبيب والحماسة فكقول عنترة :

إن تُغْدِفى دونى القِناع فإننى * طَبٌّ(٢) بأخذ الفارس المستلئم

وكقول أبى دُلَف — ويُروَى لعبد الله بن طاهر — :

أُحبّكِ ياجِنان وأنتِ منّى * محَلّ الرُّوح من جسد الجبان

ولو أنى أقول محلّ روحى * لخِفتُ عليك بادرةَ الطِّعان .

وأما ماجُمِع فيه بين تهنئةٍ وتعزيةٍ فقد تقدّم ذكرذلك فى بابَى التهانى والتعازى ومنه فيما لم نورده هناك ما كتب به المولى شهاب الدين محمود الكاتبُ تهنئة وتعزية لمن رزق ولدا ذكرا فى يوم ماتت له فيه بنت :

ولا عَتْب على الدهر فيما آقترَف، فقد أحسن الخَلَف، واعتَذرَ بما وَهَب عما سَلَب، فعفا الله عمّا سلف .

(١) هذه الكلمة ساقطة من الأصل؛ وصحة التمثيل تقتضى إثباتها.

(٢) أغدفت المرأة قناعها : أرسلته على وجهها . والطب بفتح أوّله : الماهر الحاذق .

وأما الإبهام — بباء موحّدة فهو أن يقول المتكلّم كلاما مبهمًا يحتمل معنيين متضادّين ، كقول بعضهم فى الحسن بن سَهل لما تزوّج المأمون بنته بُوران :

بارك الله للحَسَن * ولبُوران فى الخَتَن
يا إمام الهدى ظَفِر * تَ ولكن ببنت مَن

فلم يُعرَف مرادُه «ببنت من» هل أراد به الرفعة أو الضعة ؟

ومنه قولُ بشّار فى خياط أعورَ اسمه عمرو :

خاط عمرو لى قَباء * ليت عينيه سواء

فأبهم المعنى فى الدعاء له بالدعاء عليه .

وأما حصر الجزئىّ وإلحاقه بالكلىّ — فهو كقول السّلامىّ :

إليك طوى عَرضَ البسيطة جاعلٌ * قُصارى المطايا أن يلوح لها القَصر
فكنتُ وعزمى فى الظلام وصارمى * ثلاثةَ أشباه[1] كما اجتمع النّسر
وبَشّرتُ آمالى بمَلْك هو الورى * ودارٍ هى الدنيا، ويومٍ هو الدهر.

فأما حَصرُ أقسام الجزئى فإن العالَم عبارةٌ عن أجسامٍ وظروفِ زمانٍ وظروفِ مكانٍ، وقد حَصَر ذلك ؛

وأما جعلهُ الجزئىّ كليّاً فإن الممدوح جزء من الورى، والدار جزء من الدنيا، واليوم جزء من الدهر .

(١) كذا فى يتيمة الدهر ج ٢ ص ١٦٣ ط الحنفية ، وخزانة الأدب للحموى ص ٤٥٤ ط بولاق ، وتحرير التحبير لابن أبى الإصبع المحفوظ منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم ٤٦٥ بلاغة . وفى الأصل : أشياء؛ وما أثبتناه أقرب الى معنى البيت ، وأظهر فى المراد .

وأما المقارَنة — فهى أن يَقرِن الشاعر الآستعارةَ بالتشبيه أو المبالَغة أو غير ذلك بوَصل يَخفَى أثره إلّا على مُدْمِن النظر فى هذه الصناعة، وأكثرُ ما يقع ذلك بالجُمَل الشرطيّة، كقول بعض شعراء المَغرب[1] :

وكنتَ إذا آستُنزِلتَ من جانب الرضى * نزلتَ نزولَ الغيث فى البلد المَحْل

وإن هَيّج الأعداء منك حَفيظةً * وقعتَ وُقوعَ النار فى الحطب الجَزْل

فإنه لاءم بين الآستعارة والتشبيه المنزوع الأداةِ[2] فى صدرَىْ بيتَيه وعَجُزيهما .

وأما ما قُرِنتْ به الآستعارةُ من المبالَغة فمثاله قولُ النابغةِ الذُّبيانىّ :

وأنتَ رَبيع يُنعِش الناسَ سَيبُهُ * وسيف أُعِيرتْه المنيّة قاطِع

فإن فى كل من صدر البيت وعجزه آستعارة ومبالغة ، وإنما التى فى العجز أبلغ .

ومما آقترَن فيه الإرداف بالآستعارة قولُ تَميم بن مُقْبِل :

لدن غُدْوة حتى نَزَعنا عشيّة * وقدمات شَطرالشمس والشَّطرُ مُدْنَف

فإنه عَبّر بموت شَطر الشمس عن الغروب، وآستعار الدَّنَف للشطر الثانى .

وأما الإبداع — فهو أن يأتى فى البيت الواحد من الشِّعر، أو القرينة الواحدةِ من النثر بعِدّة ضروب من البديع بحسب عدد كلماته أو جُمَله ، وربما كان فى الكلمة الواحدة المفردة ضربان من البديع ، ومتى لم تكن كلّ كلمة بهذه المثابة فليس بإبداع

قال آبن أبى الإصبَع : وما رأيتُ فيما آستقرَيتُ من الكلام كآية آستخرجْتُ منها أحدا وعشرين ضربا من المَحاسن ،وهى قوله تعالى:﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ٱبْلَعِى مَاءَكِ

(١) هو إدريس بن اليمان كما فى تحرير التحبير لابن أبى الإصبع .

(٢) فى الأصل : «الإرادة» ؛ وهو تحريف .

و يا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين﴾ : وهى المناسبة التامة فى «ابلعى» و «أقلعى» ؛ والمطابقة بذكر الأرض والسماء ؛ والمجاز فى قوله : «ياسماء» ، فإن المراد — والله أعلم — يامطرالسماء ؛ والاستعارة فى قوله تعالى : «أقلعى» ؛ والإشارة فى قوله تعالى : «وغيض الماء» فإنه عبر بهاتين اللفظتين عن معان كثيرة ؛ والتمثيل فى قوله تعـالى : « وقضى الأمر » فإنه عبر عن هلاك الهالكين ونجاة الناجين بغـير لفظ المعنى الموضوع له ؛ والإرداف فى قوله : « واستوت على الجودي » فإنه عبر عن استقرارها بهذا المكان استقرارا متمكنا بلفظ قريب من لفظ المعنى ؛ والتعليل ، لأن غيض المـاء علة الاستواء ؛ وصحة التقسـيم إذ استوعب الله تعـالى أقسـام أحوال المـاء حالة نقصـه ، إذ ليس إلا احتباس ماء السماء ، واحتقان المـاء الذى ينبـع من الأرض ، وغيض المـاء الحاصل على ظهرها ؛ والاحتراس فى قوله تعالى : «وقيل بعدا للقوم الظالمين» إذ الدعاء عليهم يشـعر أنهم مستحقو الهلاك احتراسا من ضعيف العقـل يتوهم أن العذاب شمـل من يستحق ومن لا يستحق ، فتأكد بالدعاء كونهم مسـتحقين ؛ والإيضاح فى قوله : « للقوم » ليبين أن القوم الذين سبق ذكرهم فى الآية المتقدمة حيث قال : ﴿وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه﴾ هم الذين وصفهم بالظلم ليعلم أن لفظة القوم ليست فضلة وأنه يحصـل بسقوطها لبس فى الكلام ؛ والمسـاواة لأن لفظ الآية لا يزيد على معناها ؛ وحسن النسق ، لأنه تعالى عطف القضايا بعضها على بعض بحسن ترتيب ؛ وائتلاف اللفظ مع المعنى ، لأن كل لفظـة لا يصلح موضعها غيرها ؛ والإيجاز ، لأنه سـبحانه وتعـالى اقتص القصة بلفظها مسـتوعبة بحيث لم يخل منها بشيء فى أقصر عبارة ؛ والتسهيم ، لأن أول الآية الى قوله : «أقلعى»

يقتضى آخرها[1]؛ والتهذيب، لأنّ مفرداتِ الألفاظ موصوفةٌ بصفات الحسن، عليها رونق الفصاحة، سليمةٌ من التعقيد والتقديم والتأخير؛ والتمكّن، لأن الفاصلة مستقرّةٌ فى قرارها، مطمئنّةٌ فى مكانها؛ والانسجام، وهو تحدّر الكلام بسهولة كما يَنسجم الماء؛ وما فى [مجموع][2] الآية من الإبداع، وهو الذى سُمّىَ به هذا الباب . فهذه سبع عشرة لفظةً تَضمّنتْ أحدا وعشرين ضربا من البديع غيرَ ما تكرر من أنواعه فيها .

وأما الانفصال — فهو أن يقول المتكلّم كلاما يَتوجّه عليه فيه دَخَلٌ لو اقتَصَر عليه، فيأتى بما يفصله عن ذلك الدَّخَل، كقول أبى فِراس :

ولقد نُبِّئتُ إبليـ * ـس إذا راكَ يَصُدّ

ليس مِن تقوى ولكن * ثِقَل فيك وبَرْدُ

والفرقُ بين هذا وبين الاحتراس خلوّ[3] الاحتراس من الدَّخَل عليه من كلّ وجه .

وأما التصرف — فهو أن يتصرّف المتكلّم فى المعنى الذى يقصِده، فيُبرزه فى عِدّة صور : تارة بلفظ الاستعارة، وطَورا بلفظ التشبيه، وآونةً بلفظ الإرداف وحِينا بلفظ الحقيقة، كقول امرئ القيس يصف الليل :

وليلٍ كموج البحر مُرخٍ سُدُوله * علىّ بأنواع الهموم ليَبتلى

فقلتُ له لمّا تَمطّى بصُلْبه * وأَردَفَ أعجازا وناءَ بكَلكَل

فإنه أَبرز المعنى بلفظ الاستعارة، ثم تَصَرّف فيه فأتى بلفظ التشبيه فقال :

---

(١) فى الأصل : « نقيض »؛ وهو تحريف لا يستقيم به المعنى .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من الأصل . واستقامة الكلام تقتضى إثباتها . انظر تحرير التحبير لابن أبى الإصبع .

(٣) فى الأصل : « عموم »؛ وهو تحريف .

فيالك من ليل كأنّ نجومَه * بكلّ مُغار الفتل شُدّت بيَذبُلِ (١)

ثم تَصرّف فيه فأخرَجه بلفظ الإرداف فقال :

ألا أيها الليل الطويل ألا آنجلى * بصبح وما الإصباح منك بأَمثَلِ (٢)

وأما الآشتراك — فمنه ما ليس بحَسَن ولا قبيح، وهو الآشتراك فى الألفاظ مثل آشتراك الأُبَيْرِد وأبى نواس فى لفظة الآستعفاء، فإن الأُبَيْرِد قال فى مَرثية أخيـــه :

وقد كنتُ أَستعفى الإلٰهَ إذا آشتكى * من الأجر لى فيه وإن عَظُم الأجر

وقال أبو نواس :

ترى العين تستعفيك من لمعانها * وتَحسِر (٣) حتى ما تُقِلّ جفونَها

ومنه الحسَن، وهو الآشتراك فى المعنى، كقول آمرئ القيس :

كبِكْرِ المُقاناة (٤) البياضَ بصُفرة * غَذاها نَمير الماء غيرُ المُحَلَّلِ (٤)

وقولِ ذى الرُّمّة :

كَحلاءُ فى بَرَجٍ (٥) صفراء فى دَعَجٍ (٥) * كأنها فضّة قد مسّها ذهب

(١) يذبل : جبل بنجد فى طريقها يا قوت .

(٢) فى الأصل : «فيك» ؛ وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : «وتحسن» ؛ بالنون ؛ وهو تحريف . وهذا البيت فى صفة الخمر ؛ يريد أن العين تكلّ عن النظر إليها من شدّة لمعان هـذه الخمر وبريقها حتى إن العين تستعفى الناظر من أن يكلفها النظر إليها ؛ أى تطلب منه أن يعفيها من ذلك .

(٤) المقاناة من قانيت بين الشيئين : أى خلطت أحدهما بالآخر . والمحلل : الذى لم يكثر حلول الناس عليـه فيكدرونه بكثرة وروده ؛ يريد تشبيه محبوبته ببيضة النعامة التى يخالط بياضها صفرة ، وهو من الألوان التى تحمد عند العرب ؛ وأن غذاءها الماء العذب الصافى الذى لم يكدره الواردون .

(٥) البرج بفتح أوله وثانيه فى العين : نقاء بياضها وصفاء سوادها ، أو هو اتساعها . والدعج : شدّة سواد العين .

فوقع[1] الاشتراك بينهما فى وصف المرأة بالصفرة ، غير أن الأوّل شبّه الصفرة ببَيضة النعامة ، والآخر وصفها بالفضّة المُموّهة ؛

ومن الاشتراك المعنوىّ ما ليس بحسَن ولا معيب ، كقول كُثيّر :

وأنتِ التى حبّبتِ كلّ قصيرة * إلىّ وما تدرى بذاك القصائر

عنيتُ قصيراتِ الحِجال ولم أُرِد * قصارَ الخُطَا ، شرُّ النساء البحاتر[2]

فإن لفظة قصيرة مشتركة ، فلو اقتصر على البيت الأوّل لكان الاشتراك معيبا لكنه لما أتى بالبيت الثانى زال العيب ، ولم يبلُغ رتبة الحسن لما فيه من التضمين .

وأما التهكّم — فالفرق بينه وبين الهزْل الذى يراد به الجدّ أن التهكّم ظاهره جِدٌّ وباطنه هزْل ، والهزْل الذى يراد به الجدّ على العكس منه ، فمن التهكّم قولُ الوجيه الذروىّ فى ابن أبى حصينة من أبيات :

لا تَظُنّنّ حَدْبة الظَّهر عيبا * فهى فى الحُسن من صفات الهلال

وكذاكَ القِسىّ مُحْدَوْدِباتٌ * وهى أنكَى من الظُّبا والعَوالى

وإذا ما علا السَّنام ففيه * لقُروم الجِمال أىُّ جَمال

وأرَى الانحناء فى مِخلَب البا * زى ولم يَعْدُ مِخلَبَ الرئبال

كوّن الله حَدْبة فيك إن شئـ * ـتَ من الفضل أو من الإفضال

فأتت رَبْوةً على طَود علم * وأتت مَوْجةً ببحر نوال

ما رأتها النساء إلا تمنّت * أنها حِليةٌ لكلّ الرجال

(١) فى الأصل : « فوقوع » ؛ والواو الثانية زيادة من الناسخ .

(٢) البحاتر : القصار من النساء ، واحده بحترة .

ثم ختمها بقوله :

وإذا لم يكن من الهجر بدٌّ * فعسى أن تزورنا[1] فى الخيال

وكقول ابن الرومىّ :

فياله من عمل صالح * يرفعه الله إلى أسفل .

وأما التدبيج — وهو أن يذكر الشاعر أو الناثر ألوانا يقصد بها الكناية أو التورية بذكرها عن أشياء من وصف أو مدح أو هجاء أو نسيب أو غير ذلك من الفنون ، فمن ذلك قول الحريرىّ فى بعض مقاماته : فمذ ازورّ المحبوب الأصفر واغبرّ العيش الأخضر ، اسودّ يومى الأبيض ، وابيضّ فودى[2] الأسود ، حتى رثى لى العدوّ الأزرق ، فحبذا الموت الأحمر .

وهذا التدبيج بطريق التورية . وقال بعض المتأخرين يصف موقف السلطان الملك الناصر بمصافّ شقحب[3] الكائن بينه وبين التتار فى شهر رمضان سنة اثنتين وسبعمائة :

وما زال بوجهه الأبيض ، تحت علمه الأصفر ، يكابد الموت الأحمر ، تجاه العدوّ الأزرق ، الى أن حال بينهما الليل الأسود ، وبكّر فى غرّة نهار الأحد الأشعل وامتطى السبيل الأحوى الى أن حلّ بالأبلق . يريد بالأبلق : القصر الظاهرىّ الذى بالميدان الأخضر بظاهر مدينة دمشق ؛ ومن أمثلة هذا الباب[4] قول ابن حيّوس الدمشقى :

(١) فى الأصل : «تزورينى» ؛ والياء زيادة من الناسخ .

(٢) فى الأصل : «يومى» ، وهو تحريف .

(٣) قال فى القاموس شقحب كجعفر : موضع قرب دمشق . والذى يستفاد من تاريخ أبى الفداء ج ٤ ص ٥٠ ط القسطنطينية أن هذا الموضع فى طرف مرج الصُّفَّر .

(٤) فى الأصل : «البيت» ؛ وهو تحريف .

إن تُرد عِلْم حالهم عن يقين * فالْقَهم يوم نائل أو قتال
تلقَ بيضَ الوجوه سُودَ مُثار النَّـ * ـقع خُضرَ الأكناف حُمرَ النِّصال .

وأما الموجّه — فهو الذى يَمدح[1] بشىء يَقتضى المدح بشىء آخَر، كقول المتنبى :

نَهَبتَ من الأعمار مالو حَوَيتَه * لهُنِّئت الدنيا بأنك خالد

٥ وكقوله أيضا :

عُمْر العدوّ إذا لاقاه فى رَهَج * أقلُّ مِن عُمْر ما يَحوى إذا وَهَبا

فأوّل البيتين وصفٌ بفرط الشجاعة، وآخر الأوّل بعلوّ الدرجة ، وآخر الثانى بفرط الجـود .

وأما تشابه الأطراف — فهو أن يَجعل الشاعر [قافيةَ][2] بيته الأوّل أوّلَ البيت

١٠ الثانى، وقافيةَ الثانى أوّلَ الثالث، وهكذا إلى انتهاء كلامه، ومِن أحسنِ ما قيل فيه قولُ ليلى الأَخْيَلية تمدح الحجّاج :

إذا نزل الحجّاج أرضا مريضة * تَتَبَّعَ أقصى دائها فشَفاها
شَفاها مِن الداء العُضال الذى بها * غلام اذا هَزّ القناة سَقاها
سقاها فروّاها بشُرب سِجالها * دماءَ رجال يَحلُبون صَراها[3] .

١٥ هذا ما أَورده فى حسن التوسّل من علوم المعانى والبيان والبديع، وقد أَتينا على أكثره بنَصّه لِمَا رأيناه من حسن تأليفه ، وبديع ترصيفه ، وأنّ اختصاره لا يمكن

(١) كذا فى الأصل . والذى فى حسن التوسل : « هو أن يمدح » ؛ وهو أظهر، فإن التعريف عليه يكون لنفس هـذا النوع من الكلام؛ ومقتضى عبارة الأصل أن التعريف لنفس المتكلم، وهو غير ما سار عليه فى تعريف سائر الأنواع .

٢٠ (٢) هذه الكلمة التى بين مربعين ساقطة من الأصل . وقد أثبتناها عن حسن التوسل ، إذ بها يستقيم التعريف .

(٣) الصرى : اللبن الفاسد المتغير الطعم ، استعارته هنا للدماء .

إلا عند الإخلال بفائدة لا يُستغنَى [عنهـا](١) فلم نحذف منه إلا ما تكرّر من الأمثلة والشواهد ، لآستغنائنا بمـا أوردناه عمّـا حذفناه ، فالنِّسبةُ فيه إلى فضائله وفضله والعُمدةُ على شواهـده ونقله ؛ فلقـد أحسن التأليف ، وأجاد التعريف ، وآحتَمل التوقيف ؛ وحرّر الشواهد ، وأوضح السبيل حتى صار الغائبُ عن هذه الصناعة إذا طالع كتابه كالشاهد ؛ وأبدَع فى صـناعة البـديع ، وبيّن علم البيان بحسن الترصيف والترصيع ؛ وآعتَنَى بألفاظ المعـانى فصرّف أعنّتَهـا ببَنانه ، وأبان مُشكلَها فأحسَن فى بيانه ؛ وحلّ من التعقيد عِقالهـا الذى عجَز غيرُه عن حَلّه ، وسهّل للأفهام مقالها فأبرزته الألسنة من مُحرَّم اللفظ إلى حِلّه ؛ فله المِنّةُ فيما ألّف ، والفضلُ بما صنّف .

وأما ما يتصـل بذلك من خصائص الكتّابة — فالآقتباس والآستشهاد والحل :

[فالآقتباس](١) هو أن يُضمّن الكلام(٢) شيئا من القرآن أو الحديث ، ولا يُنبّه عليه للعِلم به ، كما فى خُطَب آبن نُباتة ، كقوله : فيا أيهـا الغَفَلةُ المُطْرِقون ، أما أنتم بهذا الحديث مصدِّقون ؟ مالكم لا تُشفِقون ؟ ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾ . وكقوله أيضـا : يوم يبعث الله العالمين خَلقا جديدا ، ويجعلُ الظالمين لجهنّم وَقُودا ، يوم تكونون "شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا" ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ .

ومن ذلك ما أورد المولى شهابُ الدين محمود فى تقليد عن الإمام الحاكم بأمر الله أبى العباس أحمد بالسلطنة ، جاء منـه : وجمع بك شمل الأمة بعد أن "كَادَ يَزِيغُ

(١) هذه الكلمة التى بين مربعين ساقطة من الأصل . والسياق يقتضى إثباتها .

(٢) كذا فى حسن التوسل . والذى فى الأصل : « الكاتب » .

قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ" ، وعضّدك لإقامة إمامته بأولياء دولتك الذين رَضِىَ الله عنهم؛ وخصّك بأنصار دينه الذين نَهضوا بما أُمِروا به من طاعتك وهم فارهون، وأظهرك (٧١) على الذين " ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ" وأمثال ذلك .

٥ وأما الاستشهاد بالآيات — فهو أن ينبّه عليها، كقول الحَرِيرى: فقلتَ وأنت أصدق القائلين : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ ونحو ذلك .

وفى الأحاديث بالتنبيه عليها أيضا، كقول المولى شهاب الدين محمود فى خُطبة تقليدٍ حاكمىّ : ونصلى على سيدنا محمد الذى آستخرجه الله من عُنصُر أهله وذويه، وشَرَّف قدر جَدّه بقوله فيه : " إنّ عمّ الرجل صِنْوُ أبيه" وسَرّه بما أَسَرّ إليه من أنّ ١٠ هذا الأمر فُتِح به ويُختَم ببنيه . وأمثالُ ذلك [لا تُحصر](١) .

[وأما الحَلّ](١) — وهو باب مُتّسع المجال ، ومَلاك أمر المتصدّى له أن يكون كثيرَ الحفظ [للأحاديث النَّبوِيّة والآثارِ والأمثالِ والأشعارِ ليُنفِقَ منها وقت الاحتياج إليها](١) .

قال: وكيفيّة الحَلّ أن يَتوخّى هدمَ البيت المنظوم، وحَلّ فرائده من سِلكه، ثم ١٥ يرتّب تلك الفرائدَ وما شابهها ترتيبَ متمكّن لم يَحصُرْه الوزن، ويُبرِزَها فى أحسن سلك، وأجملِ قالَب، وأَصحّ سَبْك، ويكمّلها بما يناسبها من أنواع البديع إن أمكن ذلك من غير كُلْفةٍ، ويَتخيّر لها القرائن، وإذا تم معه المعنى المحلول فى قرينة واحدة يَغرَم له من حاصل فِكْره، أو من ذخيرة حفظه ما يناسبه، وله أن يَنقُل المعنى إذا لم يُفسده إلى ما شاء، فإن كان نَسيبا وتأتّى له أن يجعله مديحا فليفعل، وكذلك غيرُه

٢٠ (١) هذه التكلة ساقطة من الأصل، وقد أثبتناها عن حسن التوسل .

من الأنواع ؛ واذا أراد الحَلّ بالمعنى فلتكن ألفاظه مناسبةً لألفاظ البيت المحلول غيرَ قاصرة عنها، فمتى قَصُرت عنها ولو بلفظة واحدة فسـد ذلك الحلّ وعُدّ مَعيبا ؛ واذا حَلّ باللفظ فلا يَتصرّف بتقديم ولا تأخير ولا تبديل إلا مع مُراعاة نظام الفصاحة فى ذلك ، واجتنابِ ما يَنقُص المعنى ويَحطّ رتبته ؛ وهذا الباب لا تحصر المقاصد فيه، ولا تَحْجَر على المتصرِّف فيه . ٥

قال : ومما وقع التصرّف فيه بزيادة على المعنى قولُ ضياء الدين بنِ الأَثير الجَزَرىّ فى ذكر العصا التى يَتوكّأ عليها الشيخ الكبير : وهذه لمبتدا ضَعفى خَبَر، ولِقَوس ظهرى وَتَر، واذا كان إلقاؤها دليلا على الإقامة فإنّ حَمْلَها دليل على السَّفر .

والمحلول فى ذلك قولُ بعضهم :

* كأنّنى قَوسُ رامٍ وهى لى وَتَرُ * ١٠

وقولُ الآخر :

فألقت عصاها وآستقَرّت بها النوَى * كما قَرّ عَينـا بالإياب المسافرُ

وأما ما يحتاج فيه الى مؤاخاة القرينة المحلولة بمثلها أو ما يناسبها فكما قال المولى شهاب الدين محمود فى تقليد :

فكم مَلّ ضَوءُ الصبح ممـا يُغيره، وظَلامُ النَّقع مما يُثيره،وحَديد الهند مما يلاطمه والأَجَلُ مما يسابقه الى قَبْض الأرواح ويزاحمه . ١٥

والقَرينتان الأولَيان نِصْـفا بيتين للتنبّى ، فأضـاف الى كل قرينة ماينا سبها، وهذا مِن أَكثرِ ما يستعمل فى الكتابة، ولا يَنبغى للكاتب أن يعتمـد فى جميع كتابته على الحَلّ، فيتّكِلَ خاطره على ذلك، ويَذهب رَوْنَقُ الطبع السليم، وتَقلّ مادّة الانسجام بل يكون آستعمال ذلك كاستعمال البديع اذا أتى عفْوا من غير تكلّف ليكون كالشاهد ٢٠

على صحة الكلام ، والدالّ على الاطلاع ، وكالرّقم فى الثوب ، والشّذرة فى القِلادة والواسطة فى العِقد، إذ لا ينبغى للكاتب أن يُخْلِىَ كلامه من نوع من أنواع المحاسن .

ويقرُب من هذا النوع التلميح، وقد تقدّم ذكره فى بعض أبواب البديع ، والذى يقع فى بعض آستعماله فى مِثل ذلك مِثلُ قول الحَريرى : وإنّى والله لطالما لقِيت الشتاء بكافاته، وأَعددتُ الأُهْبَةَ له قَبْل مُوافاته . يشير الى بيتَى آبنِ سُكَّرة :

* جاء الشتاء وعندى من حوائجه *

وهى مشهورة .

فإذا عرف الكاتب هذه العلوم، وأتى الصناعة من هذه الأبواب تعيّن عليه أمور أُخَرُ نذكرها الآن .

ذكر ما يتعين على الكاتب آستعماله والمحافظة عليه والتمسّك به وما يجوز فى الكتابة وما لا يجوز

قال إبراهيم بنُ محمد الشَّيْبانىّ : فإن آحتجتَ الى مخاطَبة الملوكِ والوزراءِ والعلماءِ والكتّابِ والأدباءِ والخطباءِ والشعراءِ وأوساطِ الناس وسُوقتهم، فخاطِبْ كلّا على قدر أُبّهته وجلالته، وعلوّه وآرتفاعه، وفطنته وآنتباهه، ولِكلّ طبقة من هذه الطّباق مَعانٍ ومذاهبُ يجب عليك أن ترعاها فى مراسلتك إيّاهم فى كتبك ، وتزنَ كلامك فى مخاطَبتهم بميزانه، وتعطيَه قِسمته، وتُوفيَه نصيبه، فإنك متى أهملتَ ذلك وأضعتَه لم آمن عليك أن تعدِل بهم عن طريقهم، وتَسلُك بهم غير مَسلكهم، وتُجرىَ شعاع بلاغتك فى غير مُجراه ، وتَنظِمَ جوهر كلامِك فى غير سلكه ، فلا تَعتدّ بالمعنى الجَزْل ما لم تُلبسه لفظا [لائقا بمن كاتبتَه، وملامسا لمن راسلتَه] (١) ، فإن إلباسَك المعنى

(١) التكلة عن العقد الفريد ج ٢ ص ٢١٦ ط العثمانية ؛ واستقامة الكلام تقتضى إثباتها وموضعها بالأصل جملة مكررة مع ما سيأتى، وهى قوله : « مختلفا على قدر المكتوب اليه » .

— وإن صحّ وشَرُف — لفظا مختلفا عن قدر المكتوب اليه لم تَجرِ به عادته تهجينٌ للمعنى وإخلالٌ بقدْره، وظلم يلحق[(١)] المكتوب اليه، ونقْصُ ما يجب له[(٢)]، كما أنّ فى ٱتباع تعارُفهم، وما ٱنتَشَرت به عادتهم، وجرت به سُنّتهم، قَطعا لعذرهم، وخروجا من حقوقهم، وبلوغا إلى غاية مُرادهم، وإسقاطا لُحجّة أدبهم .

٥ وقال أحمد بنُ محمدِ بنِ عبد ربّه : فٱمتثلْ هـذه المذاهبَ، وٱجرِ[على هـذا][(٣)] القِوام، وتَحفّظْ فى صـدور[(٤)] كتبك وفصولها وٱفتتاحها وخواتمها، وضَع كل معنى فى موضع يليق به، وتخيّرْ لكلّ لفظة معنى يشاكلها، وليكن ما تختم به فصولك فى موضع ذكر البلوى بمثل : « نسأل الله دَفْعَ المحذور، وصَرْفَ المكروه » وأشباهِ ذلك؛ وفى موضع ذكرِ المصيبة : ﴿إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ ؛ وفى موضع ذكر

١٠ النعمة : « الحمد لله خالصا، والشكر لله واجبا » وما يشاكل ذلك، فإن هذه المواضع ممـا يَتعيّن على الكاتب أن يتفقّده ويَتحفّظ منه، فإن الكاتب إنمـا يصير كاتبا بأن يضعَ كلّ معنى فى موضعه، ويعلّقَ كلّ لفظة على طَبَقتها فى المعنى .

قال : واعلم أنه لايجوز فى الرسائل ٱستعمال ما أتت به آىُ القرآن من الاختصار والحذف، ومخاطَبـةِ الخاصّ [بالعامّ][(٥)] والعامِّ بالخاصّ، لأن الله تعالى إنمـا خاطب

---

١٥ (١) كذا فى الأصل . والذى فى العقد الفريد : «يحق المكتوب» الخ، والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين .

(٢) فى الأصل : « عليه » ؛ وهو تحريف، والتصويب عن العقد الفريد .

(٣) فى الأصل : « واجرعليها القوم » ؛ وفيه نقص، والزيادة عن العقد الفريد ج ٢ ص ٢١٨ ط العثمانيـة، والذى فى العقد : « هذه » ؛ وهو غير مستقيم كما لا يخفى، والقوام بكسر القاف : نظام

٢٠ الأمر وملاكه وعماده .

(٤) كذا فى العقد الفريد . والذى فى الأصل : « فى صدرك » ؛ وهو تحريف .

(٥) الزيادة عن العقد الفريد ج ٢ ص ٢١٨ ط العثمانية ؛ واستقامة الكلام تقتضى إثباتها .

بالقرآن قوما فُصَحاء فَهموا عنــه — جلّ ثناؤه — أمرَه ونهيَه ومراده، والرسائل إنما يخاطَب بها قوم دُخَلاءُ[(١)] على اللغة لاعِلم لهم بلسان العرب؛ وكذلك ينبغى للكاتب أن يتجنّب اللفظ المشترَك ، والمعنى الملتبِس ، فإنه إن ذهب ليكاتب على معنى قول الله تعــالى : ﴿ وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَــا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِى أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ بَلْ مَكْرُ ٱللَّيْــلِ وَٱلنَّهَــارِ ﴾ آحتاج أن يبيِّن أن معناه : آسأل أهلَ القرية ، وأهل العِير، و بل مكرُكم بالليل والنهار؛قال : وكذلك لا يجوز أيضا فى الرسائل والبلاغات المنثورة ما يجوز فى الأشــعار الموزونة ، لأن الشاعر مضطرّ، والشعر مقصور مقيّد بالوزن والقوافى ؛ فلذلك أجازوا لهم صرْفَ ما لا ينصرف من الأسمــاء ، وحذْفَ ما لا يُحذف منها، واغتفَروا[(٢)] فيه سوء النّظم، وأجازوا فيه التقديم والتأخير، والإضمار فى موضع الإظهار، وذلك كله غيرُ سائغ فى الرسائل، ولا جائز فى البلاغات؛

فمما أجيز فى الشعر من الحذف قولُ الشاعر :

* قَواطِنا مكّةَ من وُرْقِ الحَمَا *

يريد الحَمَام، وكقول الآخر :

* صِفْر الوِشاحَين صَمُوت الخَلْخَلِ *

يريد الخَلْخَال، وكقول الحُطَيئة :

فيها الرماح وفيها كُلُّ سابغة * جَدْلاءَ مَسرودةٍ من فِعْلِ سلّامِ[(٣)]

يريد سليمان، وكقول الآخر :

وسائلةٍ بثَعلبةَ بنِ سَــير * وقد عَلِقَت بثعلبةَ العَلُوقُ[(٤)]

---

(١) كذا فى العقد الفريد . وعبارة الأصل : « جهلاء عن » الخ، وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : « واعتبروا » ؛ وهو تحريف .

(٣) كذا فى الأصل . والمشهور فى روايته : « من نسج » .

(٤) العلوق بفتح العين : المنيّة .

يريد ثعلبة بن سيَّار[(١)] ، وكقول الآخر :

فلستُ بآتيــه ولا أســتطيعه * وَلاكِ ٱسقنى إن كان ماؤكَ ذا فَضْلِ

(٧٣)

[أراد ولكن][(٢)] قال : وكذلك لا ينبغى فى الرسائل أن يُصغَّر الاسمُ فى موضع التعظيم و إن كان ذلك جائزا، مثلُ قولهم : دُوَيْهِيَةٌ تصغيرَ داهية، وجُذَيْلٌ وعُذَيْقٌ، تصغيرَ جِذْلٍ وعَذْقٍ[(٣)] . قال لبيد :

٥

وكلُّ أناس سوف تَدخُل بينهم * دُوَيْهِيَــةٌ تصفرُّ منهـا الأناملُ

قال : فتَخيَّرْ فى الألفاظ أرجحَها وزنا ، وأَجزلَهـا معنى ، وأَشرفَهـا جوهرا وأكرمَها حَسَـبا ، وأَليقَها فى مكانها ، وأَدِرِ الكلام فى أماكنه ، وقَلِّبْـه على جميع وجوهه ، ولا تجعل اللفظة قَلِقة فى موضعها ، نافرةً عن مكانها ، فإنك متى فعلت ذلك هَجَّنتَ الموضع الذى حاولتَ تحسينه ، وأَفسـدتَ المكان الذى أردتَ إصـلاحَه

١٠

فإنّ وضعَ الألفاظ فى غير أماكنها ، والقصــدَ بها إلى غير مَظانّها ، إنمـا هو كترقيع الثوب الذى إن لم تتشابهْ رِقاعُه ، ولم تتقارَبْ أجزاؤه ، خرج عن حدّ الجِدّة ، وتَغيَّر حسنه ، كما قال الشاعر :

إنّ الجديدَ إذا ما زيد فى خَلَق * يَبِين للناس أنّ الثوب مرقوعُ

١٥

ٱنتهى ما أورده ٱبنُ عبدِ ربِّه .

وقال المولى الفاضــل شهاب الدين محمود الحلبىّ : وممـا يتعيّن على الكاتب ٱستعمالُه ، والمحافَظةُ عليه ، والتمسّكُ به ، إعطاءُ كلِّ مَقام حقَّه ، فإذا كَتب فى أوقات

(١) فى الأصل : «يسار» ؛ وفيه قلب ، والتصويب عن شرح القاموس . و يدل عليه أيضا ما تقدم فى البيت .

(٢) التكملة عن العقد الفريد ج ٢ ص ١٥٢ ط الشرفية ؛ وقد أثبتناها ليوافق ما مر فى الأبيات التى قبله ، إذ أنه بعد إيراد البيت يعقبه بمراد قائله من الكلمة التى حذف بعض حروفها .

٢٠

(٣) الجذل : عود ينصب للإبل الجربى تحتك به لتشفى ؛ أو هو ما عظم من أصول الشجر . والعذق : النخلة بحملها ؛ أشار بهذا الى قول الحباب بن المنذر يوم السقيفة : أنا جذيلها المحكك ، وعذيقها المرجّب .

الحروب إلى نُوّاب المَلِك عنه ، وإلى مقدَّمي الجيوش والسَّرايا، فليَتوخَّ الإيجاز والألفاظ البليغة الدالّةَ على القصد من غير تطويل ولا بَسْط يضيِّع المَقصد، ويَفصلُ الكلام بعضه من بعض ، ولا تهويلٍ لأمر العدو يُضْعِف به القلوب، ولا تهوينٍ لأمرٍ يحصُل به الاغترار . وذكر لذلك أمثلة من إنشائه .

٥ قال : فمن ذلك صُورةُ كِتاب أنشأتُه الى مقدَّم سَرِيّةِ كَشْفٍ — ولم أَكتُب به — وهو :

لا زال أَخَفَّ فى مقاصــده من وَطْأَة ضيف، وأَخفَى فى مطالبــه من زَوْرة طَيف، وأسرعَ فى تنقُّله من سحابة صيف، وأَرْوَعَ للعدا فى تَطلُّعه من سَلّة سيف، حتى يَعجَب عدوّ الدِّين فى الاطِّلاع على عوراته مِن أينَ دُهِيَ وكَيف ؟ ويَعلم ١٠ [أنّ](١) مَن أوّلُ قِسمتِه اللّقاءُ حصل عليه فى مقاصده الحَيفُ(٢)؛ أصدرناها إليه نَحُثُّه على الركوب بطائفة أَعجلَ من السَّيل، وأَهولَ من الليل، وأَيمنَ من نواصى الخيل؛ وأَقدمَ من النَّمِر، وأَوْقعَ على المقاصـد من الغيث المُنهمِر، وأَرْوَغَ فى مُخاتَلة العِـدا من الذئب الحَذِر؛ على خيل تَجرى ما وَجدتْ فَلاه ، وتطيع راكبها مهما أراد منها سرعةً أو أناه ؛ تَتَسنَّم الجبـالَ الشُّمَّ كالوَعِل(٣) ، وإذا جارتهـا البُروق غدت وراءها

١٥ * تمشى الهُوَينا كما يمشى الوَجِى الوَجِل(٤) * وليكن كالنجم فى سُراه، وبُعدِ ذُراه؛ إن جرى فَكَسَهم، وإن خَطَر فكوَهْم؛ وإن طَلَب فكالليل الذى هو مُدرِك، وإن طُلِب فكالجنّة التى لا يجد رِيحَها مُشرِك؛ حتى يأتى على عدوّ الدِّين من كل شَرَف،

---

(١) هذه الكلمة ساقطة من الأصل؛ وقد نقلناها عن حسن التوسل .

(٢) فى الأصل : «بالحيف»؛ والباء زيادة من الناسخ إذ لا مقتضى لها فى هذه العبارة .

٢٠ (٣) الوعل بكسر العين وسكونها : تيس الجبل .

(٤) الوجى بكسر الجيم : من الوجى بفتحها، وهو الحفا أو أشد منه .

ويَرى جَمْعَــه من كل طَرَف ، ولا يُسرِف فى الإقامة عليه إلا إذا عَلِم أنـ الخير فى السَّرَف ؛ وليُحرِز جَمْعَهم ، ويَسبِق إلى التحرّز منهم بَصَرَهم وسَمْعَهم ؛ ويَنظُرْهم بعين منعها الحَزْم أن تَرى العَدد الكثير قليلا ، وصَدَّها العزم أن تَرى العـدوَّ الحقيرَ جليلا ؛ بل تَرى الأمر على قَصّه ، وتَروِى الخبرَ على نَصّه ؛ وإن وَجد مغرِّرا فليأخذ خَبَره ، إن قَدَر على الإتيان بعَينــه وإلّا فليذهب أثَره ؛ ولا يَهِيج فيما لديه نارَ حرب إلا بعد الثقة بإطفائها ، ولا يُوقظ [عليــه](١) عينَ عدوّ مهما(٢) ظهر له أن [المصلحة فى إغفائها](٣) ؛ وليَكشِف من أمورهم مايُبدِى عند المُلتقَى عَورتَهم ، ويُخمِدُ فى حالة الزَّحْف فورتَهم ؛ وليجعل قلبه فى ذلك رَبيئةَ طَرْفه ، وطَليعةَ طِرْفه ، وسَريّةَ كَشْـفه والله تعالى يُمِدّه بلطفه ، ويحفظه بمعقِّبات مِن بين يديه ومِن خَلْفه .

(٧٤)

وإذا كَتب عن المَلِك فى أوقات حركات العدوّ إلى أهل الثغور يُعلِمهم بالحركة للقاء العدوّ ، فليبسُط القول فى وصف العزائم ، وقوةِ الهِمم ، وشدّةِ الحَمِيّة للدين ، وكثرةِ العساكر والجيوش ، وسرعةِ الحركة ، وطيِّ المَراحل ، ومعالجةِ العدوّ ، وتخييلِ أسباب النصر ، والوُثوقِ بعوائد الله فى الظَّفَر ، وتقويةِ القلوب منهم ، وبَسْطِ آمالهم ، وحَثِّهم على التيقظ ، وحَضِّهم على حفظ ما بأيديهم ، وما أشبه ذلك ؛ ويُبرِزه فى أمتنِ(٤) كلام وأجلِّه وأَمكَنه ، وأقربه من القوّة والبَسالة ، وأبعـده من اللِّين والرقّة ، ويبالغ فى وصف الإنابة إلى الله تعالى ، وآستنزالِ نصره وتأييده ، والرجوع إليه فى تثبيت

---

(١) هذه الكلمة ساقطة من الأصل . وقد أثبتناها عن حسن التوسل .

(٢) مهما فى هذه العبارة إما حرف بمعنى إن الشرطية ، أو ظرف بمعنى متى ، وكلا الأستعمالين ضعيف . أنظر مغنى اللبيب ج ٢ ص ١٩ و ٢٠ ط الحلبى .

(٣) هذه التكملة ساقطة من الأصل . وقد نقلناها عن حسن التوسل إذ بها تستقيم العبارة ؛ وموضعها فى الأصل كلمتان مكررتان مع ما سيأتى ، وهما : «الزحف فورتهم» .

(٤) فى حسن التوسل : «أبين» ؛ وكلاهما يصح به المعنى .

الأقدام، والاعتصام به فى الصبر، والاستعانة به على العدوّ، والرغبة إليه فى خذلانهم، وزلزلة أقدامهم، وجعل الدائرة عليهم، دون التصريح بسؤال بطلان حركتهم، ورجاء تأخّرهم، وانتظار العرضيّات فى خُلْفهم، لما فى ذلك من إيهام الضّعف عن لقائهم واستشعار الوَهْن والخوف منهم، وليسلُك فى مثل ذلك كما سلك المولى شهاب الدين محمود فى نحو ما كتب فى صدر كتاب سلطانىّ إلى بعض نُوّاب الثغور عند حركة العدوّ، فإنه قال :

أصدرناها ومنادى النّفير قد أعلن : ياخيلَ الله اركبى[1]، وياملائكة الرحمن اصحبى[2] ويا وفود الظَّفَر والتأييد اقربى؛ والعزائم قد ركَضت على سوابق الرُّعب إلى العِدا والهِممُ قد نَهضت إلى عدوّ الإسلام فلو كان فى مَطلَع الشمس لاستقربتْ ما بينها وبينه من المدى؛ والسيوفُ قد أَنِفت من الغُمود فكادت تنفِر من قُربها، والأسنّةُ قد ظَمِئت الى موارد القلوب فتشوقت الى الارتواء من قُلْبها[3]؛ والكُماةُ قد زَأرت كالليوث إذا دنت من فرائسها[4]، والجياد قد مَرِحت لما عودتْها من الانتعال بجماجم الأبطال فوارسُها؛ والجيوشُ قد كاثرت النجومَ أعدادُها، وسايرتْها للهجوم على أعداء الله من ملائكته الكرام أمدادُها؛ والنفوسُ قد أَضرمت الحَمِيّةُ نارَ غضبها، وعداها[5] حَرُّ الإشفاق على ثغور المسلمين عن بَرْد الثغور وطِيب شَنَبِها؛ والنصرُ قد أشرقت

---

(١) أراد بالخيل هنا فرسانها .

(٢) فى الأصل : «وللملائكة» ؛ وما أثبتناه عن حسن التوسل إذ هو المناسب لسياق ما قبله وما بعده من الكلام .

(٣) القلب بضم القاف : الآبار، واحده قليب بفتحها .

(٤) عبارة حسن التوسل : «دنت فرائسها» بدون «من» ؛ وهو أظهر، إذ به يحصل السجع الذى توخاه الكاتب فى رسالته .

(٥) عداها : صرفها، يقال : عدته العوادى عن كذا، أى صرفته الصوارف .

فى الوجود دلائلُه ، والتأييـدُ قد ظهرت على الوجوه مخَـايلُه ، وحُسْنُ اليقين بالله فى إعزاز دينـه قد أنبأت بحسن المآل أوائلُه ؛ والألسنُ باسـتنزال نصر الله لهجه والأرجاءُ بأرواح القبول أرِجه ، والقـلوبُ بعوائد لطف الله بهـذه الأمّة مبتهجه والحُماةُ وما منهم إلا من آستَظهَر بإمكان قوّته وقوّة إمكانه ، والأبطالُ وليس فيهم من يسأل عن عَدَد عدوٍّ بل عن مكانه ؛ والنّيات على طلب عدوّ الله حيث كان مجتمعه والخواطرُ مطمئنةٌ بكونها مع الله بصدقها ، ومن كان مع الله كان الله معه ؛ وما بقىَ إلا طىُّ المَراحل ، والنزولُ على أطراف الثـغور نزولَ الغيث على البـلَدِ المـاحل ؛ والإحاطةُ بعـدوّ الله من كل جانب ، و إنزالُ نفوسهم على حكم الأمَرّين الأمَرّين : مِن عذاب واصب ، وهمٍّ ناصب ؛ و إحالةُ وُجودهم إلى العَـدَم ، و إجالةُ السيوف التى [إن] (١) أنكرتْها أعناقُهم فما بالعهد من قِدَم ؛ وآصطلامُهم (٢) على أيدى العصابة المؤيَّدة بنصر الله فى حربها ، وآبتلاؤهم من حَمَلاتها بريح عادٍ التى تدمّر كل شىء بأمر ربها ؛ فليكن مرتقِبا لطُلوعِ طلائعها عليـه ، متيقِّنا من كرم الله آستئصالَ عدوِّه الذى إن فرّ أدركتْه مِن ورائه ، و إن ثَبت أخذتْه مِن بين يديه ؛ وليجتهد فى حفظ ما قِبَـله من الأطراف وضَمِّها ، وجَمع سَوام الرعايا من الأماكن المتخوَّفة ولَمِّهَا ، و إصـلاح ما يُحتاج إلى إصـلاحه من مسالك الأرباض المتطرِّفة ورَمِّها ، فإنّ الاحتياط على كل حال مِن آكَدِ المصالح الإسلاميّة وأَهمِّها ؛ فكأنه بالعدوّ وقد زال طمَعُه ، وزاد ظَلَعُه ؛ وذَمَّ عقبى مَسيرِه ، وتحقَّق سُوءَ منقلَبه ومصيرِه ، وتَبرّأ منـه الشيطان الذى دلّاه بغُروره ، وأصـبح لحمُهُ موزّعا بين ذئاب الفلا وضباعها ، وبين عقْبانِ الجوّ

(١) هـذه الكلمة ساقطة من الأصل . وقد أثبتناها عن حسن التوســل ص ٩٤ ط الوهبية إذ بها يستقيم الكلام .

(٢) الأصطلام : الأستئصال .

ونُسوره؛ ثِقةً من وعد الله الذى تمسَّكنا منه باليقين ، وتحقَّقنا أن الله ينصر من ينصره وأن العاقبة للمتقين .

قال : وزيادةُ البسط فى ذلك ونقصُها بحسب المكتوب إليه .

وإذا كتب فى التهانى بالفُتوح، فليس إلّا بَسْطُ الكلام ، والإطنابُ فى شكر نِعَم الله، والتبرُّؤ من الحَول والقُوّة إلّا به، ووصْفُ ما أُعطَى من النصر، وذِكْرُ ما مَنَح من الثَّبات، وتعظيمُ ما يَسَّر من الفتح؛ ثم ما وَصَف بعد ذلك مِن عزمٍ وإقدامٍ وصبرٍ وجَلَد عن المَلِك وعن جيشه حَسُن وصفُه، ولاقَ ذِكرُه، وراقَ التوسيع فيه ، وعَذُب بَسْط الكلام فيه؛ ثم كلّما آتسع مجال الكلام فى ذكر الواقعة ووصفِها كان أَحسنَ [وأَدلَّ على البلاغة، وأَدعَى لسرور المكتوب إليه، وأَحسنَ] [1] لَموقع المِنّة عنده، وأَشهَى إلى سمعه، وأَشفَى لغَليل تَشوُّقه إلى معرفة الحال على جَليّته، ولا بأس [2] بتهويل [أمرِ] [3] العدوّ، ووصْف جَمْعه وإقدامه، فإن تصغير أمره تحقيرٌ للظَّفَر به ؛ وقد ذكرنا فى باب التهانى من ذلك ما تَقدّم شرحُه ، فلنذكر فى هذا الموضع من كلامه فيه ما لم نُورده فى باب التهانى؛

قال : وإن كان المكتوب إليه مَلِكا صاحبَ مَمْلَكة منفردة تَعيَّن أن يكون البَسْط أكثرَ، والإطنابُ أمدَّ، والتهويلُ أَبلغَ، والشرحُ أَتمَّ؛ فمن ذلك فصلٌ كتبته فى جواب ابن الأحمرِ صاحبِ غَرْناطَةَ من جزيرة الأَندلُس، قال :

أما بعد حمد الله الذى أيَّدنا بجنودِه ، وأنجز لنا مِن نصرِ الأئمة صادقَ وُعودِه وخَصّنا من آستدامة الفُتوح بمزايا مَزِيده، وأيَّدنا بنصره، ونَصرَنا بتأييده، والصّلاة

(١) هذه التكملة ساقطة من الأصل ؛ وقد أثبتناها عن حسن التوسل ص ٩٥ ط الوهبية .

(٢) فى الأصل : «ولا يأمن» ؛ وهو تحريف .

(٣) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ؛ وقد أثبتناها عن حسن التوسل إذ لا تستقيم العبارة بدونها .

والسلام على سيدنا محمد أشرف رسله ، وخاتم أنبيائه ، وأكرم عبيده ، وأعزّ من دعا الأمم وقد أنكرت خالقها الى الإقرار بتوحيده ، وعلى آله وصحبه الذين أشرق أفق الدين منهم بكواكب سعوده ؛ فإنا أصدرناها ونعم الله تعالى بنا مطيفه ، ومواقع نصره عندنا لطيفه ، وجنود تأييده لممالك الأعداء الى ممالكنا الشريفة مضيفه ، وثغور الإسلام بذَبّنا عن دين الله منيره ، وبإعلائنا منار الهدى منيفه ؛ ونحن نحمد الله على ذلك حمدا نستدرّ به أخلاف الظفر ، ونستديم به موادّ التأييد على من كفر ؛ ونستمدّ به عوائد النصر التى كم أقدمها علينا إقدام ، وأسفر لنا عنها وجه سفر ؛ ونهدى إليه ثناءً تعبق بنشر الرياض خمائله ، وتنطق بمحض الوداد مخايله ، وتشرق على أفق مفاخره غدواته وأصائله ؛ يشافه مجده بمصونه(١) ، ويصارح فخره بمكنونه ، ويجلو على حضرته العليّة عقائل الشرف من أبكار الهناء وعونه ؛ ونبدى لعلمه الكريم ورود كتابه الجليل مسفرا عن لوامع صفائه ، منبئا بجوامع ودّه ووفائه ، مشرقا بلآلئ فرائده ، محدقا بروض كرمه الذى سعد رأى رائده ؛ محتويا على سروره بما بلغه من أنباء النصرة التى سارت بها إليه سرعان الركبان ، وذلّت بعزّ ما تلى منها عليه عبّاد الصلبان ؛ وطبّق ذكرها المشارق والمغارب ، ومزّقت مواكب أعداء الله التتار وهم فى رأى العين أعداد الكواكب ، وخلطت التراب بدمائهم حتى لم يبح بها التيمّم ، ومزجت بها الفرات حتى ما تحلّ لشارب ؛ وهى النصرة التى لا يدرك الوصف كنهها ، ولا تعرف لها البلاغة مشبها فتذكر شبهها ؛ ولا يتّسع نطاق النطق لذكرها ، ولا تنهض الألسنة على طول الأبد بشكرها ؛ فإن التتار المخذولين أقبلوا كالرمال ، واصطفّوا كالجبال ؛ وتدفّقوا كالبحار الزواخر ، وتوالوا كالأمواج التى لا يعرف لها الأوّل من الآخر ؛ فصدمتهم جيوشنا المنصورة صدمة بدّدت شملهم ، وعلّمت الطير أكلهم ؛ وحصرتهم

(١) فى الأصل : «بمضمونه» ؛ وما أثبتناه عن حسن التوسل ، وهو ما يدل عليه سياق الكلام .

فى الفضاء، وطالبتْ أرواحَهم الكافرةَ بدَين دِينها وأَسرفتْ فى الآقتضاء، وحَصَدتْ
منهم سيوفنا ٱلمنصورةُ ما يخرج عن وصفِ الواصف ، ومَزَّقتْ بقيّتهم فى الفلواتْ
فكانوا كرَماد آشتدّت به الرّيحُ فى يوم عاصف ، وأحاطت بهم كتائبنا المنصورة
فلم ينجُ إلا من لا يُؤْبَه له من فريقِهم، وقسمتهم جيوشنا المؤيَّدة من الفَلَوات الى
٥ الفُرات بين القتل والأسر، فلم يخرج عن تلك القسمة غيرُ غريقِهم، وأَعقبتهم تلك
الكسرةُ أن هَلَك طاغيتُهم أسفا وحسره، وحزنا على من قُتِل من تلك المُقاتِلة، وأُسِر (٧٦)
من تلك الأَسْره، وأماته الرُّعبُ من جيوشنا المنصورةِ فُجَاءه، وٱستولَى عليه الوَجَل
بفاءه من أمر الله ما جاءه، وقعد أخوه بعده مكانَه، والخوفُ من عساكرنا يضعضع
أركانَه ، والفَـرَقُ من جيوشـنا يُفرّق أعوانَه ، ويُمزّق إخوانَه، ويُوهِى سـلطانَه
١٠ ويُبرّئُ منـه شيطانَه، فلاذ بالآلتجاء الى سَلْمنا، وعاذ بإسـناد الرجاء الى كَفّنا عنه
وَحلمنا ، فكرّرَ رُسُلَه ورسائلَه مستعطِفا ، ووالَى كُتبَه ووسائلَه مستعفِيا من حربنا
ومستسعِفا، وهاهو الآن وجنوده يتوسّلون بالخضوع الى مَراحمنا، ويتوصّلون ببَذل
الطاعة الى مَكارمنا، ويسألون صَفْح الصِّفاح الإسـلاميّة عن رقابهم، ويُبـدون
ما أظهره الله عليهم من الذلّ الذى جعلتـه تلك النُّصْرة خالدا فى أعقابهم، وسيوفُنا
١٥ تأبَى قَبولَ وسائلهم، وتُصِرُّ على نَهْر سائلِهـم، وتمنع من الكفّ عن مَقاتِلِهم،
وتأنَف أن تُغْمَد إلّا فى قِمَم مُحارِبِهم ومُقاتِلِهم، ونحن على ما نحن من الأُهْبَة لغَزوِهم
فى عُقْر دارِهم، وانتزاعِ مَواطن الخلافة وغيرها من ممالك الإسـلام من بين نُيوبهم
وأظفارِهم، مستنصرين بالله على من بقِىَ فى خُطّ[1] المَشرِق منهم، قائمين فيهم بفَرض
الجهـاد الذى لولا دِفاعُ الله به لم يَمتنع خُطّ المَغرِب عنهـم، "وَلَيَنْصُرَنَّ ٱللهُ مَنْ
٢٠ يَنْصُرُه"، ولو عَددنا نعمَ الله علينا حاولنا عَدّ ما لا نُحصِيه ولا نَحصُره .

(١) الخط بالضم : موضع الحىّ .

وإن ٱضطُرّ أن يكتُب بمثل ذلك الى مَلِك غيرِ مسلم لكنّه غيرُ مُحارب، فالحُكْم في ذلك أن يَذكُر من أسباب المَودّة ما يَقتضِى المشارَكة في المَسارّ، وأنّ أمر هــذا العَدد مع كثرته أُخذ بأطراف الأنامل، وآلَ أمرُه الى ما آل، ويُعظِّم ذِكرَ ماجَرى عليه من القتل والأسر، وتلك عوائدُ نصر الله، وانتقامه(١) ممّن عادانا؛

فمن ذلك ما أنشأه المُشار اليه لبعض ملوك البحر — ولم يكتب به — وهو : ٥

صَدرتْ هــذه المكاتَبةُ مبشِّرةً له بمــا منحنا الله من نُصْرة أَجزَل الصــفاءُ منها سهمَه، وأَكْمَل الوفاءُ من التهنئة بها قِسْمَه؛ وخصّه الوِدادُ بأجلّ أجزائها، وأَجلسه الاتّحادُ على أسِرّة مَسرّتها إذا أجلس العنادُ غيرَه على بِساط عَزائها؛ عِلما بأنه الصديق الذي تُبهِجه مَسارُّ صديقه، والصاحبُ الذي يَرى مساهَمَة صاحبه في بشرى الظَّفَر بأعدائه أدنى حقوقِه؛ وذلك أنه قد عَلِم ما كان من أمر هؤلاء التّتار في حركاتهــم ١٠ الذميمه، وعَزَماتهم التي ما ٱحتفَلوا لها إلا وكان أحَدّ سلاحِهم فيها الهَزيمه، وغاراتِهم التي ما حَشَدوا لهــا إلّا وقَنِعوا فيها بالإياب من الغَنيمه؛ وأنهم ما أقدموا علينا إلا وعُدِموا، ولا سَلَكوا الينا إلّا وهَلَكوا؛ حتى إنّ الأرض الى الآن لم تَجِفّ من دمائهم، وإنّ الفُرات يكاد يَشِفّ(٢) للتأمّل عن أشلائهم؛ وأن الشيطان بعد ذلك جَدّد طَمَعَهم، وسَكّن هَلَعَهم؛ وأنساهم مَصارِع إخوانهم، وأسلاهم بما زَيّن لهم من بلوغ ١٥ أوطارهم عن أوطانهم؛ وقال لهم : لا غالب لكم اليــوم من الناس، وتلك الوقائعُ التي أُصِبتم فيهــا قد لا يَجرِى الأمر فيها على القياس؛ وحَسّــن لهم المُحــال وغَرّهم وجرّأهم على قصــد البلاد المحروســة، وفي الحقيقة ٱستَجرّهم؛ فحَشَــدوا جموعهم

(١) في الأصل : «وانتقامنا» بالنون؛ وهو تحريف .

(٢) في حسن التوسل : «يكشف»؛ وكلا اللفظين يستقيم به المعنى . ٢٠

وجَمعوا حُشودَهم ، وآستَفرَغوا فى الآستنفار والآستظهار طاقتهم ومجهودَهم ؛ ومالأهم
على ذلك من المجاورين من أبطَن شِقاقَه ، وكَتم نفاقَه ، وأنساه الشيطان ما سلف
من تنفيسنا عنه وقد لازم الحَتْفُ خِناقَه ؛ ونحن فى ذلك نُوسعهم إمهالا ، ونَبسُط
لهم فى التَّوغُّل آمالا ، ونأخذ أمرهم بالأَناة آستدراجا لهم لا إهمالا ؛ الى أن بَعُدوا
٥ عن مَواطن الهرَب ، وحَصَل من آستدراجهم الأَرَب ؛ فوثبنا عليهم وُثوبَ الليث إذا
ظَفِر بصَيده ، ونهَضنا نحوهم نُهوضَ الحازم إذا وقع [عدوُّه][1] فى أُحبولة كَيده ؛ وصدمتهم
جيوشنا المنصورةُ صَدمةً فلَّت غَرْبَهم ، وأبطلتْ طَعْنهم وضرْبهم ، وصبَغت بدمائهم
تُرْبَهم ، وحكَّمت السيوفَ فى مَقاتِلهم ، [ومكَّنت الحُتوف من صاحب رأيهم ومُقاتِلهم][2] ؛
وسلَّطت العَـدَم على وجودِهم ، وحطَّتهم عن سُروجهم الى مَصارعهم أو قُيودِهم ؛
١٠ "فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِين" ، وعادُوا على عادتهم خاسئين ، ورَجَعُوا على أعقابهم
خاسرين ؛ وما أغنَى عنهم جمعُهم ، وما أفادهم بصَرُهم فيما شاهدوه من قبل ولا سَمْعُهم ؛
فركَن من بَقِيَ منهم الى الفِرار ، وعاذ ببَرْد الهرَب من لَهَب تلك السيوف الحِرار
وظَنّ من آنهزم منهم أنه فات الرماح ، فتناولتْه بأرماح من العطش القِفار ؛ فولَّوا
والرعبُ يزلزِل أقدامهم ، والذُّعْر يقلِّل إقدامَهم ؛ والصِّفاحُ تَتخطَّفهم من ورائهم
١٥ والجِراحُ تُطمِع الطَّير فى أكلهم حتى تقع على أحيائهم[3] ؛ حتى أَصبحوا هَشيما تلعب بهم
الصَّبا والدَّبور ، أو أحياءً يئس منهم أهلهم "كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْقُبُورِ"
وصَفَحنا عمّن نافقَنا ووافقَهم ولولا ذلك لَما نجا ، ورجا عواطفَنا فى الإبقاء على
نفسه ، فأجابه حِلمُنا — وعِلْمُنا أنه فى القَبضة — الى ما رَجا ؛ فليأخذ المَلِك حظّه من

(١) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ؛ وقد أثبتناها عن حسن التوسل ص ٩٧ ط الوهبية إذ لا يستقيم
٢٠ الكلام بدونها .
(٢) التكملة عن حسن التوسل ؛ وتمام السجع الذى التزمه الكاتب فى رسالته يقتضى إثباتها .
(٣) فى الأصل : «يلعث بهم» الخ وهو تحريف .

هذه البشرى التى تَسُرّ قلبَ الولىِّ المُحِبّ بوادرُها ،وتَشرح صدر الخَفِىِّ[1] المُحِقِّ مواردُها ومَصادرُها ؛ والله تعالى يُبهجه عنا بسماع أمثالها ، ويديم سروره بما جلوناه عليه من مثالها[2] .

قال : فإن كان المكتوب إليه متّهما بمُمالأة العدوّ كتب اليه بما يَدُلّ على التقريع والتهكُّم ، وإبراز التهديد فى مَعرِض الإخبار ، كما كتب المشار اليـه عن السلطان الى متملِّك سِيس[3] — وكان قد شَهِد الوقعة مع العدوّ — قال منه :

بصّره الله برشده ، وأراه مَواقع غَيّـه فى الإصرار على مخالَفته ونقضِ عهـده وأسلاه بسلامة نفْسه عمّن روّعته السيوف الإسلاميّة بفقده ؛ صـدرتْ تُعرِّفه أنه قد تَحقّق ما كان من أمرِ العـدوّ الذى دلّاه بغُروره ، وحَمَـلَه التمسّك بخداعه على مجانبـة الصواب فى أموره ؛ وأنهم آستَنجَدوا بكلّ طائفه ، وأقدموا على البـلاد الإسلاميّة بنفوس طامعة وقلوب خائفه ؛ وذلك بعد أن أقاموا مدّة يشترون[4] المُخادَعة بالموادَعه ، ويُسِرّون المصارَمة فى المسالَه ، ويُظهرون فى الظاهرِ أمورا ، ويدبِّرون فى الباطن أمورا ، ويَعِدون كل طائفة من أعداء الدين مِثلَه ويُمنّونهم "وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا" ؛ وكنّا بمَكْرهم عالِمين ، وعلى معالَجتهم عاملين ؛ وحين تبيّن مرادُهم وتكمَّل آحتشادُهم ؛ اِستدرجناهم الى مَصارعهم ، وآستَجرَيناهم[5] ليَقرُبوا فى القتـل مِن مَضاجِعهم ، ويَبعُدوا فى الهرَب عن مواضعهم ؛ وصدمناهم بقوّة الله صـدمة

(١) كذا فى الأصل ؛ والذى فى حسن التوسل : «الصفى» بالصاد ؛ وكلا اللفظين يستقيم به المعنى .

(٢) فى الأصل : «أمثالها» ؛ والألف الأولى زيادة من الناسخ .

(٣) قال ياقوت فى معجم البلدان ج ٣ ص ٢١٧ ط جوتنجن : سيسية — وعامة أهلها يقولون : سيس — : بلد هو اليوم أعظم مدن الثغور الشامية بين أنطاكية وطرسوس على عين زربة الخ .

(٤) فى الأصل : «يسرون» ؛ وهو تحريف . (٥) كذا فى الأصل وحسن التوسل ؛ ولم نقف عليه فى كتب اللغة بمعنى حملناهم على الجرى كما هو المعنى المتبادر من سياق العبارة ؛ ولعله : «وأجريناهم» .

لم يكن لهم بها قبل ، وحملنا عليهم حملةَ ألجأهم طوفانُها الى ذلك الجبل ، وهل تعصم من أمر الله حيل ؟ فحصرناهم فى ذلك الفضاء المتّسع ، وضايقناهم كما قد رأى ومزّقناهم كما قد سمع ، وأنزلناهم على حكم السيف الذى نهل من دمائهم حتى روى وأكل من لحومهم حتى شبع ، وتبعتهم جيوشنا المنصورةُ تتخطّفهم رماحُها ، وتتلقّفهم صفاحُها ، ويبدّدهم فى الفلوات رُعبُها ، ويفرّقهم فى القفار طعنُها المتداركُ وضربُها ؛

٥ ويقتل من فات السيوفَ منهم العطشُ والجوع ، ويخيّل للحىّ منهم أنّ وطنه كالدنيا التى ليس للميت اليها رجوع ؛ ولعله قد رأى ذلك فوق ما وُصف عيانا ، وتحقّق من كل ما لا يحتاج أن نزيده به علما ولا نقيم له عليه برهانا ؛ وقد علم أنّ أمر هذا العدوّ المخذول ما زال معنا على هذه الوتيره ، وأنهم ما أقدموا إلا ونصر الله عليهم فى مواطن

١٠ كثيره ؛ وما ساقتهم الأطماع فى وقتٍ إلا الى حتوفهم ، ولا عاد منهم قطُّ فى وقعة إلا آحادٌ تخبر عن مصارع ألوفهم ؛ ولقد أضاع الحزمَ من حيث لم يستدم نعمَ الله عليه بطاعتنا التى كان فى مهاد أمنها ، ووهاد يمنها ؛ وحماية عفوها ، وبرد رأفتها التى كدّرها بالمخالفة بعد صفوها ؛ يصون رعاياه بالطاعة عن القتل والإسار ، ويحمى أهل ملّته بالحذر من الحركات التى ما نهضوا اليها إلا وجرّوا ذيول الخسار ؛ ولقد

١٥ عرّض نفسه وأصحابَه لسيوفنا التى كان من سطواتها فى أمان ، ووثق بما ضمن له التتار من نصره وقد رأى ما آل اليه أمرُ ذلك الضمان ؛ وجرّ لنفسه بموالاة التتار عناءً كان عنه فى غنى ، وأوقع روحه بمظافرة المغول فى حومة السيوف التى تخطّفت أولياءه من هنا ومن هنا ؛ واقتحم بنفسه مواردَ هلاك سلبت رداء الأمن عن منكبيه واغترّ هو وقومه بما زيّن لهم الشيطان من غروره «فَلَمَّا تَرَاءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ

٢٠ عَقِبَيْهِ» وما هو والوقوف فى هذه المواطن التى تتزلزل فيها أقدام الملوك الأكاسره (٧٨) وأنّى لضعاف النقاد قدرةٌ على الثبات لوثبات الأسود الضارية والليوث الكاسره ؛

لقد آعترض بين السهم والهَدَف بنَحره ، وتَعرّض للوقوف بين ناب الأسَد وظُفره ؛ وهو يعلم أننــا مع ذلك نرعى له حقوق أســلافه التى ماتوا عليها، ونحفظ له خدمة آبائه التى بذلوا نفوسهم ونفائسهم فى الوصول اليها ؛ ونُجْريه وأهلَ بلاده مُجرَى أهلِ ذمّتنا الذين لا نُؤْيِسهم من عفونا مهما آستقاموا[1]، ونَسلُك بهم حُكمَ من فى أطراف البلاد من رعايانا الذين هم فى قَبضتنا نَزَحوا أو أقاموا؛ ونحن نتحقّق أنه مابقِىَ يَنسى ملازَمةَ رِبْقةِ الحتف خِناقَه، ولا يَرجِع يُهوِّر[2] نفســه فى مَوارد الهلاك ، وهل يَرجِع الى الموت [مَن][3] ذاقه؟ فيَستدرِك بابَ الإنابة قَبل أن يُغلَق دونَه، ويصون نفسه وأهله قَبل أن تَبذُل السيوفُ الإسلاميّةُ مَصُونَه، ويبادِر الى الطاعة قبل أن يَبذُلها فلا تُقبَل، ويَتمسّك بأذيال العفو قبل أن تُرفَع دونه فلا تُسبَل؛ ويُعجِّل بحَمْل أموال القَطيعة وإلّا كان أهلُه وأولادُه فى جملة ما يُحمَل منها الينا، ويُسلِّم مَفاتح ما عدا عليه من فُتوحنا، وإلّا فهو يعلم أنها وجميعَ ما تأخّر فى بلاده بين يدَينا؛ ويكونُ هو السببَ فى تَمزُّق شَمْله ، وتَفرُّقِ أهلِه ، وقَلْع[4] بيته من أصله ؛ وهَدمِ كَنائسه، وآبتذالِ نفســه ونفائسِه، واسترقاق حَرمِه ، وآستخدام أولاده قَبْلَ خَدَمه ، وآقتلاع[5] قِلاعِه ، وإحراقِ

(١) كذا فى الأصل؛ ومهما فى هذه العبارة حرف بمعنى إن الشرطية ، وهو مذهب ضعيف ؛ وقد سبق أن أوضحنا ذلك فى ج ٢ ص ١٩٠ من هذا الجزء .

(٢) يهوّر نفســه ، يريد يلقى بها ، وهو من هوّره اذا صرعه وألقاه . وعبارة حسن التوسل : « ولا يورد » .

(٣) عبارة الأصل : « المؤمنين فاقة » ؛ وفيه نقص وتحريف ، وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا وانظر حسن التوسل ص ٩٨ ط الوهبية .

(٤) فى الأصل : «وقد قلع» ؛ وقوله : «قد» زيادة من الناسخ .

(٥) فى الأصل : «واستقلاع» بسين وتاء؛ ولم نقف عليه فيما لدينا من كتب اللغة .

رُبوعه ورِباعه[1]، وتحجيل رؤية ما أُوعِدَ[2] به قبل سماعه، ومن لقازان بأن يجابَ الى مثل ذلك، أو يُسمَحَ له مع الأمن من سيوفنا ببعض مافى يده من الممالك؛ ليَقْنع بما أبقت جيوشنا المؤيَّدةُ فى يده من الخيل والخوَل، ويَعيش فى الأمن ببعض ماأنْسمح له به، ومن للعُور[3] بالحَوَل؛ والسيوفُ الآن مُصغيةٌ الى جوابه لتكُفَّ إن أَبصر سُبل الرشاد، أو نَتعوَّضَ برءوس حُماته وكُماته عن الأغماد إن أَصرَّ على العناد، والخير يكون. ٥

وأما التقاليد والمناشير والتواقيع وما يتعلّق بذلك — فالأحسن فيها بَسطُ الكلام، وتُعتبَر كثرتُه وقلّته بحَسَب الرُّتَب، ويجب أن يراعَى فيها أمور :

منها براعة الاستهلال بذكر الرتبة أو الحال، أو قدْرِ النعمة، أو لقبِ صاحب التقليد أو اسمِه بحيث لا يكون المَطْلَع أجنبيًّا من هذه الأحوال، ولا بعيــدا منها، ولا مباينا لها، ثم يَستصحِب ما يناسب الغرض ويوافق المقصد من أوّل الخطبــة ١٠

---

(١) الرباع بكسر الراء : جمع ربع بضم أوّله وفتح ثانيــه، وهو الفصيل فى أوّل النتــاج؛ والمراد ماشيته، يريد بهذه العبارة توعده بإحراق منازله وأمواله .

(٢) فى الأصل : «وعديه» بإسقاط الهمزة؛ والمشهور عند أئمة اللغة وجوب إثباتها فى مثل هــذا الموضــع؛ قال الأزهرى : كلام العرب : وعدت الرجل خيرا، ووعدته شرا، وأوعدته خيرا وأوعدته شرا؛ فاذا لم يذكروا الخير قالوا : وعدته ولم يدخلوا ألفا، واذا لم يذكروا الشر قالوا : أوعدته ولم يسقطوا الألف؛ وأنشد لعامر بن الطفيل : ١٥

وإنى إن أوعدته أو وعدته * لأخلف إيعــادى وأنجز موعدى ا هـ .

انظر اللسان وشرح القاموس . والكاتب هنــا لم يذكر الشر، فلزم إثبات الهمزة كما تقتضــيه عبارة الأزهرىّ؛ والذى يفهم من كلام المصباح أنه يقال فى الخير والشر : وعده بدون ألف سواء أذكر الخير والشر أم لم يذكرا، والفارق بينهما المصدر، فانه فى الخير : الوعد، وفى الشر : الوعيد . ٢٠

(٣) عبارة الأصل : «ومن العمور»؛ وهو تحريف .

الى آخرها؛ قال : ويَحسُن أن يكون الكلام فى التقليـد منقسما إلى أربعـة أقسام متقاربةِ المقادير، فالرُّبعُ الأوّلُ الخُطبة ، والثانى ذِكْرُ موقع الإنعام فى حقّ المقلَّد، وذِكْرُ الرتبةِ وتفخيمُ أمرها ، والثالث فى أوصاف المقلَّد وذِكرِ ما يناسب تلك الرتبةَ ويناسب حاله من عدل وسـياسة ومَهابةٍ وبُعـدِ صِيت ، وسُمْعـةٍ وشجاعةٍ إن كان نائبا، وَوصفِ العـدل والرأى وحسنِ التدبير، والمعرفةِ بوجوه الأموال ، وعمـارةِ البـلاد، وصلاحِ الأحوال، وما يناسب ذلك إن كان وزيرا؛ وكذلك فى كلّ رتبة بحسبها، والرابع فى الوصايا ؛

ومنها [أن يُرَاعِىَ[1]] المناسَبة وما تقتضيه الحال، فلا يُعطِى أحدا فوق حقّـه، ولا يصفه بأكثرممـا يراد مِن مِثـله ، ويراعى أيضا مقدار النعمة والرتبة ، فيكون وصفُ المِنّة على مقدار ذلك .

ومنها أن لا يصف المتولِّىَ بمـا يكون فيه تعريضٌ بالمعزول وتنقُّصٌ له ، فإنّ ذلك ممـا يُوغِر الصدور، ويؤرِّث الضغائن فى القلوب ، ويدُلّ على ضعف الآراء فى اختيـار الأوّل ، وله أن يصف الثانىَ بمـا يحصل به المقصود من غير تعريض بالأوّل ؛

ومنها أن يَتخيّرَ الكلام والمعانى، فإنه مما يَشِيع ويَذِيع، ولا يُعذَر[2] المقصِّرُ فى ذلك بعجلة ولا ضيق وقت ، فإنّ مجـال الكلام عليه متّسِع ، والبلاغة تَظهَر فى القليل والكثير، والأمر الجارى فى ذلك على العادة معروف، لكن تقع أشياءُ خارجةٌ عن العادة، نادرةُ الوُقوع، فيَحتاج الكاتب فيها الى حسن التصرّف على ما تقتضيه الحال؛

(١) التكملة عن حسن التوسل ص ١١٠ ط الوهبية ؛ وسياق الكلام يقتضى إثباتها .

(٢) فى الأصل : «ولا يعجل» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا انظر حسن التوسل .

فمن ذلك تقليدٌ [من](١) إنشاء المولى الفاضل شهاب الدين محمود الحلبي كتبه لمتملّك سيس بإقراره على ما قاطع النهر من بلاده، وهو :

الحمد لله الذى خصّ أيامنا الزاهرةَ باصطناع ملوك الملل ، وفضّل دولتنا القاهرةَ بإجابة من سأل بعضَ ما أحرزتْه لها البيضُ والأَسَل ، وجعل من خصائص ملكنا إطلاقَ الممالك وإعطاءَ الدُّوَل، والمَنَّ بالنفوس التى جعلها النصر لنا من جملة الخَوَل، وأغرى عواطفنا بتحقيق رجاء من مَدّ إلى عوارفنا كفَّ الأمل ، وأفاض بمَواهب نعمائنا على من أناب الى الطاعة حُلَلَ الأمن بعد الوَجَل ، وانتزع بآلائنا [لمن تمسّك بولائنا](٢) أرواحَ رعاياه من قَبضة الأجل ، وجعل بَرْدَ العفو عنه وعنهم بالطاعة نتيجةَ ما أذاقهم العصيان من حرارة الغضب، إذ ربما صحّت الأجسام بالعلل؛ نحمَده على نعمه التى جعلت عفوَنا ممن رجاه قريبا،وكرمَنا لمن دعاه بإخلاص الطاعة مُجيبا، وبِرّنا لمن أقبل اليه منيبا بوجه الأمل مُثيبا، وبأسَنا مصيبا لمن لم يجعل الله له فى التمسّك بمَراحمنا نصيبا؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة تَعصِم دم من تمسّك بذمامها، وتَحسِم مَوادَّ من عاندها بانتقام حسامها، وتفصِم عُرا الأعناق ممن أطمعه الغُرور فى انفصال أحكامها وانفصامها، وتَقصِم مَن قصد إطفاءَ ما أظهره الله من نورها، وانقطاعَ ما قضاه من دوامها، وتجعل كلمة حَمَلتِها هى العليا، فلا تَزال أعناقُ جاحدِيها فى قبضة أوليائها وتحت أقدامها؛ ونشهد أنّ محمدا عبده ورسوله المبعوثُ بالهدى ودين الحق الى كلّ أمّه، المنعوتُ فى الكتب المنزّلة بالرأفة والرحمه، المخصوصُ مع عموم المعجزات بخَمس منهنّ الرعبُ الذى كان يتقدّمه الى مَن قصَده، ويسبِقه مَسيرةَ شهر الى [من](١) أمّه ، المنصوصُ

(١) هذه الكلمة ساقطة من الأصل السلى؛ والسياق يقتضى إثباتها .

(٢) التكملة عن حسن التوسل .

فى الصحف المحكَمة على جهاد أمته، الذى لاحياة لمن لم يتمسّك من طاعتـه بذمته؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين فتحوا بدعوته الممالك، وأوضحوا بشرْعته الى الله المسالك، وجلَوا بنور سُنّته عن وجه الزمن كلَّ حال حالك، وأوردوا من كفر بربهم ورسـله مَوارد المهالك، ووثقوا بما وعد اللهُ نبيَّـه حين زَوى له مَشارقَ الأرض ومَغاربَها من أنّ مُلكهم سيبلغ ما زوى الله له من ذلك؛ صلاةً لا تزال الأرض لها مسـجدا، ولا يَبرَح ذكرُها مغيرا فى الآفاق ومنجِدا؛ ما آستَفتحتْ ألسنةُ الأسـنّة النصر بإقامتها، وأبادت أعداءها باستدامتها، وسلم تسليما كثيرا؛

وبعد، فإنه لـمّا آتانا الله مُلكَ البَسيطه، وجَعلَ دعوتنا بأَعنّة ممـالك الأقطار محيطه؛ ومكّنَ لنا فى الآفاق(1)، وأنهَضَنا من الجهاد فى سبيله بالسنّة والفرض، وجَعلَ كلَّ يوم تُعرَض [فيه](2) جيوشُنا من أمثـلة يوم العَرْض؛ وأظلّتنا بوادرُ الفتوح، وأظَلّت على الأعداء سـيوفُنا التى هى على من كفر بالله وكفر النعمةَ دعوةُ نوح وأيَّدنا بالملائكة والرُّوح، على من جعل الواحدَ سبحانه ثلاثةً فانتَصر بالأب والآبن والرُّوح؛ وألقت إلينا ملوكُ الأقطار السَّلَم، وبَذلتْ كرائمَ بلادها رغبة فى الآلتجاء من عفونا الى ظل أعلى من علم؛ وتوسّل من كان منهم يُظهِر الغِلظة بالذلّة والخضوع وتوصّـل من كان منهم يُبـدى القوّةَ بالإخلاص الذى رأوه لهم أقوَى الجُنَن وأوقَى الدروع؛ عاهَدْنا اللهَ تعالى ألّا نردَّ منهم آملا، ولا نصُدّ عن مَشارع كرمنا ناهلا؛ ولا نخيِّب من إحساننا راجيا، ولا نُجْـلِي عن ظلّ بِرّنا لاجيا؛ علمـا أنّ ذلك شكرٌ للقدرة التى جعلها الله لنا على ذلك الآمل، ووُثوقا بأنه حيث كان فى قبضتنا كما نشاء

(1) كذا فى الأصل السلبى. والذى فى حسن التوسل ص ١١١ : «الأرض»؛ وهو أظهر بدليل ما يأتى فى الفقرة بعده، ليتم به السجع الذى التزمه الكاتب فى رسالته.

(2) هذه الكلمة ساقطة من الأصل السلبى؛ وقد أثبتناها عن حسن التوسل.

نجمع عليه الأنامل؛ اللهمّ إلّا أن يكون ذلك اللّاجئ للغلّ مُسِرّا، وعلى عداوة الإسلام
مُصِرّا؛ فيكون هو الجانى على نفسه، والجاثى على موضع رَمْسه؛ ولمّا كان من
تَقدّم بالمملكة الفلانية قد زَيّن له الشيطان أعماله، وعَقَد بحبال الغرور آماله؛ وحَسَّن
له التمسُّكَ بالتّتار الذين هم بمَهابتنا محصورون فى ديارهم، مأسورون فى حَبائل
٥ إدبارهم؛ عاجزون عن حفظ مالديهم، قاصرون عن ضبط ما استَلبتْه سَرايانا
المنصورةُ من يديهم؛ ليس منهم إلا من له عند سيوفنا ثار، ومن يَعلم أنه لا بدّ له
عندنا من خُطّتَى خَسف: إما القتلِ أو الإسار؛ وحين تمادى المذكور فى غيّه، وحمله
الغُرور على ركوب جواد بغيه؛ أَمرْنا جيوشَنا المنصورةَ فجاست خِلالَ تلك الممالك
وداست حوافرُ خيلها ما هنالك، وساوت فى عموم القتل والأسر بين العبدِ والحرِّ
١٠ والملوكِ والممالك، وألحقت رَواسىَ جبالهم بالصّعيد، وجَعلتْ حُماتهم كزُروع
فَلاتِهم منها قائمٌ وحَصيد؛ فأسلَمَهم الشيطان ومَرّ، وتركَهم وفرّ، وما كَرّهم وما كَرّ
وأعلَمَهم أن الساعة موعدهم "وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ" وأَخلَفهم ما ضَمِن لهم من العَوْن
وقال لهم: "إِنِّى بَرِىءٌ مِنكُمْ إِنِّى أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ"؛ وكان الملكُ فلان ممّن يريد طُرُق
النجاة فلم ير إليها بسوى الطاعة سبيلا، ويأمُلُ أسبابَ النجاح فلم يجد عليها غيرَ
١٥ صدق الانتماء دليلا؛ فأَبصرَ بالخدمة موضعَ رُشْده، وأَدرَكَ بسعيه نافرَ سعده؛
وأراه الإقبالُ كيف تثبُت قدمُه فى الملك الذى زَلّت عنه قَدمُ مَن سَلَف، وأَظهر له
الإشفاقُ على رعاياه مَصارعَ من أَورَده سوءُ تدبير أخيه مَوارد التّلَف، وعرّفه
التمسّكُ بإحساننا كيف ٱحتوت يدُه على ما لم يُبْقِ غضبُنا فى يد أخيه منه إلا الأسى
والأسف؛ وحَسّنت له الثقةُ بكرمنا كيف يَجمُل الطلب، وعلّمته الطاعةُ كيف
٢٠ تُستنزَل عوارفُنا عن بعض ما غَلبتْ عليه سيوفُنا وإنما الدنيا لمن غَلب؛ وانتمَى
إلينا فصار من خَدَم أيّامنا، وصنائع إنعامنا، وقَطَع علائقَه من غيرنا؛ فلجأ منا الى

ركن شديد، وظلٍّ مَديد، ونصرٍ عَتيد، وحَرَمٍ يأوِى آملُه إليـه، وكرمٍ تُقِرّ نضارتُه ناظريه، وإحسانٍ يُمتّعه بما أَقَرّه عطاؤنا فى يديه، وآمتنانٍ يَضَع عنه إِصْرَه والأغلالَ التى كانت عليه؛ اقتضى إحسانُنا أن نُغضىَ له عن بعض ما حَلّت جيوشُـنا ذراه وحلّت سَطَواتُ عساكرنا عُراه، وأَضعفتْ عَزَماتُ سَرايانا قواه، ونَشرتْ طلائعُ جنودنا ما كان سَتَره صَفحُنا عنهــم من عَورات بلادهم وطواه؛ وأن نخوّله بعضَ ما وردت خيولُنا مَناهلَه، ووَطِئتْ جيادُنا غارِبَه وكاهلَه؛ وسلَكتْ كُماتُنا فلَكتْ دارسَه وآهلَه؛ وأن نُبقِىَ مملكةَ البيت الذى مضى سَلَفُه فى الطاعة عليه، ويسـتمرّ مُلْكُ الأرمن الذى أُهْمِلَ[1] السعىُ فى مصالحه بيديه؛ ليَتيمَّن رعاياه به، ويَعلموا أنهم أَمِنوا على أرواحهم وأولادهم بسببه؛ ويَتحقّقوا أنّ أثقالهم بحُسن توصُّله الى طاعتنا قد خَفّت، وأنّ بوادرَ الأمن بلطف توسُّله الى مَراضينا قد أطافت بهــم وحَفّت وأنّ سيوفَنا التى كانت مجرّدة على مَقاتِلهم بجميلِ آستعطافه قـد كفتهم بأسَنا وكَفّت وأنّ سَطَواتِنا الحاكمةَ على أرواحهم قد عَفَت [عنهم بملاطفته وعفّت][2]؛ فرسم أن يُقلَّد كيت وكيت من المملكة الفلانية، ويَستقِرّ بيده آستقرارا لا ينازَع فى آستحقاقه ولا يُعارَض فيما سَبق من إعطائه وإطلاقه؛ ولا يطالَب عنه بقَطِيعه[3]، [ولا يُطلَب منه بسببه غيرُ طَوِيّةٍ مخلِصةٍ ونفسٍ مطيعه]؛ ولا يَخشى عليه يدا جائره، ولا سَرِيّةً فى طلب الغِــرّة سائره؛ ولا يَطرُق كِناسَه أُسْدُ جيوش مفترِســه، ولا سباعُ نِهابٍ مختلِسه؛ بل تستمرّ بلادُه المذكورةُ فى ذمام رعايتنا، وحَصانةِ عنايتنا؛ وكَنَفِ إحسانِنا، ووديعةِ بِرّنا وآمتنانِنا؛ لا تَطمَح اليها عينُ معاند، ولا يَمتدّ اليها إلّا ساعدُ

(١) كذا فى النسخة السلمية لهذا الكتاب، وحسن التوسل ص ١١٢ ط الوهبية؛ وفى بعض نسخ حسن التوسل: «أجمل» بالجيم؛ والمعنى يختلف فى كلتا الروايتين.

(٢) التكملة عن حسن التوسل؛ وسياق الكلام يقتضى إثباتها.

(٣) القطيعة: الضريبة.

مساعِد، وعضدُ مُعاضِد؛ فليقابِل هــذه النعمةَ بشكر الله ٱلذى هــداه الى الطــاعه وصان بإخلاص وَلائه نفسَــه ونفائسَ بلاده من الإضاعه؛ وليَقرن ذلك بإصــفاء مَوارد المَوَدّه، وإضفاءِ مَلابس الطاعة التى لا تَزداد بُحسن الوفاء إلا جِدّه؛ وٱستمرارِ المُناصَحة فى السِّرّ والعَلَن ، وٱجتنابِ المخادَعة ما ظهر منهــا وما بَطَن ، وأداءِ الأمانة فيما ٱستَقرّ معه ٱلحِلْف[1] عليــه، ومباينَةِ ما يخشى أن يَتوجّه بسببه وجهُ عَتْب إليــه؛ وٱستدامةِ هــذه النعمة بحفظ أسبابِها، وٱستقامةِ أحوال هذه المِنّة برَفْض مُوجِبات الكَدَر وٱجتنابِها، وإخلاصِ النيّة التى لا تُعتبَر ظواهرُ الأحوال الصالحة إلّا بها .

ومن تقليــدٍ كتبه المُشارُ اليه أيضــا لسَــلامش بمملكة الروم حين ورد كتابُه يَسأل ذلك قبلَ حضوره، أوّله :

الحمــد لله الذى أيّدنا بنصرِه ، وأمدّنا مِن جنود الظَّفَر بمــا لم يُؤتَ مَلِك فى عصرِه ، وجَعــلَ مهابتنا قائمة فى جهاد عدوّ الدين ، إن قَرُب مَقامُ كَسْرِه، وإن بَعُــد مَقامُ حَصْرِه ، ونَشَر دعوة مَلِكنا فى الأقطار كلِّها اذا ٱقتصرت دعوةُ غيرِنا من ملوك الأمصــار على مصرِه، وأنجَــدَ مَن نادانا بلسان الإخلاص من جنود الله وجنودنا بالجيش الذى لم تزل أرواحُ العــدا بأَسْرِها فى أَسْرِه ، وعَضَدَ من تَمسّــك بطاعة الله وطاعتنا من إجابة عساكرنا بمــا هو أقربُ الى مَقاتل عدوّه من بِيضــه المُرْهَفَــة وسُمْرِه ، وأعاد بنــا من حقــوق الدِّين كلّ ضــالّة مُلْكٍ ظَنّ العــدوُّ أنّ أمره غالبٌ عليهــا واللهُ غالبٌ على أمرِه ؛ بجنودنا إلى نُصْرةِ من دعاها بالإيمــان أَقربُ مِن رَجْع نَفَسِه اليه ، وأَسرعُ مِن ردّ[2] الصدى جوابَه عليه ؛ وأَسبَقُ الى عدوّ

(١) الحلف بكسر أوله وسكون ثانيه : العهد .

(٢) فى الأصل : «ودى» ؛ وهو تحريف .

الدين من مَواقع عِيانه ، وأَقدَرُ على التصرّف فى أرواح أهــل الشِّرْك مِن تصرّف الكَمِىّ فى عِنــانِه ؛ وأَذَبُّ عن حمى الدين من الجفون عن نواظرها ، وأَضْرَى على نفوس المعتــدين من أُسُــود عَنَت الفَرائسُ[1] لكواسرها ؛ قــد عَوّدها النصرُ الإلهىُّ ألّا تَسُلّ ظُباها فتُغْمَد حتى تُستَباحَ مَمــالك ، وضَمِن لها الوعدُ المحمّدىُّ أنها الطائفةُ الذين لا يزالون ظاهرين الى يوم القيامة حتى يأتىَ أمر الله وهم على ذلك ؛ نحمــده على نعمه التى لم نزل نصون بها حمى الدين ونصول ، وتقلّد بيمنها من لجأ إلينا سيفَ نصرٍ يَصدَع به ليلَ العِدا ولو أنّ النجوم نُصول ، ونُورِد بآسمها من آنتصر بنا مَورِدَ عزّ يُحْرِمه[2] لمعُ الأسنّة فوقه ، فليس لظمآنَ من العِدا إليه وُصول ؛ وبعد ، فإن أَولى من أَصْغت عزائمُنا الشريفة إلى نداء إخلاصــه ، وأجابت مكارمُنا العَميمةُ دعاءَ تَميُّزِه بالوَلاء واختصاصه ، وقابلتْ مَراسمُنا آنتصارَه فى الدين بالنّفير لإعانتــه على ما ظَفِر باقتلاعه من يد الكفر واقتناصِه ، وتكفلت له مَهابتُنا بالأمن على مُلك مذ وسمه باسمنا الشريف يئس العدوُّ من آستخلاصه ؛ وأجيبت كُتبُه فى الآستنجاد بسَرَعانِ[3] الكتائب ، ولَمعَان القواضب ، ونَتابعِ أمداد جيوشِنا التى تنوء بحَملها كواهلُ المشارق والمغارب ، وتَدفّقِ أمواج عساكرنا التى تُنشِد طلائعُها ملوكَ العِدا :

« أين الفِرار ولا مَفرّ لهارب »

وتأَلُّقِ بُروقِ النصر مِن خفق ألويتنا الشاهدة بأن قبيلنا

« إذا ما التقى الجمعان أوّلُ غالب » .

---

(١) فى الأصل : « الفوارس » ؛ وهو تحريف ، وسياق العبارة يقتضى ما أثبتنا . والفرائس : جمع فريسة . (٢) فى الأصل : « يجزمه » بالجيم والزاى المعجمتين ؛ وهو تصحيف .

(٣) سرعان الناس بفتح السين والراء : أوائلهم المستبقون إلى الأمر ، قاله الأصمعىّ فيمن يسرع من العسكر . انظر تاج العروس .

ومنـــه :

وفوّضتْ إليه مَراسمُنا الحُكمَ فى الرعايا بالعدل والإحسان، وقلّدته[1] أوامرُنا من عُقود النظر فى تلك الممالك [ما تودّ جباهُ الملوك][2] لو حلّت[3] بدُرّها مَعاقدَ التيجان، وعلّقت[4] به من الأوامر ما بنا تَنفُذ مَواقعُه، وكذا الأمور المعتبَرةُ لاتَنفُذ إلا بسلطان؛ من ألقى اللهُ الإيمانَ فى قلبه، وهداه إلى دين الإسلام فأصبح فيه على بيّنة من ربّه، وأراد به خيرا فنقَله من حزب الشيطان إلى حزبه، وأنقذه بطاعته من مَوارد الهلاك بعد أن كان قد أَذِن بحرب من الله ورسوله، ولقد خسر الدينَ[5] والدنيا والآخرةَ من أَذِن من الله بحربه؛ وأيقظه من طاعتنا التى أوجبها على الأمم لما أبصر به رشدَه، ورأى قصدَه، وعلِم به أن الذى كان فيه كسرابٍ بقِيعة[6] لم يجده شيئا، وأنّ الذى انتقل إليه وجد اللهَ عنده؛ وأنهضه من موالاتنا بما حتّم به النهوض على كل من كان مسلما، وأخرجه بنور الهُدى من عِداد أعدائه الذين تركهم خوفُنا «كأنّما أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا»؛ وأراه الرشدُ ما عَلِم به أن الله تعالى أورثنا مُلك الإسلام فبطاعتنا يتمّ الانتماءُ إليه، وأعطانا مَقاليدَ البسيطة فمن اغتصبَ منها شيئا انتزعه الله لنا بجنوده المسوَّمة من يديه؛ فلَجأ من أبوابنا العالية الى الظلّ الذى يلجأ اليـه كلُّ ذى منبر وسرير، ورجا من كَرَمنا الاعتصامَ بجيوشنا التى ما رَمينا بها

(١) فى الأصل : «وقدرته»؛ وهو تحريف.

(٢) الزيادة عن حسن التوسل ص ١١٣ طبع الوهبية، واستقامة الكلام تقتضيها.

(٣) فى الأصل : «جلت» بالجيم المعجمة؛ وهو تحريف.

(٤) فى الأصل : «وعلقت» بالذال المعجمة، وهو تحريف.

(٥) لم يرد هذا اللفظ فى حسن التوسل.

(٦) القيعة بكسر القاف : المستوى من الأرض، أشار بهذه العبارة الى قوله تعالى : «والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا».

عدوّا إلا ظَنّ أن الرمالَ تَسيل والجبالَ تَسـير، وتَحيّزَ منّا إلى فئة الإسلام، وآنتَصَر بسيوفنا التى هو يعـلم كيف تَسُلّها على العِـدا الأحلام، ومَتَّ إلينا بذمّة الإسـلام وهى عندنا أبَرّ الذمم، وطَلَبَ تقليدَه الحكم منا مَن عُرِف بإعادتِه[(١)] النظراتِ[(٢)] الصادقةَ أنه كان يَحسَب الشحمَ فيمن شحمُه وَرَم، وعَقَد بنا بناءَ رجائه، وهل لمسلم عن مَلِك الإسلام من مَعْدِل؟ وأَنزل بنا ركائبَ آماله، وهل بَعدَ رامةَ لمرامٍ[(٣)] من مَنزل؟ فتلقّت نِعمُنا كرائمَ قصــده بالترحيب، وأحلّت وِفادةَ آنتمائه[(٤)] بالحَرَم الذى شأوُه بعيد ونصرُه قريب، وتسارعتْ إلى نُصْرته جنودُنا التى أيّامُها مشهورةٌ فى عدوّها، وآثارُها مشكورةٌ فى رَواحها وغُدوِّها، وأعلامُها منصورةٌ فى آنتزاحها ودنوِّها، وتتابعتْ يتلو بعضُها بعضا تَتابُعَ الغمام المتراكم، والموج المتـلاطم، تَقْدَم عليــه بالنصر القريب من الأَمَد البعيد، وتُعْـلِم بوادرُها أنّ طلائعَها عنــده وساقتها بالصعيد، ولمـا كان فلان هو الذى أراد الله به من الخير ما أراد، ووَطّد له بعنايته أركان الرشاد، وجَعل له بعدِ الجهل به عِلْما، وتَدارَكه برحمته، فما أمسَى للإسلام عدوّا حتى أصبح هو ومن معه له سِلْما، "قُلْ بِفَضْـلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا"، وبكرمه العَميم فليَفْسَحوا صدورهم ويَشْرحوا، وبإرشاده الجليّ وهدايته فليَدْعوا قومهم الى ذلك ويَنصحوا، وحين وَضَحت له هــذه الطرقُ أرشدتْه من خدمتنا الشريفة الى الطاعة، ودلّته على

(١) فى الأصل : «من معادنه» ؛ وهو تحريف، والتصويب عن حسن التوسل .

(٢) فى الأصــل وحسن التوسل : «بإدارته» ؛ وهو تحريف فى كليهما، وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا إذ بقية الكلام تدل على أنه حل لبيت المتنبى وهو :

أعيــذها نظــرات منــك صادقة * أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم .

(٣) كذا فى الأصل ؛ والذى فى حسن التوسل : «لمرتاد» ؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين .

(٤) فى الأصل : «أسمائه» ؛ وهو تحريف .

موالاةِ مَلِك الإسلام التى من لم يَتمسّك [بها][1] فقد فارق الجماعة ؛ فإن الله تعالى قرَن طاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم بطاعة أُولى الأمر ، وحَثّ على ملازَمة الجماعة فى وقت يكون المتمسّك فيه بدِينه كالقابض على الجمر ؛ وهذا فعلُ من أراد الله به خيرا ، وسعىُ من يُحْسِن فى دين الله سِيرةً وسَيْرًا ؛ ولذلك آقتضت آراؤنا الشريفةُ إمضاءَ عزمه على الجهاد بالإيجاد ، وإنفاذَ سهمه فى أهل العناد بالإسعاف والإسعاد ؛ وأرسلنا الجيوشَ الإسلاميّة كما تقدّم شرحُه يَطئون الصّحاصِح ، ويَستقرِبون المَدى النازح ، ويأخذون كلّ كَمِيّ فلو آستطاع السِّماكُ لم يتسمّ بالرامح ، ويحتسبون الشُّقّةَ فى طلب عدوّ الإسلام علما أنهم لا يُنفِقون نفقةً صغيرةً ولا كبيرةً ولا يقطعون واديا إلا كُتِب لهم به عملٌ صالح ؛ فرُسِم بالأمر الشريف — لا زال يَهَبُ الدُّوَل ، ويقلّد أجيادَ العظماء ماتَوَدّ لو تَحلّت ببعض فرائده تيجانُ الملوك الأُوَل — أن تُفوَّض إليه نيابةُ الممالك الفلانيّة تفويضا يصون به قِلاعَها ، [ويصُول[2] بمهابته على من حاول آنتزاعَها من يده وآقتلاعَها] ؛ ويُجريها على [ما][3] أَلِفت ممالكُنا مِن أَمْنٍ لا يُروِّع سِرْبُه ، ولا يكدِّر شِرْبُه ؛ ولا يُوجَد فيه باغ تُخاف السبيلُ بسببه ، ولا من يجرِّد سيفَ بغيٍ وإن جَرَّده قُتِل به ؛ وليَحفظْ من الأطراف ما آستودعه آلله وهذا التقليدُ الشريفُ حفظَه ، وليَعمَل فى قتال مُحاربيه من العِدا بقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ .

---

(١) هذه الكلمة ساقطة من الاصل ؛ وقد أثبتناها عن حسن التوسل ص ١١٤ طبع الوهبية .

(٢) هذه التكلة ساقطة من الأصل ؛ وقد أثبتناها عن حسن التوسل ليتم بها السجع الذى التزمه الكاتب فى رسالتـــه .

(٣) فى الأصل : «على ألفت» بدون «ما» والسياق يقتضى إثباتها .

ومنه : وليَعلم أن جيوشَنا فى المَســير إليه متى قَصدتْ عدوّا سابقت خيولُهـا خَيالَهـا ، وجارت جِيادُها ظلالَهـا ، وأنِفتْ سَنابكُها أن تجعل غيرَ جماجم الأعداء نعالَها ؛ وهاهى قد تقدّمت ونَهضت لإنجاده ، فلو سامها أن تخُوض البحار فى سبيل الله لخاضت ، أو تَصْدِم الجبالَ لصَدَمت .

ومنه : والشرعُ الشريفُ مُهِمُّه المقـدَّم ، وأمرُه السابقُ على كلّ ما تقـدَّم ؛ فليُعْلِ مَنارَه ، وليَستشِفَّ من أموره أنوارَه ، ويُنفِّذْ أحكامَه ، ويعاضِـدْ حكّامَه ؛ ومن عَدل عن حُكمه معاندا ، أو ترَكَ شيئا من أحكامه جاحدا ؛ فقـد برِئت الذمّة من دمه حتى يفِيءَ الى أمر الله ، ويَرجِعَ عن عناده ويُنيبَ إلى الله ؛ فإن الله يَهدى إليه من أناب "وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ" .

(٨١) وأما الرسائل التى تتضمّن أوصافَ السلاح وآلاتِ الحرب وأوصافَ الخيـل والجوارح وأنواع الرياضات وما أشبه ذلك ، فالكاتبُ فيه مطلَقُ العِنان ، مُخَلًّى بينه وبين فصاحتـه ، موكولٌ إلى اطّلاعه وبلاغته ؛ وقد تَقدّم من أوصاف السـلاح ما فيه كفايةٌ لمن يريد ذلك .

وأما الخيل والجوارح وما يَلتحِق[1] بذلك من الفهود والضوارى فلا غُنْيَـةَ للكاتب عن معرفته جِيادَها ، والأماراتِ الدالّة على فَراهتها ، وكلِّ طير من الجارح وأفعالَه واستطالَته ، وكيفيّةَ فعلِه ، وتمكّنه من الطير والوحش ؛ وسنُورد إن شاء الله تعالى فى فنّ الحيوان الصامتِ — وهو الفنّ الثالثُ من هذا الكتاب — ما يَقتدى الكاتبُ بمثاله ، ويَنسِجُ على منواله .

(١) كذا فى الأصل . قال فى تاج العروس مادة « لحق » : وقولهم : "التحق به" ، أى لحق ، مولدة ، قال الصاغانى : لم أجده فيما دون من كتب اللغة ، فليجتنب ذلك اهـ .

وأما الرسائل التى تُعمَل رياضةً للخواطر وتجربةً للقرائح، كالمفاخرات بين الفواكه والأزهار، ووصفِ الرياحينِ والأنهارِ والغدرانِ والسّواقى والجداولِ والبحارِ والمراكبِ وأمثالِ ذلك، فقد تقدّم منها فى الفنّ الأوّل من هذا الكتاب ما وقفتَ أو تقِف عليه، وسنُورد منها إن شاء الله تعالى فى الفن الرابع فى النبات ما تجدُه ٥ هناك .

وأما الرسائل الإخوانيّةُ وما يَتجدّد من الأمور ويَطرأُ من الحوادث وغير ذلك، فسنُورد إن شاء الله تعالى منها فى هذا الباب ما ٱنتخبناه من رسائل الكُتّاب والبُلَغاء المَشارِقة والمَغارِبةِ على ما نقف عليه، ولنبدأ من ذلك بذكر شىء من كلام الصحابة والصدر الأوّل .

---

١٠ ذكر شىء من الرسائل المنسوبة إلى الصحابة رضى الله عنهم والتابعين وشىء من كلام الصدر الأوّل وبلاغتهم

قدّمنا أنّ الكاتب يَحتاج فى صناعته إلى حفظ مخاطَبات الصحابة رضى الله عنهم، ومحاوَراتهم ومراجَعاتهم، فأحببنا أن نُورد من ذلك فى هذا الموضع ما ستقف إن شاء الله عليه؛

١٥ فمن ذلك الرسالة المنسوبةُ إلى أبى بكر الصّدّيق إلى علىّ، وما يتّصل بها من كلامِ عمرَ بن الخطاب وجوابِ علىٍّ رضى الله عنهم، وهذه الرسالة قد ٱعتنى الناس بها وأوردوها [فى] المجاميع، ومنهم من أفردها فى جزء، وقطع بأنها من كلامهم رضى الله عنهم، ومنهم من أنكرها ونفاها عنهم، وقال : إنها موضوعةٌ، وٱختلف القائلون بوضعها ، فمنهم من زعم أنّ فُضَلاء الشّيعةِ وضعوها ، وأرادوا بذلك الاستنادَ إلى

[أن](١) عليًّا بنَ أبى طالب رضى الله عنه إنما بايَع أبا بكر الصِّدّيقَ بسبب ما تضمّنتْه؛ وهذا الآستنادُ ضعيفٌ ، وحجّةٌ واهيةٌ، والصحيح أن عليّا بن أبى طالب رضى الله عنه بايع بَيْعةً رضىً باطنُــه فيها كظاهره ، والدليــل على ذلك أنه وطِئَ من السَّبْىِ الذى سُبِىَ فى خلافة أبى بكر، وآستولد منه محمــدَ بنَ الحنفيّة، ولا جواب لهم عن هــذا ؛ ومنهم من زعم أن فضــلاء السنّة وضعوها ، والله أعلم؛ وعلى الجمــلة فهذه الرسالة لَمْ نُوردها فى هذا الكتاب إثباتا لها أنها من كلامهم رضى الله عنهم ولا نفيا، وإنما أوردناها لمــا فيها من البلاغة، واتّساقِ الكلام، وجُودةِ الألفاظ ، وها نحن نُوردها على نص ما وقفنا عليه

قال أبو حَيّانَ علىّ بنُ محمد التوحيدىُّ البغدادىُّ :

(٨٢) سَمَرنا ليــلة عند القاضى أبى حامد بن بشر المَرْوَرُّوذىِّ ببغداد، فتصرّف فى الحديث كلَّ متصرَّف — وكان غزيرَ(٢) الروايه ، لطيفَ الدرايه — فجرى حديث السَّقيفة ، فركب كلَّ مَركَبا ، وقال قَولا، وعَرَّض بشىء، ونَزَع إلى فنّ؛ فقال : هل فيكم من يحفظ رسالة لأبى بكر الصِّدّيق إلى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهما وجوابَ علىّ عنها، ومبايعتَه إياه عقب تلك المناظرة؟ فقال الجماعة : لا والله، فقال: هى والله من بنات الحقائق، ومخبّآتِ الصنادق،ومنذ حفظتُها ما رويتُها إلا لأبى محمد المهلّبىِّ فى وِزارته، فكتبها عنّى بيده، وقال : لا أعرف رسالة أعقلَ منها ولا أَبيَنَ، وإنها لتــدُلّ على عِلم وحِلم وفصاحة ونباهة ، وبُعــد غَور، وشدّةِ غَوص؛ فقال له

(١) هذه الكلمة ساقطة من الأصل، والسياق يقتضى إثباتها .

(٢) فى الأصل : «عزيز» ؛ وهو تصحيف .

العَبَّاداني[1] : أيها القاضي، لو أتممتَ المِنّة علينا بروايتها سمعناها[2]، فنحن أوعى لها عنك من المهلّبي، وأوجبُ ذماما عليك؛ فاندفع وقال : حدّثنا الخُزاعيّ بمكّة، عن أبي مَيسرةَ[3] قال : حدّثنا محمد بن فُلَيح[4] عن عيسى بن دأب[5] [نبأ صالحُ بنُ كَيْسان ويزيدُ بنُ رُومان، قالا : حدّثنا هِشام بن عُروةَ، نبأ[6]] أبو النقّاح[7] قال : سمعت

(١) العباداني : نسبة الى عبادان؛ وعبادان : موضع منسوب الى عباد بن حصين الحبطى لأنه أوّل من رابط به فنسب إليه بزيادة الالف والنون على طريقة أهل البصرة ونواحيها فى النسبة، فإنهم اذا سموا موضعا ونسبوه الى رجل أو صفة يزيدون فى آخره ألفا ونونا، كقولهم فى قرية عندهم منسوبة الى زياد بن أبيه : زيادان، وأخرى الى عبد الله : عبد اليان، وأخرى الى بلال بن أبى برده : بلالان، وعبادان هذه تحت البصرة قرب البحر الملح، فإن دجلة اذا قاربت البحر افترقت فرقتين عند قرية تسمى المحرزى : ففرقة يركب فيها الى ناحية البحرين نحو بر العرب، وهى اليمنى؛ فأما اليسرى فيركب فيها الى سيراف وجنابة فارس، فهى مثلثة الشكل . وعبادان فى هذه الجزيرة التى بين النهرين، وهى موضع ردىء سبخ لا خير فيه، وماؤه ملح، وفيه مشهد لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه . اه ملخصا من ياقوت ج ٣ ص ٥٩٨ طبع جوتنجن .

(٢) فى صبح الأعشى : «أسمعناها» بصيغة الأمر؛ والمعنى يستقيم على كليهما .

(٣) كذا فى صبح الأعشى؛ والذى فى الأصل : "ابن أبى ميسرة"؛ ولم نقف عليه فيما لدينا من الكتب المدوّنة فى أسماء الرواة .

(٤) فى الأصل وصبح الأعشى ج ١ ص ٢٣٧ طبع المطبعة الأميرية : «ابن أبى فليح»؛ ولم نقف عليه فيما بين أيدينا من المظان، وما أثبتناه عن خلاصة تذهيب التهذيب للخزرجى وغيرها .

(٥) كذا فى شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ج ٢ ص ٥٩٣ طبع مطبعة الحلبى، والمشتبه فى أسماء الرجال، وتاج العروس مادّة دأب، وغير ذلك من المصادر؛ والذى فى الأصل : "ابن ذؤاب" ولم نقف عليه فيما لدينا من المظان .

(٦) هذه التكملة ساقطة من الأصل؛ وبها يستقيم السند . انظر محاضرة الأبرار لابن العربى ج ٢ ص ١٠٣ طبع السعادة .

(٧) كذا وردت هذه الكنية فى محاضرة الأبرار لابن العربى المحفوظ منها نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٣٨ أدب م وكذلك فى النسخة المطبوعة طبع السعادة السالفة الذكر، ونص فيها على أن أبا النقاح مولى أبى عبيدة بالنون والفاء . والذى فى الأصل : «ابن المتاح»؛ ولم نقف عليه فيما لدينا من المظان .

مولاى أبا عُبَيدةَ يقول : لمـا استقامت الخلافة لأبى بكر رضى الله عنه بين المهاجرين والأنصار بَعد فتنة كاد الشيطانُ بها، فدفع الله شرَّها، ويَسَّر خيرَها، بَلَغ أبا بكر عن علىٍّ تلكُّؤٌ وشِماس، وتَهَمُّمٌ(١) ونفاس، فكَرِه أن يتمادى الحالُ فتبـدوَ العوره، وتَشتعلَ الجمره، وتُفرَّق ذاتُ البين، فدعانى، فحضرته فى خَلوَة، وكان عنده عمرُ بنُ الخطّاب رضى الله عنه وحدَه، فقال : يا أبا عُبَيـدة ، ما أيْمَنَ ناصيتَك، وأَبينَ الخـيرَ بين عينيك ، وَطالَمَـا أعَزّ الله بك الإسلام، وأَصلَح شأنَه على يديك، ولقد كنتَ من رسول الله صـلى الله عليه وسلم بالمكان المَحُوط ، والمَحَلِّ المغبوط ، ولقـد قال فيك فى يومٍ مشهود : "لكلّ أمّة أمين، وأمين هذه الأمّة أبو عُبَيدة" ولَم [تَزَل](٢) للدِّين مُلتَجا، وللؤمنين مُرْتجى، ولأهلك ركا، ولإخوانك رِدْءا، قد أردتك لأمرٍ له خطر مَخُوف، وإصـلاحُه من أعظم المعروف، ولئن لم يَندمِل جُرحُه بيسارك(٣) ورِفقِك، ولم تُجَبَّ حَيّتُه برُقْيتك، فقد وقع اليأس، وأَعضَل البأس، واحتِيج بعـد ذلك إلى ما هو أمَرُّ منـه وأَعلَق، وأَعسَرُ منه وأَغلَق، والله أسأل تمـامَه بك، ونظامَه على يديك، فتأتَّ له يا أبا عُبَيدة، وتَلطَّفْ فيه، وانصَحْ لله عزّ وجلّ، ولرسوله صلى الله الله عليه وسلم ،ولهذه العِصابة غيرَ آلٍ جُهْدا، و[لا] قالٍ حَمْدا، واللهُ كالئك وناصرُك، وهاديك ومبصِّرُك، إن شاء الله، امضِ إلى علىٍّ واخفِض له جَناحَك، واغضُضْ

(١) يقال : تهمم فلان الشىء، اذا طلبه، والمراد هنا طلب الخلافة . وفى رواية : "تهمهم"، وهو الكلام الخفى ؛ والمعنى يستقيم على ذلك أيضا . والنفاس : المنافسة .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من الأصـل ؛ واستقامة الكلام تقتضى إثباتها انظر صبح الأعشى ج ١ ص ٢٣٨ طبع المطبعة الأميرية .

(٣) كذا فى الأصـل ؛ وفى رواية : "بمسبارك" ؛ انظر محاضرة الأبرار ج ٢ ص ١١١ طبع السعادة فى تفسير هذه الرسالة . والمسبار : فتيل يدخل فى الجرح ليعرف كم عمقه ؛ يقال : سبرت الجرح إذا اختبرته بالمسبار .

عنده صوتك ، وآعلم أنه سُلالةُ أبى طالب ، ومكانُه ممّن فقَدناه بالأمس صلى الله عليه وسلم مكانُه ، وقل له : البحرُ مُغرَقه ، والبَرّ مفرَقه ، والجوُّ أكلَف[1] ، والليلُ أغدف[1] ، والسماءُ جَلْواء ، والأرضُ صَلْعاء ، والصُّعودُ متعذّر ، والهبوطُ متعسّر ، والحقُّ عَطوفٌ رءوف ، والبـاطلُ عنوفٌ عسوف[2] ، والعُجْبُ قَدّاحةُ[3] الشرّ ، والضِّغنُ رائد البَوار ، والتعريضُ سِجالُ[4] الفتنة ، والقِحَةُ ثَقوبُ[5] العداوة ، وهذا الشيطانُ متّكئٌ على شماله ، مُتحبّلٌ[6] بيمينه ، نافِخٌ حِضْنَيه[7] لأهله ، ينتظر الشَّتاتَ والفُرقة ، ويَدِبّ بين الأمّة بالشَّحناء والعداوة ، عنادا لله عزّ وجلّ أوّلا ، ولآدمَ ثانيا ، ولنبيّه صلى الله عليه وسلم ودينــه ثالثا ، يُوسوِس بالفجور ، ويُدْلى بالغُرور ، ويُمَنّى أهلَ الشرور ، يُوحِى إلى أوليائه زُخرفَ القول غُرورا بالباطل ، دأْبا له منذ كان على عهد أبينا آدمَ صلّى الله

(١) الأكلف من الكلف ، وهو لون بين السواد والحمرة . وأغدف الليل : أرخى سدوله وأظلم ، ولم نعثر عليه فيما بين أيدينا من كتب اللغة إلا فعلا . وفى محاضرة ابن العربى ج ٢ ص ١٠٤ طبع السعادة : « أغلف » باللام ، وذكر فى تفسيره ص ١١١ أنه الشديد الظلمة اھ كنى بهذا عن اشتباه الأمور وخفاء طرق الهداية .

(٢) كذا فى الأصل وغيره من المصادر التى بين أيدينا لهــذه الرسالة ، ولم نقف على هذه الصيغة فيما لدينا من كتب اللغة .

(٣) القدّاحة بتشديد الدال : حجر الزند .

(٤) السجال : جمع سجل بفتح أوّله وسكون ثانيه ، وهو الدلو العظيمة .

(٥) الثقوب بفتح الثاء : ما تشعل به النار من دقاق العيدان . والذى فى الأصل : «ثقوف» بالفاء الموحدة ؛ وهو تحريف .

(٦) المتحبل بتشــديد الباء الموحدة : المتصيد بالحبالة ؛ وفى الأصل : « متحيل » بالياء المثناة ؛ وهو تصحيف .

(٧) قال فى اللسان مادة «نفخ» فى تفسير هذه العبارة : أى متنفخ ، مستعد لأن يعمل عمله من الشر اھ . وفى الأصل وصبح الأعشى ج ١ ص ٢٣٨ : « خصييه » : وهو تحريف لا يستقيم به المعنى ، والتصويب عن شرح نهج البلاغة لابن أبى الحــديد ج ٢ ص ٥٩٣ طبع مطبعــة الحلبى . وفى النهاية لابن الأثير : « نافخ حضنيه » بالجيم ؛ وقال فى تفسيره : كنى به عن التعاظم والتكبر والخيلاء .

عليه ، وعادةً له منــذ أهانه الله تعالى فى سالف الدهر ، لا مَنجَى منــه إلا بِعضّ الناجِذ على ٱلحقّ ، وغَضّ الطرف عن الباطل ، ووطْءِ هامَة عدوّ ٱلله بالأشدّ فالأشدّ ، والآكَدِ فالآكَد ، و إســلامِ النفس لله عزّ وجلّ فى ٱبتغاء رضاه ؛ ولا بدّ الآن من قولٍ ينفع اذا ضرّ السكوتُ وخِيف غِبُّه ، ولقد أَرشدك من أفاء ضالّتَك ، وصافاك مَن أحيا مَودّتَه بعتابك ، وأراد لك الخيرَ مَن آثر البقاء معك ، ما هــذا الذى تُسوِّل لك نفسُك ، ويَدْوَى[1] به قلبُك ، و يلتوِى عليه رأيُك ، و يَتخاوص[2] دونه طَرْفُك ، و يَسْرِى فيه ظَعْنُك ، و يترادف معه نَفَسُك ، وتَكثُر عنده صُعَداؤك ، ولا يفيض به لسانُك؟ أَعُجمةٌ بَعــد إفصاح ؟ أتلبيسٌ بَعــد إيضاح ؟ أدِينٌ غيرُ دينِ ٱلله ؟ أخُلُقٌ غيرُ خُلُقِ القرآن؟ أهدى غيرُ هدى النبى صلى ٱلله عليه وسلّم؟ أمِثلى تَمشى إليــه الضَّراءَ[3] وتَدِبّ له الخَمَرُ[3]؟ أوَ مثلُك ينقبض عليه الفضاءُ ويُكسَف[4] فى عينه القمر ؟ ما هذه القَعقَعةُ[5] بالشِّنان ؟ وما هــذه الوَعْوَعةُ باللسان ؟ إنك وٱلله جِدُّ عارف باستجابتنا إلى الله عزّ وجلّ ولرسوله صلى ٱلله عليه وســلّم ، وبخروجنا عن أوطانِنا وأموالِنا وأولادِنا وأحِبّتِنا لله[6] عزّ وجلّ ولرسوله ونُصْرةً لدينــه ، فى زمان أنت فيــه فى كِنّ الصِّبا ،

(١) يدوى : من الدوى بفتح الواو ، وهو داء باطن فى الصدر .

(٢) التخاوص : غض البصر مع تحديق كمن يقوم سهما .

(٣) قال فى اللسان مادة ضرا : يقال للرجل اذا ختل صاحبه ومكر به : هو يدب له الضراء و يمشى له الخمر ، و يقال : لا أمشى له الضراء ولا الخمر ؛ أى أجاهره ولا أخاتله ؛ والضراء الاستخفاء . ثم قال بعد ذلك نقلا عن ابن شميل : ما واراك من شىء وادرأت به فهو خمر .

(٤) نقل عن ثعلب أن الأجود أن يقال : كسفت الشمس ، وخسف القمر انظر اللسان والمصباح مادة «خسف» .

(٥) قال فى اللسان مادة قعع : وفى المثل فلان لا يقعقع له بالشنان ، أى لا يخدع ولا يروّع ، وأصله من تحريك الجلد اليابس للبعير ليفزع .

(٦) عبارة صبح الأعشى ج ١ ص ٢٣٩ «هجرة الى الله» الخ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين .

وخدرِ الغَرارة، وعُنفُوانِ الشَّبيبة [غافلا عما] [1] بِشَيب ويُريب [2]، لا تَعِى ما يُراد ويُشاد، ولا تُحصِّل ما يساق ويقاد، سوى ما أنت جار عليه إلى غايتك التى إليها عُدِل بك، وعندها حُطَّ رَحلُك، غيرَ مجهولِ القدر، ولا مجحودِ الفضل، ونحن فى أثناء ذلك نعانى أحوالا تُزيل الرواسى، ونقاسى أهوالا تُشيبُ النَّواصى، خائضين غِمارَها، راكبين تيّارها، نتجرع صابَها، ونُشرِج [3] عِيابَها، ونُحكِم آساسَها، ونُبرِم أمراسَها، والعيونُ تحدِّج [4] بالحسد، والأنوفُ تعطِس بالكِبْر، والصدورُ تَستعِر بالغَيظ، والأعناقُ تتطاول بالفخر، والشِّفارُ تُشحَذ بالمكر، والأرضُ تَميد بالخوف، لا ننتظر عند المَساء صباحا، ولا عند الصباح مَساء، و[لا] [5] ندفع فى نحر أمر إلّا بعد أن نحسوَ الموت دونه، ولا نبلُغ مُرادا إلى شىء إلّا بعد جَرْع العذاب معه، ولا نُقيم منارا إلا بعد الإياس من الحياة عنده، فادين فى جميع ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بالأب والأمّ، والخالِ والعمّ، والمالِ والنَّشَب، والسَّبَد واللَّبَد [6]، والهِلّة والبِلّة [7]، بطيب أنفس، وقُرّةِ أعيُن، ورُحْبِ أعطان، وثَباتِ عزائم، وصِحّة عقول، وطَلاقة أوجُه، وذَلاقةِ ألسُن، هذا مع خفيّاتِ أسرار، ومكنوناتِ أخبار كنتَ عنها غافلا،

(١) التكملة عن صبح الأعشى؛ واستقامة الكلام تقتضى إثباتها .

(٢) عبارة الأصل : «تشب وتغيب» ، وهو تحريف؛ وقوله : «ويريب» ، هو من رابنى الأمر وأرابنى، إذا رأيت منه ما تكره .

(٣) أشرج العيبة وشرجها بدون همز : شدّ عراها .

(٤) التحديج بالجيم : التحديق . وفى الأصل : «تخدع» بالخاء والعين؛ وهو تحريف .

(٥) فى الأصل : «وندفع» بدون «لا» ؛ واستقامة العبارة تقتضى إثباتها .

(٦) السبد واللبد : كناية عن القليل والكثير؛ وأصل السبد : الوبر، واللبد : الصوف المتلبد .

(٧) يريد بالهلّة والبلّة كل شىء؛ والعرب تقول : ما أصاب هلة ولا بلة : أى شيئا ، ويقال : جاءنا فلان فلم يأتنا بهلة ولا بلة؛ قال ابن السكيت : فالهلة من الفرح والاستهلال ، والبلة من البلل والخير،

ولولا سِنُّك لم تكن عن شيء منها ناكلا؛ كيف وفؤادُك مَشهوم[(١)]، وعُودُك معجوم!
والآن قد بَلَغ اللهُ بك، وأَنهض الخير لك، وجَعَل مرادَك بين يديك، وعن عِلْم
أقول ما تَسمع؛ فارتَقِبْ زمانَك، وقلِّص[(٢)] أرْدانَك؛ ودع التقعس[(٣)] والتجسّس لمن
لا يَظلَع لك إذا خطا، ولا يتزحزح عنك إذا عَطا؛ فالأمرُ غَضٌّ، والنفوسُ فيها مَضٌّ[(٤)]؛
وإنك أَديمُ هذه الأمّة فلا تَحلَم[(٥)] لجاجا، وسيفُها العَضبُ فلا تَنبُ اعوجاجا، وماؤها ٥
العَذبُ فلا تَحُلْ أُجاجا؛ والله لقد سألتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن هذا
الأمر فقال لي: "يا أبا بكر، هو لِمن يَرغب عنه لا لِمن يجاحِش[(٦)] عليه، ولِمن
يَتضاءل عنه لا لمن يَنتفِج[(٧)] إليه، هو لمن يقال: هُو لك، لا لمن يقول: هُو لي" ولقد
شاورني رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصِّهْر، فذَكر فتيانا من قريش، فقلتُ:
أين أنت من عليّ؟ فقال صلى الله عليه وسلم: إني لأكره لفاطمة مَيْعة شَبابه، ١٠
وحَداثة سِنّه، فقلتُ له: متى كنَفتْه يدُك، ورعتْه عينُك، حَفّت بهما البركة،
وأُسبِغتْ عليهما النعمة، مع كلام كثير خاطبتُه به رغبةً فيك، وما كنتُ عَرَفتُ
منك في ذلك حَوْجاءَ ولا لَوْجاء، فقلتُ ما قلتُ وأنا أرى مكانَ غيرك، وأَجِد

(١) المشهوم: الذكى الفؤاد المتوقد، كالشهم.
(٢) التقليص: التشمير. ١٥
(٣) القعس: التأخر، كالتقاعس.
(٤) المض: الألم والحزن.
(٥) حلم الجلد: وقع فيه الحلم بفتح اللام، وهو دود يقع في الجلد فيأكله، فاذا دبغ وهي موضع الأكل منه؛ يريد أنه الذى يجتمع به شمل الأمة وتصان به أمورها، فاذا فسد تفرق ما كان مجتمعا منها كالأديم الذى يصان به سائر البدن. ٢٠
(٦) يجاحش: يدافع.
(٧) الانتفاج: الارتفاع، أو هو مستعار هنا من قولهم: انتفجت الأرنب اذا وثبت؛ ومعنى العبارة يستقيم على كلا التفسيرين.

رائحةَ سواك، وكنتُ إذ ذاك خيرا لك منك الآنَ لى؛ ولئن كان عَرّضَ بك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الأمر فلم يكن مُعْرِضا عن غيرك، وإن كان قال فيك فما سَكت عن سواك، وإن تَلَجلَج فى نفْسك شيءٌ فهلُمَّ فالحكم مَرضِيّ، والصوابُ مسموع، والحقُّ مُطاع؛ ولقد نُقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ما عند الله عزّ وجلّ وهو عن هذه العِصابة راض، وعليها حَدِب، يسُرّه ما يسُرّها[1]، ويسوءه ما يسوءها[1]، ويكيده ما كادها، ويرضيه ما أرضاها، ويُسخطه ما أسخطها، أما تَعلم أنه لم يدَع أحدا من أصحابه وأقاربه وسُجَرائه[2] إلا أبانه بفضيلة، وخصّه بمزيّة، وأفرده بحالة؟ أتظنه صلى الله عليه وسلم ترك الأمة سدًى بَدَدا، عَباهِلَ[3] مَباهِلَ[3]، طَلاحَى[4]، مفتونةً بالباطل، مَعنُونةً[5] عن الحقّ، لا ذائد ولا رائدَ، ولا ضابطَ ولا حائطَ ولا رابطَ، ولا ساقيَ ولا واقيَ، ولا هاديَ ولا حادى[6]؛ كلا، والله ما اشتاق إلى ربه تعالى، ولا سأله المَصيرَ إلى رضوانه وقُرْبه إلّا بعد أن ضَرَب المَدَى[7]، وأوضح

(١) كذا ورد هذين الفعلين فى الأصل بصيغة المضارع، والذى فى صبح الأعشى ج ١ ص ٢٤١: «ما سرها» و«ماساءها» بصيغة الماضى، وهو أظهر لمشاكلته لما بعده.

(٢) السجراء: الأصفياء، واحده سجير كأمير.

(٣) العباهل من الإبل: المهملة. والمباهل بمعناه؛ استعار ذلك للذين تفرقت كلمتهم وتشتت شملهم.

(٤) الطلاحى: الإبل التى تشتكى بطونها من أكل الطلح، أراد به هنا القوم الذين لا راعى لهم يصدّهم عما يضرهم، ولا قانون يمنعهم عن أن يردوا موارد تسوءهم، فهم يتبعون ما تقودهم إليه الشهوة كالإبل التى تأكل من الطلح الذى يؤذيها حتى تشتكى بطونها.

(٥) معنونة: من عننت الفرس، أى حبسته بالعنان.

(٦) فى الأصل: «ذادى»؛ وهو تحريف.

(٧) ضرب المدى، يريد: بين الغاية.

الهدى ، وأبان الصُّوى[(1)]، وأمَّن المسالكَ والمطارح، وسهَّل المبارِكَ والمهايع[(2)]، وإلا بعد أن شَدخَ يافُوخَ الشِّرك بإذن الله تعالى، وشَرَم وجهَ النفاق لوجه الله سبحانه ، وجَدَع أنف الفتنة فى ذات الله، وتَفَل فى عين الشيطان بعون الله، وصَـدَع بملءِ فيه ويده بأمر الله عزّ وجلّ؛ وبعد ، فهؤلاء المهاجرون والأنصارُ عنـدك ومعك فى بقعة واحدة، ودارٍ جامعة، إن آستقالُونى[(3)] لك، وأشاروا عندى بك، فأنا واضعٌ يدى فى يدك، وصائرٌ الى رأيهم فيك، وإن تكن الأخرى فآدخل فى صالح ما دخل فيـه المسلمون، وكن العونَ على مَصالحهم ، والفاتحَ لمَغالقهم[(4)]، والمرشـدَ لضالّتهم، والرادعَ لغَوايتهم ، فقـد أمر الله تعـالى بالتعاونِ على البرّ والتقوى ، والتناصرِ على الحق، ودعنا نَقضِ هـذه الحياة بصدور بريئةٍ من الغِلّ ، سليمةٍ من الضغائن[(5)] والحِقد، ونَلْقَ الله تعالى بقلوب سليمةٍ من الضغْن ؛ وبعد، فالناس ثُمَـامة[(6)] فارفُق بهم، وآحنُ عليهم، ولِنْ لهم، ولا تُشْقِ[(7)] نفسك بنـا خاصّةً منهم ، وآترك ناجمَ الحقد

(١) فى الأصل : «الضوى» بالضاد المعجمة ، وهو تحريف . والصوى بضم الصاد المهملة : حجارة مركومة فى الطريق تجعل أعلاما .

(٢) فى الأصل : «المايح» ؛ وهو تحريف ، والتصويب عن صبح الأعشى .

(٣) فى الأصـل : « واستقادونى » ؛ ولم نقف عليـه فيما لدينا من كتب اللغـة الا فعلا لازما ، تقول : استقاد فلان لى اذا أعطاك مقادته ، أو متعـدّيا الى مفعول من القود بفتح القاف والواو، وهو القصاص .

(٤) المغالق : جمع مغلق بكسر الميم ، والمغلق : ما يغلق به البـاب ، كالمغلاق ؛ كما فى شرح القاموس مادة «غلق» نقلا عن الراغب .

(٥) كذا فى الأصل ؛ وهذا اللفظ مكرر مع ما يأتى فى الفقرة التى بعده مع اختلاف بينهما بالإفراد والجمع ، ولم يرد فى المصادر التى بين أيدينا لهذه الرسالة .

(٦) الثمامة بضم الثاء : واحدة الثمـام ، وهو نبت ضعيف له خوص ، وربمـا حشى به وسدّ به خصاص البيوت ، ويشبه به فى الضعف .

(٧) فى الأصل : «تتول» ، ولم نجد من معانيه ما يناسب المقام ، والتصويب عن صبح الأعشى .

حَصيدا ، وطائرَ الشرّ واقعا ، وبابَ الفتنة مُغلَقا ، فلا قالَ ولا قِيــل ، ولا لَومَ ولا تعنيف(١) ، واللهُ على ما نقول شهيد ، وبمــا نحن عليه بصير .

قال أبو عُبَيدة : فلما تأهّبتُ للنهوض قال عمرُ رضى الله عنه : كُنْ لدى الباب هُنَيهةً فلى معــك دور من القول ، فوقفتُ وما أدرى ما كان بعــدى إلّا أنه لحقنى بوجه يَبدى تهلّلا ، وقال لى : قل لعلىّ : الرُّقادُ مَحْلَمَه ، والهوى مَقْحَمَه ؛ ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ ، وحقٌّ مُشاعٌ أو مقسوم ، ونَبأٌ ظاهرٌ أو مكتوم ؛ وإنّ أكيَسَ الكَيْسَى مَن مَنح الشاردَ تألُّفا ، وقارَبَ البعيدَ تلطُّفا ؛ ووَزنَ كلّ شىء بميزانه ، ولم يَخلِط خَبَره بعِيانه ؛ ولم يجعل فِترَه مكانَ شِبره دِينا كان أو دنيا ، ضلالا كان أو هُدى ؛ ولا خير فى عِلم مستعمَلٍ فى جهل ، ولا خير فى معرفة مَشُوبةٍ بنُكر ؛ ولسنا كجِلدة رُفْغ(٢) البعير بين العِجانِ(٣) والذَّنَب ، وكلُّ صالٍ فبنارِه ، وكلُّ سيلٍ فإلى قَرارِه ؛ وما كان سكوتُ هذه العِصابة إلى هذه الغاية لِعِىٍّ وشِىٍّ(٤) ، ولا كلامُها اليوم لفَرَقٍ أو رفق ، وقد جَدَعَ الله بمحمد صلى الله عليه وسلّم أنفَ كلِّ ذى كِبْر ، وقَصَم ظهرَ كلِّ جبّــار ، وقَطَع لسانَ كلِّ كذوب " فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَالُ " ما هذه الخُنْزُوانةُ(٥) [التى](٦) فى فَراش(٧)

---

(١) فى الأصل : «تتبع» وفى صبح الأعشى : «تبيع» وهو تحريف فى كليهما ؛ وما أثبتناه عن شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ج ٢ ص ٥٩٤ طبع مطبعة الحلبى .

(٢) الرفغ بفتح الراء وضمها ، أصول الفخذين من باطن ؛ وكأن وجه التشبيه فى ذلك الخسة وضعة المنزلة .

(٣) فى الأصل : «الرأس» وما أثبتناه عن صبح الأعشى ج ١ ص ٢٤٢ إذ به يستقيم المعنى .

(٤) الشىّ بكسر الشين : إتباع للعىّ . وفى الأصل : «ومى» بالميم ، وهو تحريف .

(٥) الخنزوانة : الكبر .

(٦) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ، وقد أثبتناها عن صبح الأعشى .

(٧) فراش الرأس : عظام دقاق تلى القحف .

رأسك ؟ ما هــذا الشجا المعترِضُ فى مدارج أنفاسك ؟ ما هذه القَذاةُ التى تغشّت ناظرَك ؟ وما هــذه الوَحَرةُ[1] التى أكلتْ شَرا سيفَك؟ وما هــذا الذى لَبستَ بسببه جلدَ النَّمِر، واشتَمَلتَ عليه بالشّحناء والنُّكر، ولسنا فى كِسرويّة كسرى، ولا فى قَيصَريّة قَيصر، تأمّلْ لإخوان فارسَ وأبناء الأصفر؛ قد جعلهم الله جَزَرا لسيوفنا، ودَريئةً لرماحنا، ومَرعًى لطعاننا، وتَبَعا لسلطاننا؛ بل نحن نُور نبوّة، وضياءُ رسالة، وثمرةُ حِكْمة، وأَثَرةُ رَحْمه، وعُنوانُ نِعْمه، وظلُّ عِصْمه؛ بيْن أمّة مَهديّةٍ بالحق والصدق، مأمونةٍ على الرَّتْق والفتق، لهــا من الله إباءٌ أَبِىّ، وساعدٌ قوِىّ؛ ويدٌ ناصره، وعينٌ ناظره؛ أتظن ظنّا يا علىّ أن أبا بكر وَثَب على هــذا الأمر مُفْتاتا على الأمّة، خادعا لها، أو متسلّطا [عليها][2]؟ أتراه حَلّ عُقودَها [وأحال عقولَها][2]؟ أتراه جَعلَ نهارَها ليلا، ووَزْنَها كَيلا، ويَقَظتَها رُقادا، وصلاحَها فسادا؟ لا والله، سلا عنها فوَلِهَتْ له، وتطامن لها فَاصِقتْ به، ومالَ عنها فمالت إليه، واشمأزّ دونها فاشتَمَلتْ عليه، حَبوةً حباه الله بها، وعاقبةً بلّغه الله إليها، ونعمةً سَربَلَه جَمالَها، ويدا أوجب عليه شكرَها وأمّةً نظر اللهُ به لهــا، والله تعــالى أعلمُ بخَلقــه، وأرأفُ بعباده، يَختار ما كان لهم الخِيرَة، وإنك بحيث لا يُجهَل موضعُك من بيت النبوّة، ومعدِن الرسالة، ولا يُجحد حقُّك فيما آتاك الله، ولكن لك من يزاحمك بمَنْكِب أَضخمَ من مَنْكِبك، وقُرْبٍ أَمَسَّ من قَرابتك، وسنٍّ أعلى من سنّك، وشَيبةٍ أَروعَ من شيبتك، وسيادةٍ لهــا أصلٌ فى الجاهليّة وفرعٌ فى الإسلام، ومواقف ليس لك فيها جملٌ ولا ناقه، ولا تُذكَر فيها

---

(١) الوحرة : ضرب من العظاء، وهى صغيرة حمراء تعدو فى الجبابين لها ذنب دقيق تمصع به إذا عدت، وهى أخبث العظاء لا تطأ طعاما ولا شرابا إلا سمّته ولا يأكله أحد إلا دق بطنــه، وربمــا هلك، شبه العــداوة والغل بها . قال فى اللسان مادة «وحر» : الوحر : غش الصدر وبلابله، ويقال : إن أصل هذا من الدويبة التى يقال لهــا الوحرة، ثم قال : شبهوا العداوة ولزوقها بالصدر بالتزاق الوحرة بالأرض .

(٢) التكملة عن صبح الاعشى .

فى مقـدِّمة ولا ساقه ؛ ولا تَضرب فيها بذراع ولا إصبع ، ولا تخرُج منها ببازِل[1] ولا هُبع[1] ؛ ولم يزل أبو بكر حَبَّةَ قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعَلاقةَ نفْسه وعَيْبةَ سرِّه ، ومفزَعَ رأيه ، وراحةَ كفِّه ، ومَرْمَقَ طَرْفه ؛ وذلك كلُّه بمحضَر الصادر والوارد من المهاجرين والأنصار شهرةً مغنيةً عن الدليل عليه ، ولعمرى إنك أقربُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قَرَابة ، ولكنه أقربُ منـك قُربة[2] ، والقَرابةُ لحمٌ ودم ، والقُرْبةُ نفْسٌ ورُوح ، وهـذا فرقٌ عَرَفه المؤمنون ، ولذلك صـاروا إليـه أجمعون ؛ ومهما شككتَ فى ذلك فلا تشُكَّ أن يدَ الله مع الجماعه ، ورضوانه لأهل الطاعه ، فادخل فيما هو خيرٌ لك اليومَ وأنفعُ غدا ، والفِظْ من فيـك ما يَعلَق بلَهاتك ، وانفُثْ سَخيمةَ صدرك عن تُقاتك ، فإن يك فى الأمَل طُول ، وفى الأجل فُسحة ، فستأكله مَريئا أو غيرَ مَرىء ، وستشربه هَنيئا أو غيرَ هَنىء[3] ، حينَ لا رادَّ لقولك إلا من كان منـك ، ولا تابعَ لك إلّا من كان طامعا فيـك ، يمُصّ إهابَك ، ويَعرُك أديمَك ، ويَزرِى على هَدْيك ، هنالك تقرَع السنَّ من ندَم ، وتجرَع المـاءَ ممزوجا بدم ، وحينئذ تأسَى على ما مضى من عمـرك ، ودارج قوّتك ، فتودّ أن لو سُقيتَ بالكأس التى أبيتَها ، ورُددتَ إلى حالتك التى استغويتَها ؛ ولله تعالى فينا وفيك أمرٌ هو بالغُه ، وغَيبٌ هو شاهدُه ، وعاقبةٌ هو المرجوُّ لسرّائها وضَرّائها ، وهو الولىّ الحميد ، الغفورُ الودود .

(١) البازل والبزول : الجمل أو الناقة فى التاسع من سنيه ، وليس بعـده سن تسمى . والهبع بضم الهاء وفتح الباء : الفصيل فى آخر النتاج .

(٢) القربة : الوسيلة .

(٣) فى الأصل : «هنيئا مريئا» وقوله : «هنيئا» زيادة من الناسخ كما يدل على ذلك سياق مابعده ، وانظر صبح الأعشى ج ١ ص ٢٤٣ .

قال أبو عُبَيْـدة : فمشيت مترّملا أَنُوءُ[١] كأنما أَخطُو على رأسى فَرَقا من الفُرقة ، وشَفَقا على الأمّة ، حتى وصلت إلى علىّ رضى الله عنـه فى خَلاء ، فأبثثتُه[٢] بثّى كلّه ، وبَرِئتُ إليه منه ، ورَفَقتُ به ؛ فلمّا سمعها ووعاها ، وسَرتْ فى مفاصله حُمَيّاها ؛ قال : حَلّتْ مُعلَوِّطة[٣] ، وولّتْ مُخرَوِّطة[٣] ، وأنشأ يقول :

إحدى لياليك فهِيسِى هِيسِى[٤] * لا تَنعَمى الليلةَ بالتعـريس

نَعم يا أبا عُبَيدة ، أ كلُّ هذا فى أنفُس القوم يُحِسّون به ، ويَضطَبِعون[٥] عليه ؟

قال أبو عُبَيدة : فقلت : لا جوابَ لك عندى ، إنما أنا قاض حقَّ الدِّين ، وراتقٌ فَتقَ المسلمين ، وسادٌّ ثُلْمةَ الأمّة ، يعلم الله ذلك من جُلْجلان[٦] قلبى ، وقَرارةِ نَفْسى ؛ فقال علىٌّ رضى الله عنـه : والله ما كان قعودى فى كِسْر هذا البيت قصـدا للخلاف ، ولا إنكارا للمعروف ، ولا زِرايةً على مُسـلم ، بل لمـا وقَذنى[٧] به رسولُ الله صـلى الله عليه وسـلم من فراقِه ، وأَودَعنى من الحُزن لفقده ، وذلك أننى لم أَشهد بَعـده مَشهدا إلا جدّد علىّ حُزنا ، وذكّرنى شجنا ، وإن الشوق [إلى] اللَّحاق به كافٍ عن الطمع فى غيره ، وقد عَكَفتُ على عهـد الله أنظر فيه ، وأجمع ما تفرّق [منـه]

(١) المترمل : الملتفف ؛ يريد أنه خرج مستخفيا .

(٢) يقال : أبثثته السر ، اذا أطلعته عليه .

(٣) المعلوّطة : من الاعلوّاط ، وهو ركوب الرأس والتقحم على الأمور من غير روّية ؛ والمخروّطة : السريعـة .

(٤) هو مثل يضرب للرجل يأتى الأمر يحتاج فيه الى الجد والاجتهاد . والهيس بفتح الهاء : السير مطلقا .

(٥) أراد بالاضطباع هنا : الانطواء والاشتمال ؛ وقد استعاره من قولهم : اضطبع الشىء ، اذا جعله تحت ضبعيه ، وهما عضداه . وفى شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد : «يضطغنون» ؛ والاضطغان : الاشتمال أيضا .

(٦) جلجلان القلب : سويداؤه .

(٧) وقذه : تركه عليلا .

رجاءَ ثواب مُعَدٍّ لمن أخلص لله عَمَلَه، وسلّم لعلمه ومشيئته، وأمرِه ونهيه؛ على أنى ما علمت أن التظاهرَ علىّ واقع، ولِى عن الحقّ الذى سَبق لى دافع، و إذ قد أُفْعِم الوادى بِى، وحُشِد النادى من أجلى، فلا مَرحَبا بما ساء أحدا من المسلمين وسرّنى، وفى النفس كلامٌ لولا سابقُ عَقْد، وسالفُ عهد، لشَفَيتُ نفسى بخِنْصِرى وبِنْصرى، وخُضتُ لُجّتَه بأَخْمَصى ومَفْرِق، ولكنى مُلْجَمٌ الى أن ألقى ربّى، وعنده أحتسب ما نزل بى[1]، و إنى غاد إلى جماعتكم، مبايِعٌ لصاحبكم، صابرٌ على ما ساءنى وسرّكم، "لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا".

قال أبو عُبَيدة : فعـدت الى أبى بكر رضى الله عنـه ، فقَصَصت القول على غَرِّه[2]، ولم أختزل شيئا من حُلوه ومُرِّه، وبكّرتُ غُدْوةً إلى المسجد، فلما كان صباحُ يومئذ إذا علىٌّ يَختَرِق الجمـاعة إلى أبى بكر رضى الله عنهما ، فبايعَـه ، وقال خيرا ، ووَصَف جميلا، وجلس زِمِّيتا[3]، واستأذن للقيام فمضى، وتبعه عمر مكرِما له ، مستثيرا لمـا عنده، فقال علىٌّ رضى الله عنه : ما قعـدت عن صاحبكم كارها له ، ولا أتيته فَرَقا، ولا أقول ما أقول تَعِلّة، و إنّى لأعرف منتهَى طَرْفى، ومَحَطَّ قَدَمى، ومَنْزَع قوسى ، ومَوقِـعَ سهمى، ولكن قد أَزَمتُ على فأسى[4] ثِقةً بربّى فى الدنيا والآخرة .

فقال له عمر رضى الله عنهما : كَفْكِف غَرْبَك ، وٱستوقِف سرْبَك، ودع العصا بلحائها، والدِّلاءَ على رِشائها، فإنّا مِن خَلْفها ووراءها، إن قَدَحْنا أورَينا، و إن

(١) كذا فى صبح الأعشى؛ وفى الأصل : «ما نزل لى» .

(٢) على غره، يريد : على أصـله ؛ وأصل الغر : الكسر المتثنى فى جلد أو ثوب، يقـال : اطو الثوب على غروره، أى على مكاسره .

(٣) الزمّيت بتشديد الميم : الوقور، وبابه كرم .

(٤) يقال : أزم الفرس على فأس اللجام ، أى عض وأمسك؛ يريد أنه كتم ما فى نفسه من الشكوى، ولم يبح بما يعانيه من الألم .

مَتَحْنا أرْوَينا، وإن قَرَحْنا أدمَينا، ولقــد سمعتُ أماثيلَك التى لَغَّزْتَ[١] فيها عن صدر أُكل بالجوَى، ولو شئتُ لقلتُ [على][٢] مقالتك ما إن سمعتَــه ندمتَ على ما قلتَ ؛ وزعمتَ أنك قعدتَ فى كسر بيتك لِمَا وَقَذَك به رسول الله صلى الله عليه وسلم مِن فقدِه، فهو وَقَذَك ولم يَقِذْ غيرَك؟ بل مُصابُه أعَمُّ وأعظمُ من ذلك، وإنّ مِن حقِّ مُصابه ألا تَصْدَعَ شَمْلَ الجماعة بفُرقة لا عِصام لها، ولا يؤمَن كيدُ الشيطان فى بقائها، هذه العربُ حَولَنا ، والله لو تداعت علينا فى صبح نهار لَم نَلتقِ فى مَسائه؛ وزعمتَ أن الشوق الى اللَّحاق به كاف عن الطمع فى غيره ، فمن علامة الشوق إليــه نُصرةُ دينــه ، ومؤازَرةُ أوليائه ومعاوَنتُهم ؛ وزعمتَ أنك عكفت على عهــد الله تجمع ما تفرّق منه، فمِن العُكوفِ على عهد الله النصيحةُ لعباد الله ، والرأفةُ على خلق الله، وبَذْلُ ما يَصلُحون به ، ويُرْشَــدون عليه ؛ وزعمتَ أنك لم تعـلم أن التظاهر وقع عليك، وأىُّ حَقٍ لُطَّ دونَك ؟ قــد سمعتَ وعلمتَ ما قالت الأنصار بالأمس سرّا وجهرا، وتقلّبت عليه بطنا وظهرا، فهل ذكرتْك، أو أشارت بك، أو وَجدتَ رضاهم عنك؟ هل قال أحد منهم بلسانه : إنك تصلُح لهذا الأمر، أو أومأ بعينه، أو هَمْهَم[٣] فى نفْسه ؟ أتظنّ أن النــاس ضَلّوا من أجلك، وعادوا كفّارا زهدا فيك، وباعوا الله تعــالى تحامُلا عليك؟ لا والله، لقد جاءنى عَقيل بن زيادٍ الخزرَجىُّ [فى نَفَرٍ من أصحابه ومعهم شُرَحْبيــلُ بن يعقوبَ الخَزرَجىُّ][٤] وقالوا : إن عليّا ينتظر الإمامة، ويزعم أنه أولى بها من غيره، وينكر على من يَعقِد الخلافة، فأنكرتُ عليهم ،

(١) كذا ورد هذا الفعل بتشديد الغين فى أساس البلاغة .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من الأصل، وقد أثبتناها عن صبح الأعشى، إذ بها تستقيم العبارة .

(٣) الهمهمة : الكلام الذى لا يصرح به .

(٤) التكلة عن صبح الأعشى ج ١ ص ٢٤٦ ؛ وما بعدها يقتضى إثباتها .

وردَدتُ القول فى نحورهم حين قالوا : إنه يَنتظِر الوَحْىَ، ويَتوكَّف[1] مناجاةَ المَلَك، فقلت : ذلك أمرٌ طواه الله تعالى بعد نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، أكان الأمر معقودا بأُنْشُوطة[2]، أو مشدودا بأطراف لِيطة[3]؟ كلّا والله، لا عَجْماءَ بحمد الله إلا وقد أَفصَحَت ، ولا شَوكاء إلّا وقد تفتّحت، ومِن أعجبِ شأنِك قولُك : لولا سالفُ عهد، وسابقُ عَقْد، لشَفَيتُ غيظى، وهل تَرَك الدِّينُ لأهله أن يَشفُوا غيظَهم بيد أو لسان؟ تلك جاهليةٌ قد استأصل الله شأفتَها، واقتلَع جرثومتَها، وهَوَّر[4] ليلَها ، وغَوّر سَيلَها، وأبدَل منها الرَّوحَ والرَّيحان، والهدى والبرهان، وزعمتَ أنك مُلجَم، ولَعمرى إنّ من اتقى الله ، وآثَر رضاه ، وطَلَبَ ما عنده، أمسك لسانَه، وأَطْبَق فاه، وجَعل سعيَه لما وراه .

فقال علىٌّ رضى الله عنه : مهلا مهلا يا أبا حفص، والله ما بَذَلتُ ما بَذلتُ وأنا أريد نَكْثَه، ولا أقررتُ ما أقررتُ وأنا أبتغى حِوَلًا عنه، وإن أخسرَ الناس صَفْقةً عند الله من آثرَ النفاق ، واحتَضن الشِّقاق، وفى الله سلوةٌ عن كل حادث، وعليه التوكّل فى كلّ الحوادث، ارجع يا أبا حفص إلى مجلسك ناقعَ القلب، مَبرودَ الغَليل، فَسيحَ اللَّبان[5] ، فَصيحَ اللسان، فليس وراء ما سَمعتَ وقلتُ إلا ما يَشُدّ الأَزْر، ويَحُطّ الوِزْر، ويَضَع الإصر، ويجمع الأُلفة بمشيئة الله وتوفيقه .

قال أبو عُبَيدة رضى الله عنه : فانصرف علىٌّ وعمرُ رضى الله عنهما ، وهذا أصعب ما مرّ علىّ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) يتوكف : ينتظر، ويقال : فلان يتوكف الأخبار، نحو يستقطر الأخبار .

(٢) الأنشوطة : عقدة تحل اذا جذب أحد طرفيها .

(٣) الليطة : واحد الليط، وهو قشر القصب .

(٤) هور : أذهب . (٥) اللبان : الصدر .

ومن كلام عائشة أمّ المؤمنين بنتِ أبى بكر الصِّـدّيق رضى الله عنهما ، وهو ممـا اتصل إلينا بالرواية الصحيحة ، والأسانيد الصريحة ، عن محمد بنِ أحمدَ ابنِ [أبى] المُثنَّى[(١)] ، عن جعفر بن عَون ، عن هِشام بن عُروةَ ، عن أبيه ، عن عائشةَ رضى الله عنها : أنه بلغها أنّ أقواما يَتناولون أبا بكر رضى الله عنـه ، فأرسلَتْ الى أَزْفَلَةٍ من الناس ، فلمّا حضروا أَسدَلتْ أستارَها ، وعلَت وِسادَها ، ثم قالت : أبِى وما أَبِيَه ! أبِى والله لا تَعْطُوه الأَيْدى ، ذاك طَوْدٌ مُنيف ، وظلٌّ مَديد ، هيهاتَ ، كَذبت الظُّنون ، أَنْجَحَ[(٢)] إذ أَكْدَيتم ، وسَبَق إذ وَنَيتم "سَبْقَ الجَوادِ إذا استَوْلى على الأَمَدِ" فَتَى قريشٍ ناشئا ، وكَهْفُها كَهلا ، يَفُكّ عانيَها ، ويَرِيش مُمْلِقَها ، ويَرْأَب شَعْبَها ، ويَلُمّ شَعَثَها ، حتى حَلِيَته[(٣)] قلوبُها ، ثم ٱستَشرَى فى دين الله ، فما بَرِحت شَكِيمتُه فى ذات الله عزّ وجلّ حتى اتّخذ بفِنائه مسجدا يُحْيِى فيه ما أمات المبطلون ، وكان رحمه الله غزيرَ الدَّمْعة ، وَقِيذَ الجوانح ، شَجِىَّ النَّشِيج ، فانعطفتْ اليه نسوانُ مكّةَ وولدانُها يسخرون منه ، ويستهزئون به ، ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ فأَكبَرتْ ذلك رجالاتُ قريش ، فحَنَت قِسيَّها ، وفوَّقتْ سهامَها ، وامتثلوه[(٤)] غَرَضا فما فَلّوا له صَفاة ، ولا قَصَفوا له قَناة ، ومَرّ على سِيسائه ، حتى اذا ضَرَب الدِّينُ بجِرانه ، وألقَى بَرْكَه ، ورَسَت أوتادُه ، ودخل الناسُ فيه أفواجا ، ومن كلّ فِرقة أرسالا

---

(١) كذا ورد هـذا الاسم فى تهذيب التهذيب لابن حجر أثناء الكلام على جعفر بن عون ، والذى فى الأصل : «ابن المثنى» ، ولم نقف عليه فيما لدينا من الكتب المدوّنة فى أسماء الرواة .

(٢) فى اللسان مادة «كدا» «ونجح» بدون همز .

(٣) حليته : استحلته .

(٤) فى الأصل وصبح الأعشى : «وانتثلوه» بالنون ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا انظر اللسان مادة «مثل» .

وأشتاتا، اختار الله لنبيّه ما عنده، فلمّـا قبض الله نبيَّه صلى الله عليه وسـلم نَصب[(١)] الشيطان رِواقَه، ومَدّ طُنُبَه، ونَصَب حبائلَه، وأَجلَبَ بخَيلِه ورَجِله، واضطرب حبلُ الإسـلام، ومَرِج عهدُه، وماج أهلُه، وبُغِيَ الغوائلُ، وظَنّت رجال أن قد أَكْثَبَ[(٢)] نَهْزُها، ولات حين الذى يَرجُون، وأنّى والصِّـدّيقُ بين أظهُرِهم؟ فقام

٥ حاسرا مشمِّرا، بجمع حاشيتيه، ورَفَع قُطريه، فرَدّ رَسَنَ الإسـلام على غَرْبِه، ولَمّ شَعَثَه بطبِّه، وأقام أَوَدَه بثِقافه، فابذَعَرّ النفاقُ بوطئه، وانتاش الدِّينَ فنَعَشه، فلمّا أراح الحقَّ على أهله، وقرّر الرءوسَ على كواهلها، وحَقَن الدماء فى أُهُبها، أتته منيّته، فسَدّ ثُلْمتَه بنظيره فى الرحمة، وشَقيقه فى السِّيرة والمَعدَلة، ذاك ٱبنُ الخطّاب، لله دَرّ أُمٍّ حَفَلَت[(٣)] له، ودَرّت عليه! لقد أَوحدتْ به، ففَنَّخ الكفرةَ ودَيَّخها، وشَرّد الشِّركَ

١٠ شَـذرَ مَذر، وبَعَج الأرضَ وبَخَعها، فقاءت أُكُلَهـا[(٤)]، ولَفَظَت جَنِيَّها، تَرْأَمه ويَصدِف عنها، وتَصدَّى له ويأباها، ثم وَزَّع فيها فَيئَها، ووَدَّعها كما صحبها؛ فأَرُونى ما ترتابون؟ وأىَّ يومَىْ أبى تَنقِمون؟ أيومَ إقامته إذ عَدَل فيكم، أم يومَ ظَعْنِه وقد نَظَر لكم؟ أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

ثم أقبلتْ على الناس بوجهها فقالت : أَنشُدكم اللهَ، هل أَنكرتم مما قلتُ شيئا؟

١٥ قالوا : اللهمّ لا .

---

(١) فى صبح الأعشى ج ١ ص ٢٤٨ : «ضرب» ؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين .

(٢) كذا فى الأصل ؛ والذى فى اللسان مادة «كثب» «أكثبت أطماعهم» ؛ وفى صبح الأعشى ج ١ ص ٢٤٨ : «أكثبت أطماعهم نهزها» ، والمعنى يستقيم على كل من هذه الروايات الثلاث .

(٣) فى الأصل : «حلت به» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما سيأتى فى شرحه لهذه الكلمة .

٢٠ (٤) فى صبح الأعشى ج ١ ص ٢٤٨ : «خبأها» ؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين .

ذكر شرح غريب رسالتها رضى الله عنها

الأَزْفَلَة : الجماعةُ . وتَعْطُوه : تَناوَلُه . والطَّوْد : الجبلُ . والمُنيف : المُشْرِفُ . وأَكْدَيْتم : خِبتم ويُئِسَ من خيركم . ووَنَيْتم : فتَرتم وضعفتم . والأَمَد : الغايةُ . ويَرِيش : يُعطِى ويُفْضِل . والمُمْلِق : الفقيرُ . ويَرْأَب : يَجمَعُ . والشَّعْبُ : المتفرِّقُ . ويَلُمّ : يَضُمّ . واستَشرَى : جَدَّ وانكمش . والشَّكِيمةُ : الأَنفةُ والحَمِيَّةُ . والوَقِيذُ : العَليلُ . والجوانح : الضلوع القِصارُ التى تقرُب من الفؤاد . والشجِىُّ : الحَزينُ . والنَّشِــيجُ : صوتُ البكاء . وانعطفتْ : انثنت . وامتثَلوه : مثلوه[1] . والغرض : الذى يُقصَــد للرَّمْىِ . وفَلّوا : كَسروا . والصَّفاةُ : الصخرة المَلْساءُ . وقَصَفوا : كَسروا . وسِيساؤه : شدّته ، والسِّيساءُ : عَظْم الظهرِ، والعرب تضرب به مَثَلا لشدّة الأمر، قال الشاعر[2] :

لقد حَمَلت قيسُ بنُ عَيْلانَ حربَنا[3] * على يابِسِ السِّيساءِ مُحْدَوْدِبِ الظَّهرِ

والجِرانُ : الصَّــدْرُ . ورَسَتْ : ثبَتت . ومَرِجَ : اختَلَط . وماجَ أهلُه : اضطربوا وتنازعوا . وبُغِىَ الغوائلُ ، معناه وطُلِب البلايا . وأَكْثَبَ : قَرُبَ . والنُّهْزُ : اختــلاسُ الشىء والظَّفَر به مبادَرةً . ولات حين الذى يطلبون[4]، معناه : وليست الساعةُ[5] حينَ ظَفَرِهم . وقولها : فجمع[6] حاشيتيه ورَفَع قُطْرَيه ، معنــاه تحزّمَ

(١) كذا فى الأصل؛ وعبارة اللسان فى شرح هذه الجملة : أى نصبوه هدفا لسهام ملامهم وأقوالهم وهو افتعل ، من المثلة اه . (٢) هو الأخطل ، كما فى اللسان مادّة « سيس » .

(٣) فى الأصل : « زينا » ؛ وهو تحريف يختل به الوزن والمعنى ؛ والتصويب عن اللسان .

(٤) كذا فى الأصل ، والذى سبق فى الخطبة : «يرجون» .

(٥) فى الأصل : « الشجاعة » ؛ وهو تحريف .

(٦) عبارة الأصــل : « وقولها : فرفع حاشيتيه ، وجمع قطريه » وفيه تقديم وتأخير ، والصواب العكس ، ليوافق ما مر فى الخطبة ، ونصها فى اللسان مادّة « قطر » « قد جمع حاشيتيه ، وضم قطريه » وقال فى تفسير ذلك ، جمع جانبيه عن الانتشار والتبدد والتفرق .

للأمر وتأهّبَ له . والقُطْرُ : الناحيــةُ . والطبُّ : الدواء . والأَوَدُ : العوَجُ . والثِّقافُ : تقويمُ الرماح وغيرِها . وابْذَعَرَّ : تَفرّق . وانتاش الدِّينَ، أى أزال عنه ما يُخاف عليــه . ونَعَشَه : رَفَعَه . وأراح الحقَّ على أهــله ، أى أعاد الزكاةَ التى مَنعتها العرب فقاتلَ عليها حتى رُدّت الى حكم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم . وقَرّرَ الرءوسَ على كواهلها، معناه وقَى المسلمين القتلَ. والكاهلُ: أعلى الظهر وما يتصل به. وحَقَنَ الدماءَ فى أُهُبِها ، معناه أنه حقن دماءَ المسلمين فى أجسادهم . والأُهُب : جمعُ إهاب ، وأصــلُ الإهاب الجلد ، فكَنتْ به عن الجسد . وقولها : لله دَرّ أمٍّ حَفَلت له ، أى جمعت له اللبن . وقولها : أَوحدتْ به، معنــاه جاءت به منفردا لا نظير له . وقولهــا : ففَنّخَ الكفرةَ، معناه أذلّها . وديَّخَها : صَــغَّرها[1] . وبَعَجَ الأرضَ وبَخَعها، معناه شقّها واستقصى ثلّتَها[2] . وشَذَرَ مَذَر، معناه تفريقا، يقال : شَذَرَ مَذَر، وشَغَرَ بَغَر، بمعنى واحد . وقولهــا : حتى قاءت أُكُلَها، معناه أخرجت خبزَها . وتَرَأّمَه : تعطف عليه . وتَصدَّى له : تعرَّضَ له .

ومن كلام على بن أبى طالب رضى الله عنه ما كَتَب به إلى معــاويةَ بنِ أبى سُــفيانَ جوابا عن كتابه — وهو من محاسن الكتب — كتب رضى الله عنه :

أما بعد، فقد أتانى كتابك تذكُرُ فيه آصطفاءَ الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم لدينه، وتأييدَه إيّاه بمن أيّده به من أصحابه، فلقد خَبَأَ[3] لنا الدهرُ منــك عَجَبا ،

(١) كذا فى الأصل؛ ولم نقف فيا لدينا من كتب اللغة على تعدية هذا الفعل بالباء .

(٢) فى الأصل : « عليها » وهو تحريف ؛ وذكر فى اللسان مادّة « بخع » فى تفسير هذه الكلمة أن المعنى قهر أهلها وأذلهم واستخرج ما فيها من الكنوز وأموال الملوك .

(٣) فى الأصل : «جاء» ؛ وهو تحريف لا تستقيم به العبارة ، والصواب ما أثبتنا كما فى صبح الأعشى ج ١ ص ٢٢٩ وغيره .

أفطَفِقت تُخبرنا بآلاء الله عندنا؟ فكنتَ فى ذلك كناقلِ التمر الى هَجَرَ، أو داعى مِدْرَه الى النِّضال؛ وزعمتَ أنّ أفضـلَ الناس فى الإسلام فلانٌ وفلان، فذكَرتَ أمرا إن تمّ آعتزلك كُلُّه، وإن نَقص[1] لم يَلحَقْك قُلُّه؛ وما أنت والفاضـلَ والمفضول، والسائلَ والمسئول؟ وما الطُّلَقاءُ وأبناءُ الطُّلقاءِ والتمييزَ[2] بين المهاجرين الأوّلين، وترتيبَ درجاتِهم، وتعريفَ طبقاتهم؟ هيهاتَ لقــد «حَنّ[3] قِدْحٌ ليس منها»، وطفِق يَحكُمُ فيها من عليه الحُكمُ لها، ألا تَرْبَع على ظَلْعِك، وتَعرِف قُصورَ ذَرْعِك، وتتأخّر حيث أخّرك القدر، فما عليك غَلَبةُ المغلوب، ولا لك ظَفَرُ الظافر، وإنك لذَهّابٌ فى التِّيه، رَوّاغٌ عن الفضل[4]، ألا ترى — غيرَ مُخْبِرٍ لك، ولكن بنعمة الله أُحدِّث — أن قوما استُشهِدوا فى سبيل الله مِن المهاجرين — ولِكلٍّ فضل — حتى إذا استُشهِد شَهيدُنا (هو حمزة) قيل: سيّد الشهداء، وخصّه رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبعين تكبيرةً عند صلاته عليه؛ ألا ترى أن قوما قُطِّعتْ أيديهم فى سبيل الله — ولِكلٍّ فضل — حتى إذا فُعِل بأحدنا ما فُعِل بواحدهم قيــل: الطيّار فى الجنة، وذو الجناحين (هو جعفر) ولولا [ما][5] نهى الله عنه مِن تزكيةِ المرء نفسَه لذَكَر ذاكرٌ فضائلَ جمّة تعرفها قلوب المؤمنــين، ولا تمجّها آذانُ السامعين، فدع عنــك مَن مالت به الدّنيةُ[6] فإنا

(١) فى الأصل: «يفض»؛ وهو تصحيف.

(٢) فى الأصل: «والتيميين»؛ وهو تحريف لا تستقيم به المعنى.

(٣) هذا مثل يضرب لمن يفتخر بقبيلة ليس منها، أو يتمدح بما ليس فيه؛ والأصل فى ذلك أن الواحد من قداح الميسر اذا كان من غير جوهر أخواته وأجاله المفيض خرج له صوت يخالف أصواتها.

(٤) كذا فى الأصل، والذى فى نهج البلاغة ج ٢ ص ١٩ طبع بيروت: «القصد»؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين. (٥) هذه الكلمة ساقطة من الأصل؛ والسياق يقتضيها.

(٦) فى نهج البلاغة ج ٢ ص ١٩ طبع بيروت: "الرمية"؛ والرمية الصيد ترميه فتقصده، والمراد بها الدنيا؛ وقال شارح نهج البلاغة فى تفسير قوله «مالت به» ما نصــه: «ومالت به: خالفت قصده فاتبعها»، مثل يضرب لمن اعوج غرضه فال عن الاستقامة لطلبه.

صنائعُ ربنا، والناسُ بعدُ صنائعُ لنا، لم يمنعنا قديمُ عزِّنا، وعاديُّ[1] طَوْلنا على قومك أن خلطناهم بأنفسنا، فنكحنا وأنكحنا فعلَ الأكْفاء ولستم هناك، وأنَّى يكون ذلك كذلك؟ ومنَّا النبيُّ ومنكم المكذِّب[2]، ومنَّا أسدُ الله[2]، ومنكم أسدُ الأحلاف[2]، ومنا سيدا شباب أهل الجنة[2]، ومنكم صِبْيةُ النار[2]، ومنا خيرُ نساء العالمين[2]، ومنكم حمَّالةُ الحطب[2]؛ فإسلامُنا قد سُمِع، وجاهليَّتُنا لا تُدْفَع، كتابُ الله يجمع لنا ما شذَّ عنَّا و[هو][3] قوله سبحانه: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فنحن مرّةً أَوْلَى بالقرابة، وتارة أَوْلَى بالطاعة؛ ولما احتجّ المهاجرون على الأنصار يوم السَّقيفة برسول الله صلى الله عليه وسلم فَلَجُوا عليهم، فإن يكن الفَلَجُ به فالحقُّ لنا دونكم، وإن يكن بغيره فالأنصار على دعواهم؛ وزعمتَ أنِّي لكلِّ الخلفاء حسَدتُ، وعلى كلِّهم بَغَيتُ، فإن يكن ذلك كذلك فليست الجنايةُ عليك، فتكون المَعذرةُ إليك.

"وتلك شَكاةٌ ظاهِرٌ[4] عنك عارُها"

---

(١) العاديّ: القديم.

(٢) المكذب: أبو جهل. وأسد الله: حمزة بن عبد المطلب. وأسد الأحلاف: أبو سفيان ابن حرب، لأنه حزب الأحزاب وحالفهم على قتال النبي صلى الله عليه وسلم فى غزوة الخندق. وسيدا شباب أهل الجنة: هما الحسن والحسين ولدا على كرم الله وجهه. وصبية النار هم أولاد مروان بن الحكم. وخير نساء العالمين: فاطمة. وحمالة الحطب: أم جميل بنت حرب عمة معاوية، وزوجة أبي لهب.

(٣) هذه الكلمة ساقطة من الأصل. وقد نقلناها عن صبح الأعشى ج ١ ص ٢٣٠.

(٤) يقال: ظهر عنه العار، إذا لم يعلق به ونبا عنه. وقوله: وتلك شكاة الخ عجز بيت لأبي ذؤيب الهذلي؛ وصدره: * وعيرها الواشون أنى أحبها * انظر اللسان مادة «ظهر».

وقلتَ: إنى كنت أُقادُ كما يقاد الجمَل المخشُوشُ[1] حتى أبايِـعَ، ولعمر الله [لقد][2] أردتَ أن تذُمّ فحمِدتَ، وأن تفضَح فافتضحت، وما على المسلم من غضاضةٍ فى ان يكون مظلوما مالم يكن شاكًّا فى دينه، ولا مرتابا فى يقينه، وهذه حُجّتى إلى غيرك قَصْدُها، ولكنى أطلقتُ لك منها بقدر ما سنح من ذِكْرِها ؛

ثم ذكرتَ ما كان من أمرى وأمر عثمانَ، [فلك][3] أن تجاب عن هــذه لِرَحِمِه[4] منـك، فأيُّنا كان أعْدَى له، وأهْدَى الى مَقاتله؟ أمَن بَذَل له نُصرتَه فاستقعده واستكفّه، أمّن استنصره فتراخى عنه، وبثّ المَنُونَ إليه، حتى [أتى][3] قَدَرُه عليه ؟ كلّا والله ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ وما كنتُ أعتذِر من أنّى كنتُ أنقِم عليه أحداثا، فإن كان الذنبُ إليــه إرشادى وهدايتى له "فرُبّ مَلُوم لا ذنبَ له "

* وقد يستفيد الظِّنّةَ[5] المتنصِّحُ *

وما أردتُ إلا الإصلاحَ ما آستطعتُ "وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ"، وذكرتَ أنه ليس لى ولأصحـابى إلا السيف، فلقــد أضحكتَ بعْــد استعبار، متى ألْفَيتَ بنى عبد المطّلب عن الأعداء ناكِلين، وبالسيوف مخوَّفين؟ "لَبِّثْ[6] قليلا يَلحق الهَيجا

(١) المخشوش : الذى أدخل فى أنفه الخشاش بكسر الخاء، وهو ما يدخل فى عظم أنف البعير من خشب .

(٢) الزيادة عن صبح الأعشى ج ١ ص ٢٣٠ .

(٣) هذه الكلمة ساقطة من الأصل . وقد نقلناها عن نهج البلاغة ج ٢ ص ٢١ طبع بيروت ؛ إذ لا يستقيم الكلام بدونها .

(٤) هذه اللام ساقطة من الأصل؛ والسياق يقتضيها .

(٥) الظنة : التهمة . وصدر هذا البيت : * وكم سقت فى آثاركم من نصيحة *

(٦) لبث بتشديد الباء، من اللبث، وهو المكث . وحمل بفتح الحاء والميم هو ابن بدر، وهذا مثل يضرب للتهديد بالحرب، ورواية اللسان مادة حمل : « ضح قليلا يدرك » الخ .

حَمَلْ" فسيطلُبك من تَطلُب، ويقرُب منك ما تَستبعِد، وأنا مُرْقِلٌ نحوَك فى جَحفَل من المهاجرين والأنصار، والتابعين لهم بإحسان، شديدٍ زحامُهم، ساطع قَتامُهم، متسربلين سَرابيلَ الموت، أحبُّ اللقاء إليهم لقاءُ ربِّهم، قد صَحِبتْهم ذرِّيّةٌ بَدْرِيّة، وسيوفٌ هاشميّة، قد عرفت مَواقعَ نِصالِها فى أخيك وخالِك وجدِّك[1] وأهلِك "وَمَا هِىَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ" .

ومن كلام الأحنف بن قيس حين وَبَّخه معاويةُ بنُ أبى سفيانَ بتخذيله عائشــةَ رضى الله عنهـا، وأنه شَهِد صِــفِّين، وقال له : فَعلتَ وفَعلتَ؛ فقال : ياأمير المؤمنين، لِمَ تَرُدُّ الأمورَ على أعقابها؟ أما والله إنّ القلوبَ التى أَبغضناك بها لَبين جوانحنا، والسيوفَ التى قاتلناك بها لَعلَى عواتقنا، ولئن مَددتَ بشِبرٍ من غَدرٍ، لَنَمُدَّنّ باعا من خَتْرٍ[2]، ولئن شئتَ لتَستصفِيَنّ كَدَرَ قلوبنا بصفوِ حِلمك؛ قال معاوية : أَفعلُ .

وجلس معاويةُ يوما وعنــده وجوهُ الناس، وفيهم الأحنف، فدخل رجلٌ من أهل الشام، فقام خطيبا، فكان آخرَ كلامه أن لَعَن عليّاً رضى الله عنــه، فأَطرق الناس، وتكلّم الأحنفُ فقال : يا أمير المؤمنين، إن هذا القائل آنفًا ما قال لو عَلِم أن رضاك فى لعن المرسلين لَلَعَنهم، فاتّقِ الله، ودَع عليّا فقد لقِيَ الله، وأُفرِد فى حُفرته، وخلا بعمله، وكان والله — ما عَلِمنا — المبرِّزَ بسَبقه، الطاهرَ فى خُلقه، الميمونَ النَّقيبة، العظيمَ المصيبة. قال معاويةُ : يا أحنفُ، لقد أَغضَيتَ العينَ على القَذى، وقلتَ بغير ما تَرى، وآيم الله لتَصْعَدَنّ المنبر فلتَلْعَنَنّه طائعا أو كارها؛ فقال الأحنف : إن تُعفِنى فهو خير، وإن تُجبِرْنى على ذلك فوالله لا تجرى به شفتاى؛ فقال معاويةُ : قم فاصــعَد؛ قال : أما والله لأُنصفنّك فى القول والفعل؛ قال معاويةُ : وما أنت

(١) أخوه : حنظلة . وخاله : الوليد بن عتبة . وجدّه : عتبة بن ربيعة .

(٢) الختر : أقبح الغدر .

قائلٌ إن أنصفتَنى؟ قال : أَصْعدُ فأَحمَدُ الله وأُثْنى عليه وأصلّى على نبيّه، ثم أقول : أيها الناس، إنّ معاوية أمرنى أن ألعن عليًّا، ألا وإنّ عليًّا ومعاويةَ اختلفا واقتتلا، وادّعَى كلُّ واحد منهما أنه مبغِىٌّ عليـه وعلى فئته ، فإذا دعوتُ فأمّنوا رحمكم الله؛ ثم أقول : اللهم العن أنت وملائكتُك وأنبياؤك ورسلُك وجميعُ خلقك الباغىَ منهما على صاحبه، والفئةَ الباغيـةَ على المبغِىِّ عليها، آمينَ ياربَّ العالمين؛ فقال معاويةُ : إذَنْ نُعْفيك يا أبا بحر .

وأتى الأحنفُ مُصْعَبَ بنَ الزبير يكلّمه فى قومٍ حبسهم فقال : أصلح الله الأميرَ، إن كانوا حبِسوا فى باطلٍ فالحقُّ يُخرِجهم، وإن كانوا حُبسوا فى حقٍّ فالعفوُ يسَعُهم؛ فخلّاهم .

ولمـا قَدِم وفدُ العراق على معاويةَ وفيهـم الأحنفُ، خرج الآذنُ فقال : إنّ أمير المؤمنين يعزم عليكم ألّا يتكلّم أحدٌ إلّا لنفسه، فلما وَصَلوا اليه قال الأحنف : لولا عَزْمةُ أمير المؤمنين لأَخبرتُه(١) أن دافّةً (أى الجماعةُ) دَفَّتْ(٢)، ونازلةً نَزَلتْ ، ونائبةً نابت، وكلُّهم بهم الحاجةُ إلى معروف أمير المؤمنين وبِرِّه؛ فقال: حسبُك ياأبا بحر ، فقد كَفَيتَ الغائبَ والشاهدَ .

ولمـا خطب زِيادُ بنُ أَبِيه بالبَصْرة قام الأحنف فقال :

لله الأمير! قد قلتَ فأَسمعتَ، ووَعَظتَ(٣) فأَبْلغتَ؛ أيها الأمير، إنمـا السّيفُ بحَدِّه، والقوسُ بشدّه، والرجلُ بجِده؛ وإنمـا الثناءُ بعد البلاء، والحمدُ بعد العطاء؛ ولن نُثْنِيَ حتى نَبتلِي، ولا نَحمَد حتّى نُعطَى .

(١) فى الأصل : «لأجزته» بالجيم والزاى المعجمتين؛ وهو تحريف .
(٢) دفت : أتت .
(٣) فى الأصل : «ودغطت»؛ وهو تصحيف .

ولمّا حُكِّم أبو موسى الأشعرىّ أتاه الأحنف فقال له : يا أبا موسى، إنّ هذا مَسيرٌ له ما بعده من عزّ الدنيا أو ذلّها آخرَ الدهر، أُدعُ القوم إلى طاعة علىّ، فإن أبَوْا فادعُهم أن يختار أهلُ الشام من قريش العراقِ مَن أحبّوا، ويختارَ أهلُ العراقِ من قريش الشام من أحبّوا، وإياك إذا لقيتَ ابنَ العاص أن تصافحه بنيّة، وأن يُقْعِدك على صدر المجلس، فإنها خَديعةٌ، وأن يضُمّك وإيّاه بيتٌ فيكمن لك فيه الرجال، ودعه فليتكلّم لتكون عليه بالخيار، فالبادئُ مُستغلَقٌ[(١)]، والمجيبُ ناطقٌ؛ فما عَمِل أبو موسى إلّا بخلاف ما قال الأحنفُ وأشارَ به، فكان من الأمر ما كان؛ فلقيَه الأحنف بعد ذلك فقال له : أَدْخَلَ والله قدميك فى خُفٍّ واحدةٍ.

وقال بخراسان : يا بنى تميم، تحابّوا [تجتمعْ[(٢)] كلمتُكم] وتَباذَلوا[(٣)] تعتدلْ أمورُكم، وابدءوا بجهادِ بطونِكم وفروجِكم يصلُحْ دينُكم، ولا تَغُلّوا[(٤)] يَسلَمْ لكم جهادُكم.

ولمّا قدمت الوفود على عمر بنِ الخطّاب رضى الله عنه، قام هِلال بنُ بِشر[(٥)] فقال : يا أميرَ المؤمنين : إنا غُرّةُ مَنْ خَلْفَنا من قومنا، وسادةُ مَنْ وراءنا من أهل مصرِنا، وإنك إن تَصرِفنا بالزيادة فى أعطياتنا، والفرائضِ لعيالاتنا، يَزْدَدْ بذلك

---

(١) أراد بالمستغلق هنا : الذى ليس له الخيار فى رد ما قال، وهو استعارة من قولهم : استغلقنى فى بيعه، اذا لم يجعل لى خيارا فى رده.

(٢) هذه التكملة ساقطة من الأصل؛ وقد أثبتناها عن البيان والتبيين ج ١ قسم ٢ من النسخة المأخوذة بالتصوير الشمسى المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٣٧٠.

(٣) كذا فى البيان والتبيين فى النسخة السالفة الذكر، والذى فى الأصل : «وتنازلوا»؛ وهو تصحيف إذ لم نجد من معانيه ما يلائم السياق.

(٤) غل غلولا من باب قعد : خان فى المغنم.

(٥) كذا فى الأصل؛ والذى فى البيان والتبيين ج ٢ ص ١١٣ طبع الرحمانية : «ابن وكيع».

الشريفُ تأميلا، وتكن لهم أبا وَصُولا[1]؛ وإن تكن مع ما نُمتَّ[2] [به][3] من وسائلك، ونُدلى [به][3] من أسبابك كالجدل لا يَحُلّ ولا يَرتحِل[4]، نَرجعْ بأُنوفٍ مصلُومة[5]، وجُدودٍ عاثِرة، فمْحنا[6] وأهالينا بسَجْلٍ مُتْرَعٍ (أى الدَّلوُ الملآنة) من سِجالك المترَعة.

وقام زيد بنُ جَبَلَةَ فقال: يا أمير المؤمنين، سَوِّد الشريفَ، وأكرِم الحسيبَ، وازرع عندنا من أياديك ما تسـدّ به الخَصاصة، وتطرد به الفاقة؛ فإنا بِقُفٍّ[7] من الأرض يابِسِ الأكناف[8]، مقشعرِّ الذِّروَة، لا مُتجَرَ[9] ولا زرع؛ وإنا من العرب اليوم إذ أتيناك بِمَرْأًى ومَسْمَع.

فقام الأحنف فقال: يا أمير المؤمنين، إن مفاتيح الخير بيـد الله، والحِرص قائدُ الحِرْمان، فاتّق الله فيما لا يغنى عنك يوم القيامة قيلًا ولا قالا، واجعـل بينك وبين رعيّتك من العـدل والإنصاف شيئًا يكفيك وِفادةَ الوُفود، واستماحةَ المُمتاح، فإنّ كلَّ امرئ إنمـا يَجمع فى وِعائه إلا الأقلَّ ممن عسى أن تقتحِمَه الأعينُ فلا يُوفَد إليـك.

---

(١) فى البيان والتبيين: «وتكن لذوى الأحساب».

(٢) فى الأصل: «تمن»؛ وهو تحريف، والتصويب عن البيان والتبيين.

(٣) هذه الكلمة ساقطة من الأصل، واللغة تقتضى إثباتها؛ وانظر البيان والتبيين ج ٢ ص ١١٣ طبع الرحمانية.

(٤) كذا فى الأصـل؛ والذى فى البيان والتبيين: كالجد الذى لا يحـل» الخ وكلتا الروايتين غير واضحة المعنى، ولم نقف عليه فيما لدينا من المظان.

(٥) المصلومة: المقطوعة من أصلها.

(٦) فى الأصـل: «فرحنا»؛ وهو تحريف إذ لم نر من معانيه ما يناسب المقام، والتصويب عن البيان والتبيين؛ «ومحنا» من الميح، وهو الإعطاء.

(٧) فى الأصل: «نقف» بالنون؛ وهو تحريف، والقف: ما ارتفع من الأرض كالقفة.

(٨) فى الأصل: «نافس» وهو تحريف.

(٩) كذا فى الأصل؛ والذى فى البيان والتبيين: «شجر» والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين.

ومن كلام أمّ الخير بنت الحَرِيش البارقيّة، — وكانت من الفصحاء —

حُكِى أنها لما وَفَدت على معاوية قال لها كيف كان كلامُك يوم قُتِل عمّار بنُ ياسر؟ قالت: لم أكن والله زَوَّرتُه[1] قبلُ ولا رَوَيتُه بعد، وإنما كانت كلماتٌ نفثهن لسانى حين الصدمة، فإن شئتَ أن أُحْدث لك مقالا غيرَ ذلك فعلتُ، قال: لا أشاء ذلك، ثم ٱلتفت إلى أصحابه فقال: أيّكم حَفظ كلامَ أمّ الخير؟ فقال رجل من القوم: أنا أحفظه يا أمير المؤمنين كحفظى سورةَ الحمد، قال: هاته، قال: نعم، كأنّى بها يا أمير المؤمنين عليها بُردٌ زَبِيدىّ، كَثيفُ الحاشية، وهى على جَمَل أَرْمَك[2]، وقد أحيطَ حَولها وبيدها سوطٌ منتشرُ الضَّفر[3]، وهى كالفحل يَهْدر فى شِقْشِقَته تقول: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ إن الله قد أَوضح الحقّ، وأبان الدليل، ونَوّر السبيل، ورَفع العَلَم، فلم يدَعْكم فى عَمْياءَ مبهَمة، ولا سوداءَ مدلهِمّة؛ فأنّى[4] تريدون رحمكم الله؟ أفرارا عن أمير المؤمنين، أم فرارا من الزَّحف، أم رغبةً عن الإسلام، أم ٱرتدادا عن الحق؟ أما سمعتم الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ ثم رفعت رأسها إلى السماء وهى تقول: اللهمّ قد عِيلَ الصبر، وضَعُف اليقين، وٱنتشَرت الرغبة، وبيدك يارب أزِمّةُ القلوب، فٱجمع الكلمةَ على التقوى، وألِّف القلوبَ على الهدى، ورُدّ الحقّ إلى أهله؛ هلُمّوا رحمكم الله إلى الإمام العادل،

(١) كذا فى صبح الأعشى ج ١ ص ٢٤٩؛ وزوّرته: ثقفته وهذبته، وهو من قولهم: زوّر الحديث، اذا أزال زوره، أى عوجه. وفى الأصل: «رويته»؛ وما أثبتناه هو المناسب للسياق.

(٢) الأرمك: من الرمكة، وهى لون التراب.

(٣) الضفر: الفتل، والمراد به هنا اسم المفعول.

(٤) فى صبح الأعشى ج ١ ص ٢٥٠: «فإلى أين».

والوصىّ الوفىّ، والصّدّيق الأكبر؛ إنهـا إحَنٌ بَدْرِيّة، وأحقادٌ جاهليــة، وضغائنُ أُحُديّه، وثَبَ بها معاويةُ حين الغَفلة ليُدرِك بها ثارات بنى عبد شمس؛ ثم قالت : (٩١) قاتِلوا أئمّةَ الكُفر إنهم لا أيمانَ لهم لعلهم ينتهون ؛ صبرا معشرَ المهاجرين والأنصار، قاتِلوا على بصيرة من ربّكم، وثَباتٍ من دِينكم، وكأنّى بكم غدا قد لقيتم أهــلَ الشام كحُمُرٍ مستنفِرة، فرّت من قَسْوَرة، لا تدرِى أين يُسْلك بها من فِجاج الأرض، باعوا الآخرةَ بالدنيـا، واشترَوا الضَّلالةَ بالهــدى، و باعوا البصيرةَ بالعمى، و"عَمّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ"، حين تَحُلّ بهم الندامة، فيَطلُبون الإقالة، إنه والله مَن ضَلّ عن الحقّ وقع فى الباطل، ومن لم يَسكُن الجنّــة نزل النار؛ أيهـا الناس، إنّ الأكياس استقصَروا عمرالدنيا فرفضوها، واستبطئوا(١) مدّةَ الآخرة فسعَوْا لها؛ والله أيها الناس، لولا أن تَبطُل الحقوقُ، وتعطَّل الحدودُ، ويَظهرَ الظالمون، وتَقوى كلمةُ الشيطان، لمـا(٢) اخترنا وُرودَ المنايا على خَفض العيش وطِيبه، فإلى أين تريدون ــ رحمكم الله ــ ؟ عن ابن عمّ رسول الله صلى الله عليــه وسلم، و زوج ابنته، وأبِى ابنيه، خلق من طينته، وتفرّع عن نَبْعته، وخصّه بِسِرّه، وجعلَه بابَ مدينته، وأعلَمَ بحبّه المسلمين، وأبانَ ببغضه المنافقين؛ فلم يزَل كذلك يؤيّده الله بمَعُونتــه، ويَمضِى على سَنَن استقامته، لا يعرِّج لراحة اللذّات؛ وهو مفلِّقُ الهـامِ، ومكسِّرُ الأصنام؛ إذ صلّى والناس مشركون، وأطاع والناس مرتابون؛ فلم يزل كذلك حتى قَتَل مبارِزِى بَدْر، وأفنى أهل أُحُد، وفرّق جَمْعَ هَوازن، فيالها وقائعَ زَرعَتْ فى قلوب قومٍ نفاقا، ورِدّةً وشِــقاقا! وقد اجتهدتُ فى القول، وبالغتُ فى النصيحة، وبالله التوفيق؛ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

(١) فى العقد الفريد : «واستطابوا الآخرة»؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين .

(٢) كذا وردت هذه العبارة فى الأصل بثبوت اللام؛ والذى فى كتب القواعد أن الأكثر فى الاستعمال عدم إثباتها فى جواب لولا المنفىّ .

فقال معاوية[1] : والله يا أمّ الخير ما أردتِ بهذا إلا قتلى ، والله لو قتلتك ما حَرِجتُ في ذلك؛ قالت : والله ما يسوءنى يا آبنَ هند أن يُجرىَ الله ذلك على يدَىْ من يُسعدُنى الله بشقائه؛ قال : هيهات يا كثيرة الفُضول، ماتقولين فى عثمان بن عفّان؟ قالت : وماعسيتُ أن أقول فيه؟ استخلفه الناس[2] وهم كارهون، وقتلوه وهم راضون؛ فقال: إيهًا[3] يا أمّ الخير، هذا والله أصلُك الذى تَبنين عليه ؛ قالت: لكن الله يشهد "وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا" ما أردتُ بعثمان نقصا ، ولقد كان سبّاقا الى الخيرات، وإنه لرفيعُ الدّرجات؛ قال : فما تقولين فى طَلحةَ بنِ عُبَيد الله ؟ قالت : وما عسى أن أقول فى طَلحةَ؟ اغتِيل مِن مأمنه، وأُتِىَ من حيث لم يَحذر، وقد وعده رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنّة؛ قال : فما تقولين فى الزُّبير؟ قالت : ياهذا لا تدَعْنى كرَجيع الضَّبع يُعْرَكُ فى المِرْكَن[4]؛ قال : حقا لتقولِنّ ذلك، وقد عَزَمتُ عليك؛ قالت : وما عسيتُ أن أقول فى الزُّبير آبنِ عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحَواريّه ، وقد شَهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنّة، ولقد كان سبّاقا الى كلّ مَكْرُمةٍ فى الإسلام؛ وإنى أسألك بحق الله يامعاوية — فإن قريشا تحدّث أنك مِن أحلمها — أن تسعَنى بفضل حِلمك ، وأن تُعفيَنى من هذه المسائل ، وآمض الى ما شئتَ من غيرها ؛ قال : نَعم وكرامة، قد أعفيتُكِ، وردّها مكرّمةً الى بلدها .

---

(١) عبارة الأصل : «لأقتلك» ؛ وما أثبتناه عن صبح الأعشى ج ١ ص ٢٥١ والعقد الفريد ج ١ ص ١٦٤ طبع المطبعة العثمانية ؛ وهو الملائم لقوله بعد : «ماحرجت» .

(٢) كذا فى صبح الأعشى والعقد الفريد، وهو المناسب لسياق العبارة . وفى الأصل : «الله» .

(٣) إيها : كلمة زجر بمعنى حسبك .

(٤) المركن : شبه تور من أدم يتخذ للماء، أو شبه لقن ، أو هو الإجانة التى تغسل فيها الثياب ونحوها ؛ ولعلها تريد بهذه العبارة : لا تدعنى أدنس بالذم أهل الطهارة ، وألصق العيوب بمن لا عيب فيه ، يدل على ذلك قولها فيما سيأتى : وما عسيت أن أقول فى الزبير ابن عمة رسول الله الخ .

وممن ٱشتَهَر بالفصاحة والبلاغة زِياد بن أبيه، والحجّاجُ بنُ يوسفَ الثّقفىّ، وسنذكر نُبْذةً من كلامهمـا فى التاريخ عنـد ذكرنا لأخبارهما لمّـا وَلِىَ كلٌّ منهما العراقَ، وما خطب النـاسَ به ، ولنذكُرْ فى هـذا الموضع من كلام الحجّـاج ما لم نُوردْه هناك

٥ قيل : لمـا قَدِم الحجّـاجُ البَصرةَ خطب فقال : أيهـا الناس ، مَن أعياه داؤه، فعنـدى دواؤه، ومَن ٱسـتطال أجلَه ، فعلىّ أن أعجِّلَه ، ومَن ثَقُل عليه رأسُــه وَضعتُ عنه ثِقْلَه ؛ ومَن اسـتطال ماضىَ عمره قصّرتُ عليـه باقيَه ؛ إن للشّـيطان طَيفا ، وللسّـلطانِ سيفا ؛ فمَن سَقُمت سَريرتُه ، صحّت عقوبتُه ؛ ومَن وضعه ذَنْبُه ، رفعَه صَلْبُه، ومن لم تسـعْه العافية، لم تضق عنـه الهَلَكة ؛ ١٠ ومن سـبقته بادرةُ فمِه ، سبق بدنه بسـفك دمِه ؛ إنى أُنْذِر ثم [لا] أُنْظِر ، وأحذِّر ثم لا أعذِر ، وأتَوعّد ثم لا أعفو ، إنمـا أَفسَدكم ترنيقُ(١) وُلاتكم، ومن ٱسترخَى لَبَبُــه(٢) ساء أدبُه، إنّ الحزمَ والعزمَ سلبانى سَوطى، وأبدَلانى [به] سيفى،فقائمُه فى يدى، ونِجَادُه فى عنقى، وذُبابُه قلادةٌ لمن عصانى، والله لا آمر أحدَكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد فيخرج من الباب الذى يليه إلا ضربت عنقه .

١٥ قال مالك بنُ دِينار : ربّمـا سمعتُ الحجّاج يذكر ما صنع فيــه أهلُ العـراق وما صَنع بهم، فيقع فى نفسى أنهم يظلمونه لبيانه وحُسنِ تخليصه للحجج .

---

(١) الترنيق : الضعف فى الأمر .

(٢) اللبب : ما يشد على صدر الدابة أو الناقة ، يكون للرحل والسرج يمنعهما من الاستئخار ، يريد أن الهوادة واللين إفساد لأدب الرعية .

وخطب الحجّاج بعد وقعة دير الجماجم(١) فقال : يا أهل العراق ، إنّ الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والأطراف والأعضاء(٢) والشغاف(٣)، ثم أفضى الى المخاخ والأصماخ(٤)، ثم آرتفع فعشّش ، ثم باض ففرّخ ، فحشاكم نفاقا وشقاقا ، وأشعركم خلافا ، وآتخذتموه دليلا تتّبعونه ، وقائدا تطيعونه ، ومؤامرا(٥) تستشيرونه ؛ فكيف تنفعكم تجربة ، أو تعظكم وقعة ، أو يحجزكم إسلام ، أو ينفعكم بيان ؟ ألستم أصحابي بالأهواز ؟ حيث رمتم المكر(٦)، وسعيتم بالغدر ، واستجمعتم للكفر(٧)، وظننتم أنّ الله يخذل دينه وخلافته ، وأنا أرميكم بطرفي ، تتسلّلون لواذا ، وتنهزمون سراعا ، ثم يوم الزاوية [وما يوم الزاوية](٩) ! بها كان فشلكم وتنازعكم وتخاذلكم(١٠) وبراءة الله منكم ، ونكوص وليكم(١١) عنكم إذ ولّيتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها

(١) دير الجماجم بظاهر الكوفة على سبعة فراسخ منها ؛ على طرف البر السالك الى البصرة ، وسمى دير الجماجم لأنه كانت تصنع فيه الجماجم ، وهي الأقداح من الخشب ، وبهذا الموضع كانت الوقعة بين الحجاج بن يوسف الثقفي وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، وانهزم فيها ابن الأشعث .

(٢) في العقد الفريد ج ٢ ص ١٨٥ طبع بولاق : « والأعضاد » والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين . (٣) الشغاف : حجاب القلب أو حبته أو سويداؤه .

(٤) كذا ورد هذا الجمع في الأصل وغيره من المصادر التي بين أيدينا لهذه الخطبة ؛ ولم نقف فيما لدينا من كتب اللغة والقواعد على ما يفيد أن صماخ يجمع على هذه الصيغة ؛ ولعله : «والأصاخم» بتقديم الألف على الميم ؛ أو لعله جمع لصمخ بضم الصاد والميم ، وهو جمع صماخ .

(٥) المؤامر : من قولهم : آمره مؤامرة اذا شاوره .

(٦) في الأصل : « بالمكر » والباء زيادة من الناسخ .

(٧) كذا في العقد الفريد ج ٢ ص ١٨٥ طبع بولاق ؛ وعبارة الأصل : « واستجمعتم الكفر » بسقوط اللام ؛ واستجمعتم ، أي اجتمعتم . (٨) في الأصل : «عدل» ؛ وهو تحريف .

(٩) هذه التكملة ساقطة من الأصل ، وقد نقلناها عن العقد الفريد ؛ والزاوية : موضع قرب البصرة فيه كانت الواقعة المشهورة بين الحجاج وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث . (١٠) في الأصل : « تهادون » ؛ وهو تحريف . (١١) يريد الشيطان . إشارة الى قوله تعالى في سورة الأنفال : « وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم » الى قوله : «فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه» الآية .

[النوازع إلى أعطانها](١)؛ لا يَسأل المرءُ عن أخيه ، ولا يَلوى الشيخ على بَنيه ؛ حتى عَظَّكم(٢) السلاح ، وقصَمَتكم الرماح ، ثم دَيرُ الجماجم ، وما دَيرُ الجماجم ! بها كانت المَعاركُ والمَلاحم ؛ بضربٍ يُزيل الهامَ عن مَقيلِه ، ويَصرِف الخليلَ عن خليله ؛ يا أهلَ العراق ، والكَفَرات بعد الفَجرات ، والغَدَرات بَعد الخَتَرات ، والثَّورة بَعد الثَّورات ؛ إن بعثتُكم إلى ثُغوركم غَلَلتم(٣) وجُبنتم ، وإن أَمِنتم أَرجَفتم ، و إن خِفتم نافقتم ؛ لا تَذكُرون حسنةً ، ولا تشكُرون نعمةً ؛ [يا أهل العراق](١) هل آستخفّكم ناكثٌ ، أو آستغواكم غاوٍ ، أو آستفزّكم عاصٍ ، أو استنصركم ظالمٌ ، أو آستعضدكم خالعٌ ، إلا اتّبعتموه وآويتموه ونصرتموه وزكّيتموه ؟ يا أهل العراق ، قلّما شَغَب شاغب ، أو نَعَب ناعب ، أو زَفَر(٤) كاذب إلا كنتم أتباعَه وأنصاره ؛ يا أهل العراق ، أَلَم تَنهَكم المواعظ ، ولم تزجُركم الوقائع . ثم آلتفت الى أهل الشام فقال : يا أهل الشام ، أنا لكم كالظَّليم(٥) الرامح عن فراخه(٦) ، يَنفِى عنها المدر ، ويباعِدُ عنها الحَجَر ، ويُكِنُّها من المطر ، ويحميها من الضِّباب ، ويحرُسها من الذئاب ؛ يا أهل الشام ، أنتم الجُنَّة والرِّداء ، وأنتم العُدّةُ والحِذاء .

ومن مكاتباته الى المهلّب بن أبى صُفْرةَ وأجوبة المهلّب له

كتب الحجاج إليه وهو فى وجه الخوارج : أما بعد ، فإنه بلغنى أنك قد أقبلتَ على جباية الخَراج ، وتَركتَ قتال العدوّ ، وإنى وَلّيتك وأنا أرى مكانَ عبد الله

(١) هذه العبارة ساقطة من الأصل ، وقد أثبتناها عن العقد الفريد .
(٢) يقال : عظته الحرب كعضته وزنا ومعنى .
(٣) غللتم : من الغلول ، وهو الخيانة فى الغنيمة .
(٤) فى البيان والتبيين ج ٢ ص ١١٥ طبع الرحمانية : «زافر» ؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين .
(٥) الظليم : ذكر النعام ؛ والرامح : الضارب برجله .
(٦) فى الأصل : «عن مراحه» ؛ وهو تحريف .

ابن حكيم المُجاشعيّ، وعَبّادِ بن حُصَين الحَبَطيّ، وآخترتك وأنت رجل من الأَزْد، وأنا أُقسم إن لم تلقَهـم فى يوم كذا أَشرعتُ[1] إليـك صـدرَ الرمح . فأجابه المهلّب : ورد علىّ كتابُك تزعُم أنى أقبلت على جباية الخَراج ، وتركتُ قتال العـدو لعجز؛ وزعمتَ أنك ولّيتنى وأنت ترَى مكانَ عبـد الله بن حكيم وعَبّادِ بنِ حُصَين ، ولو ولّيتهما لكانا مسـتحقّين لذلك فى فضلهما وغَنائهما؛ وأنك آخترتنى وأنا رجل من الأَزْد، ولَعمرى إنّ شرّا من الأزْد لَقبيلةٌ تنازَعُها ثلاثُ قبائلَ لم تَستقِرّ فى واحدة منهنّ؛ و زعمتَ أنّى إن لم أَلقَهـم فى يوم كذا أشرَعتَ إلىّ صدرَ الرمح، فلو فعلتَ لقَلبتُ إليك ظَهرَ المِجَنّ[2] .

وَوجّه إليه الحجّـاجُ يستبطئه فى مناجَزة القوم ، وكَتب إليه : أما بعد، فإنك جَبَيت الخَراج بالعِلل ، وتحصّنتَ بالخَنـادق ، وطاولتَ القوم وأنت أعزّ ناصرا وأكثرُ عددا ، وما أظنّ بك مع هـذا معصيةً ولا جبنا، ولكنك آتخذتهم أُكُلا ، ولَإبقاؤهم أيسرُ عليك من قتالهم، فناجِزْهم وإلّا أنكرتنى، والسلام .

فقال المهلّب للجرّاح : يا أبا عُقْبة، والله ما تركتُ حيلةً إلّا آحتلتُها، ولا مَكيدةً إلّا عَمِلتُهـا ، وليس العَجَبُ[3] من إبطاء النصر ، وتَراخِى الظَّفَر ، ولكن العَجَب أن يكون الرأىُ لمن يَملِكه دون من يبصره[4]؛ ثم ناهَضَهم ثلاثةَ أيّام يغاديهم ، ولا يزالون كذلك الى العصر حتى قال الجرّاح : قد آعتَذرتَ؛ وكَتَب الى الحجّاج : أتانى كتابك

(١) عبارة الأصـل : « و إلا انتزعت » ؛ وفيها زيادة من الناسخ وتحريف لا يستقيم بها المعنى ؛ وما يأتى فى جواب المهلب يعين ما أثبتنا .

(٢) يقال : قلبت له ظهر المجن اذا تغيرت عليه وحلت عن العهد؛ والمجنّ : الترس .

(٣) فى الأصل : « ولا العجب » ، والقواعد تقتضى ما أثبتنا ، فان « لا » النافية اذا دخلت على المعرفة وجب تكرارها ، ولم تتكرر هنا .

(٤) فى الأصل : «ينصره» بنون وصاد مضمومة ؛ ومعناه لا يناسب ما هنا .

يســتبطئ لقاءَ القوم، على أنك لا تظنّ بى معصيةً ولا جبنا ، وقد عاتبتنى معاتبــةَ الجبان، وأوعدتنى وعيدَ العاصى ، فسَل الجرّاحَ والســلام . فكَتب إليه الحجّاج : أما بعد، فإنك تَتراخى عن الحرب حتى تأتيك رُسلى و يرجعون بعذرك ، وذاك أنك تُمسك حتى تَبرَأ الجِراحُ وتُنسَى القَتْلى[1] ، ويَجِمّ الناس ، ثم تلقاهم فتَحمِل منهم مِثــل ما يَحملون منك من وَحْشة القتل وألم الجِراح ، ولو كنتَ تلقاهم بذلك الجِــدّ لكان الداء قد حُسِم ، والقِرْنُ قد قُصِم ، ولَعمرِى ما أنت والقومُ سواءٌ، لأنّ من ورائك رجالا ، وأمامك أموالا ، وليس للقوم إلّا ما معهم، ولا يُدرَك الوجِيفُ بالدَّبيبِ، ولا الظَّفَرُ[2] بالتعذير .

فكتب إليه المهلَّب : أمّا بعد، فإنى لم أُعطِ رسلَك على قول الحق أجرا، ولم أَحتجْ منهم مع المشاهَدة الى تلقين ؛ وذكرتَ أنّى أُجِمّ القوم، ولا بدّ من راحة يستــريح فيها الغالبُ ويَحتالُ المغلوبُ ؛ وذكرتَ أن فى الإجمــام[3] ما يُنسِى القَتْلى، ويُبْرِئُ الجِراحَ، وهيهات أن يُنسَى ما بيننا و بينهم، يأبى ذلك قتــلُ مَن لَم يجن ، وقُروحٌ لَم تَتقرّف[4]؛ ونحن والقــومَ على حالة ، وهم يرقُبــون حالات ، إن طَمِعوا حارَبوا، و إن مَلّوا وَقفوا، ونَطلُب اذا هَرَبوا؛ فإن تركْتَنى فالداءُ[5] بإذن الله محسوم، وإن أعجلتَنى لم أُطِعْــكَ ولم أَعصِ ، وجعلتُ وجهى الى بابك ، وأنا أعوذ بالله من سَخَط الله ومَقْتِ الناس .

---

(١) فى الأصل : «المبتلى» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يدل عليه ما يأتى فى جواب المهلب .

(٢) التعذير : التقصير فى الأمر .

(٣) فى الأصل : «فى الجماجم» وهو تحريف .

(٤) تتقرف بقاف مثناة : تتقشر؛ يريد أنها لم تبرأ ؛ وفى الاصل : «تتفرق» ؛ وهو تصحيف .

(٥) فى الأصل : «فالرأى» وهو تحريف .

وقال المهلّب لبنيه : يا بَنىّ تَباذَلوا[1] تَحابّوا، فإنّ بنى الأُمّ يختلفون، فكيف بَنِى العَلّات[2]، إنّ البِرّ يَنسأ فى الأجَل، ويزيدُ فى العَدد، وإنّ القطيعةَ تُورث القِلّة، وتعقب النارَ بعد الذّلّة؛ واتقوا زَلّةَ اللسان، فإنّ الرجل تَزِلُّ رِجلُه فينتعش، ويَزِلُّ لسانُه فيَهلِك؛ وعليكم فى الحرب بالمَكيدة، فإنّها أبلغ من النَّجْدة .

٥ ولمّا استَخلف آبنَه المغيرة على حرب الخوارج، وعاد هو الى عند[3] مُصعَب ابن الزُّبير، جَمع الناسَ فقال لهم : إنى قد استخلفت عليكم المُغيرةَ، وهو أبو صغيرِكم رِقّةً ورحمة، وابنُ كبيرِكم طاعةً وتبجيلا وبِرّا، وأخو مِثله مواساةً ومناصحة، فلتَحسُن له طاعتُكم، وليلِنْ له جانبُكم، فوالله ما أردتُ صوابا قطّ إلا سبقنى إليه .

وخطب عبد الملك بن مروان، فلما بلَغ العِظةَ قام إليه رجل من آل صُوحانَ

١٠ فقال : مهلا مهلا يا بنى مَرْوان، تأمُرون ولا تأتمرون، وتَنهَون ولا تُنهَون، وتَعِظون ولا تَتّعظون؛ أفنقتدى بسيرتكم فى أنفُسكم، أم نطيع أمرَكم بألسنتكم؟ فإن قلتم : اقتدُوا بسيرتنا، فأنّى وكَيفَ، وما الحُجّةُ، وما المَصيرُ من الله؟ أنَقتدى بسيرة الظَّلَمة الفَسَقة الجَوَرة الخَوَنة، الذين آتخذوا مالَ الله دُوَلا، وعَبيدَه خَوَلا؟ وإن قلتم : اسمعوا نصيحتنا، وأطيعوا أمرنا، فكيف يَنصَح لغيره من يَغُشّ نفسَه؟ أم كيف

١٥ تَجب الطاعةُ لمن لم تَثبُت عند الله عدالتُه ؟ وإن قلتم : خذوا الحكمة من حيث وجدتموها، وآقبَلوا العِظةَ ممّن سمعتموها ، فعلام ولّيناكم أمرَنا، وحكّمناكم فى دمائنا وأموالنا ؟ أما علمتم أنّ فينا من هو أنطَقُ منكم باللغات، وأفصَحُ بالعِظات؟ (٩٤)

---

(١) فى الأصل : «تنازلوا» وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما فى البيان والتبيين .

(٢) بنو العلات : الأبناء من أمهات شتى والأب واحد .

٢٠ (٣) كذا فى الأصل ، ولعل قوله : «عند» زيادة من الناسخ، فإن «عند» من الظروف التى لا تخرج عن الظرفية إلا الى الجر بمن، وجرها بإلى لحن، كما فى مغنى اللبيب .

فتخلّوا عنها ، وأطلقوا عقالها، وخلُّوا سبيلَها، يَنتدِبْ إليها آلُ رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين شرّدتموهم فى البلاد، ومزّقتموهم فى كل واد، بل تثبُت فى أيديكم لانقضاء المدّة، وبلوغ المُهْلة ، وعظيم المحْنة؛ إنّ لكلّ قائم قَدرا[(١)] لا يَعدُوه، ويوما لا يَخطُوه ، وكتابا بَعدَه يتلوه، "لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا" "وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ". ثم التُمِس الرجلُ فلم يوجَد .

ومن كلام قَطَرِيّ بنِ الفُجاءةِ — وكان من البلغاء الأبطال، فمن ذلك خطبته المشهورة التى قال فيها :

أما بعد ، فإنى أُحذّركم الدنيا فإنها حُلوةٌ خَضِرة، حُفّت بالشهوات، وراقت بالقليل، وتحبّبتْ بالعاجلة، وحَلِيَتْ بالآمال، وتزيّنتْ بالغُرور، لا تَقُوم[(٢)] نَضْرتُها، ولا تُؤْمَن فجيعتُها، غرّارةٌ ضرّارة، وحائلةٌ زائلة، ونافدةٌ بائدة[(٣)]، أكّالةٌ غوّالة؛ لا تَعْدو اذا تناهت الى أُمنيّة أهلِ الرغبة فيها والرضا عنها أن تكون كما قال الله تعالى : ﴿كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾ مع أن آمرأ لم يكن معها[(٤)] فى حَبْرة (أى السرور)، إلا أعقبته بَعدها حسرة، ولم يَلْقَ من سَرّائها بطنا إلا منحتْه من ضَرّائها ظَهرا، ولم تَصِلْه[(٥)] غَيثةُ رَخاء، إلّا هَطَلتْ عليه مُزْنةُ بلاء؛ وحَرِيّةٌ اذا أصبحتْ له منتصِرة، أن

(١) فى الأصل : «قديما» ولعل صوابه ما أثبتنا كما يدل عليه قوله بعد : «لا يعدوه» .
(٢) لا تقوم، أى لا تثبت؛ وفى صبح الأعشى ج ١ ص ٢٢٣ : «لاتدوم» .
(٣) فى الأصل : «زائدة» وهو تحريف .
(٤) فى صبح الأعشى : «منها» والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين .
(٥) كذا فى الأصل وصبح الأعشى ؛ والذى فى العقد الفريد ج ٢ ص ١٩٥ طبع بولاق : «تطله» بالطاء؛ وهو أقرب الى سياق العبارة مما هنا؛ وتطله من الطل بتشديد اللام بمعنى المطر الضعيف.

تُمسى [له] خاذلة متنكّرة، وإنْ جانبٌ منها اعذَوْذَبَ واحلَوْلَى، أَمَرّ عليه منها جانب وأَوبا[2]، فإن أتت امرأً من غصونها ورَقا[3] أرهقته من نوائبها تعبا، ولم يُمْسِ منها امرؤ فى جَناح أمنٍ إلا أصبح منها فى قوادم[4] خوف، غَرّارةٌ غُرورٌ ما فيها، فانيةٌ فانٍ من عليها؛ لا خير فى شىء من زادها إلا التقوى، مَن أقلّ منها استكثر مما يؤمنه ومن استكثر منها استكثر مما يُوبقه ويطيل حزنه، ويُبكى عينه؛ كم واثقٍ بها قد فجعته، وذى حُلم تنبّه إليها قد صرعته، وذى احتيالٍ فيها قد خدعته؛ وكم ذى أبّهة فيها قد صيّرته حقيرا، وذى نخوة قد ردّته ذليلا، ومن ذى[5] تاج قد كبّته لليدين والفم؛ سلطانُها دُوَل، وعيشُها رَنْق (أى الماء الكدر) وعَذْبُها أُجاج، وحُلوها صَبِر، وغذاؤها سِمام، وأسبابُها[6] رِمام، وقِطافُها[7] سَلَع، حيُّها بعَرَض موت، وصحيحُها[8] بعرَض سُقْم، ومنيعُها بعَرَض اهتضام، ومَلِكُها مسلوب، وعزيزُها مغلوب، وسليمُها منكوب وجارُها محروب؛ مع أنّ وراء ذلك سَكَرات الموت، وهولَ المُطَّلَع، والوقوفَ بين يدى الحكم العدل "لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى"

(١) هذه الكلمة ساقطة من الأصل؛ وقد أثبتناها عن صبح الأعشى ج ١ ص ٢٢٤

(٢) فى الأصل: «وأولى» باللام؛ وهو تحريف.

(٣) كذا وردت هذه العبارة فى الأصل وصبح الأعشى؛ والذى فى العقد الفريد ج ٢ ص ١٩٥ طبع بولاق: «وإن لبس امرؤ من غضارتها ورفاهيتها نعما أرهقته من نوائبها غما».

(٤) فى صبح الأعشى: «على»؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين.

(٥) كذا فى الأصل وصبح الأعشى؛ والذى فى العقد الفريد: «وذى تاج» بإسقاط «من»؛ وفى البيان والتبيين ج ٢ ص ١٠٤ طبع الرحمانية: «وكم من ذى تاج» الخ.

(٦) فى الأصل: «وأسنانها» بنونين؛ وهو تصحيف.

(٧) كذا فى العقد الفريد، والذى فى الأصل: «فطامها». والقطاف: جمع قطف بكسر القاف، وهو العنقود. والسلع محركة: ضرب من الصبر.

(٨) فى الأصل: «وصحتها» وما أثبتناه عن صبح الأعشى، إذ هو المناسب للسياق.

ألستم فى مساكن من كان قبلكم أطولَ منكم أعمارا ، وأوضح منكم آثارا ، وأعدّ عديدا ، وأكثف جنودا ، وأشدّ عُقودا ، تُعبِّدوا للدنيا[(١)] أىَّ تعبُّد ، وآثروها أىَّ إيثار ، وظَعَنوا[(٢)] بالكُرْه والصَّغار ، فهل بلغكم أنّ الدنيا سمحتْ لهم نفسا بفِدْية ، أو أغنَتْ عنهم فيما قد أهلكتْهم بخَطْب[(٣)] ؟ بل قد أرهقتْهم بالفَوادح ، وضَعضعتْهم بالنوائب ، وعَقَرتْهم بالفجائع ؛ وقد رأيتم تنكُّرها لمن رادَها وآثَرها وأَخلَد إليها ، حينَ ظعَنوا عنها لفراق الأَبَد ، الى آخر المُسْنَد[(٤)] ؛ هل زَوّدتْهم إلا السَّغَبَ ، وأَحَلَّتْهم إلا الضَّنْك ، أو نَوّرتْ لهم إلا الظُّلمة ، أو أَعقبتْهم إلّا الندامة؟ أفهذه تؤثرون ، أم على هذه تحرِصون ، أم إليها تطمئنُّون؟ يقول الله تعالى : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ فبئست الدارُ لمن أقام فيها ، فاعلموا إذ أنتم تعلمون أنكم تاركوها لا بدّ ، فإنما هى كما وصفها الله باللعب واللّهو ، وقد قال الله [تعالى] : ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ .

وذكّر الذين قالوا : من أشدّ منا قوّة ثم قال : حُمِلوا الى قبورهم فلا يُدعَون رُكبانا ، وأُنزِلوا فلا يُرعَون[(٥)] ضيفانا ، وجعلَ الله لهم من الضريح أكْنانا[(٦)] ، ومن الوَحْشة ألوانا ، ومن الرُّفات جيرانا[(٧)] ؛ وهم فى جِيرة لا يجيبون داعيا ، ولا يمنعون ضَيما ، إن

(١) تعبدوا للدنيا ، أى صيرتهم الدنيا عبيدا لها ؛ يقال : تعبد فلان فلانا اذا اتخذه عبدا ؛ وعبارة الأصل : « تعبدوا الدنيا » بإسقاط اللام ؛ واستقامة العبارة تقتضى إثباتها .
(٢) فى الأصل : «وطفقوا» وهو تحريف .
(٣) الخطب : الشأن والأمر .
(٤) المسند : الدهر .
(٥) فى العقد الفريد : «يدعون» بالدال المهملة ؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين .
(٦) فى الأصل : «أحيانا» بالحاء والياء ؛ وهو تحريف لا يستقيم به المعنى .
(٧) فى الأصل : «حيوانا» وهو تصحيف .

أخصبوا[1] لم يفرحوا ، وإن قحطوا لم يقنطوا ، [جمع][2] وهم آحاد ، جيرة وهم أبعاد ، متناءون[3] ، لا يزورون ولا يُزارون ؛ حُلَماء قد ذهبت أضغانهم ، وجُهلاء قد ماتت أحقادهم ، لا يُرجى نفعهم ، ولا يُخشى دفعهم ، وكما قال الله تعالى : ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ فاستبدلوا بظهر الأرض بطنا ، وبالسعة ضيقا ، وبالأهل غربة ، وبالنور ظلمة ، ففارقوها كما دخلوها ، حُفاةً عُراةً فُرادى ، غير أن ظعنوا بأعمالهم الى الحياة الدائمة ، وإلى خلود الأبد ، يقول الله تعالى : ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ فاحذروا ما حذّركم الله ، وانتفعوا بمواعظه ، واعتصموا بحبله ، عصمنا الله وإياكم بطاعته ، ورزقنا وإياكم أداء حقه .

ومن كلام أبى مُسلم الخُراسانىّ صاحب الدولة[4] ، قيل له : ما كان سببُ خروج الدولة عن بنى أمية ؟ فقال : لأنهم أبعدوا أولياءهم ثقةً بهم ، وأدنوا أعداءهم تألُّفا لهم ، فلم يصر العدوُّ بالدُّنوّ صديقا ، وصار الصديقُ بالبعاد عدوّا .

وقيل له فى حداثته : إنا نراك تأرق كثيرا ولا تنام ، كأنك موكَّل برعى الكواكب ، أو متوقِّع الوحى فى[5] السماء ، فقال : والله ما هو ذاك ، ولكن لى رأىٌ جوّال ، وغريزةٌ

---

(١) كذا فى البيان والتبيين ج ٢ ص ١٠٥ طبع الرحمانية ؛ وهو المناسب لما يأتى بعده ؛ والذى فى الأصل : «جمعوا» .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ؛ وقد أثبتناها عن البيان والتبيين .

(٣) فى الأصل : «متساوون» وما أثبتناه هو المناسب لما قبله وما بعده ؛ وانظر البيان والتبيين والعقد الفريد .

(٤) يريد دولة بنى العباس ؛ وفى البيان والتبيين ج ٢ ص ٧٥ طبع الرحمانية : «صاحب الدعوة» .

(٥) لعله : «من» .

تامّة، وذهنٌ صافٍ، وهمّةٌ بعيدةٌ، ونفْسٌ تتُوق الى معالى الأمور، مع عيش كعيش الهَمج والرِّعاع، وحالٍ متناهيةٍ من الاتّضاع، وإنى لأرى بعضَ هذا مصيبةً لا تُجبَر بسهر، ولا تُتَلافَى بأَرَق؛ قيل له : فما الذى يَبْرُد غليلَك، ويَشفِى إجاجَ(١) صدرِك؟ قال : الظَّفَرُ بالمُلك؛ قيل له : فاطلُب؛ قال : إن الملك لا يدرَك إلا بركوب الأهوال؛ قيل : فاركب الأهوال؛ قال : هيهات، العَقلُ مانعٌ من ركوب الأهوال؛ قيل : فما تصنع وأنت تَبلى حسرةً، وتذوبُ كَمَدا؟ قال : سأجعل من عقلى بعضه جهلا، وأحاول به خطرا، لأنالَ بالجهل ما لا يُنال إلّا به، وأدبِّر بالعقل ما لا يُحفظ إلا بقوّته، وأعيشَ عيشا يبين مكان حياتى فيه من مكان موتى عليه، فإن الخُمول أخو العَدم، والشهرة أبو الكَون .

وكتب إليه عبد الحميد بن يحيى كتابا عن مروانَ بنِ محمد، وقال لمروانَ : قد كتبتُ كتابا إن نَجَع فذاك، وإلّا فالهلاك، وكان لكبر حجمه يُحمَل على جَمل، نَفَثَ فيه حواشىَ صدره، وضمّنه غرائب عُجَرِه وبُجَرِه(٢)، فلمّا ورد على أبى مسلم دعا بنار فطرحه فيها إلّا قدر ذراع فإنه كَتب عليه :

محا السيفُ أسطارَ البلاغة وٱنتحَى * ليوث الوغى يقدمن من كلّ جانب
فإن يقدموا نُعْمِلْ سيوفا شَحيذةً * يهُون عليها العتْبُ من كلّ عاتب

وردّه، فأيس الناسُ من معالجته .

وقيل : إنه شَجَر بينه وبين صاحب مَرْوٍ كلامٌ أَرْبَى فيه صاحبُ مَرْوٍ عليه، فاحتمله أبو مسلم وقال : مَهْ، لسانٌ سَبَق، ووهمٌ أخطأ، والغضب شيطان،

---

(١) الإجاج : جمع أجة، وهى شدّة الحر وتوهجه .

(٢) عجره وبجره، أى كل أموره، لم يستر عنه شيئا؛ وأصل العجر، العروق المتعقدة فى الجسد، والبجر، العروق المتعقدة فى البطن خاصة .

وأنا جرّأتك عليّ باحتمالك، فإن كنتَ للذنب متعمّدا فقد شاركتُك فيه، و إن كنتَ مغلوبا فالعفوُ يَسَعك؛ فقال له صاحب مرو: عِظَمُ ذنبي يمنع قلبي من الهدوء؛ فقال ابو مسلم: يا عَجبا، أقابلك بإحسان وأنت تسيء، ثم أقابلك بإساءة وأنت تُحسِن! فقال صاحب مرو: الآن وثِقتُ بعفوك.

ومن كلام جماعة من أمراء الدولتين

(٩٦) خَطَب يوسف بن عمر فقال: اتقوا الله عباد الله، فكم من مؤمِّل أمَلا لا يَبلُغُه، وجامعِ مالا لا يأكله، ومانعِ ما سوف يتركه؛ ولعلّه من باطلٍ جَمَعَه، ومن حقٍّ مَنَعَه؛ أصابه حراما، وورَّثه عدوّا؛ واحتَمَل إصْرَه، وباء بوزره، ووَرَد على ربّه آسفا لاهفا "خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ".

وقام خالد بن عبد الله القَسْرِيُّ(١) على المنبر خطيبا، فحمد الله وأثنى عليه، وصلّى على النبي صلّى الله عليه وسلّم، ثم قال: أيها الناس، نافِسوا في المكارم، وسارِعوا الى المغانم، واشتروا الحمد بالجُود، ولا تَكسِبوا بالمَطل ذمّا، ولا تعتدّوا(٢) بالمعروف ما لم تعجّلوه، ومهما يكن لأحدكم عند أحد نعمةٌ فلم يبلُغ شكرها فالله أحسَنُ لها جزاءً، وأجزل عليها عطاء؛ واعلموا أنّ حوائج الناس إليكم نعمةٌ من الله عليكم؛ فلا تَمَلّوا النعم فتُحَوَّل نقما؛ واعلموا أنّ أفضل المال ما أكسب أجرا، وأورث ذكرا؛ ولو رأيتم المعروف رجلا رأيتموه حَسَنا جميلا يَسرّ الناظرين، ولو رأيتم البخل رجلا رأيتموه مشوَّها قبيحا، تَنفِر عنه القلوب، وتُغَضّ عنه الأبصار؛ أيها الناس، إنّ أجوَد الناس مَن أعطى من لا يرجوه، وأعظمَ الناس عفوا من عفا عن

(١) في الأصل: «القشيري» بشين معجمة بعدها ياء مثناة، وهو تحريف.

(٢) في الأصل: «تقعدوا»؛ وهو تحريف.

قدرة ، وأوصَـلَ الناس مَن وَصَل مَن قَطَعه ، ومن لم يَطِب حَرْثُه لم يَزكُ نَبتُـه ؛ والأصولُ عن مَغارسها تَنمو ، وبأصولها تسمو ؛ أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

قيل لمـا ولى أبو بكر بن عبد الله[1] المدينة وطال مكثه عليها كان يبلُغه عن قوم من أهلها أنهم يَنالون من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وإسعافٌ من آخرين لهم على ذلك ، فأمر أهلَ البيوتات ووجوهَ الناس فى يوم جمعة أن يقربوا من المنبر ، فلما فرغ من خطبة الجمعة قال : أيها الناس ، إنى قائل قولا ، فمن وعاه وأدّاه فعلى الله جزاؤه ، ومن لم يَعِه فلا يعـدو[2] من ذمامها ، إن قصرتم عن تفصيله[3] ، فلن تَعجِزوا عن تحصيله ، فأرعوه أبصاركم ، وأوعوه أسماعكم ، وأشعروه قلوبكم ؛ فالموعظة حياة ، والمؤمنون إخوة "وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ" "وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ" فأتوا الهدى تهتدوا ، واجتنبوا الغى تَرشُدوا ، "وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" والله جلّ ثنـاؤه ، وتقدّست أسماؤه ، أمركم بالجماعة ورضيها لكم ، ونهاكم عن الفُرقة وسَخِطَها منكم ، فـ"اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا" جعلَنا الله وإيّاكم ممّن تبع رضـوانه ، وتجنب سخطَه ، فإنمـا نحن به وله ؛ وإنّ الله بعث محمدا صلّى الله عليه وسلّم بالدّين ، واختاره على العالمين ، واختار له أصحـابا على

(١) كذا فى الأصل وصبح الأعشى ج ١ ص ٢٢٠ وقد راجعنا أسماء عمـال المدينة وولاتها فيما بين أيدينا من المظان فلم نقف على هذا الاسم فيمن تولاها ؛ والذى وقفنا عليه هو أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، تولى المدينة فى زمن سليمان بن عبد الملك انظر صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٩٦ وغيره من كتب التـاريخ .

(٢) يريد : فلا يخرج ؛ وتأنيث الضمير فى قوله : «ذمامها» باعتبار الموعظة أو المقالة .

(٣) كذا فى صبح الأعشى ، وهو المناسب لمـا بعده فى الفقرة الثانية . وفى الأصل : «عنه بفضيلة» .

الحقّ ، ووزراء دون الخَلْق ، اختصّهم به ، وانتخبهم له ، فصدّقوه ونصروه ، وعزّروه ووقّروه ، فلم يُقدِموا إلّا بأمره ، ولم يُحجموا إلّا عن رأيه ، وكانوا أعوانَه بعهده ، وخُلفاءه من بعده ، فوصفهم فأحسنَ صفتَهم ، وذكرهم فأثنى عليهم ، فقال — وقولُه الحقّ — : ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ الى

٥ قوله : ﴿مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ فمن غاظوه[(١)] كفَر وخاب ، وفجَر وخسِر ، وقال الله عزّ وجلّ : ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ الى قوله : ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ فمن خالف شريطةَ الله عليه لهم ، وأمْرَه إيّاه فيهم ، فلا حقَّ له فى الفَىء ، ولا سهمَ له فى الإسلام فى آيٍ كثيرة من القرآن ؛ فمَرقتْ مارقةٌ من الدّين ، وفارقوا المسلمين ، وجعلوهم عِضين[(٢)] ، وتَشعّبوا

١٠ أحزابا ، أشاباتٍ وأوشابا[(٣)] ؛ فخالفوا كتاب الله فيهم ، وثناءه عليهم ، وآذَوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيهم ، فخابوا وخسروا الدنيا والآخرة ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ ؛ مالى أرى عيونا خُزْرا[(٤)] ، ورقابا صُعرا ، وبطونا بُجرا[(٥)] ؟ شجىً لا يُسيغه الماء ، وداءً لا يَشرب فيه الدواء ؛ ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾ كلّا والله ، بل هو

(٩٧)

١٥ (١) فى الأصل : «عاطون» ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يدل عليه قوله تعالى فى الآية السابقة : «يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار» .

(٢) العضون جمع عضة ، وهى الفرقة .

(٣) يريد : أوباش الناس وأخلاطهم .

(٤) الخزر بضم الخاء : جمع أخزر ، من الخزر بفتح الخاء والزاى ، وهو النظر كأنه فى أحد الشقين .

٢٠ (٥) البجر : العظيمة .

الهِناء[1] والطِّلاء حتى يَظهرَ العذرُ[2]، ويبُوحَ السرُّ، ويَضِحَ الغَيب، ويُسوَّس[3] الجُنُب؛ فإنكم لم تُخلَقوا عبثا، ولم تُترَكوا سـدى؛ ويحكم، إنى لست أتاوِيًّا[4] أعلَّم، ولا بدَوِيًّا أفهَّم؛ قد حلبتُكم أشطرا، وقلبتكم أبطُنا وأظهُرا؛ فعرَفتُ أنحاءكم وأهواءكم، وعلمتُ أنّ قوما أَظهروا الإسـلام بألسنتهم، وأَسَرّوا الكفر فى قلوبهم، فضربوا بعضَ أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم [ببعض][5]، وولّدوا الرواياتِ فيهم، وضربوا الأمثال، ووَجدوا على ذلك من أهل الجهل من أبنائهم أعوانا يأذنون لهم، ويُصغُون إليهم؛ مهلا مهلا قبـل وقوع القوارع، وطُولِ الروائع[6]، هـذا لهذا ومع هـذا، فلست أَعتَنِش[7] آئبا ولا تائبا، ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ فأسِروا خيرا وأَظهِروه، وأجهروا به وأخلِصوا، فطالمـا مشَيتم القهقرى ناكِصين، وليَعلمْ من أدبر وأصَرّ أنهـا موعظة بين يدىْ نِقمة؛ ولستُ أدعوكم الى أهواء تُتبَّـع، ولا الى رأيٍ يُبتدَع؛ إنمـا أدعوكم إلى الطريقة المُثلَى، التى فيهـا خيرُ الآخرة والأُولى؛ فمن أجاب فإلى رُشـده، ومن عَمِىَ فعن قصده؛ فهلُمّ إلى الشرائع الجدائع[8]، ولا تُولّوا عن سبيل المؤمنين، ولا تستبدِلوا الذى هو أدنى بالذى هو خير،

(١) الهناء بكسر الهاء : القطران؛ يريد بهذه العبارة أنه سيأخذ فى معالجتهم بالموعظة أو العقوبة حتى يقلعوا عما نهاهم عنه .

(٢) عبارة الأصل : «حتى بطر الغمر» وهو تحريف؛ والتصويب عن صبح الأعشى ج ١ ص ٢٢٢

(٣) يسوّس بالبناء للمجهول : يروّض ويذلل؛ يقال : سوست له أمرا إذا روضته وذللته . انظر اللسان مادّة «سوس» . والجنب بضمتين الصعب الذى لا ينقاد .

(٤) الأتاوى : الغريب عن القوم .

(٥) هذه الكلمة ساقطة من الأصل؛ وقد أثبتناها عن صبح الأعشى .

(٦) لعله يريد بهذه العبارة أنه قد أعدّ لكل عمل جزاء لا يجاوزه؛ يدل على ذلك ماقبله وما بعده .

(٧) الأعتناش : الظلم؛ والذى فى الأصـل : «أعيش» ؛ وهو تحريف .

(٨) كذا فى الأصل وصبح الأعشى ج ١ ص ٢٢٢ ؛ ولم نقف عليه فى مرجعا؛ ولم نر من معانيه ما يناسب السياق؛ ولعله : «الجوامع» ، أى التى تجمع الناس على اتباعها ، كما يدل عليه ما بعده .

"بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا" إيّاكم وبُنيّاتِ الطريق[1]، فعندها الترنيقُ والرَّهق[2]، وعليكم بالجادّة، فهى أَسَدُّ وأَوردُ، ودَعوا الأمانىّ فقد أردَت من كان قبلكم، وليس للإنسان إلا ما سعى، ولله الآخرة والأولى، و"لَا تَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَى" ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ .

هذا ما ٱتفق إيراده من رسائل وخُطب بُلغاء الصحابة — رضى الله عنهم — وكلامِ التابعين وغيرِهم مما يحتاج الكاتب الى حفظه .

وأما رسائل المتقدّمين والمعاصِرين التى يحتاج الى النظر اليها دون حفظها — فهى كثيرة جدا، سنُورد من جيّدها ما تقِف عليه إن شاء الله .

ذكر شىء من رسائل وفصول الكتّاب والبلغاء المتقدّمين والمتأخِّرين والمعاصرِين من المشارقة والمغاربة

وهذه الرسائل والفصول كثيرة جدّا، وقد قدّمنا منها فيما مرّ من كتابنا هذا ما حلا ذِكرُه، وفاح نَشْرُه، وأَنِس به سامعُه، وأَيِس من الإتيان بمثله صانعُه، وأوردنا فى كل باب وفصلٍ منه ما يناسبه، وسنُورد إن شاء الله فى فنّى الحيوان والنبات عند ذكر كلّ حيوان أو نبات يستحقّ الوصف ما سمعناه وطالعناه مِن وصفه نظما ونثرا، مع ما يندرج فى فنّ التاريخ من الرسائل والفصول والأجوبة والمحاورات

---

(١) بنيات الطريق : الطرق الصغار التى تتشعب من الجادّة، وهى الترهات ؛ يريد : إياكم وسلوك طريق غير طريق الجماعة .

(٢) الرهق : السفه، أو هو ركوب الشر . والذى فى صبح الأعشى : «الترهيق» .

عند ذكر الوقائع، وإنما نُورده ثَمّ وإن كان هذا موضعَه ليكون الكلام فيه سِياقةً، وتَرِدُ الوقائعُ يتلو بعضُها بعضا، فلا ينقطع الكلام على ما تقف إن شاء الله تعـالى عليه فى مواضعه، فلْنُورِدْ فى هذا الموضع ما هو خارج عن ذلك النَّمَط من كلامهم، ولْنَبدأ بذكر شىء من المكاتَبات البليغة المُوجَزة؛

٥ من ذلك ما كتب به عبـدُ الحميد بنُ يحيى بالوَصاة على إنسانٍ فقال : حقُّ مُوصِل هذا الكتاب عليك كحقّه علىّ إذ رآك مَوْضِعا لأمله، ورآنى أهلا لحاجته، وقد أنجزتُ حاجتَه، فحقّق أملَه .

(٩٨) ومنه ما حُكى أنّ المأمونَ قال لعمرو بن مَسعَدَة : أُكتب الى فلانٍ كتابَ عنايةٍ بفلان فى سطر واحد، فكَتب : هذا كتابُ واثقٍ بمن كُتِب اليه، مُعْتَنٍ بمن كُتب له[1]، ولن يضيع بين الثقةِ والعنايةِ حاملُه . ١٠

وكتب عمرو بنُ مَسعَدَةَ الى المأمون يستعطفه على الجند: كتابى الى أمير المؤمنين ومَنْ قِبَلى مِن أجنادِه وقُوّادِه فى الطاعة على أفضلِ ما تكون عليه طاعةُ جندٍ تأخّرتْ أرزاقُهم، وٱختلّتْ أحوالُهم . فأَمَرَ بإعطائهم رِزقَ ثمانية أشهر .

وكتب أحمـدُ بنُ يوسفَ الى المأمون يذكّره بمن على بابه من الوفود فقال : ١٥ إنّ داعِىَ نَداك، ومنادِىَ جَدْواك، جَمعا ببابك الوفود، يرجون نائلَك العَتِيد؛ فمنهم من يَمُتّ بحُرمة، ومنهم من يُدْلِى[2] بخدمة؛ وقـد أجحَف بهم المُقام، وطالت عليهم الأيام؛ فإنْ رأى أميرُ المؤمنين أن يَنعَشَهم بسَيْبِه[3]، ويَحتوِشَ ظُنونَهم بطَوله فَعَل . فوقّع المأمون فى كتابه : الخيرُ متبَع، وأبوابُ الملوك مَواطنُ لذوى الحاجات،

(١) فى الأصل : «اليه»؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا .

٢٠ (٢) يدلى : يتوسل . (٣) السيب : العطاء .

فأحصِ أسماءهم، وأجِلْ مَوائِدهم(١)، ليصير الى كلّ امرئٍ منهم قدر استحقاقه، ولا تكدّر معروفا بالمَطْل والحجاب، فإنّ الأوّل يقول :

فإنك لن تَرَى طَرْدا لحُـرٍّ * كإلصاقٍ به طَرَفَ الهوانِ
ولَم يَجلِبْ مودّةَ ذى وفاء * كمِثلِ البَذلِ أو بسطِ اللسانِ .

وكتب محمدٌ(٢) إلى يحيى بن هرمةَ(٣) — وكان عامِلَه على أَصْفَهانَ، وقد تظلّمَ منه أهلُها — : يا يحيى(٤)، قد كَثُرَ شاكُوك، وقلّ شاكروك؛ فإمّا عَدَلتَ، وإمّا اعتزلتَ .

وكتب أبو بكر الخُوَارَزْمىُّ جوابا عن هديّة : وصلَت التُّحْفة، ولَم يكن لها عيب إلّا أنّ باذلَها(٥) مسرِفٌ فى البِرّ، وقابِلَها مقتصِدٌ فى الشكر؛ والسَّرَفُ مذمومٌ إلّا فى المجد، والاقتصادُ محمودٌ إلّا فى الشكرِ والحمد .

وكتب مَلِكُ الروم إلى المعتصم يتوعّدُه ويتهدّدُه، فأَمَرَ الكتّاب أن يكتبوا جوابَه، فكتبوا فلم يعجبه مما كتبوا شىءٌ، فقال لبعضهم : اُكتب : بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ،

(١) يريد بهذه العبارة أمره بأن يوضح ما فرض فى الديوان لكل واحد منهم، ويبين ما يستحقه من العطاء .

(٢) كذا ورد هذا الاسم فى الأصل؛ ولم يرد بعده من الكنى ما يعينه؛ والذى فى المصادر التى بين أيدينا أن هذا التوقيع لجعفر بن يحيى البرمكىّ الى بعض عماله انظر شرح القاموس مادة «وقع» والعقد الفريد ج ٢ ص ٢٣٢ طبع بولاق ووفيات الأعيان ترجمة جعفر بن يحيى والوافى بالوفيات للصفدى المحفوظ منه نسخة مأخوذة بالتصوير الشمسى بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٢١٩ تاريخ .

(٣) كذا فى الأصل؛ ولم نقف على هذا الاسم فيمن تولى عمل أصفهان؛ ولعل صوابه : «هرثمة» .

(٤) فى الكتب التى بين أيدينا : «يا هذا» .

(٥) فى الأصل : «يأذن لها»؛ وهو تحريف .

أمّا بعد ، فقــد قرأتُ كتابَك ، وفَهمتُ خطابَك ، والجوابُ ما تَرى لا ما تَســمَع ، "وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ(١) لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ" .

ومن كلام بديع الزّمانِ أبي الفضل أحمـدَ بنِ الحسين الهَمَذانيّ —

قيل : ذُكِر الهَمَذانيُّ في مجلس أبي الحسين بن فارس فقــال ما معناه : إنّ البديعَ قد نسِيَ حقَّ تعليمنا إيّاه ، وعَقّنا وشمخ بأنفه عنّا ، فالحمــد لله على فساد الزمانــ ، وتغــيُّرِ نوعِ الإنسان ؛ فبلغ ذلك البــديعَ ، فكتب الى أبي الحسين :

نَعم أطال الله بقاءَ الشــيخ الإمام ، إنّه(٢) الحَمَأُ المسنُون ، وإن ظُنّت الظنــون ؛ والناسُ لِآدمَ ، وإن كان العهــدُ قد تَقادَم ، وٱرتبكت الأضْداد(٣) ، وٱختَلَط الميلاد ؛ والشيخ يقول : فَسَد الزمان ، أفلا يقول : متى كان صالحا ؟ أفي الدّولة العبّاسيّة وقد رأَينا آخرَها وسمعنا أوّلَها ؛ أم المدّةِ المَروانيّةِ وفي أخبارها «لا تَكْسَع الشَّولَ بأغبارِها»(٤) ؛ أم السنين الحَرْبيّةِ(٥)

---

(١) الكافر بالإفراد : قراءة الحـرميين وأبي عمرو كما سبق بيــان ذلك في ص ١٠ ت ١ من هــذا الجــزء .

(٢) كذا في يتيمة الدهر ج ٤ ص ١٧٨ طبع دمشق وغيرها من المصادر التي بين أيدينا لهذه الرسالة ؛ والذي في الأصل : «أنا» والحمأ : الطين الأسود . والمسنون : المتغير المنتن .

(٣) عبارة الأصل : «وتركيب الأصفاد» ؛ وهو تحريف لا يظهر له معنى ، والتصويب عن يتيمة الدهر .

(٤) تكسع ، من الكسع وهو ترك بقية من اللبن في خلف الناقة يراد بذلك تغزيرها ، وهو أشد لها . والشول من النوق : ما مضى على حملها أو وضعها ســبعة أشهر فقل لبنها وخف ضرعها ، واحده شائل . والأغبار : جمع غبر بالضم ، وهو بقية اللبن ؛ وهذا صدر بيت للحارث بن حلزة ، وتمــامه : «إنك لا تدري من الناتج» قال في اللسان مادّة «كسع» في تفسير هذا البيت : يقول : «لا تغزر إبلك تطلب بذلك قوّة نسلها ، وٱحلبها لأضيافك ، فلعل عدوا يغير عليها فيكون نتاجها له دونك» . ولعل الكاتب أشار بهذا الى بخل بني مروان وقلة الخير في أيامهم .

(٥) الحربية : نسبة إلى حرب بن أمية بن عبد شمس ، يريد بذلك خلافة معاوية ويزيد ٱبنه .

والسيفُ يعملُ فى الطُّلَى[1] * والرُّمحُ يركزُ فى الكُلَى
ومَبيتُ حُجْرٍ[2] فى الفَلا * والحَرَّتانِ[3] وكَرْبلا[4]

أم البَيعةِ الهاشمِيّةِ [وعلىٌّ يقول : ليت][5] العشرةَ [منكم][6] براس ، مِن بنى فِراس ؛ أم الأيّامِ الأمويّةِ[7] والنَّفيرُ إلى الحجاز ، [والعيونُ إلى الأعجاز][5] ؛ أم الإمارةِ العَدَويةِ[8] وصاحبُها يقول : هلمّوا إلى النزول[9] ؛ أم الخلافةِ التَّيميةِ[10] وهو[11] يقول : طوبى لمن

(١) فى كشف المعانى والبيان عن رسائل بديع الزمان ص ٤١٥ طبع بيروت : « يغمد » . والطلى : الأعناق . واحده طلية بضم الطاء .

(٢) هو حجر بن عدىّ الكندىّ من أهل العراق ، وقد قتله معاوية بن أبى سفيان فى سنة إحدى وخمسين لإظهاره التشيع إلى علىّ ولعنه لمعاوية وأصحابه ، والبراءة منهم ، وكان يجتمع عليه كل من وافقه فى هذا الرأى من أهل المصرين ، حتى ولى زياد على العراق فكتب إلى معاوية فى أمر حجر وأكثر ، فأمر معاوية زيادا أن يبعث به إليه مشدودا بالحديد ففعل ، فلما قدم عليه أمر به معاوية فضربت عنقه ؛ وكان حجر من أشراف العراق وخياره . انظر تاريخ الطبرى فى حوادث سنة إحدى وخمسين .

(٣) كذا فى يتيمة الدهر ج ٤ ص ١٧٩ طبع دمشق وغيرها من المصادر التى بين أيدينا لهذه الرسالة ؛ وبه يستقيم الوزن ؛ وفى الأصل : « والحسين » . وأشار بهذا الى وقعة الحرة التى كانت بين جنود يزيد بن معاوية وأهل المدينة سنة ثلاث وستين ؛ وكانت هذه الوقعة فى حرة واقم وهى شرق المدينة وقد قتل فيها من أهل المدينة خلق كثير . انظر تفصيل ذلك فى كتب التاريخ .

(٤) كربلاء : موضع فى طرف البرية عند الكوفة ، وهو الذى قتل فيه الحسين بن علىّ رضى الله عنهما فى خلافة يزيد بن معاوية .

(٥) هذه التكملة ساقطة من الأصل ؛ وقد أثبتناها عن يتيمة الدهر ج ٤ ص ١٧٩

(٦) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ؛ وقد أثبتناها عن يتيمة الدهر . (٧) يريد خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه لأن أمية رهطه . (٨) يريد خلافة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ؛ والعدوية نسبة إلى عدى بن كعب بن لؤىّ ، وهم رهط عمر . (٩) كذا فى الأصل ؛ والذى فى يتيمة الدهر وكشف المعانى والبيان : « وهل بعد البزول إلا النزول » ؛ والبزول : تشقق ناب البعير ، وذلك فى السنة التاسعة ؛ يريد بهذه العبارة : وهل بعد الوصول الى الغاية إلا الأخذ فى النقصان .

(١٠) يريد خلافة أبى بكر رضى الله عنه ؛ والتيمية : نسبة الى تيم بن مرة بن كعب بن لؤىّ ، وهم رهط أبى بكر . (١١) كذا فى الأصل ؛ والذى فى اليتيمة : « وصاحبها » .

(٩٩) مات فى نَأْنَأَة[1] الإسلام؛ [أم][2] على عهد الرسالة ويومَ ٱلفتح قيل: أُسكنى[3] يا فلانة، فقد ذهبَت الأمانة؛ أم فى الجاهلية ولَبِيدٌ يقول :

* [وبَقِيتُ فى خَلْفٍ[4] كجلد الأجربِ[5] *

أم قَبل ذلك وأخو عادٍ يقول] :

بلادٌ بها كنّا وكنّا نحبّها * إذ ٱلناس ناسٌ والزمانُ زمانُ

أم قَبل ذلك ويُروَى لآدم عليه السلام :

تغيّرت البلاد ومَن عليها * فوجهُ الأرض مغبَرٌّ قبيحُ

أم قَبل ذلك والملائكةُ تقول لبارئها : ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ ما فسَدَ الناس، ولكن ٱطّرد القياس؛ ولا أظلمَت الأيام، إنما ٱمتدّ الإظلام؛ وهل يَفسُد الشيءُ إلّا عن صلاح؛ ويمسى المرء إلّا عن صباح ؟ ولعمرى إن كان كرَمُ العهد كتابا يَرِد، وجوابا يَصدُر، إنّه لَقريبُ المَنال، وإنّى على توبيخه لى لَفقيرٌ إلى لقائه، شفيقٌ على بقائه، منتسبٌ إلى وَلائه، شاكرٌ لآلائه .

وكتب بديع الزمان يستعطفه : إنّى خدمت مولاى، والخدمةُ رِقٌّ بغير إشهاد، وناصحتُه، والمناصحةُ للودِّ أوثقُ عماد؛ ونادمتُه، والمنادَمةُ رَضاعٌ ثانٍ؛ وطاعمته، والمطاعَمةُ [نَسَبٌ][6] دانٍ، وسافرتُ معه، والسَّفرُ والأخوّةُ رضيعَا لبان، وقمتُ بين

---

(١) وردت هذه العبارة فى اللسان والأساس هكذا : « طوبى لمن مات فى النأنأة » ؛ والنأنأة : أوّل الإسلام؛ قال الزمخشرىّ : ومعناها الضعف قبل أن يقوى ويعز .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من الأصل، والسياق يقتضيها؛ انظر رسائل بديع الزمان .

(٣) فى المصادر التى بين أيدينا لهذه الرسالة : « اسكتى » بالتاء .

(٤) هذه التكملة ساقطة من الأصل؛ وقد أثبتناها عن يتيمة الدهر .

(٥) الخلف بفتح الخاء وسكون اللام : الأردياء الأخساء؛ وصدر البيت : « ذهب الذين يعاش فى أكنافهم » .

(٦) هذه الكلمة ساقطة من الأصل، والسياق يقتضى اثباتها؛ انظر كشف المعانى والبيان عن رسائل بديع الزمان ص٣٠٣ طبع بيروت .

يديه، والقيامُ والصلاةُ شريكا عِنانٍ[(١)]؛ وأثنيتُ عليه، والثناءُ عند الله بمكان؛ وأخلصتُ له، والإخلاصُ مشكورٌ بكلّ لسان .

ومن كلام أبى الفضل محمد بنِ الحسين بن العَميد — وكان وزيرا كاتبا — كَتب عن ركن الدّولة بنِ بويه كتابا لمن عَصى عليه :

كتابى وأنا مترجِّحٌ بين طمع فيك، وإياسٍ منك، وإقبالٍ عليك، وإعراضٍ عنك[(٢)]؛ فإنك تُدْلِى بسابق خدمة، وتَمُتّ بسالف حُرمة؛ أيسرُها يوجب رِعاية، ويَقتضِى محافَظةً وعناية؛ ثم تَشفَعُهما بحادثِ غُلولٍ وخيانة، وتُتبِعُهما بآنِفِ خلافٍ ومعصية؛ وأدنَى ذلك يُحبِط أعمالَك، ويَمحَق كلَّ ما يُرعَى لك؛ لا جَرَمَ أنّى وقفت بين مَيلٍ إليك، ومَيلٍ عليك؛ أقدِّم رِجلا لِصَمْدِك[(٣)] [وأؤخِّر][(٤)] أخرى عن قَصدِك؛ وأبسُط يدا لاصطلامك واجتياحك، وأثنِى ثانيةً نحو استبقائك[(٥)] واستصلاحك؛ وأتوقَّف عن امتثال بعض المأمور فيك ضنّا بالنعمة عندك، ومنافَسةً فى الصَّنيعة لديك؛ وتأميلا [لفَيئتك][(٤)] وانصرافك، ورجاءً لمراجَعتك وانعطافك؛ فقد يَعزُب العقل ثم يؤوب، ويَعزُب اللّبُّ ثم يثُوب، ويذهب العزم ثم يعُود، ويَفسُد الحزم ثم يَصلُح، ويضاع الرأى ثم يستدرَك، ويَسكَر المرء ثم يصحو، ويكْدَر الماء ثم يصفو؛ وكلُّ ضِيقةٍ فإلى رخاء، وكلُّ غمرةٍ فإلى انجلاء؛ وكما أنك أتيتَ من إساءتك ما لم تحتسبْه أولياؤك، فلا تدَعْ[(٦)] أن تأتىَ من إحسانك ما لم ترتقبْه أعداؤك؛ وكما

(١) يقال : بينهما شركة عنان، اذا اشتركا على السواء، لأن العنان طاقان مستويان .

(٢) فى الأصل : «عليك» ؛ وهو تحريف .

(٣) فى يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٠ طبع دمشق : «لصدمك» ؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين .

(٤) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ؛ وقد أثبتناها عن يتيمة الدهر .

(٥) فى يتيمة الدهر : «لاستبقائك» .

(٦) فى اليتيمة : "فلا بدع" بالباء الموحدة ؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين .

استمرّت بك الغفلةُ حتى رَكِبتَ ما رَكِبتَ، واخترتَ ما اخترتَ، فلا عجب أن تنتبهَ انتباهةً تبصر فيهـا قبيحَ ما صنعتَ، وسوءَ ما آثرت؛ وسأقيم على رسمى فى الإبقاء والمـاطَلةِ ما صَلَح، وعلى الاستيناءِ والمطاوَلةِ ما أمكَن، طمعا فى إنابتـك، وتحكيما[1] لحُسن الظنّ بك؛ فلستُ أعدم فيما أظـاهره من إعذارك، وأُرادفُه من إنذارك، احتجاجا عليك، واستدراجا لك؛ وإن يشإ اللهُ يُرشِـدْك، ويأخذ بك الى حظّك ويسدِّدْك؛ فإنه على كلّ شيء قدير.

وفى فصل منه: وزعمتَ أنك فى طَرَفٍ من الطاعة بعد أن كنت متوسِّطَها، وإن كنتَ كذلك فقد عرفتَ حالتيها، وحلبتَ شَطْرَيها، فناشدتك اللهَ لَمَـا صدقتَ عما أسألك: كيف وَجدتَ ما زُلتَ عنه، وتجد ما صرتَ إليه؟ ألم تكن من الأوّل فى ظلٍّ ظَليل، ونسيمٍ عليل، وريحٍ بَليل؛ وهواءٍ ندىٍّ[2]، وماءٍ رَوىٍّ، ومهادٍ وَطِىٍّ؛ وكِنٍّ كَنين، ومكانٍ مَكين، وحصنٍ حَصين؛ يَقيك المتالف، ويؤمنك[3] المخـاوف؛ ويَكنُفُك من نوائب الزمان، ويَحفظك من طوارق الحِدْثان؛ عَزَزتَ[4] به بعد الذِّلّة، وكثرت بعد القِلّة؛ وارتفعتَ بعد الضَّعة، وأيسرتَ بعد العُسر، وأثريتَ بعد المَتْرَبة، واتّسعتَ بعـد الضيق، وأطافت[5] بك الوِلايات، وخَفَقت فوقك الرايات؛ ووَطِئ عَقِبَك الرجال، وتعلّقتْ بك الآمال؛ وصرت تكاثِرُ ويكاثَر بك، وتُشير ويشار اليك؛

(١) فى الأصل: "وتحكيمك بحسن" والسياق يقتضى ما أثبتنا.

(٢) فى الأصل: "غدى" بالغين المعجمة؛ وفى يتيمة الدهر "عدى"؛ وهو تحريف فى كليهما؛ وسياق العبارة يقتضى ما أثبتنا.

(٣) فى الأصل: "ويؤملك" باللام، وهو تحريف.

(٤) فى الأصل: "رمت" وهو تحريف.

(٥) فى يتيمة الدهر ج ٣ ص ١١ طبع دمشق: "وظفرت بالولايات"؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين.

ويذكر على المنابر اسمك، وفى المحاضر ذكرك؛ ففيم أنت الآن من الأمر؟ وما العوض مما ذكرتُ وعددت، والخلف عمّا وصفت؟ وما استفدتَ حين أخرجتَ من الطاعة نفسك، ونفضتَ منها كفّك، وغمستَ فى خلافها يدك؟ وما الذى أظلّك بعد انحسار ظلّها عنك؟ أظلٌّ ذو ثلاث شُعَب، لا ظليل ولا يُغنى من اللّهب؟ قل: نعم، فذاك والله أكنُف ظلالك فى العاجلة، وأروحُها فى الآجلة؛ إن أقمتَ على المحادّة والعُنود[1]، ووقفت على المشاقّة والجحود.

ومنه: تأمّل حالك وقد بلغتَ هذا الفصل من كلامى فستُنكرها[2]، والمس جسدك فانظر هل يحسّ، واجسُسْ عرقك هل ينبض، وفتّش ما حُنِىَ عليه أضلاعُك هل تجد فى عرضها قلبك؟ وهل حلا بصدرك أن تظفر بفوتٍ مُزِيح[3] أو موتٍ مُرِيح؟ ثمّ قِس غائبَ أمرك بشاهده، وآخر شأنك بأوّله.

وكتب الصاحب أبو القاسم كافى الكُفاة فى وصف كتاب: ومن هو الذى لا يُحبّه وهو علَم الفضل، وواسطةُ الدهر، وقرارةُ الأدب والعلم، ومجمعُ الدّراية والفهم؛ أمّن يرغب عن مكاثرة بمن[4] يُنسَب الربيعُ الى خُلقه، ويكتسب محاسنه من طبعه، ويتوشّح بأنواره، ويتوضّح بآثار لسانه ويده؟ وصل كتابُه، فارتحتُ لعُنوانه قبل عِيانه، حتى اذا فضضتُ ختامَه أقبلت الفِقَرُ تتكاثر، والدُّررُ تتناثر، والغررُ تتراكم، والنُّكتُ تتزاحم؛ فإذا حكمتُ للفظة بالسَّبْق أتت أختُها تُنافس[5]،

(١) العنود: من عند عن الطريق إذا مال.

(٢) كذا فى اليتيمة؛ والذى، فى الأصل: "مستكرها".

(٣) كذا فى الأصل؛ والذى فى يتيمة الدهر: «مريح» والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين. والسريح: السريع المعجل. والمزيح: من الإزاحة، وهى الإبعاد.

(٤) هذه الباء ساقطة من الأصل، والسياق يقتضى إثباتها. (٥) لعله: «تنافر»؛ إذ به يتم السجع الذى توخاه الكاتب فى أكثر رسالته؛ والتنافر: التحاكم فى الفخر.

وأقبلتْ لديهـا نتفاخر، حتى استعفَيتُ من الحُكومة، ونفضتُ يدى من غبار الخصومة، وأخذت أقول : كلْكن صَـوادرُ عن أصلٍ واحدٍ فتسالَمْن، وأرفادٌ عن معدن رافد (١) فتصالَحن، وقـد وليتُ النظرَ بينهما مَن كَمل لِنَسْج بُرودِهما، ووَفّى بنَظْمِ عُقودِهما، على أننى يامولاى أنشأتُ هـذه الأحرفَ وحولى أعمالٌ وأشغالٌ لا يَسلَم معهما فِكْر، ولا يَسلَم بينهما طبع، وتناولتُ قلما كالابنِ العاقّ ، بل العدوِّ المُشاقّ ، اذا أردتُه استقال، واذا قوّمتُه مال، واذا حثثتُه وقَف، واذا وقفتُه انحرف، أحدل (٢) الشّـقّ، متفاوِت البَرْى ، معـدوم الجَرْى، محرَّف القَطّ ، مشّج (٣) الخطّ ، ثم رأيتُ العُدول عنه ضربا من الانقياد لأمرِه ، والانخراطِ فى سِـلكه ، فجَهَدتُه على رَغْمِه، وكَدَدتُه على صَغَرِه، لا جَرَمَ أنّ جناية اللّجاج باديةٌ على صفحات الحروف لا تَخفى، وعاديةَ المَحْك (٤) لائحةٌ على وجوه السطور تَجلّى .

وكتب : واللهُ يعلم أنى أُخبِرتُ بورود كتابه واسـتفزّنى الفرحُ قبل رؤيتـه ، وهزّ عِطْفِى المَرَحُ أمام مشاهَدته ، فمـا أدرى، أسمعتُ بورود كتاب، أم ظَفِرتُ برجوع شباب ؟ ثم وصل بعد انتظار له شديد، وتطلّع الى وصوله طويلٍ عريض، فتأمّلتُه فلم أدر ما تأمّلت ، أخطًّا مسطورا ، أم روضا ممطورا ، أم كلاما منثورا ، أم وَشْيا منشورا؟ ولم أدر ما أبصرتُ فى أثنائه، أأبياتَ شِعر، أم عقودَ دُرّ؟ ولم أدر ما جُمانُه، أغيثٌ حَلّ بِوادى ظمآن، أم غَوثٌ سبَق إلى لهفان؟ .

وكتب : وصل كتاب القاضى فأَعظَمتُ قَدْرَ النعمة فى مَطْلعه، وأجلَلت محلّ الموهبة بمَوقِعه، وفضضتُه عن السحر حلالا، والمـاءِ زُلالا، وسرّحتُ الطَّرْفَ منه

(١) فى الأصل : «وارد» ؛ وهو تحريف لا يستقيم به المعنى .

(٢) الأحدل : المـائل .

(٣) المشج : المعمى الخفى . (٤) المحك : التمادى فى اللجاج والغضب .

فى رياض رقّت حواشيها، وحُلِلٍ تأنّق واشيها؛ فلَم أتجاوزْ فصلا إلاّ إلى أخطَر[1] منه فضلا، ولم أتخطَّ[2] سطرا إلا الى أحسَنَ منه نَظما ونثرا .

وكتب أيضا : وصل كتابك فجعَلتُ وُصولَه عيدا أؤرِّخ به أيّامَ بهجتى، وأفتتح به مواقيتَ غِبطتى ؛ وعرفتُ من خَبَر سلامتك ما سألتُ الله الكريم أن يصله بالدوام، ويرفعَه على أيدى الأيام .

وكتب أيضا : وصل كتابُه — أيّده الله — يَضحَك عن أخلاقه الأَرِجة ، ويتهلّل عن عِشرته العَطِرة؛ ويُخبِر عن عافيـة الله لمن[3] رأيتُ شَمْلَ الحُرّيّة به منتظِما ، وشَـعْبَ المروءة له ملتئما ؛ ويَحمِـلُ من أنواع بِرِّه ما أَقصُر عن ذكره ، ولا أطمع فى شكره؛ ويؤدّى مِن لطيف اعتذاره فى أثناء عَتْبِه، ما تَزداد أسبابُ المودّة تمهيدا به؛ وفهِمتُه، ورَغِبتُ إلى الله بأَخلَص طَويّة، وأَمحَض نيّة[4] .

وقال أبو الفرج البَبْغاء من رسالة إلى عُدّة الدّولة أبى تغلب جاء منهـا : أصحُّ دلائلِ الإقبال ، وأصدَقُ براهينِ السعادة — أطال الله بقاء سيّدنا — ما شَهِدت العقولُ بصحّته، ونَطقت البصائرُ بحقيقته، ونعمةُ الله على الدّنيا والدِّين بما أولاهما من اختيار سيّدنا لحراستهما بناظِرِ فضله، وسـتْرِهما بظلّ عدله ؛ مُفصِحةٌ بتكامُلِ الإقبال، مُبشِّرةٌ بتصديق الامال

محروسةٌ ضِمن الشكرُ الوفىُّ لهـا * على الزيادة نَيلَ السّؤل والدَّرَكِ

(١) فى الأصل : «أخصر» بالصاد، وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : « ولم ألحظ » وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه قوله بعد : « إلا إلى » .

(٣) فى الأصل : «عما» ؛ وسياق العبارة يقتضى ما أثبتنا .

(٤) إلى هنا وردت هـذه الرسالة فى الأصل ؛ والكلام بقية سقطت من الناسخ، ولم نقف عليه فيا بين أيدينا من المظان .

تحقّقَ العصرُ أنّ المُلكَ منذ نشا * له أبو تغلِبَ ٱسمٌ غيرُ مشــترك
واستَخلَفَ الفَلَكُ الدوّارُ همّتَه * فلو وَنَى أغنت الدنيا عن الفَلَكِ

مأمونُ الهفوات ، متناصرُ الصفات[1]، رِبْعيُّ[2] النَّفاسـةِ، حَمدانيُّ السياسـةِ، ناصريُّ الرياسة، عُطاردى الذّكاء، موفّقُ الآراء، شمسيُّ التأثير، قَمَرىُّ التصوير، فَلَكيُّ التدبير، لِلصّدقِ كلامُه، ولِلعدلِ أحكامُه، ولِلوفاءِ ذمامُه، ولِلحسامِ غَناؤه، ولِلقَدَرِ مَضاؤه، ولِلسحابِ عطاؤه

دعوتُه فأجابتــنى مكارمُــه * ولو دعوتُ سوى نعماه لم تُجِبِ
وجدتُه الغيثَ مشغوفاً بعادته[3] * والروضُ يحيا بما فى عادة السُّحُبِ
لو فاته النسَبُ الوَضّاحُ كان له * من فضلِه نسبٌ يُغنِى عن النسَبِ
إذا دعته ملوكُ الأرض سيّدَها * طرّاً دعته المعالى سيّدَ العَرَبِ .

وكتب أبو الحسن[4] علىّ بن القاسم القاشانىّ :

ما أرتضى نفسى لمخاطبــة مولاى إذا كنتُ منفىَّ الشواغل، فارغَ الخواطر، مُخلى الجوارح، مطلقَ الإسار، سليمَ الأفكار، فكيف مع كَلالِ الحِدّة ، وانغــلاقِ الفهم، واستبهامِ القريحة ، واستعجامِ الطبيعة ؛ والمعوَّلُ على النيّة ، وهى لمولاى بظَهر الغيب مكشوفة، والمرجعُ إلى العقيدة، وهى بالوَلاء المَحْض معروفة؛ ولا مجال للعتب عن هذه الأحوال، لِلعذرِ وراء هذه الخلال .

---

(١) يقال : تناصرت الصفات، إذا صدق بعضها بعضا .

(٢) الربعىّ : نسبة إلى الربيع على غير قياس .

(٣) عبارة الأصل : « مشغوفا بغادية » ؛ وهو تحريف لا يستقيم به المعنى، والتصويب عن يتيمة الدهر ج ١ ص ١٨٧ طبع دمشق

(٤) كذا فى الأصل . والذى فى يتيمة الدهر ج ٢ ص ١٠١ طبع دمشق : « أبو القاسم » .

وقال محمد بن العباس الخوارزمى : الحمد لله الذى جعل الشيخ يضرب فى المحاسن بالقدح المُعَلَّى، ويسمو منها إلى الشرف الأعلى ، ولم يجعل فيه موضعا للولا ، ولا مجالا لإلا ؛ فإن الأستثناء إذا اعترض فى المدح أنصبّ ماؤه ، وكُدّر صفاؤه ، وانطلق فيه حسّاده وأعداؤه ؛ ولذلك قالوا : ما أحسنَ الظَّبى لولا خَنَسُ[1] أنفه ! وما أحسنَ البدرَ لولا كَلَفُ وجهه ! وما أطيَبَ الخمرَ لولا الخُمار ! وما أشرفَ الجُودَ لولا الإقتار ! وما أحمدَ مَغَبّةَ الصبر لولا فناءُ العمر ! وما أطيَبَ الدنيا لو دامت

ما أعلَمَ الناسَ أنّ الجُودَ مَكسَبةٌ * للحمد لكنّه يأتى على النَّشَبِ.

ذكر شىء من رسائل فضلاء المغاربة ووزرائهم وكتّابهم ممن ذكرهم ابن بسام فى كتابه المترجم بالذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة

منهم ذو الوزارتين أبو الوليد بنُ زَيدون ، فمن كلامه رسالةٌ كتبها على لسان محبوبته وَلّادةَ بنتِ محمد بنِ عبد الرحمن الناصرى الى إنسان استمالها إلى نفسه عنه ، وهى :

أما بعد، أيها المصابُ بعقله ، المورَّطُ بجهله ، البيّنُ سَقَطُه ، الفاحشُ غلطُه ، العاثرُ فى ذيل اغترارِه ، الأعمى عن شمس نهارِه ، الساقطُ سقوط الذباب على الشراب ، المتهافتُ تَهافُتَ الفَراش فى الشهاب[2] ؛ فإنّ العُجبَ أكذَب ، ومعرفة المرء نفسَه أصوَب ، وإنك راسلتنى مستهديا من صِلتى ما صَفِرتْ منه أيدى أمثالك ، متصدّيا من

(١) الخنس بفتح الخاء والنون : تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل فى الأرنبة .

(٢) كذا فى سرح العيون ص ١١ طبع بولاق ، وفى الأصل : «الى» ؛ والتهافت : التساقط .

خُلّتى لمـا قُرِعتْ فيه أُنوفُ[1] أشكالِك ، مرسِلا خليلتك مُرتادة ، مستعمِلا عشيقتَك قوّادة ، كاذبا نفسَك [أنك][2] ستنزِل عنها إلىّ ، وتَخلُف بعدها علىّ

ولستَ[3] بأوّلِ ذى هِمّةٍ * دعتـه لمـا ليس بالنائلِ

ولا شـكّ فى أنها قَلَتْك إذ لم تَضِنّ بك ، وملّتك إذ لم تَغَر عليك ، فإنهـا أَعذَرتْ فى السِّفارة لك ، وما قصّرتْ فى النيابة عنك ؛ زاعمـةً أنّ المروءة لفظٌ أنت معناه ، والإنسانيّةَ آسمٌ أنت جسـمُه وهَيولاه ؛ قاطعةً أنّك آنفردت بالجمال ، وآسـتأثَرتَ بالكمال ، وآسـتَعلَيتَ فى مراتب الجلال ، واسـتَولَيتَ[4] على محاسن الخلال ؛ حتّى خَيّلتْ أنّ يوسف عليه السلام حاسَنَك فغَضضتَ منـه ، وأنّ آمرأةَ العزيز رأتك فسَلَت عنـه ؛ وأنّ قارونَ أصاب بعضَ ما كَنَزتَ ، والنّطِفَ[5] عَثَر على فضل

---

(١) فى بعض نسخ هذه الرسالة : «دونه» ؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ؛ وقد أثبتناها عن سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون لابن نباتة المصرى ص ١٤ طبع بولاق .

(٣) البيت للتنبيّ .

(٤) وردت هذه الفقرة فى الأصـل قبل قوله : «قاطعة» الخ والسياق يقتضى تأخيرها كما فى سرح العيون ص ٢١

(٥) النطف : هو ابن جبير بن حنظلة اليربوعى ؛ وكان مقيما بالبادية مع بنى تميم ؛ وكان من أمره أن عامل كسرى على اليمن كان يحمل ثيابا من ثياب اليمن وذهبا ومسكا وجوهرا ، ويرسله الى كسرى مع خفراء من بنى الجعد المرازبة الى أن يصل الى أرض بنى تميم ، فيبعث معها هوذة من يجاوزها أرض بنى تميم ، فلما كان فى بعض السنين فى أرض بنى حنظلة تعرّض لها بنو يربوع فأغاروا عليها وقتلوا من بها من العرب والفرس ، وكان فيمن فعل ذلك ناجية بن عقال والحرث بن عقبة والنطف بن جبير هـذا ، وكانوا فرسان بنى تميم ، فنهبوا الأموال ، فحصل النطف على شىء كثير ، فضرب به المثل . انظر سرح العيون ص ٢٥ طبع المطبعة الأميرية . والذى فى اللسان مادة «نطف» نقلا عن ابن برّى أنه ابن الخيبرىّ أحد بنى سليط ابن الحرث بن يربوع ؛ ونقل عن ابن دريد أيضا أن آسمه حطان .

ما ركزت[1]، وكسرى حمل غاشيتك[2]، وقيصر رعى ماشيتك؛ والإسكندر قتل دارا[3] في طاعتك، وأردشير[4] جاهد ملوك الطوائف لخروجهم عن جماعتك؛ والضحاك[5] استدعى مسالمتك، وجذيمة الأبرش[6] تمنى منادمتك، وشيرين[7] نافست بوران[8] فيك؛

(١) هو من الركاز، وهو دفين مال الجاهلية .

(٢) أراد غاشية السرج، وهي غطاؤه .

(٣) هو دارا الأصغر ابن دارا الأكبر ابن أردشير ملك الفرس؛ وكان بينه وبين الإسكندر بن فيليب ملك الروم حرب بسبب إتاوة كان يدفعها أبو الإسكندر لملوك الفرس ؛ فلما جاء الإسكندر منع هذه الإتاوة ، فحاربه دارا ، والتقى الجمعان بنصيبين الجزيرة ، وانتهت الوقعة بقتل دارا وانهزام الفرس انظر سرح العيون وقد اعتمدنا عليه في أكثر شرحنا لما ورد في هذه الرسالة من الحوادث التاريخية والأبيات والأمثال .

(٤) أردشير : هو ابن بابك من ولد بهمن الملك؛ وأردشير هذا أول الفرس الثانية؛ وكان من أمره وأمر ملوك الطوائف أن الإسكندر لما قتل دارا آخر ملوك الفرس، وفرق من بقي منهم، وسماهم ملوك الطوائف صارت المملكة لليونان، فلما توفي الإسكندر وتقاصر ملك اليونان بعد مدة تحرك أردشير — وكان أحد أبناء ملوك الطوائف على اصطخر — ، وخرج طالبا للملك، وأوهم انه يطلب بثأر ابن عمه دارا، وجمع الجموع، وكاتب ملوك الطوائف في ذلك ، فنهم من أطاعه ومنهم من تأخر عنه، فخرج بعساكره فقتل المتأخر، ثم عطف على بقيتهم فقتلهم، وتسمى بعد ذلك شاهنشاه الأعظم، ومعناه : ملك الملوك .

(٥) الضحاك : يزعم قوم أنه ابن الأهبوب بن عوج بن طهمورث بن آدم، وهو ابن أخت جمشيد بن أوشهنج . وقال قوم إنه من العرب من قحطان، واليمانية تدعيه . وملك بعد جمشيد، فطغى وتجبر وكثر ظلمه وفساده، وطالت مدته في الملك حتى قتل .

(٦) هو جذيمة بن مالك بن عامر التنوخي، وقيل : الأزدي، أول من قاد العرب وملك على قضاعة وكانت منازله الحيرة والأنبار، وكان أبرص ، فعدل عن هذا الاسم، فقيل : الأبرش بالشين المعجمة، والوضاح .

(٧) شيرين : هي زوجة أبرويز بن هرمز من ولد كسرى أنوشروان .

(٨) بوران : هي بنت أبرويز المتقدم . وقد ملكت بعد شهريار بن أبرويز .

وبلقيس[(١)] غايرت الزبّاء[(٢)] عليك، وأنّ مالك بن نُوَيرة[(٣)] إنما ردف لك، وعُروة[(٤)] بن جعفر إنما رحَل إليك، وكُلَيب[(٥)] بن رَبيعة إنما حَمى المرعى بعزّتك، وجسّاسا[(٦)] إنما قتله بأنفَتك، ومُهَلهِلا[(٧)] إنما طَلَب ثأره بهِمّتك، والسموءل[(٨)] إنما وَفى عن عهدك،

---

(١) بلقيس : هي ابنة الحرث بن سبأ، وقصتها في القرآن معروفة في سورة النمل .

(٢) الزباء ، هي ملكة الجزيرة، وتعـدّ من ملوك الطوائف؛ ولقبت الزباء لكثرة شعرها وطوله، واسمها : بارعة، أو ميسون؛ وهي ابنـة عمرو بن الظرب . وقد قتله جذيمة الأبرش وأخذ ملكه وقامت هي بأخذ ثأره . انظر القاموس وشرحه .

(٣) هو مالك بن نويرة بن شدّاد اليربوعي التميمي، فارس ذي الخمار — وذو الخمار فرسه — وكان مالك من فرسان العـرب وشجعانهم، وذوي الردافة في الجاهليـة، وكانت الردافة لبني يربوع أيام آل المنذر؛ وأدرك مالك بن نويرة الإسلام وأسلم، وقتله خالد بن الوليد في حروب أهل الردّة في زمن أبي بكر رضي الله تعالى عنه . وفي اللسان مادة ردف أن أرداف الملوك في الجاهلية : الذين كانوا يخلفونهم في القيام بأمر المملكة بمنزلة الوزراء في الإسلام .

(٤) هو عروة بن عتبة بن جعفر من بني عامر بن صعصعة، وأهل بيته ينتسبون الى جعفر، فيقال : الجعفريون؛ وكان يعـرف بعروة الرحال لرحلتـه الى الملوك؛ وكان من ذوي العقل والشهامة، وهو من أرداف الملوك .

(٥) هو كليب بن ربيعـة بن الحارث الوائلي؛ ويضرب به المثل فيقال : "أعز من حمى كليب" وكان يحمي مواقع السحاب فلا يرعاه أحد غيره، وكان اذا مرّ بمرعى قذف فيه جروا فيعوي، فلا يرعى أحد من ذلك الكلإ .

(٦) جساس : هو ابن مرّة بن ذهل، وهو قاتل كليب؛ وسبب ذلك أن كليبا رأى بين إبله ناقة كانت لخالة جساس فأنكرها ورماها بسهم في ضرعها، فعظم ذلك على جساس وخالتـه، فلم يزل جساس بكليب حتى قتله .

(٧) مهلهل : هو ابن ربيعة بن الحرث أخو كليب المتقدم ذكره، ومهلهل لقبـه، واسمه عديّ، ولقب مهلهلا لأنه أول من هلهل نسج الشعر، أي أرقه؛ وهو خال امرئ القيس بن حجر .

(٨) السموءل : هو ابن عادياء من يهود يثرب؛ وكان يضرب به المثل في الوفاء فيقال : «أوفى من السموءل» .

والأحنف[1] إنما احتبى فى بُردك، وحاتما[2] إنما جاد بوفرك، ولقى الأضياف ببشرك، وزيد[3] بن مهلهل إنما ركب بفخذيك، والسُّلَيك[4] بن السُّلَكة إنما عدا على رجليك، وعامر[5] بن مالك [إنما لاعب الأسنة بيديك، وقيس بن زهير][6] إنما استعان بدهائك[7]، وإياس[8] بن معاوية إنما استضاء بمصباح ذكائك، وسحبان[9] إنما تكلم بلسانك،

---

(١) الأحنف : هو الضحاك بن قيس بن معاوية بن حصن السعدى، وكنيته : أبو بحر؛ وكان يضرب به المثل فى الحلم والسيادة ؛ وكانت وفاته بالكوفة سنة سبع وستين كما فى وفيات الأعيان والذى فى شذور العقود لابن الجوزى أن وفاته كانت سنة تسع وستين .

(٢) هو حاتم بن عبد الله بن سعد الطائى، وكنيته أبو سفانة بتشديد الفاء وأبو عدىّ ؛ ويضرب به المثل فى الجود. (٣) هو زيد بن مهلهل بن زيدان الطائىّ ؛ وكان فارسا مظفرا بعيد الصيت، أدرك الإسلام وأسلم، وسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد الخير، وكان قبل ذلك يسمى زيد الخيل باللام، وإنما سمى بذلك لكثرة خيله . (٤) السليك : هو ابن عمرو بن يثربىّ، أحد بنى مقاعس ؛ والسلكة أمه، وهو جاهلىّ ؛ وكان من صعاليك العرب ولصوصهم العدّائين الذين كانوا لا يلحقون ولا تتعلق بهم الخيل .

(٥) هو عامر بن مالك بن جعفر من بنى صعصعة، ويعرف بملاعب الأسنة، ويكنى أبا براء، وأمه أم البنين أنجب امرأة فى العرب، وإنما لقب بملاعب الأسنة لقول أوس بن حجر فيه :

يلاعب أطراف الأسنة عامر * فراح له حظ الكتائب أجمع

(٦) هذه التكملة ساقطة من الأصل ، وقد أثبتناها عن النسخ التى بين أيدينا لهذه الرسالة . وقيس بن زهير الذى ذكره : هو قيس بن زهير بن جذيمة العبسىّ صاحب الحروب بين عبس وذبيان بسبب الفرسين : داحس والغبراء، وكان فارسا شاعرا داهية، يضرب به المثل فيقال : "أدهى من قيس" .

(٧) فى الأصل : «بذهابك» بالذال والباء الموحدتين، وهو تحريف .

(٨) هو إياس بن معاوية بن قرّة المزنىّ ؛ ولى قضاء البصرة فى زمن عمر بن عبد العزيز، وهو صاحب الفراسة والأجوبة البديعة، ويضرب به المثل فيقال : « أزكن من إياس » ؛ وتوفى فى سنة احدى وعشرين ومائة وهو ابن ست وتسعين سنة .

(٩) هو سحبان بن زفر بن إياس الوائلى — وائل باهلة — وكان خطيبا مفصحا، يضرب به المثل فى البيان واللسن، أدرك الإسلام وأسلم، ومات سنة أربع وخمسين .

وعمرو بن الأهتم[1] إنما سحر ببيانك، وأنّ الصلح بين بكر وتغلب[2] تمّ برسالتك، والحَمالات[3] في دماء عبس وذُبيان أُسندت إلى كفالتك، وأنّ احتيال هَرِم[4] لعامر وعلقمة حتى رضيا كان عن رأيك، وجوابه لعمر وقد سأله عن أيهما كان ينفّر[5] وقع بعد مشورتك؛

(١) هو عمرو بن سنان الأهتم التميمي المنقري، وإنما لقب أبوه بالأهتم لأنه هتمت ثنيته يوم الكلاب؛ وكان عمرو هـذا من أكابر سادات بنى تميم وشعرائهم وخطبائهم في الجاهلية والإسلام، وقد وفد على رسـول الله صلى الله عليه وسلم هو والزبرقان بن بدر وأسلما؛ وتوفى عمرو في سنة سبع وخمسين.

(٢) بكر وتغلب هما ابنا وائل؛ وأشار بهذه العبارة الى ما وقع بين الحيين من الحروب المسماة بحرب البسوس، وقد استمرت أعواما كثيرة الى أن تفانى الحيان، وسـببها قتل جساس بن مرة لكليب كما سبق ذكره، الى أن واسـاهم في الصلح بينهم الحارث بن عمرو بن معاوية الكندى ملك كنـدة، وهو جدّ امرئ القيس الشاعر، فلكوه عليهم فتلافى بقيتهم.

(٣) الحمالات: جمع حمالة بفتح الحاء، وهى ما يتحمله الرجل عن القوم من دية أو غرامة. وأشار بهذه العبارة الى ما وقع بين عبس وذبيان من الحروب الكثيرة بسبب داحس والغبراء، وهما فرسان: أولهما لقيس ابن زهير من عبس، والثـانى لحذيفة بن بدر من ذبيان؛ وذلك أن رجلين تراهنا على أى الفرسين أسبق، فلما سبق داحس وهو فرس قيس بن زهير أخذ قيس سبق فرسـه من حذيفة، ثم وقعت بعد ذلك الحروب التى سلف ذكرها بين الحيين، وكان أعظمها يوم الهباءة، الى أن أصلح بينهم هرم بن سنان والحارث بن عوف وحملا عن القوم المغارم والديات، وأدّيا ذلك للقوم من مالهما.

(٤) هو هرم بن قطبة بن سـيار من بنى فزارة كما في اللسان مادة «هرم». والذى في سرح العيون «ابن سنان»؛ وهو تحريف. وكان هرم هـذا حكما من حكام العرب يقضى بين ساداتهـم فلا يرد قضـاؤه. وعامر: هو ابن الطفيل بن مالك. وعلقمة: هو علقمة بن علاثة بن جعفر من بنى عامر بن صعصعة؛ وكان عامر وعلقمة قد تنافرا الى هرم بن سيار ليحكم أيهما أفضل وأكرم حسبا، فكره هرم أن يفضـل أحدهما على الآخر وسوّى بينهما، وخشى العـداوة التى تقع بينهما بسبب تفضـيل أحدهما على الآخر.

(٥) يقال: نافرته الى الحكم فنفرنى عليه، أى حاكمته فغلبنى عليه انظر الأساس؛ وأشار بهذه العبارة الى ما وقع بين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهرم بن سيار المتقـدم ذكره، وذلك أن عمر سأله يوما، وقال له: يا أبا عمرو أيهما كنت تنفر؟ — يعنى علقمة وعامرا — ومن كان عنـدك الأفضل منهما؟ فقال هرم: لو قلت الآن فيهما كلمة لعادت جذعة؛ يعنى الحرب بين الحيين، فأعجب عمر بهذا القول من هرم، وقال: بحق حكمتك العرب.

وأنّ الحجّاج[1] تقلّد ولايةَ العراق بجدِّك، وقُتَيبةَ[2] فتح ماوراء النهر بسعدك، والمهلّبَ[3] أوهى شَوكةَ الأزارقة بأيدك، وأفسد ذات بينهم بكيدك، وأنّ هرمس[4] أعطى بلينوسَ ما أخذ منك، وأفلاطونَ[5] أورد على أرسطوطاليس ما حدّث عنك،

---

(١) الحجاج: هو ابن يوسف بن أبي عقيل الثقفي؛ وكانت ولادته في سنة إحدى وأربعين، ونشأ بالطائف؛ وولى العراق من قبل عبد الملك بن مروان رابع خلفاء بني أمية، فأخمد الفتن به، وأوهى شوكة الخوارج هناك؛ وتوفى بواسط سنة خمس وتسعين.

(٢) قتيبة: هو ابن مسلم بن عمرو الباهلىّ؛ نشأ في الدولة المروانية وترقى الى أن ولى الإمارات، وفتح الفتوحات الكثيرة؛ وكان واليا على خراسان من قبل عبد الملك بن مروان بعد يزيد بن المهلب، وهو الذي فتح بلاد ما وراء النهر؛ وفي وفيات الأعيان انه توفى سنة ست وتسعين. وما وراء النهر: يراد به ما وراء نهر جيحون بخراسان، فما كان في شرقيه يقال له: بلاد الهياطلة، وفي الاسلام سموه: ما وراء النهر، وما كان في غربيه فهو: خراسان وولاية خوارزم.

(٣) المهلب: هو ابن أبي صفرة الأزدي العتكىّ البصري؛ وقد نشأ في دولة بني أمية، ثم أمره مصعب ابن الزبير على البصرة نيابة عنه في أيام أخيه عبد الله بن الزبير، ثم ولاه عبد الله خراسان؛ وهو الذي قاتل الخوارج وأوهى شوكتهم، وكانت وفاته في زمن الحجاج سنة ثلاث وثمانين. والأزارقة: هم الخوارج القائلون بمذهب نافع بن عبد الله بن الأزرق، فنسبوا اليه.

(٤) هرمس، ذكر ابن نباتة في سرح العيون ص ١٠٨ أن هرمس هو الذي يزعم قوم من الصابئة أنه نبىّ مرسل، وأنه إدريس عليه السلام ويسندون اليه شرائعهم. وبلينوس هو الذي تزعم الصابئة أيضا أن النبوّة له بعد هرمس؛ وكان بلينوس قد أخذ العلوم والأسرار عن هرمس هذا.

(٥) أفلاطون: هو ابن أرسطس، الالهىّ، معروف بالتوحيد والحكمة، تلمذ لسقراط، وخلفه بعد موته؛ وهو أحد المشائين المشهورين، وهي فرقة ترى مدارسة الحكمة في حالة المشى لرياضة البدن. وأرسطوطاليس: هو ابن نيقوماخوس؛ وهو المعروف بالمعلم الأوّل، وانما سمى بذلك لأنه أوّل من وضع التعاليم المنطقية، وقد تعلم الحكمة من أفلاطون وهو الذي علم الإسكندر ابن فيليب.

وبطلميوس[1] سوّى الأسطرلاب بتدبيرك، وصوّر الكرة على تقديرك؛ وأبقراط[2] علم العلل والأمراض بلطف حسّك[4]، وجالينوس[3] عرف طبائع الحشائش بدقة نظرك؛ وكلاهما قلّدك فى العلاج، وسألك عن المزاج؛ واستوصفك تركيب الاعضاء، واستشارك فى الداء والدواء؛ وأنك نهجت لأبى معشر[5] طريق القضاء، وأظهرت

(١) بطلميوس: هو صاحب كتاب المجسطى الكبير والجغرافيا والأصطرلاب وغير ذلك، قال جمال الدين بن نباتة فى سرح العيون ص ١١٣ إنه أوّل من شرح القول على هيئات الفلك، وأخرج علم الهندسة من القوة الى الفعل، وأكثر الرواة يقولون: إنه ثالث ملوك اليونان بعد الاسكندر. ا هـ وأنكر ذلك القفطىّ فى كتابه إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٩٥ طبع لبسك وقال ما نصه: وكثير من الناس ممن يدعى المعرفة بأخبار الأمم يخيله أحد البطالسة الذين ملكوا الاسكندرية وغيرها بعد الاسكندر، وذلك غلط بين وخطأ واضح الخ. وأما الأسطرلاب بفتح الهمزة وضم الطاء كما نص على ضبطه ابن خلكان فى ترجمة البديع الاسطرلابى: فقد قالوا: إنه باللغة اليونانية ميزان الشمس، وبه يعرف مقدار الساعات وأخذ الأرصاد ومطالع الكواكب.

(٢) أبقراط: هو سابع الأطباء الثمانية المشهورين الذين أولهم أسقبليبوس وآخرهم جالينوس. قال فى سرح العيون: كان فى زمن بهمن بن اسفنديار وقال القفطى فى كتابه اخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٩٠ طبع لبسك أنه كان فى زمن اردشير من ملوك الفرس جد دارا بن دارا. وهو الذى بث صناعة الطب فى الناس، وعلم الغرباء بعد أن كانت هذه الصناعة مقصورة على طائفة يتوارثونها بالتلقين، ولم يكونوا يكتبون فيها شيئا؛ وهو أوّل من اتخذ البيمارستان، وذلك أنه عمل بالقرب من داره موضعا مفردا للرضى، وجعل لهم خدما يقومون بمداواتهم، وسماه: إخشيد، أى مجمع المرضى، وكذلك لفظ البيمارستان بالفارسية.

(٣) جالينوس: هو آخر الحكماء المشهورين، ويسمى خاتم الأطباء والمعلمين، وذلك أنه عند ما ظهر وجد صناعة الطب قد كثرت فيها أقوال الأطباء السوفسطائيين ومحيت محاسنها، فانتدب لذلك وأبطل آراءهم وشيد آراء أبقراط والتابعين له ونصرها، وساح وطلب الحشائش، وجرّبها، وقاس أمزجتها وطبائعها، وشرح الأعضاء، ووضع الكتب النفيسة فى هذه الصناعة. (٤) فى سرح العيون: «حدسك».

(٥) أبو معشر: هو جعفر بن محمد بن عمر البلخىّ المنجم المشهور؛ كان فى الأوّل من أصحاب الحديث ببغداد، وكان يشنع على الكندى الفيلسوف بعلوم الفلسفة، ويغرى به العامة، فدس له الكندى من حسن له النظر فى علم الحساب والهندسة، فدخل فى ذلك، ثم عدل الى أحكام النجوم، فمهر فيها، وانقطع شره عن الكندى لأن ذلك من جنس علومه، وكانت وفاته سنة اثنتين وسبعين ومائتين. والمراد بالقضاء هنا: حكم المنجمين بتأثير الكواكب أخذا من قول الشاعر: «يقضون بالأمر عنها وهى غافلة» أى عن النجوم.

جابرِ بنَ حيّانَ (١) على سِرّ الكيمياء، وأعطيتَ النظّامَ (٢) أصلاً أدرك به الحقائق، وجعلتَ للكندىّ (٣) رسماً آستخرَجَ به الدقائق؛ وأن صناعةَ الألحان آختراعُك، وتأليفَ الأوتار توليدُك وآبتداعُك؛ وأن عبدَ الحميد بنَ يحيى (٤) بارِى أقلامِك، وسهلَ بنَ (٥)

---

(١) قال فى سرح العيون عند شرحه لهذه العبارة مانصه: «وأما جابر بن حيان المذكور فلا أعرف له ترجمة صحيحة فى كتاب يعتمد عليه، وهذا دليل على قول أكثر الناس: إنه اسم موضوع وضعه المصنفون فى هذا الفن، وزعموا أنه كان فى زمن جعفر الصادق». (٢) النظام: هو ابراهيم بن سيار ابن هانىء البصرى، وكنيته: أبو إسحاق؛ وهو شيخ من كبار المعتزلة وأئمتهم، متقدّم فى العلوم، شديد الغوص على المعانى؛ وكانت وفاته سنة إحدى وعشرين ومائتين وهو ابن ست وثلاثين سنة، كما فى سرح العيون. وقال الصفدىّ فى كتاب الوافى بالوفيات إنه توفى سنة ثلاثين ومائتين تقريبا.

(٣) الكندى: هو يعقوب بن إسحاق بن الصباح بن عمران بن إسماعيل بن محمد بن الأشعث بن قيس، وكنيته أبو يوسف؛ وكان الكندى متبحرا فى فنون الحكمة اليونانية والفارسية والهندية، وهو فيلسوف العرب وأحد أبناء ملوكها؛ وكان أبوه إسحاق بن الصباح أميرا على الكوفة للهدى والرشيد، وكان جدّه الأشعث بن قيس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، والكندى هذا تآليف مشهورة من المصنفات الطوال، ومن الرسائل القصار جملة متعدّدة، قال فى كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٣٦٨ طبع ليبسك نقلا عن آبن جلجل الأندلسى فى كتابه: يعقوب بن الصباح الكندى كان شريف الأصل بصريا، وكان جدّه ولى الولايات لبنى هاشم، ونزل البصرة، وانتقل الى بغداد، وهنالك تأدّب، وكان عالما بالطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطق وتأليف اللحون والهندسة وطبائع الأعداد والهيئة، وله تآليف كثيرة فى فنون من العلم الخ. (٤) هو عبد الحميد بن يحيى بن سعيد العامرى، أحد الكتّاب المجيدين الذين اشتهرت بلاغتهم حتى ضرب بها المثل، وكان كاتبا لمروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية، فلما قتل مروان استخفى عبد الحميد حتى عثر به أصحاب أبى مسلم، فسلموه الى السفاح، فسلمه الى عبد الجبار صاحب شرطته فقتله سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

(٥) هو سهل بن هارون بن راهبون، وكنيته أبو عمرو، من أهل نيسابور، نزل البصرة فنسب اليها، ويقال: إنه كان شعوبيا — والشعوبية: فرقة تبغض العرب، وتتعصب عليها للفرس — وقد انفرد سهل فى زمانه بالبلاغة والحكمة، وصنف الكتب معارضا بها كتب الأوائل حتى قيل له: بزرجمهر الاسلام، وله اليد الطولى فى النظم والنثر؛ وكان فى أوّل أمره خصيصا بالفضل بن سهل، ثم قدمه الى المأمون، فأعجب ببلاغته وعقله، وجعله كاتبا على خزانة الحكمة، وهى كتب الفلاسفة التى نقلت للأمون من جزيرة قبرس وفى معجم الأدباء لياقوت ج ٤ ص ٢٥٩ أنه توفى فى سنة مائتين وخمسة عشر.

هارون مدوّنُ كلامك ؛ وعَمرُ بنَ بحرٍ(1) مستمليك ، ومالكُ بنَ أنَس(2) مستفتيك ؛ وأنك الذى أقام البراهين ، ووضَعَ القوانين ، وحَدَّ المـاهيّـة ، وبيّن الكيفيّـةَ والكَمّيّة ، وناظَرَ فى الجوهر والعَرَض ، وبيّن الصحّةَ من المرض ؛ وفكَّ المُعمّى ، وفصل بين الاسم والمسمّى ، وضَرب وقَسَّم ، وعَدل وقوّم ؛ وصنّف الأسماء والأفعال ، وبوّب الظّرفَ والحال ، وبنَى وأعرب ، ونفَى وتعجّب ، ووَصل وقَطع ، وثنّى وجَمع ، وأظهر وأضمر ، وٱبتدأ وأخبر ، وٱستفهم وأهمَل وقيّـد ، وأرسَل وأسنَد ، وبَحث ونظر ، وتصفّح الأديان ، ورجّح بين مذهبى مانى(3) وغَيلان(4) ، وأشار بذَبْح الجَعْد(5) ، وقتل بَشار

(1) هو عمرو بن بحر بن محبوب ، ويكنى أبا عثمان ، وهو المعروف بالجاحظ ؛ وهو إمام الفصحاء والمتكلمين ؛ ولد بالبصرة ، ونشأ ببغـداد ، واشتغل على أبى إسحاق النظام بمذهب الاعتزال ، وتأمل كتب الفلاسفة ، ومال الى الطبيعيين منهم ، وساد على المتكلمين بفصاحته وحسن عبارته ؛ وتوفى بالفالج سنة خمس وخمسين ومائتين .

(2) هو مالك بن أنس بن مالك بن أبى عامر التيمى ، وكنيته أبو عبد الله ؛ إمام دار الهجرة وصاحب كتاب الموطأ . وذكر ابن خلكان فى ترجمته أنه ولد فى سنة خمس وتسعين ، وتوفى سنة تسع وسبعين ومائة .

(3) مانى : هو الذى تنسب إليه الطائفة المـانوية ؛ ظهر فى أيام سابور بن أردشير ، وتبعه خلق كثير من المجوس ، وادّعوا له النبوّة ، وكان يزعم أن صانع العالم اثنان : فاعل الخير ، وهو النور ، وفاعل الشر ، وهو الظلمة ؛ وقد قتل مانى فى زمن بهرام بن سابور . وأما غيلان : فهو ابن يونس القدرىّ الدمشقىّ ، كان أبوه مولى لعثمان بن عفان ؛ وغيلان أوّل من تكلم فى القـدر وخلق القرآن ، وقد قتل غيلان فى زمن هشام ابن عبد الملك .

(4) الجعد : هو ابن درهم مولى بنى الحكم ، كان يسكن دمشق ، و يعلم مروان بن محمـد آخر خلفاء بنى أمية ، فنسب إليه ، وقيل له : مروان الجعدىّ ؛ وكان الجعـد يقول بخلق القرآن ، ثم طلب فهرب ، ثم نزل الكوفة فتعلم منه الجهم بن صفوان القول الذى نسب إليه الجهمية ، ولم يزل الجعد بن درهم بالكوفة حتى قتله خالد بن عبد الله القسرىّ والى العراق من قبل هشام بن عبد الملك .

(5) هو بشار بن برد الشاعر المعروف ، من مخضرمى الدولتين : الأموية والعباسية ؛ وكان جدّه من طخارستان من سبى المهلب ؛ وكان بشار يتهم بالزندقة ؛ فأمر المهدىّ أن يضرب بالسياط ضرب التلف ، فضرب حتى مات ، وكانت وفاته سنة ثمان وستين ومائة ، ودفن بالبصرة .

ابنِ بُرْد ؛ وأنك لوشئتَ خرقتَ العـادات ، وخالفتَ المعهودات ؛ فأحلتَ البخارَ عذبة ، وأعدتَ السِّلامَ[1] رَطْبة ؛ وَنقلتَ غدا فصار أمسا ، وزدتَ فى العناصر فكانت خَمسا ؛ وأنك المقولُ فيه : "كلُّ الصيد فى جوف الفَرا"[2]

و : ليس على الله بمستنكرٍ * أن يجمع العالَمَ فى واحدِ[3]

٥ والمعنىُّ بقول أبى تمّـام :

فلو صـوَّرتَ نفسَك لم تزدها * على ما فيـك من كرم الطباعِ

والمرادُ بقول أبى الطيّب :

ذُكِر الأنامُ لنا فكان قصـيدةً * كنتَ البديعَ الفردَ من أبياتها

و"كَدَمتَ غيرَ مَكْدَم"[4] ونفختَ فى غير فحم ؛ ولم تَجِد لُرمح مَهزّا ، ولا لشَفْرةٍ مَحزّا ؛

١٠ بل رضيتَ من الغنيمة بالإياب ، وتمنّيتَ الرجوع بخفَّى حُنين ، لأنى قلتُ لهـا :

"لقد هان من بالت عليه الثعالبُ"[5]

وأنشدتُ :

على أنها الأيامُ قد صرن كلُّها * عجائبَ حتى ليس فيها عجائبُ[6]

---

(١) السلام : الحجارة الصلبة ؛ واحده سلمه بفتح السين وكسر اللام .

١٥ (٢) هو مثل يضرب للشىء المربى على غيره . والفرا : حمار الوحش .

(٣) البيت لأبى نواس .

(٤) الكدم : العض بأدنى الفم ؛ والمكدم : موضع العض ؛ وهو مثل يضرب لمن يطلب شيئا فى غير مطلبه . وفى بعض نسخ الرسالة : « كدمت فى غير » .

(٥) فى مجمع الأمثال : « ذل » ؛ يريد : أنه بلغ فى الحقارة غايتها . وهذا عجز بيت لغاوى بن ظالم

٢٠ السلمىّ ؛ وقيل انه للعباس بن مرداس السلمىّ . وصدر البيت : « أرب يبول الثعلبان برأسه » والثعلبان بضم الثاء واللام : ذكر الثعالب . انظر اللسان .

(٦) البيت لأبى تمـام .

ونخَـرتُ(١) وكفرت، وعبَستُ و بَسَرت(٢)، وأبدأتُ وأعدت، [وأبرقتُ وأرعدت](٣) و«همَمتُ ولَم أفعل وكدتُ [وليتنى](٤)» ولولا [أنّ] للجوارِ ذمّة، وللضيافةِ حُرمة، لكان الجوابُ فى قَذال الدُّمُستُق(٥)، ولكنّ النعـلَ حاضرةٌ إن عادت العقرب، والعقـوبة ممكنةٌ إن أصرّ المذنب، وهَبْها لم تلاحظك بعينِ كَليلةٍ عن عيوبك، ملؤها حبيبُهـا، وحَسَنٌ فيها من تَودّ، وكانت إنمـا حلّتك بحُلاك(٦)، ووسمتْك بسِماك، ولم تُعرْك شهاده، ولا تكلّفتْ لك زياده، بل صدَقتْك سنّ بَكرِها(٧) فيما ذكرتْه عنك، ووضعت الهِنـاء(٨) مواضعَ النُّقْب فيما نسبته إليـك، ولم تكن (كاذبة فيما أثنت به عليـك)(٩)،

(١) النخير : صوت من الأنف أكثر ما يكون عند الغضب، ومنه سمى المنخر .

(٢) بسرت ، من البسر، وهو القطوب .

(٣) التكملة عن سرح العيون؛ وتمـام السجع يقتضى إثباتها .

(٤) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ، وقد أثبتناها عن النسخ التى بين أيدينا لهذه الرسالة . يشير إلى بيت ضابئ بن الحارث بن أرطاة البرجمىّ، وهو :

همت ولم أفعل وكدت وليتنى * تركت على عثمان تبـكى حلائله

يريد عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه .

(٥) أشار بهذه العبارة إلى بيت أبى الطيب المتنبى من قصيدة يمدح بها سيف الدولة، وهو :

وكنت إذا كاتبته قبـل هذه * كتبت إليه فى قذال الدمستق

يريد أبو الطيب الإشارة بهذا البيت إلى ما وقع بين ملك الروم وسيف الدولة؛ وذلك أن ملك الروم جهز جيشا لمحاربة سيف الدولة وجعل أمره الدمستق ، فهزمه سيف الدولة شرهزيمة، وولى الدمستق بجيشه هاربا . والدمستق : لقب عندهم للقدّمين من رجالهم ، أو هو آسم رجل منهم .

(٦) فى الأصل : « لحلاك » باللام؛ وما أثبتناه عن نسخ الرسالة .

(٧) هو مثل يضرب فى الصدق . والبكر بفتح البـاء : الفتىّ من الإبل، ونص المثل : « صدقنى » بالتذكير .

(٨) الهناء : القطران الذى يطلى به الجرب . وتقال هذه العبارة لمن يضع الأشياء فى مواضعها .

(٩) كذا فى سرح العيون وغيره من النسخ التى بين أيدينا لهذه الرسالة . وعبارة الأصل : «ولم يكن أختر ثقله » وهو تحريف لا معنى له .

فالمُعَيدىُّ [1] تسمع به لا أن تراه، هَجِينُ القَذال [2]، أَرعنُ السِّبال، طويلُ العنق والعِلاوة [3]، مُفرِطُ الحُمق والغباوة، جافى الطبع، سيّئُ الجابة [4] والسَّمع، بغيضُ الهيئة، سخيفُ الذَّهاب والجَيئة، ظاهرُ الوَسواس، منتنُ الأنفاس، كثيرُ المعايب، مشهورُ المثالب، كلامُك تمتمة، وحديثُك غمغمة، وبيانُك فهفهة، وضحكُك قهقهة، ومشيُك هرولة، وغناك مسألة، ودينك زندقة، وعلمُك مخرقة

مَساوٍ [5] لو قُسمن على الغوانى * لما أُمهرن إلا بالطّلاقِ

حتى إنّ باقلا [6] موصوفٌ بالبلاغة إذا قُرن بك، وهبنّقة [7] مستحقٌّ لاسم العقل إذا نُسب منك [8]، وأبا غَبْشانَ [9] محمودٌ منه سَدادُ الفعل إذا أضيف إليك،

(١) نصه فى كتب الأمثال : "تسمع بالمعيدىّ خير من أن تراه"؛ ويضرب لمن خبره خير من مرآه؛ والمقول فيه هذا هو شقة بن ضمرة بن جابر من بنى نهشل .

(٢) يقال : فلان هجين القذال؛ أى أنه إذا أدبر عرف لؤم نسبه من قذاله لما يبدو منه من الإطراق حياء . والهجين اللئيم؛ أو هو العربىّ الذى يولد من أمة . والقذال : جماع مؤخر الرأس .

(٣) العلاوة : الرأس ما دام على العنق؛ ويعدون طول الرأس والعنق من دلائل الحمق .

(٤) كذا فى الأساس للزمخشرى؛ والذى فى الأصل : "والإجابة" باثبات الهمزة . والجابة والاجابة بمعنى واحد . يشير بهذا الى قولهم : "أساء سمعا فأساء جابة" . (٥) البيت لأبى تمام .

(٦) هو باقل بن عمرو بن ثعلبة الإيادىّ؛ وفى شرح القاموس أنه من ربيعة؛ ويضرب به المثل فى العىّ .

(٧) هبنقة : هو يزيد بن ثروان أحد بنى قيس بن ثعلبة؛ ويلقب بذى الودعات لأنه جعل فى عنقه قلادة من ودع وعظام وخزف مع طول لحيته؛ فسئل فقال : لئلا أضل؛ فضرب به المثل فى الحمق .

(٨) كذا فى الأصل؛ ولم نقف على ما يفيد صحة هذا التعبير فيما راجعناه من كتب اللغة . وفى النسخ التى بين أيدينا لهذه الرسالة : «إليك» ولم نثبتها مع صحتها لحصول التكرار بها مع ما يأتى بعدها .

(٩) فى الأصل : «عنشان» بإهمال أوّله وثانيه؛ وما أثبتناه عن القاموس مادّة «الغبش»؛ قال ما نصه : «وأبو غبشان ويضم : خزاعىّ كان يلى سدانة الكعبة قبل قريش؛ فاجتمع مع قصى فى شرب بالطائف؛ فأسكره قصى؛ ثم اشترى المفاتيح منه بزق خمر؛ وأشهد عليه؛ ودفعها لابنه عبد الدار؛ وطير به إلى مكة؛ فأفاق أبو غبشان أندم من الكسعىّ؛ فضربت به الأمثال فى الحمق والندم وخسارة الصفقة . قال فى شرحه : «وهو المحترش بن حليل بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو» .

وطُوَيسا[1] مأثورٌ عنه يُمْنُ الطائر إذا قيس عليك؛ فوجودُك عَدَم، والاغتباطُ بك ندم، والخيبةُ منك ظَفَر، والجنّةُ معك سقَر؛ كيف رأيتَ لؤمَك لكرمي كفاء، وضَعتَك لشرفي وَفاء؟ وأنّى جهلتَ أن الأشياء إنما تنجذب إلى أشكالها، والطيرَ إنّما تقع على أُلّافها؟ وهلّا علمت أن الشرق والغـرب لا يجتمعان، وشعُرت أن نادبي المؤمن والكافر لا يتراءيان، وقلت: الخبيثُ والطيّبُ لا يستويان[2]، وتمثلتَ:

أيها المنكحُ الثريّا سُهيلا[3] * عَمرَكَ الله كيف يلتقيان

وذكرتَ أنّي عِلق لا يباع ممن زاد، وطائرٌ لا يصيده من أراد، وغرضٌ لا يصيبه إلا من أجاد؛ ما أحسَبك إلا كنت قد تهيّأتَ للتهنئة، وترشّحتَ للترفئة؛ أولى لك، لولا أنّ جرحَ العَجْماء[4] جُبـار، للقيتَ ما لقيَ من الكواعب يَسار[5]؛ فمـا همّ إلا بدون

(١) طويس: هو مولى بنى مخزوم، وكنيته: أبو عبـد النعيم؛ كان من المجان الظرفاء، وكان يسكن المدينة، وهو أوّل من غنى بهـا على الدف بالعربية، وكان يضرب به المثل فى الشؤم، لأنه ولد يوم قبض رســول الله صلى الله عليـه وسلم، وفطم يوم مات أبو بكر، وختن يوم قتـل عمر. وفى القاموس أنه بلغ الحلم يوم قتل عمر، وتزوّج يوم قتل عثمان، وولد له يوم مات علىّ.

(٢) كذا فى بعض نسخ الرسالة؛ والذى فى الأصل: «لا يجتمعان»؛ وهو مكرر مع ما قبله.

(٣) الشطر الأوّل من هذا البيت ساقط من الأصل، وقد أثبتناه عن سرح العيون، والبيت لعمر بن عبد الله بن أبى ربيعة. والثريا هى بنت على بن عبد الله بن الحـارث بن أمية الأصغر. وسهيل، هو ابن عبد العزيز بن مروان.

(٤) العجماء: البهيمة. والجبار بالضم: الهـدر الذى لا قصاص فيه. يشير إلى قوله صلى الله عليه وسلم: "جرح العجماء جبار".

(٥) يسار: هو عبـد أسود، كانت النساء اذا رأينه ضحكن من قبحه، فكان يظن أنهن يضحكن إعجابا منهن به، فدخل على امرأة مولاه يوما وأراد مغازلتها ظنا منه أنها قد أحبته، فقالت له: إن للحرائر طيبا أشمك إياه، فقال: هاتيه، فأتت بطيب وموسى، فأشمتـه الطيب ثم جدعت أنفه؛ وكان يلقب: «يسار الكواعب».

ما همَمتَ به ، ولا تَعرّض(1) إلا لأيسر ما تعرّضتَ له ؛ أين ٱدّعاؤك روايةَ الأشعار، وتعاطيك حِفظَ السِّيَر والأخبار ؟

بنو دارِمٍ أكفاؤهم آلُ مِسمَعٍ * وتُنكح فى أكفائها الحَبِطاتُ(2)

وهـلّا عَشّيتَ(3) ولم تَغترّ، وما أمّنك(4) أن تكون وافدَ البراجِم، أو ترجعَ بصحيفة المتلمّس(5)، وأفعـلَ بك ما فعله عَقيلُ بن عُلّفةَ(6) بالجُهَنىّ إذ جاءه خاطبا فدهن ٱستَه بزيت وأدناه من قَرْية النمل(7) ؟ ومتى كثر تَلاقِينا، واتصـل تَرائينا ؛ فيدعونى اليـك

(١) فى الأصل : «ولا تعرضت» ؛ والتاء زيادة من الناسخ . (٢) البيت للفرزدق .

(٣) يشير بهذه العبارة الى المثل القائل : "عش ولا تغتر" وهو مثل يضرب للاحتياط والأخذ بالثقة .

(٤) فى بعض نسخ الرسالة : « وما أشـك أنك تكون » الخ ، والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين .

١٠ ووافد البراجم : رجل من تميم ؛ والبراجم : خمسة من أولاد حنظلة بن مالك ؛ وقد أشار بهذه العبارة الى قصة عمرو بن هند مع بنى تميم ، وذلك أنه أحرق منهم تسعة وتسعين رجلا لثأر له عندهم ، وكان قد حلف أن يحرق منهم مائة رجل ، فبينا هو يطلب رجلا منهم يتم به المـائة ، إذ مرّ رجل يسمى عمارا ، فشم رائحة القتار، فظن أن الملك اتخـذ طعاما ، فعـدل اليه ، فقيل له : ممن أنت ؟ فقال : من البراجم ، فألقى فى النار ؛ فضرب به المثل وقيل : " إن الشقىّ وافد البراجم " .

١٥ (٥) صحيفة المتلمس : تضرب مثلا لمن يحصل له الضرر من حيث يتوقع النفع . والمتلمس : هو جرير ابن عبد المسيح أحد بنى ضبيعة ، شاعر مجيد من شعراء الجاهلية ، وقد وفد هو وابن أخته طرفة بن العبد على عمرو بن هند أحد ملوك الحـيرة ، فحنق عمرو عليهما يوما وأراد قتلهما ، فكتب معهما كتابين الى عامله بالبحرين ، وقال لهما : إنى كتبت لكما بصـلة من عاملى بالبحرين ، فاقبضاها منـه ، فلما كانا فى بعض الطريق فتح المتلمس صحيفته فاذا الملك يأمر عامله بقتـله ، فألقاها فى اليمّ ، ومضى طرفة بكتابه الى عامل ٢٠ البحرين فقتله .

(٦) فى الأصـل : « علقمة » وهو تحريف ، والتصويب عن تاج العروس مادة علق بالقاف ؛ وعقيل بن علفة هـذا شاعر من شعراء الدولة الأموية ؛ وكان أهوج جافيا شديد الغيرة والعجرفة والبذخ بنسبه ، وكان لا يرى أن له كفئا ، وقد خطب اليه عبد الملك بن مروان إحدى بناته فأبى عليـه ، وكان له جار جهنىّ ، فخطب الجهنىّ إحدى بناته ، ففعل به ما ذكره ابن زيدون .

٢٥ (٧) قرية النمل : مسكنها وبيتها .

ما دعا ابنةَ الخُسّ[1] الى عبـدها مِن طُول السواد ، وقربِ الوِساد ؟ وهـل فقدتُ الأَراقمَ[2] فأُنكَح فى جَنْب[2]، أو عَضَلنى همّام بنُ مرّة[3] فأقول : "زوجٌ من عُود ، خيرٌ من قُعود"؟ ولعمرى لو بلغتُ هذا المبلغ لارتفعتُ عن هـذه[4] الخِطّة، وما رضيتُ بهـذه الخُطّة ؛ فـ"النارُ ولا العار" و"المنيّةُ ولا الدَّنيّة" والحُرّة تجوع ولا تأكل بثدييهـا :

فكيف وفى أبناء قومىَ منكَحٌ * وفتيانِ هِزّانَ[5] الطوالِ الغَرانقة

ما كنتُ لأتخطّى المسـكَ الى الرَّماد ، ولا لأمتطىَ الثّورَ دون الجواد ؛ فإنمـا يتيمّم مرن لا يجد ماء ، ويَرعى الهشـيمَ مَن عَدِم الجَميم[6] ، ويركب الصّعبَ من لا ذَلولَ

(١) ابنة الخس : هى هند بنت الخس الإيادى ، قديمة فى الجاهلية ، وذكروا أنها زنت بعبـدها ، فلامها النـاس فى ذلك ، وقالوا : ما حملك على الزنى ؟ فقالت : قرب الوساد ، وطول السـواد ؛ والسواد : المسارّة .

(٢) الأراقم : حىّ من تغلب . وجنب : حىّ من اليمن ؛ وقد أشار بهـذه العبارة الى قول مهلهل ابن ربيعـة حين هرب من حرب البسوس لمـا طالت مدتها ، فنزل فى طريقه على حىّ من اليمن ، فخطبوا اليه ابنته وساقوا له مهرها جلودا ، وغصبوه على الزواج فقال :

أعـــزز على تغلب بمـا لقيت * أخت بنى الأكرمين من جشم
أنكحها فقـدها الأراقم من * جنب وكان الحبـاء من أدم .

(٣) عضل الولىّ المرأة : منعها من النكاح . وزوج من عود الخ : قول إحدى بنات همام بن مرة وكان له أربع بنات ، وكن يخطبن اليه فيأبى أن يزوّجهن .

(٤) فى الأصل : « بهذه » ؛ والسياق يقتضى ما أثبتنا .

(٥) هزان : بطن من العرب ؛ والغرانقة ؛ جمع غرنوق وغرنيق ، وهو الشاب الأبيض الجميل . والبيت للأعشى الأكبر . وقد ورد الشطر الأوّل منه فى تاج العروس هكذا : « فقد كان فى شبان قومك منكح » وذكر أن الأعشى يخاطب به امرأة .

(٦) الجميم : النبات الناهض المنتشر الذى طال ولم يبلغ النهاية .

له ؛ ولعلك إنما غرّك(١) من علمتَ صبوتى اليه، وشهدتَ مساعَفتى له، من أقمارِ العصر، ورياحينِ المصر، الذين هم الكواكبُ علوّهم، والرياضُ طيبَ شِيمَ

من تَلْقَ منهم تقل: لاقيتُ سيّدَهم * مثل النجوم التى يَسرِى بها السارى(٢)

فَيحِنّ قِدْحٌ(٣) ليس منها، ما أنت وهُم ؟ وأين تقع منهم ؟ وهل أنت إلّا واوُ عمرٍو فيهم، وكالوَشِيظة(٤) فى العَظْم بينهم؟ وان كنتَ إنما بلغتَ قعرَ تابوتك(٥)، وتجافيتَ لقميصك عن بعض قُوتِك، وعَطّرتَ أَردانَك، وجَررتَ هِمْيانَك، واختلتَ فى مشيتك، وحذفتَ فُضولَ لحيتك، وأصلحت شاربَك، ومَطّطت حاجبَك، ودققت خَطَّ عِذارِك، واستأنفت عَقْدَ إزارِك، رجاء الاكتتابِ(٦) فيهم، وطمعا فى الاعتدادِ منهم، فظننتَ عَجزا، وأخطأت استُك الحُفرة، والله لو كساك مُحرِّق(٧)

(١) فى الأصل: «وعلك» ؛ وهو تحريف. (٢) الشطر الثانى من هذا البيت لم يرد فى الأصل. وقد أثبتناه عن النسخ التى بين أيدينا لهذه الرسالة وفى سرح العيون أن هذا البيت من جملة أبيات منسوبة الى رجل اسمه العرندس من بنى بكر بن كلاب يمدح بها بنى بدر الغنويين.

(٣) فى الأصل: "فنحن" ؛ وهو تحريف ؛ يشير بهذه العبارة الى المثل القائل: "حن قدح ليس منها" يضرب لمن يتشبه بالقوم وليس منهم.

(٤) الوشيظة: قطعة عظم تكون زيادة فى العظم الصميم. ويقال: فلان وشيظة فى قومه، إذا كان دخيلا فيهم وليس منهم. (٥) قال فى سرح العيون فى تفسير هذه العبارة: يعنى لازمت منزلك.

(٦) يريد: رجاء أن تعد فيهم وتكتب منهم.

(٧) محرّق: هو عمرو بن المنذر بن ماء السماء، وهو المعروف بعمرو بن هند؛ وأشار بهذه العبارة الى ما ذكروا من أن الوفود اجتمعت مرة عند عمرو بن هند، فأخرج بردين من لباسه وقال: ليقم أعز العرب فليأخذهما، فقام عامر بن أحيمر فأخذهما فقال له عمرو: أنت أعز العرب قبيلة؟ فقال: العز كله فى معدّ، والعدد فى معدّ، ثم فى نزار، ثم فى مضر، ثم فى خندف، ثم فى تميم، ثم فى سعد، ثم فى كعب، ثم فى بهدلة فمن أنكر هذا فلينافرنى؛ فسكت الناس، فقال: هذه عشيرتك كما تزعم، فكيف أنت فى نفسك وأهل بيتك؟ فقال: أنا أبو عشرة، وأخو عشرة، وعم عشرة، وخال عشرة؛ ثم أخذ البردين وانصرف (سرح العيون)؛ وتاج العروس مادة «برد».

البُردين، وحلّتك ماريةُ[1] بالقرطين، وقلّدك عمرٌو[2] بالصّمصامة، وحمَلك الحارثُ على النّعامة[3]؛ ما شككتُ فيك، ولا تكلمتَ بملء فيك، ولا سترتَ أباك، ولا كنتَ إلا ذاك؛ وهبك ساميتهم فى ذُرْوة المجد والحسَب، وجاريتَهم فى غاية الظرف والأدب؛ ألست تأوى الى بيتٍ قَعيدتُه لَكاع؟ اذ كلُّهم عَزَبٌ خالى الذراع؛ وأين من أنفرد به، ممن لا أَغلِب إلا على الأقلّ الأخسِّ منـه؟ وكم بين من يعتمدنى بالقوّة الظاهرة، والشهوةِ الوافرة، والنفسِ المصروفةِ الىّ، واللذةِ الموقوفةِ علىّ؛ وبين آخر قد نَزَحتْ بيرُه، ونَضَب غديرُه، وذهب نشاطُه، ولم يَبقَ إلا ضُراطُه؛ وهل كان يُجمَع لى فيك إلا الحَشَفُ[4] وسُوءُ الكِيلة. ويقترن علىّ بك إلا الغُدّةُ والموتُ فى بيت سَلُوليّة[5]؟

تعالى الله يا سَلْمُ بنَ عمرو * أذلّ الحِرصُ أعناقَ الرجالِ

(وهذا الشعر لأبى العتاهية يخاطب به سلم بن عمرو، ويلومه على حرصه، ويتلوه):

هَب الدنيا تصير اليك عفوا * أليس مصيرُ ذاك الى زوالِ

ما كان أحقَّك بأن تَقْـدِر بذَرْعك، وتَربَعَ على ظَلْعك، ولا تكون بَراقشَ[6] الدالّةَ

---

(١) مارية: هى ابنـة ظالم بن وهب الكندىّ، وزوجة الحارث الأكبر الغسانى أحد ملوك العرب بالشام، وكان فى قرطيها لؤلؤتان كبيرتان يتوارثهما الملوك، وقد وصلتا الى عبد الملك بن مروان، فأهداهما الى ابنته لما زوّجها لعمر بن عبد العزيز، وروى أن مارية أهدتهما الى الكعبة.

(٢) عمرو: هو ابن معد يكرب. والصمصامة: اسم سيفه.

(٣) هو الحارث بن عباد التغلبى. والنعامة اسم فرسه.

(٤) الحشف: اليابس الردىء من التمر. يضرب للخلتين السيئتين يجتمعان فى شخص؛ ونص المثل: "أحشفا وسوء كيلة".

(٥) أشار بهـذه العبارة الى قول عامر بن الطفيل: حين ظهرت فى رقبته الغدّة التى مات بها، وكان فى بيت امرأة سلولية، فقال: أغدّة كغدّة البعير، وموت فى بيت سلولية.

(٦) براقش: اسم كلبة نبحت قوما قصدوا الغارة على قوم نخفى عليهم مكانهم، فلما نبحت عرفوهم فاجتاحوهم فقالت العرب: "أشأم من براقش".

على أهلها[1]، وعنزَ السوء المستثيرةَ لحتفها؛ فما أراك إلا قد سَقط العشاءُ بك على السِّرحان[2]، وبك لا بظبي أعفر[3]؛ قد أعذرتُ إن أغنيتُ شيّا، وأسمعتُ لو ناديتُ حيّا؛ وقرعتُ عصا العِتاب، وحذّرتُ سوءَ العقاب. "إنّ العصا قُرِعتْ لذى الحِلم" "والشيء تحقره وقد يَنمِى"[4]. فإن بادرتَ بالندامة، ورجعتَ على نفسك بالملامة؛ [كنتَ][5] قد اشتريتَ العافيةَ لك بالعافية منك؛ وإن قلتَ: "جعجعةً ولا طِحْنا" و"رُبّ صَلَفٍ تحت الراعدة"[6] وأنشدتَ:

لا يُؤْيسنّك من مخبّأةٍ * قولٌ تُغلّظه وإن جَرَحا

فعُدتَ لما نُهيتَ عنه، وراجعتَ ما استعفَيت منه؛ بعثتُ من يُزعجك إلى الخضراء[7] دَفْعًا، ويَستحثّكَ نحوها وَكْزًا وصَفْعا؛ فإذا صرتَ بها[8] عَبِث أكّاروها[9]

---

(١) يشير بهذه العبارة الى ما ذكروا من أن رجلا وجد عنزا فأراد ذبحها، فلم يجد سكينا؛ فبينما هو كذلك، إذ بحثت الشاة بظلفها فى الأرض، فاستثارت سكينا فذبحها بها؛ فضربت مثلا لمن يعين على ضرر نفسه . (٢) فى سرح العيون: «سرحان» بدون تعريف، وهو الذئب؛ يشير بهذه العبارة الى المثل القائل "سقط به العشاء على سرحان" يضرب لمن يريد أمرا فيقع على المكروه .

(٣) نص المثل: «به» الخ ويضرب للشماتة بالرجل؛ يريدون نزل به المكروه ولا نزل بظبي أعفر .

(٤) قال ابن نباتة فى سرح العيون عند شرحه لهاتين العبارتين: هما مثلان يضربان فى التحذير، منظومان فى قول الحارث بن وعلة اليشكريّ وقد قتل بعض سادات قومه أخاه . ثم أورد أبياتا جاء منها :

وزعمت أنا لا حلوم لنا * إن العصا الخ البيت . وبعده :

لا تأمنن قوما ظلمتهم * وبدأتهم بالشر والغشم

أن يأبروا نخلا لغيرهم * والشيء تحقره الخ البيت

(٥) لم ترد هذه الكلمة فى الأصل؛ وقد أثبتناها عن سرح العيون .

(٦) جعجعة الخ أى أسمع جعجعة ولا أرى طحنا؛ قال فى سرح العيون فى شرح هذا المثل والذى بعده : هما مثلان يضربان لمن يتوعد ولا يفعل . والجعجعة : صوت الرحى . والطحن : الدقيق . فعل بمعنى مفعول، كذبح وفرق؛ والصلف : قلة البركة والخير . وسحاب صلف : إذا كان قليل الماء، كثير الرعد .

(٧) فى الأصل : «الحضرا» بالحاء المهملة؛ وهو تحريف؛ والخضراء : المزرعة؛ أو لعله اسم ضيعة انظر سرح العيون . (٨) فى سرح العيون : «الها» . (٩) الأكارون : الزراعون .

بك ، وتَسلّط نواطيرُها[1] عليك ؛ فمن قَرعةٍ معْوجّةٍ تقوّم فى قفاك ، وجُفْلةٍ منْتِنة يُرمى بها تحت خُصاك ؛ لكى تذوق وبال أمرِك ، وترى ميزانَ قدرِك .

فمن جهلتْ نفسُه قدْرَه * رأى غيرُه منه مالا يرى .[2]

(١٠٥) وقال أيضا فى رُقْعةٍ خاطب بها ابنَ جَهْوَر — وهى من رسائله المشهورة — أوّلهــا :

يا مولاى وسـيّدى الذى ودادى له ، واعتــدادى به ، واعتمادى عليـه — أبقاك الله ماضىَ حدِّ العزم ، وارىَ زَنْدِ الأمل ، ثابتَ عهـدِ النعمة — إن سلبتَنى أعزّك الله لبـاسَ إنعامك ، وعطّلتَنى من حَلْىِ إيناسـك ، وغَضَضتَ عنى طَرْفَ حمايتك ؛ بعـد أن نَظر الأعمى الى تأميلى لك ، وسمع الأصمُّ ثنائى[3] عليـك ، وأحسّ الجمادُ باستنادى اليـك ؛ فلا غَرْوَ قد يَغَصُّ بالمـاء شارِبُه ، ويقتُل الدواءُ المستشفىَ به ، ويُؤْتَى الحَـذِرُ من مأمنِه ، وتكون منيّةُ المتمنِّى فى أمنيتّه "والحَـين[4] قد يَسبق جَهْدَ الحَرِيص" وإنّى لأتجلّد ، وأُرِى الشامتين أنّى لا أتضعضع[5] ، وأقول :

(١) النواطير : جمع ناطور ، وهو حافظ الكرم والنخل .

(٢) البيت للمتنبى .

(٣) كذا فى النسخ التى بين أيدينا لهذه الرسالة . والذى فى الأصل : «إنشادى» ؛ وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : «والحرص» ؛ وهو تحريف . وهذا عجز بيت لعدى بن زيد ؛ وصدره : «قد يدرك المبطئ من حظه» . انظر تمام المتون فى شرح رسالة ابن زيدون للصـفدى ص ٤٠ طبع بغداد ؛ وقد اعتمدنا على هـذا الكتاب فى أكثر شرحنا لمـا ورد فى هـذه الرسالة من الأبيات والأمثال والأخبار فلا حاجة الى التنبيه عليه بعد هذا فيما ننقله عنه .

(٥) كذا فى الأصل ؛ والذى فى نسخ الرسالة : «أنى لريب الدهر لا أتضعضع» . وهـذا عجز بيت لأبى ذؤيب الهذلىّ ، وصدره : «وتجلدى للشامتين أريهمو» انظر المفضليات .

هل أنا إلا يدٌ أدماها سوارُها، وجبينٌ عضّه إكليلُه(١)، ومشرفيٌّ(٢) ألصقَه بالأرض صاقلُه، وسمهريٌّ(٣) عرَضه على النار مثقِّفُه، وعبدٌ ذهب سيّدُه(٤) مَذهبَ الذى يقول :

فقَسا ليَزدجِروا(٥) ومن يك حازماً * فليَقسُ أحياناً على من يَرحمُ

والعَتبُ(٦) محمودٌ عواقبُه، والنَّبوةُ(٧) غمرةٌ ثم تنجلى، والنكبةُ "سحابةُ صيف عن قريب تَقشَّعُ(٨)" وسيّدى إن أبطأ معذور(٩).

فإن يكن الفعلُ الذى ساء واحداً * فأفعالُه اللاتى سَرَرنَ أُلوفُ(١٠)

فليت شعرى ما الذنب الذى أذنبتُ ولم يسَعْه العفو ؟ ولا أخلو من أن أكون بريئاً فأين العدل ؟ أو مُسيئاً فأين الفضل ؟ وما أرانى إلا لو أُمِرتُ بالسجود لآدم فأبَيتُ واستكبرت ،وقال لى نوحٌ: "اركب معنا" فقلتُ: "سَآوِى إلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِى

---

(١) فى بعض نسخ الرسالة : «عض به» .

(٢) المشرفيّ : نسبة الى المشارف ، وهى قرى باليمن ؛ أو هى من أرض العرب تدنو من الريف تنسب اليها السيوف المشرفية .

(٣) السمهرى : الرمح الصليب العود ، و يقال إنه منسوب الى سمهر ، وهو رجل كان يقوم الرماح فنسبت اليه . والمثقف : المقوّم .

(٤) فى نسخ الرسالة : "ذهب به سيده" .

(٥) فى الأصل : «له ذخروا» وهو تحريف . والبيت لأبى تمام من قصيدة يمدح بها مالك بن طوق .

(٦) فى تمام المتون : «هذا العتب» .

(٧) فى تمام المتون : «وهذه النبوة» .

(٨) تقشعت السحابة : أقلعت . وفى كتب الأمثال : "عن قليل" . وهو مثل يضرب لانقضاء الشىء بسرعة .

(٩) كذا وردت هذه العبارة فى الأصل ؛ والذى فى النسخ التى بين أيدينا لهذه الرسالة : «ولن يريبنى من سيدى أن أبطأ سحابه ، وتأخر غير ضنين غناؤه» و بعد ها تين العبارتين كلام طويل لم يرد فى الأصل ، فانظره .

(١٠) البيت لأبى الطيب المتنبى من أبيات كتب بها الى أبى العشائر الحسين بن حمدان يعاتبه فى سبب جرى عليه من غلمانه .

مِنَ المَـاءِ، وتعاطَيتُ فعَقَرت[1]، وأَمرتُ ببناء صَرحٍ لعلّى أَطّلعُ إلى إله موسى[1]، وعَكَفتُ على العِجل[1]، واعتدَيتُ فى السَّبْت[1]، وشربتُ من النهر الذى ٱبتُلِىَ به جنودُ طالوت[1]، وقُدتُ الفيلَ لأَبرهةَ[1]، وعاهدتُ قريشا على ما فى الصحيفة[2]، وتأوّلتُ فى بَيعة العَقَبة[3]،

(١) يشير بهذه العبارات الست إلى قصص ورد ذكرها فى الكتاب العزيز : فيشير بالعبارة الأولى الى قصة ناقة صالح التى ورد ذكرها فى قوله تعالى فى سورة القمر : (إنا مرسلو الناقة فتنة لهم) الى قوله : (فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر) . ويشير بالثانيـة الى قوله تعالى فى سورة القصص حكاية عن فرعون : (وقال فرعون يأيها الملأُ ما علمت لكم من إله غيرى) الى قوله : (لعلى أطلع الى إله موسى) . ويشير بالثالثة الى قوم موسى حين اتخذوا العجل وفتنوا به وقد وردت هذه القصة فى قوله تعالى فى سورة طه : (قال فإنا قد فتنا قومك من بعـدك وأضلهم السامرىّ) إلى قوله حكاية عنهم (قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينـا موسى) . ويشير بالرابعة الى قصـة بنى اسرائيل واعتدائهم فى السبت ؛ قال تعالى فى سورة البقرة : (ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت) الآية . ويشير بالخامسة إلى قوله تعالى فى سورة البقرة : (فلمـا فصل طالوت بالجنود) إلى قوله تعالى : (فشربوا منه إلا قليلا منهم) . ويشير بالسادسة الى قصة أصحاب الفيـل التى ذكرها الله تعالى فى سورة الفيل حين ساروا الى الكعبة وأرادوا هدمها وعلى رأسهم أبرهة ابن الصباح أمير اليمن من قبل النجاشى . انظر تفصيل هذه القصص فى كتب التفسير .

(٢) يشير بهذه العبارة إلى صحيفة قريش التى تعاهد فيها كفارها على بنى هاشم ؛ وذلك أن قريشا لمـا رأت أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين هاجروا الى الحبشة قد أصابوا فى هجرتهم أمنا ورخاء وعزا ومنعة من النجاشى ملك الحبشة ، ورأت فشو الإسلام فى القبائل واسلام عمر بن الخطاب وغيره من أشرافهم اجتمعوا وتعاهدوا فيما بينهم على ألا ينكحوا من بنى هاشم ، ولا ينكحوهم ، ولا يبيعوهم ، ولا يبتاعوا منهم ، وكتبوا ذلك فى صحيفة وعلقوها فى جوف الكعبة توثيقا وتوكيدا ، فانحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى شعب أبى طالب ، وظلوا كذلك سنتين أو ثلاث حتى أجهدهم الضيق ، وكان لا يصل اليهم شىء الا سرا يستخفى به من أراد صلتهم من قريش ، حتى قام فى نقض ما فى الصحيفة نفر منهم اجتمعوا على ذلك . انظر تفصيل القصة فى كتب السيرة .

(٣) أشار بهذه العبارة الى بيعة الأنصار لرسول الله صلى الله عليـه وسلم بالعقبة التى بين منى ومكة ، ومنها ترمى جمرة العقبة ؛ وهى ثلاث بيعات : بايعه فى الأولى ستة نفر من الأوس ، وبايعه فى البيعة الثانية اثنا عشر ، منهم الستـة الذين بايعوه فى الأولى ، وبايعه فى البيعة الثالثة ، سبعون وامرأتان ، انظر معجم البلدان ج ٣ ص ٦٩٣ طبع جوتنجن . وذكر الصفدى فى تمـام المتون أن الذين بايعوه فى البيعة الثالثـة ثلاثة وتسعون وامرأتان .

ونَفَرتُ الى العِير ببدر[1]، وأنخذلتُ بثلث الناس يوم أُحُد[2]، وتخلّفتُ عن صلاة العصر فى بنى قُرَيظة[3]، وجئتُ بالإفك على عائشةَ[4]، وأبيت من إمارة أُسامةَ[5]،

---

(١) بدر: ماء مشهور بين مكة والمدينة أسفل وادى الصفراء، بينه وبين الجار — وهو ساحل البحر — ليلة . وأشار بهذه العبارة إلى وقعة بدر الكبرى، وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع أن أبا سفيان بن حرب مقبل من الشام فى عير لقريش عظيمة، فندب الناس إلى الخروج اليها، فسمع أبو سفيان من بعض الركبان باستنفار رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس له، فاستأجر رجلا ليذهب إلى مكة فيخبر قريشا بذلك ويستنفرهم إلى أموالهم، فخرج الرجل إلى مكة وأعلمهم الخبر، فتجهز الناس سراعا؛ ثم كانت وقعة بدر التى نصر الله فيها النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

(٢) كذا فى نسخ الرسالة التى بين أيدينا . وفى الأصل : «وانجزأت» ولم نقف عليه فيما راجعناه من كتب اللغة . وأحد : جبل أحمر ليس بذى شناخيب — والشناخيب : رءوس الجبال — بينه وبين المدينة قرابة ميل شمالها؛ وعنده كانت وقعة أحد التى قتل فيها كثير من المسلمين، وقتل فيها حمزة عم النبى صلى الله عليه وسلم . وقد أشار ابن زيدون بهذه العبارة إلى انخذال عبد الله بن أبىّ بن سلول رأس المنافقين بثلث الناس فى هذا اليوم، وتركه لرسول الله صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه . انظر تفصيل ذلك فى كتب السيرة .

(٣) أشار بهذه العبارة إلى غزوه صلى الله عليه وسلم لبنى قريظة؛ وذلك أنه لما انصرف من غزوة الخندق ووضع المسلمون سلاحهم، أمره الله تعالى بغزو بنى قريظة، فقال لأصحابه : «لا يصلين أحد منكم العصر إلا فى بنى قريظة» وسار ومعه أصحابه، فجاء وقت العصر وهم فى الطريق، فصلاه جماعة منهم حملا لأمره صلى الله عليه وسلم على قصد السرعة، وصلاه الباقون بعد مضى وقتها فى بنى قريظة حملا للأمر على حقيقته، فلم يعنف رسول الله صلى الله عليه وسلم احدا منهم على عمله، ثم حاصروا عدوهم خمسة وعشرين يوما حتى نزلوا على حكمه صلى الله عليه وسلم .

(٤) أشار بهذه العبارة إلى حديث الإفك الذى رميت به أم المؤمنين عائشة الصديقية رضى الله تعالى عنها من بعض المنافقين، وقد ذكره الله تعالى فى سورة النور فقال : "إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم" الآية .

(٥) كذا فى الأصل؛ وفى اللسان مادة «أبى» ما يفيد صحة تعدية هذا الفعل بـ «من» حكى ابن سيدة عن الفارسىّ أنه يقال «أبى زيد من شرب الماء» والذى فى نسخ الرسالة «وأقمت» . وأشار بهذه العبارة إلى ما كان قبل وفاته صلى الله عليه وسلم من تأميره أسامة بن زيد بن حارثة على جيش لقتال الروم، وكان فى هذا الجيش كبار المهاجرين الأولين كأبى بكر وعمر وأبى عبيدة، فانتقد جماعة إمرة أسامة على هذا الجيش وفيه أمثال هؤلاء، وهو شاب لم يبلغ سبع عشرة من عمره، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قول هؤلاء، فغضب غضبا شديدا وخرج فقال : أيها الناس فما مقالة بلغتنى عن بعضكم فى تأميرى أسامة، ولئن طعنتم فى تأميرى أسامة لقد طعنتم فى تأميرى أباه من قبله، وايم الله إنه كان لخليقا بالإمارة، وإن ابنه من بعده لخليق بها .

وزعمتُ أن خلافة أبي بكر كانت فَلتة(١) * ورَوّيتُ رمحي من كَتيبة خالد(٢) * ومزّقتُ الأديمَ الذي باركت يدُ الله فيه(٣)، وضحّيتُ بالأشمط الذي عُنوان السجود به(٤)، وكتبت الى عمرَ بنِ سَعد [أن] جَعْجِعْ بالحسين(٥)، وبَذلتُ لقَطامِ .

(١) يشير بهذه العبارة الى ما ورد فى كلام عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه — وقد بلغه فى آخر حجة حجها أن قوما يقولون : لو مات أمير المؤمنين لنبايعن فلانا ، فخشى عمر أن يكون فى هذا إضعاف لبيعة الناس ، فلما قدم المدينــة خطب فى الناس وجاء فى خطبته قوله : وقد بلغنى أن قائلا يقول لو مات عمر بايعت فلانا ، فلا يغــترن امرؤ منكم أن يقول : كانت بيعة أبى بكر فلتة ؛ وليس فيكم من يقطع الأعناق مثــل أبى بكر ؛ وإنه كان من خيرنا الخ ما أورده الصفدى فى تمام المتون من هذه الخطبة . ورواه يونس ابن يزيد عن الزهرى مطولا وزاد فيه : قال عمر فلا يغترن امرؤ منكم أن يقول إن بيعة أبى بكر كانت فلتة فتمت فإنها قد كانت كذلك إلا أن الله وقى شرها . (٢) هذا صدر بيت لأبى شجرة السلمى ، وتمامه :

* وانى لأرجو بعدها أن أعمرا * وسبب هذا الشعر أن خالدبن الوليد رضى الله عنه لمـا فرغ من قتال بنى حنيفة فى حرب الردة انحدر بمن معه الى بنى سليم ، وسمعت بنو سليم بذلك فاجتمعوا لقتاله ، واستجلبوا من بقى من العرب مرتدا ، وكان الذى يجمعهم أبو شجرة بن عبد العزى المتقدم ؛ فقاتلهم خالد حتى هزمهم ، وكان أبو شجرة هذا قد أصاب فى هذا اليوم من المسلمين ؛ فقال هذا الشعر الذى منه البيت السابق .

(٣) يشير بهذه العبارة الى قول الشاعر فى رثاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

جزى الله خيرا من امام وباركت * يد الله فى ذاك الأديم الممزق .

(٤) يشير بهذه العبارة الى قول حسان بن ثابت يرثى عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنهما :

ضحوا بأشمط عنوان السجود به * يقطع الليــل تسـبيحا وقرآنا

(٥) جعجع من الجعجعة : وهى الحبس والتضييق . يشــير بهذه العبارة الى قصة قتل الحسين بن علىّ رضى الله عنهما ، وذلك أنه لمـا خرج الحسين رضى الله تعـالى عنه الى الكوفة باشارة من أهلهـا ليبايعوه بالخلافة فى مدة يزيد بن معاوية ندب ابن زياد لقتاله عمر بن سـعد بن أبى وقاص ، فقال الحسين لعمر : إختر منى إحدى ثلاث : إما تركتنى أرجع ، أو سـيرتنى الى يزيد فأضع يدى فى يده فيحكم فى ما يرى ، فإن أبيت فسيرنى الى الترك أقاتلهم حتى أموت ؛ فأرسل عمر بذلك الى ابن زياد ، فهم أن يسيره الى يزيد فقال بعض من حضر : لا أيها الأمير حتى ينزل على حكمك ، فابى الحسين ذلك ، فكتب عبيدالله بن زياد الى عمر : أن جعجع بالحسين انظر تفصيل ذلك فى كتب التاريخ ؛ وكان قتل الحسين رضى الله تعالى عنه فى سنة إحدى وستين كما فى شذور العقود لابن الجوزى المحفوظ منه فى دار الكتب المصرية نسخة مأخوذة بالتصوير الشمسى تحت رقم ٩٩٤ تاريخ .

ثلاثةَ آلافٍ وعبـدا وقَينةً * وضَرْبَ علىٍّ بالحسام المخذَّمِ (١)

وتمثّلتُ عند ما بلغنى من وقعة الحَرّة (٢) :

ليتَ أشياخى ببدرٍ شَهِدوا * جَزَعَ الخزرجِ مِن وَقْعِ الأَسَلْ (٣)

قد قتلنا القَرْنَ (٤) من أشياخهم * وعدلنـاه بـبَـدرٍ فاعتدَلْ (٥)

ورَجمتُ الكعبةَ (٦) ، وصَلبتُ العائذَ بها على الثنيّة ؛ لكان فيما جرى علىّ ما يحتمل أن يُسمّى نكالا ، ويدعى ولو على المجاز عِقابا .

وحسْـبُك من حادثٍ بامرئٍ * يَرى حاسـديه له راحِمينا

---

(١) المخذم : اسم فاعل من خذمه بتشديد الذال أى قطعه . وفى تمام المتون : «المسمم» ، والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين . وقائل هذا البيت عبد الرحمن بن ملجم قاتل على كرم الله وجهه . وقطام التى أرادها : امرأة بالكوفة كانت جميلة رائقة ، وأراد ابن ملجم التزوج منها ، فشرطت عليه أن يكون صداقها ثلاثة آلاف وعبدا وجارية وقتل على بن أبى طالب ، فقبل ذلك ابن ملجم وقال الشعر الذى منه هذا البيت ، وبعـده :

فلا مهر أغلى من علىّ وإن غلا * ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم .

(٢) أراد حرة واقم ، إحدى حرّتى المدينة ، وهى الشرقية ، وبهـا كانت وقعة الحرة المشهورة فى سنة ثلاث وستين ؛ وذلك أن أهل المدينة خلعوا يزيد بن معاوية وطردوا عامله ، وحاصروا بنى أمية بالمدينة ، فبعث اليهم يزيد بالجنود بقيادة مسلم بن عقبة ، فقتل رجالهم ، واستباح أموالهم وأعراضهم ، ثم أخذ البيعة منهـم ليزيد .

(٣) الأسل : الرماح . وقائل هذا الشعر عبد الله بن الزبعرى .

(٤) القرن من القوم : سيدهم .

(٥) عدلناه ببدر فاعتدل ، أى قومناه به فاستقام انظر تاج العروس مادة « عدل » .

(٦) أشار بهـذه العبارة والتى بعدها الى ما صـنعه الحجاج بعبد الله بن الزبير وأصحابه ؛ وذلك أنه فى سنة أربع وستين بويع ابن الزبير بالخلافة وانتظم فى بيعته الحجاز واليمن ومصر والعراق وخراسان ، فضاق بذلك عبد الملك بن مروان فندب الحجاج بن يوسف لقتاله ، فسار اليه بمكة ، ونصب المجانيق على أبى قبيس ، وظل الحصار ستة أشهر وسبعة عشر ليلة ، وقتل عبـدالله بن الزبير فى هذه الوقعة بحجر من هـذه المجانيق وكان قتله فى سنة ثلاث وسبعين ثم صلبه الحجاج بعد قتله على الثنية ، وظل مصلوبا سنة كاملة ثم أنزله .

فكيف ولا ذنبَ إلا نميمةٌ أهداها كاشح، ونبأٌ جاء به فاسق؛ والله ما غَشَشْتُك بعد النصيحة، ولا انحرفتُ عنك بعد الصاغية،(١) ولا نَصَبتُ(٢) لك بعد التشيّع فيك، ففيم عَبِثَ الجفاءُ بأذمّتي، وعاثَ في مودّتي؟(٣) وأنّى غلبني المغلّب، ونَخَرَ عليّ الضعيف،(٤) ولَطَمتْني غيرُ ذاتِ سِوار؟(٥) ومالك لم تَمنعْ مني قبل أن أُفترَس، وتُدرِكْني ولمّا أُمزَّق،(٦) [أم كيف لا تتضرّم جوانح الأَكْفاء حسدا لي على الخصوص بك، وتنقطّع أنفاسُ ٥

(١) قال الصـفدي في تمـام المتون ص ١٨٣ ما نصه : والصاغية كأنها مصدر صغى يصغو صغوا وصاغية . ولم نقف على هذا المصدر فيما راجعناه من كتب اللغة . والمراد بالصاغية هنا : الميل .

(٢) نصب له : عاداه . وأشار بهذه العبارة الى فرقة الناصبة : وهم المنحرفون عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ، وإلى الشيعة ، وهم المنتمون اليه .

(٣) كذا في الأصل . وعبارة نسخ الرسالة : «وعاث العقوق في مواتي» ؛ والمعنى يستقيم على كلتا ١٠ الروايتين . والموات بتشديد التاء : جمع ماتة : وهي الحرمة والوسيلة .

(٤) عبارة نسخ الرسالة : "ونخر على العاجز الضعيف" . وأشار بهذه العبارة والتي قبلها الى بيت امرئ القيس ، وهو :

وإنك لم يفخر عليـــك كفاخر * ضعيف ولم يغلبك مثـــل مغلب

يريد أن أشدّ ما على الانسان أن يفخر عليه ضعيف ويغلبه مغلوب . ١٥

(٥) يشير بهذه العبارة الى المثل القائل : "لو ذات سوار لطمتني" ويعنون بذات السوار ، الحرة ، لأن العرب كانت قلما تلبس الإماء السوار ؛ ويروى : «لو غير ذات سوار» . ويريد ابن زيدون بهذه العبارة : لو أني أهنت ممن هو كفء لي في الشرف والمنزلة لهان عليّ ، ولكن سعى بي من هو دوني ، ونال مني من لا يناظرني في شرف ولا منزلة .

(٦) يشير بهذا إلى قول الشاعر : ٢٠

فإن كنت مأكولا فكن خير آكل * وإلا فأدركني ولمـا أمزق

وقد تمثل به عثمان بن عفـان رضي الله عنه يوم الدار في كتاب بعث به الى علي بن أبي طالب يستنجده على من حاصره .

(٧) هاتان العبارتان لم تردا في الأصل ؛ وقد نقلناهما عن نسخ الرسالة .

الُّنظَراء منافَسةً فى الكرامة عليك] وقد زانَنى اسمُ خدمتِك ، [وزهانى وَسْمُ نعمتِك](١) وأَبلَيتُ [البلاء](٢) الجميل فى(٣) سِماطِك، وقمتُ المَقام المحمودَ على بِساطِك .

أَلستُ المُوالى فيـــك نَظمَ قصائدٍ * هى الأنجُمُ اقتادت مع الليل أَنجُما(٤)

وهل لَبِس الصبــاحُ إلا بُردا طرّزتُه بمَحامدِك، وتقلّدتْ الجوزاءُ إلا عقــدا فصّلتُه بمآثرِك، وبثَّ المسكُ إلا حديثا أذعتُه(٥) بمَفاخرِك؛ "ما يومُ حَليمةَ بسِرّ"(٦) وحاش لله أن أُعَدَّ من العاملة الناصبة، وأكونَ كالذُّبالة المنصوبة تُضىء للناس وهى تحترق .

وفى فصــل منه : ولَعَمرى ما جهلتُ [أنِ](٧) الرأىَ فى أن أتحوّلَ إذا بلغتْنى الشــمسُ ، ونبا بى المنزل ، وأُضرِبَ عن المطامع التى تَقطع أعناقَ الرجال ، ولا أَستَوطِئ العجْزَ فيُضرَب بى المَثَل : "خامِرِى أمَّ عامر"(٨) وإنى مع المعرفة بأن الجَلاء

(١) لم ترد هذه العبارة فى الأصل ؛ وقد أثبتناها عن نسخ الرسالة .

(٢) لم ترد هذه الكلمة فى الأصل ؛ وقد أثبتناها عن نسخ الرسالة .

(٣) فى الأصل : «من» والسياق يقتضى ما أثبتنا كما فى نسخ الرسالة . والسماط : الصف .

(٤) البيت للبحترىّ من قصيدة يعاتب فيها الفتح بن خاقان .

(٥) كذا فى النسخ التى بين أيدينا لهذه الرسالة . والذى فى الأصل : «أضعته» بالضاد المعجمة ، وهو تحريف .

(٦) هو مثل يضرب لكل أمر متعارف مشهور ، ويضرب أيضا للشريف النابه الذكر؛ والمراد هنا الأوّل ، وحليمة : هى بنت الحارث بن أبى شمر؛ وكان أبوها قد وجه جيشا الى المنذر بن ماء السماء ، فأخرجت لهم طيبا من مركن فطيبتهم ؛ وهذا اليوم من أشهر أيام العرب .

(٧) كذا فى الذخيرة لابن بسام المحفوظ منها بعض أجزاء مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٣٤٧ أدب ؛ والذى فى الأصل : « ما جهلت الرأى » بدون « أن » . ويشير بهذه العبارة إلى قول أبى تمام من قصيدة وجه بها إلى محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم :

وإن صريح الرأى والحزم لامرئ * إذا بلغته الشمس أن يتحولا

(٨) أم عامر : كنية الضبع ، ويقال لها : أم عمرو أيضا . وهذا المثل يضرب لمن عرف الدنيا فى نقضها عقود الأمور بإيراد البلاء عقيب الرخاء ، ثم يسكن اليها مع ما علم من عاداتها ، كما تغتر الضبع بقول القائل : "خامرى أم عامر" وهى عبارة يقولها من أراد أن يصيدها لتطمئن اليه ؛ ومعناها : استترى والجئى الى أقصى مغارك .

سِباءٌ[1]، والنُّقلةَ مُثْلَةٌ، لَعارفٌ أن الأدبَ الوطنُ الذى لا يُخشَى فراقُه[2]، والخَليطُ الذى لا يُتوقَّع زوالُه[3]؛ والنَّسبُ[4] الذى لا يُجفَى؛ [والجمالُ [الذى] لا يَخفَى؛ ثم ما قِرانُ السَّعدِ للكواكب أبهى أثرًا، ولا أسنَى خَطَرا، من اقترانِ غِنى النفسِ به، وانتظامِها نَسَقا معه؛ فإنّ الحائزَ لهما، الضاربَ بسهمٍ فيهما — وَقَلِيلٌ مَا هُمْ[5] —] أينما توجَّه وَرَد مَنْهَل بِرّ، وحطّ[6] فى جَناب قَبول، وضُوحكَ قَبل إنزالِ رَحْلِه[7]، وأُعطِىَ حُكمَ الصبىِّ على أهلِه

وقيل له : أهلا وسهلا ومرحبا * فهـــذا مَبيتٌ صـالحٌ وصديقُ

غيرَ أنّ المَوطنَ محبوب ، والمَنشأَ مألوف ؛ واللبيبُ يَحِنّ إلى وطنه، [حنينَ النجيبِ إلى عَطَنِه[8]]؛ والكـريمُ لا يجفو أرضا فيهـا قَوابلُه ، ولا يَنسى بلدا فيه مَراضعُه، وأنشد قولَ الأوّل :

أَحبُّ بلادِ الله ما بين مَنعِجٍ[9] * إلىّ وسَلْمى[9] أن يَصُوب سحابُها

(١) الجلاء : الخروج عن الموطن . والسباء : الأسر .

(٢) فى الأصل : «لا يجتنى» وهو تحريف، والتصويب عن نسخ الرسالة .

(٣) فى تمام المتون : «زياله» والزيال بكسر أوّله : الفراق .

(٤) فى بعض النسخ : «والنسيب» والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين .

(٥) لم ترد هــذه التكملة فى الأصل ولا فى الذخيرة لابن بسام؛ وقد أثبتناها عن بعض نسخ الرسالة .

(٦) كذا فى نسخ الرسالة؛ والذى فى الأصل : «وحق» بالقاف .

(٧) يشير بهذا إلى قول عمرو بن الأهتم ، وقيل حاتم الطائى :

أضاحك ضيفى قبل إنزال رحله * ويخصب عندى والزمان جديب

(٨) لم ترد هذه العبارة فى الأصل ، وقد أثبتناها عن نسخ الرسالة .

(٩) منعج : هو واد يأخذ بين حفر أبى موسى والنباج؛ ويدفع فى بطن فلج . (ياقوت) وسلمى : جبـل لطيئ شرقىّ المدينــة ، وغربيه واد يقال له : « رك » به نخل وآبار مطوية بالصخر ، وبحافتيه جبلان أحمران، وأعلاه برقة انظر تاج العروس مادة « سلم » .

بلادٌ بها عقَّ الشّبابُ تمائمى (١) * وأوّلُ أرضٍ مسّ جلدى ترابُها

هـذا إلى مُغالاتى فى تعلّقِ جوارِك (٢)، ومنافستى فى الحظّ من قُربك ، وآعتقادى أنّ الطمعَ فى غيرك طَبع (٣)، والغِنى من سواك عَناء، والبدَلَ منك أعوَر (٤)، والعِوضَ لَفاء (٥) .

و إذا نظرتُ إلى أميرى زادنى * ضناً به نظـرى إلى الأمراءِ (٦)

" كلُّ الصّيدِ فى جوف الفَرا " و " فى كلِّ شجرٍ نار، وآستمجَد المَرْخُ والعَفار (٧) " ؛ فمـا هذه البراءةُ ممن تولّاك، والمَيـلُ عمّن يميل إليك؟ وهلّا كان هواك فيمن هواه فيك، ورضاك لمن رضاه لك ؟

---

(١) كذا فى الأصـل والذخيرة لابن بسام وغيرهما من نسخ الرسالة ؛ و رواه يا قوت فى معجمه : « حل » ؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين . وذكر يا قوت ان هاتين البيتين لبعض الأعراب ولم يعينه .

(٢) فى بعض نسخ الرسالة « إلى مغالاتى بعقد» والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين ؛ والمغالاة فى الشىء : إغلاؤه .

(٣) الطبع : الدنس .

(٤) ذكر الصفدى فى تمـام المتون ان أصل هـذه العبارة أن يزيد بن المهلب لمـا صرف عن ولاية خراسان بقتيبة بن مسلم الباهلىّ وكان شحيحا وشيخا أعور ، قال الناس : هذا بدل أعور . وفى الأصل : « اعواز » ؛ وهو تحريف .

(٥) فى الأصـل : « لقاء » بالقاف المثناة ، وهو تصـحيف . واللفاء بالفاء الموحدة : التراب . أو الشىء القليل ، أو هو ما دون الحق .

(٦) ذكر الصفدىّ أن هذا البيت لعدىّ بن الرقاع .

(٧) المرخ : من العضاه ، وهو ينفرش و يطول فى السماء حتى يستظل فيه ، وليس له ورق ولا شوك ، ومنه يكون الزناد الذى يقتدح به ؛ والواحد مرخة . والعفار : شجرة تشبه شجرة الغبيراء الصغيرة ، ونورها كنورها ، وهو شجر خوار ، ولذلك جاد الزناد ، والعـرب تضرب بالمرخ والعفار المثـل فى الشرف وعلوّ المنزلة ، فيقولون : « فى كل شجر نار ، وآستمجد المرخ والعفار » وفى القاموس مادة « مجد » أن معنى قولهم : « آستمجد المرخ والعفار » آستكثرا من النار .

يا من يَعِزّ[1] علينا أن نفارقهــم * وِجدانُنا كلَّ شيء بَعدكم عَدَمُ

أُعيذُك ونفسى من أن أَشِيمَ[2] خُلّبا ، وأَستمطِرَ جَهاما[3] ، وأَكُدَمَ غيرَ مَكْدَم ، وأشكوَ شكوى الجريح إلى العِقبان والرَّخَم ؛ وإنمــا أَبسستُ[4] لك لتَدِرّ ، وحرّكتُ لك الحُوارَ[5] لتَحِنّ ؛ وسَرَيتُ لك[6] ليُحمَدَ المَسْرَى[7] إليك ؛ بَعد اليقين من أنك إن شئتَ عَقْدَ أمرى تَيسَّر ، ومتى أَعذَرتَ فى فكّ أَسْرى[8] لم يَتعــذّر ؛ وعِلمُك يُحيط بأنّ المعــروفَ ثمرةُ النعمة ، والشفاعةَ زكاةُ المروءة ، وفَضْلَ الجاه تَعُود به صَدَقةٌ .

واذا آمرؤ أَسْدَى[9] إليك صَنيعةً * من جاهه فكأنّهــا مِن مالِه

لعلّى أُلقِى العصا بذَراك[10] ، وتَستقِرُّ بِىَ النوى فى ظلّك ، فتســتلذّ جَنَى شكرى مِن غَرسِ عارفتك ، وتَستطِيبَ عَرْفَ ثنائى من رَوضِ صَنيعتك ؛ وأستأنفَ التأدّبَ

(١) فى الأصــل : « يا من لا يعز » و « لا » زيادة من الناسخ يختل بها الوزن والمعنى ؛ وهذا البيت لأبى الطيب المتنبى .

(٢) فى الأصل : « بمن » ؛ وهو تحريف .

(٣) الجهام : السحاب لا ماء فيه .

(٤) الإبساس : ان يقال للناقة عند حلبها : بس بس بضم الباء وتشديد السين تسكينا لهــا . والمراد بهذه العبارة والتى بعدها انه قد استعطفه بالكلام ولاينه فى الخطاب ليعطف عليه و يلين له .

(٥) يشير بهــذه العبارة الى قولهم فى المثــل : "حرك لها حوارها تحن" والحوار : ولد النــاقة ؛ ولا يزال حوارا حتى يفصل ؛ و يضرب هذا المثل فى تذكيرك المرء بعض أشجانه ليهتاج .

(٦) كذا فى تمــام المتون ؛ والذى فى الأصل : « اليك » ولم نثبتها مع صحتها لحصول التكرار بها مع ما بعـــدها .

(٧) يشير بهذه العبــارة الى قولهم : "عند الصباح يحمد القوم السرى" وهو مثــل يضرب للرجل يحتمل المشقة لأجل الراحة .

(٨) فى الأصل : « أمرى » بالميم ؛ وهو تحريف .

(٩) البيت لأبى تمــام من قصيدة كتب بها الى إسحاق بن ربعى كاتب أبى دلف .

(١٠) بذراك : أى بظلك ؛ يقال : فلان فى ذرا فلان أى فى كنفه وظله .

بأدبك [١] ، والاحتمال على مذهبك؛ فلا أوجد للحاسد مجال لحظة، ولا أدع للقادح مساغ لفظة ؛ والله ميسرك [٢] من إطلابى [٣] هذه الطلبة، وإشكائى [٤] من هذه الشكوى لصنيعة تصيب بها طريق المصنع، ويد تستودعها أحفظ مستودع؛ حسبما أنت خليق له ، وأنا منك حرىٌّ به ؛ فذلك بيده، وهين [٥] عليه . وشفعها بأبيات فقال :

الهوى فى طلوع تلك النجوم * والمنى فى هبوب ذاك النسيم

سرّنا عيشنا الرقيق الحواشى * لو يدوم السرور للمستديم

وطرٌ ما انقضى إلى أن تقضّى * زمنٌ ما ذمامه بالذميم

زار مستخفيا وهيهات أن يخـ * ـفى البدر فى الظلام البهيم

فوشى الحلى إذ مشى وهفا الطيـ * ـب إلى حيث كاشحٌ بالنميم

أيها المؤذنى بظلم الليالى * ليس يومى بواحد [٦] من ظلوم

(١) كذا فى بعض نسخ الرسالة . وفى الأصل : «التأدب بك» .

(٢) فى الأصل : «ميسرك» بتقديم السين على الياء؛ وما أثبتناه هو المناسب لقوله فيما يأتى : «لصنيعة» .

(٣) الإطلاب : مصدر أطلبه إذا أعطاه ما يطلب؛ يقال طلبت منه كذا فأطلبنى إياه ، أى أسعفنى بقضائه . والطلبة بكسر اللام : الحاجة . وعبارة الأصل : «من هذه الطلبة»؛ وقوله : «من» زيادة من الناسخ؛ فإن «أطلب» من الأفعال التى تتعدّى بنفسها؛ ولم نقف على تعديته بالحرف انظر اللسان وغيره من كتب اللغة .

(٤) الإشكاء : مصدر أشكيته اذا أزلت شكايته .

(٥) فى الأصل : «وجرى»؛ والتصويب عن الذخيرة لابن بسام المحفوظ منها بعض أجزاء مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٣٤٧ أدب .

(٦) فى الأصل : «بواجد» بالجيم المعجمة؛ وهو تحريف؛ يريد أن اليوم الذى أوذى فيه ونكب ليس هو الوحيد من دهر ظلوم .

ما تَرَى البدرَ إن تأمّلتَ والشمـ * ـسَ همـا[1] يُكسَفان دون النجومِ

وهـــو الدهرُ ليس ينفكُّ يَنحـو * بالمُصـاب العظيمِ نحو العظـــيمِ

بوّأ الله جَهْـــوَرا أشرفَ السُّؤ * دُدِ فى السِّرّ[2] واللّبـابِ الصـــميمِ

واحدٌ سَـــلّمَ الجميـــعُ له الفضـ * ـلَ وكان الخصوصُ وَفْقَ العمومِ

قَـــلّدَ الغُمْرُ[2] ذا التجارِبِ[3] فيـــه * وٱكتفَى جاهلٌ بعـــلمِ عَليمِ ٥

ومنها فى ذكر ٱعتقاله :

سَـــقَمٌ لا أُعَاد منـــه وفى العـ * ـائدِ أُنسٌ يـــفى بِبُرء الســـقيمِ

نارُ بـــغيٍ سَرتْ إلى جَنّة الأر * ضِ بَياتا فأصـــبحت كالصريمِ

بأبى أنت إنْ تشأْتُكَ[4] بَـــردًا * وســـلامًا كنار إبراهـــيمِ

لِلشفيعِ الثنـــاء[5]، والحمدُ فى صَو * بِ الحيـا لِلرياحِ لا للغُيـــومِ ١٠

ثم قال : ها كها أعزّك الله يبسُطها الأمل ، ويَقبِضها الخجَل؛ لهـا ذنبُ التقصير، وحرمةُ الإخلاص، فهَبْ ذنبًا لحُرمة ، وٱشفَعْ نعمةً بنعمة ، لتَأتىَ الإحسانَ من جهاته ، وتسلُكَ الفضلَ من طرقاته ؛ إن شاء الله تعـالى .

---

(١) فى الأصل : « كما » وهو تحريف .

(٢) الغمر بفتح أوله وضمه : الجاهل الذى لم يجرب الأمور. ١٥

(٣) فى الأصل : « والتجارب » ؛ والتصويب عن بعض نسخ الرسالة إذ به يستقيم المعنى .

(٤) فى الأصل : « تشابك » ؛ وفى نسخ الرسالة : « أن لشانك » ؛ وكلاهما تحريف لا يظهر له معنى؛ ولم يرد هذا البيت فى الذخيرة ضمن هذه القصيدة .

(٥) فى الأصل : « الغنى » وهو تحريف ، والتصويب عن بعض نسخ الرسالة .

ومن كلام أبى عبد الله محمد بن أبى الخصال من جواب لابن بسّام — وكان قد كتب إليه يسأله إنفاذ بعض رسائله ليضمّنها كتابه الذى ترجمه بالذخيرة، فكتب :

وصل من السيّد المسترِق، والمالك المستحق — وصل الله أنعُمَه لديه، كما قَصَر الفضلَ عليه — كتابُه البليغ، واستدراجُه المريغ[1]؛ فلولا أن يَصْلِد[2] زندُ اقتداحه، ويُرَدّ طرفُ افتتاحه، وتُقبَضَ يدُ انبساطه، وتُغبَنَ صفقةُ اغتباطه، للزمتُ معه قدْرى، وضَنّ بسرّه صدرى؛ لكنه بنَفْثة سحرِه يَستنزِل العُصمَ[3] فتُجنَب، ويقتادُ الصّعبَ فيُصحِب، ويَستدِرّ الصخورَ فتُحلَب؛ ولما جاءنى كتاب ابتداه، وقرَعَ سمعى نداه؛ فزِعتُ[4] إلى الفكر، وخفَق القلبُ بين الأمن والحذَر، فطاردتُ من الفقر أوابدَ قَفْر، وشواردَ عُفْر، تَغْبُر[5] فى وجه سائقها، ولا يتوجّه اللّحاق إلى وَجيهها ولاحقِها[6]؛ فعلمت أنها الإهابةُ والمَهابة، والإجابةُ والاسترابة؛ حتى أياستنى الخواطر،

---

(١) فى الأصل : «المريع» بالعين المهملة؛ وهو تحريف؛ والمريغ : المخادع .

(٢) صلد الزند يصلد بكسر اللام : صوت ولم يخرج نارا .

(٣) العصم : جمع أعصم، وهو الوعل الذى فى ذراعيه بياض؛ يقال : هو يستنزل العصم بلفظه، أى يذلل الصعاب بسحر منطقه وحسن حديثه . وتجنب : أى تنقاد؛ يقال : جنبت الفرس اذا قدته الى جنبك فهو جنيب ومجنوب .

(٤) فى كتاب المعجب فى تلخيص أخبار المغرب : «فرغت» بالغين المعجمة والراء؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا .

(٥) كذا فى كتاب المعجب ص ١٢٥ طبع ليدن . وتغبر من الاغبار، وهو إثارة الغبار . وفى الأصل : «تعز»؛ وفيه نقص وتصحيف .

(٦) الوجيه ولاحق : اسما فرسين نجيبين من خيل العرب؛ ونقل صاحب تاج العروس عن ابن الكلبىّ مادة «وجه» أنهما كانا لغنىّ بن أعصر .

وأخلفتنى المَواطر ، إلا زبرجا[1] يَعقُب جوادا ، وبَهرَجا لا يَحتمل انتقـادا ؛ [وأنى لِمثلى والقريحةُ مُزجاة[2]] والبضاعة مُزْجاة ؛ ببراعة الخطاب ، وبراعة الكتّاب ، ولولا دروسُ مَعالِم البيان ، واستيلاءُ العَفاء على هـذا اللسان ؛ ما فاز لِمثلى فيه قِدْح ، ولا تَحصّـل لى فى سوقه رِبْح ؛ ولكنه جوٌّ خال ، ومِضمارُ جُهّال ؛ وأنا أعزك الله أربأ بقدر الذخيرة ، عن هذه التُّحَف الأخيرة ؛ وأرى أنها قد بلغت مَداها ، واستوفت حُلاها ؛ وإنمـا أخشى القدْحَ فى اختيارِك ، والإخلالَ[3] بمختارِك ؛ وعذرا اليـك — أيدك الله — فإنى خَطَطتُ والنومُ مغـازِل ، والقُرُّ نازل ؛ والريحُ تلعب بالسراج ، وتصول عليه صَولةَ الحَجّاج .

ثم أخذ فى وصف السراج كما ذكرناه فى الباب الرابع من القسم الثانى من الفن الأوّل فى السِّفر الأوّل من هذا الكتاب .

ومن كلام الوزير الفقيه أبى القاسم محمد بن عبد الله بن الجَدّ[4] ، من رسالة خاطب بها ذا الوزارتين أبا بكر المعـروفَ بابن القَصِـيرة — وقد قربت بينهما المسافةُ ولم يتفق اجتماعُهما — :

لم أزل — أعزك الله — استنزل قربَك براحة الوهم ، عن ساحة النجم ؛ وأَنصِب لك شَرَكَ المنى ، فى خُلَس الكرى[5] ، وأعلِّل فيـه نفْسَ الأمل ، بضرب سابقِ المَثل :

(١) المراد بالزبرج هنا : السحاب الرقيق الذى لا ماء فيه .

(٢) لم ترد هذه العبارة فى الأصل ؛ وقد أثبتناها عن كتاب المعجب ص ١٢٥ طبع ليدن . ومزجاة : من الإزجاء ، وهو التأخير .

(٣) كذا فى المعجب ؛ والذى فى الأصل : «والاختلا» ؛ وهو تحريف .

(٤) كذا ضبط هذا الاسم بالقلم فى المعجب ص ١٢٤ طبع ليدن .

(٥) فى الأصل : «الكرم» ؛ وهو تحريف .

ما أَقدرَ اللهَ أن يُدنى على شَحَطٍ * مَن دارُه الحَزْنُ[(١)] ممن دارُه صُولُ[(١)]

فما ظنُّك به وقد نزل على مسافة يوم [وطالما نفر عن حِبالة نوم][(٢)] ، ودنا حتى هَمّ بالسلام، وقد كان من خُدَع الأحلام، وناهيك[(٣)] من ظمئٍ وقد حُمتُ حَول المَورد الخَصِر، وذَممتُ الرِّشاءَ[(٤)] بالقِصَر، ووقف بى ناهضُ القَـدَر، وقفةَ العَيْر بين الوِرْد والصَّدَر؛ فهلّا وُصِل ذلك الأملُ بباع، وسمح الزمنُ باجتماع ؛ وطُوِيَت بيننا رقعةُ الأميال ، كما زُوِيَت مراحلُ[(٥)] أيّامٍ وليال ؛ وما كان على الأيّام لو غفلتْ قليلا ، حتى أَشفى بلقائك غليلا ، وأَتنسّم من رَوح مشاهدتك نَفَسا بَليلا ؛ ولئن أقعدَتْنى بعوائقها عن لقاءِ حُرّ، وقضاءِ بِرّ؛ وسَفَرٍ قريب، وظفَرٍ غريب؛ فما تحيّفتْ[(٦)] ودادى، ولا ارتَشفتْ مِدادى؛ ولا غاضت كلامى، ولا أَحفتْ أقلامى[(٧)]؛ وحسبى بلسان النَّبْل[(٨)] رسولا ، وكفى بوصوله أملا وسُولا ؛ ففى الكُتّاب بُلْغةُ الوَطَر، ويُستَدلّ على العين بالأَثَر؛ على أنى إنما وَحيتُ[(٩)] وَحْىَ المُشير باليسير، وأَحلتُ فهمَك على المسطور فى الضمير؛ وإن فرغتَ للمراجعة ولو بحرف، أو لَمحةِ طَرْف؛ وصلتَ صديقا ، وبَلَلتَ رِيقا ؛ وأَسديتَ يدا، وشَفَيتَ صـدى؛ لا زالت أياديك بيضا ، وجاهُك عريضا ؛ ولياليك أسحارا ، ومساعيك أنوارا .

(١) الحزن : بلاد بنى يربوع ، وهى أطيب البادية مرعى . وصول : مدينة فى بلاد الخزر فى نواحى باب الأبواب . (٢) لم ترد هـذه العبارة فى الأصـل ؛ وقد أثبتناها عن الذخيرة ليتم بها السجع الذى التزمه الكاتب فيما أثبت هنا من رسالته . (٣) يقال : ناهيك من كذا بمعنى حسبك ، أى أنه غاية تنهاك عن طلب غيره . (٤) الرشاء : الحبل ؛ يريد بهذه العبارة تشبيه حاله فى المقاربة وعدم استطاعة اللقاء بحبل الدلو الذى يقارب الماء ولا يصل اليه لقصره . (٥) عبارة الأصل : «على رويت مراحم» وهو تحريف . (٦) يقال : تحيفت الشىء ، أى تنقصته من نواحيه .
(٧) فى الأصل : « اقدامى » بالدال ؛ وهو تحريف . (٨) يريد بلسان النبل ، كتابه اليه .
(٩) الوحى : الكتابة أو الإشارة .

ومن كلام أبى عبـد الله محمـد بن الخيّـاط من رُقعةٍ طويلةٍ الى الحاجب المظفّر، أولها :

حجَب الله عن الحاجب المظفّرِ أعينَ النائبات، وقبض دونه أيدىَ الحادثات.

وجاء منها : وَرَد له كتابٌ كريمٌ جعلتُـه عِوضَ يده البيضاءِ فقبّلتُه، ولمحتُه بدل غُرّته الغرّاءِ فأجللتُه؛ كتاب ألقَى عليه الحَبْرُ[1] حِبَره، وأهدَى اليه السحرُ فِقَره؛ أنْذَر[2] ببلوغ المنى، وبشّر بحصول الغنى؛ تخيّر له البيانُ[3] فطبّق مَفصلَه، ورماه البنانُ فصادفَ مَقتلَه؛ ووصـل معه المملوكُ والمملوكةُ اللذان سمّاهما هديّة، وتنزّه كرما أن يقول عطيّة؛ هِمّة تَرجُم السّماكَين، ونعمةٌ تملأ الأذنَ والعين؛ وما حرّك — أيده الله — بكتابه ساكنا بحمده، ولا نبّه نائمـا عن قصده؛ كيف وقد طلعت الشمسُ التى صار بها المَغرِب شرقا، وهبّت الريح التى صار بها الحِرمانُ رزقا؛ صاحبُ لواء الحمد، وفارسُ مَيْدانِ المجد.

وهى رُقعةٌ طويلة قد ذكرنا منها فى المديح فصلا لا فائدة فى إعادته.

ومن كلام أبى حفص عمر بن برد الأصـغر الأندلسى،

فمن ذلك أمانٌ كتَبه لمن عصَى وعاود الطاعةَ :

أما بعـد، فإن الغَلَبةَ لنا والظهور عليك جلبالك[4] إلينا على قدمك، دون عهـد ولا عَقْـدٍ[5] يَمنعان من إراقة دمك؛ ولكنّا بمـا وهب الله لنا من الإشراف على سرائر

(١) الحـبر بكسر الحاء وفتحها : العالم . والحـبر بكسر الحاء وفتح الباء : برود يمنية، واحده حبرة كعنبة؛ يريد تشبيه الكلام فى الحسن والرونق بحسن تلك البرود ووشيها .

(٢) يستعمل الإنذار بمعنى الإعلام مطلقا سواء أكان بخير أم بشر؛ والمراد هنا الاوّل .

(٣) فى الأصل : «اليان» بالياء المثناة؛ وهو تحريف .

(٤) كذا فى الذخيرة لابن بسام؛ والذى فى الاصـل : « جلبابك »؛ والباء زيادة من الناسخ إذ لم نقف فيا لدينا من كتب اللغة على تعدية هذا الفعل بالباء . (٥) فى الذخيرة : « أسرار » .

الرِّياسة، والحفظ لشرائع السياسة؛ تأمّلنا مَن ساس جهتك قبلنا فوجدنا يدَ سياسته خرقاء، وعينَ حراسته عوراء، وقدَمَ مداراته شلّاء، لأنه غاب عن ترغيبك فلم ترجُه، وعن ترهيبك فلم تخشَه؛ فأدّتك حاجتُك إلى طلاب المطامع الدنيّة، وقلّةُ مهابتك الى التهالك على المعاصى الوبيّة؛ وقد رأينا أن نُظهِرَ فضلَ سيرتنا فيك، وتعتبِرَ بالنظر فى أمرك، فمهّدنا لك الترغيبَ لتأنَس إليه، وظلّلنا لك الترهيبَ لتفرَق منه، فإن سوّت الحالتان طبعَك، وداوى الثِّقافُ والنارُ عُودَك، فذلك بفضل الله عليك، وبإظهاره حُسْنَ السياسة فيك؛ وأمانُ الله تعالى مبسوطٌ منّا، ومواثيقُه بالوفاء معقودةٌ علينا؛ وأنت الى جهتك مصروف، وبعفونا والعافيةِ منا مكنوف؛ إلّا أن تَطيشَ الصّنيعةُ عندك فتخلعَ الرِّبقة، وتمرق من الطاعة، فلسنا بأوّل من بُغِىَ عليه، ولستَ بأوّل مَن تراءت لنا مَقاتلُه من أشكالك إن بغيت، واقتحت لنا أبوابُ استئصاله من أمثالك إن طُلبت.

ومن كلامه يعاتب بعض إخوانه :

أظلَم لى جوُّ صفائك، وتوعَّرتْ علىّ طُرقُ إخائك؛ وأراك جَلْدَ الضمير على العتاب، غيرَ ناقع الغُلّة من الجفاء؛ فليت شعرى ما الذى أقصى بهجة ذلك الودّ، وأذبل زهرةَ ذلك العهد؛ عهدى بك وصِلتُنا تفرَق من آسم القطيعة، ومودّتُنا تَسأل عن صفة العتاب ونسبة الجفاء، واليومَ هى آنسُ بذلك من الرضيع بالثدى، والخليع بالكأس[1]؛ وهذه ثُغرةٌ إن لم تحرسها المراجعة، وتَذْكُ فيها عيونُ الاستبصار توجّهتْ منها الحِيَلُ على هدمِ ما بَنَينا، ونقضِ ما اقتنينا؛ وتلك نائحةُ الصفاء، والصارخةُ[2] بموت الإخاء؛ لا أستنِد[3] أعزك الله من الكتّاب إليك — وان رَغِمَ أنفُ

(١) فى الأصل: «الاشيطر»؛ وهو تحريف. (٢) فى الذخيرة: «والصائحة»؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا. (٣) كذا فى الذخيرة لابن بسام؛ والذى فى الأصل: «لا أستبد» بالباء الموحدة.

القلم، وانزوت أحشاءُ القرطاس، وأُجرِمَ الفِكْر[1]، فلم يَبقَ فى أحدها إسعادٌ لى على مكاتَبتك، ولا بشاشةٌ عنـد محاولة مخاطَبتك — لِقَوارص عتابك، وقوارع ملامك[2] [التى أَكَلَتْ أقلامَك][3]، وأَغَصَّتْ[4] كُتبَك، وأَضجَرتْ رُسلَك، وضميرى طاوٍ لم يَطْعَم تجنِّيا عليـك، ونفسى وادعةٌ لم تحرِّك ذنْبا إليك، وعَقْدى مستحكِمٌ[5] لم يمسَسْه وَهْنٌ فيك؛ وأنا الآن على طَرَف الإخاء معك، فإما أن تبهرنى بحُجّة فأتنصَّل[6] عندك، وإما أن تَفىَ بحقيقة فأستديم خُلّتَك[7]، وإما أن تأزِمَ[8] على يأسك فأقطع حبلى منـك؛ كثيرا ما يكون عتابُ المتصافين حِيلةً تُسْبَر المودّةُ بها، وتُستثار دفائنُ[9] الأخوّة عنها، كما يُعرَض الذهب على اللّهَب، ويصفّى المدامُ بالفِدام[10]، وقد يخلُص الوُدُّ على العَتْب خلوصَ الذهب على السبك، فأما إذا أُعيدَ وأبدىَ ورُدّد وتوالى فإنه يُفسد غرسَ الإخاء، كما يفسد الزرعَ تَوالى المـاء .

ومن كلام أبى الوليـد بن طريف من جواب عن المعتمِد الى ذى الوزارتين ابنِ يحفور صاحبِ شاطبةَ بسبب أبى بكر بن عمّار :

(١) فى الأصل : « وأحر » بالحاء المهملة . وفى الذخيرة لابن بسام : « وأحذ » وهو تحريف فى كليهما ، صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق ، وأجرّ بالجيم : من الاجرار ، وهو أن يشق لسان الفصيل لئلا يرضع ؛ ويستعار الاجرار كما هنا للاسكات والمنع من النطق ، قال عمرو بن معد يكرب :

فلو أن قومى أنطقتنى رماحهم * نطقت ولكن الرماح أجرّت

يريد أن رماح قومه أسكتته ومنعته عن الكلام . (٢) كذا فى هامش الذخيرة قسم أول ترجمة أبى حفص المذكور ، وهو المناسب لقوله بعد « وقوارع » ؛ والذى فى الأصل : «ومصاولة» ؛ وهو تحريف لا يظهر له معنى . (٣) هذه العبارة ساقطة من الأصل ؛ وقد أثبتناها عن الذخيرة إذ لا يستقيم الكلام بدونها . (٤) فى الأصل : «وأعصت» بالعين المهملة ؛ وهو تصحيف . (٥) فى الذخيرة : «مستوثق» ؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين . (٦) يقال : تنصل اليه من الجناية ، أى خرج وتبرأ . (٧) الخلة بضم الخاء : المحبة والصداقة لا خلل فيهما . (٨) تأزم بكسر الزاى المعجمة ، أى تواظب وتدأب . (٩) فى الذخيرة : «دقائق» ؛ والمعنى يستقيم على كلتا الروايتين . (١٠) الفدام بكسر الفاء : المصفاة للكوز والإبريق ونحوهما .

وقفتُ[1] على الإشارة[2] الموضوعة من قِبَلك[3] على إخلاصٍ دَلّ على وجوه السلامة، المستنامِ فيها الى شرف مَحْتِدك وصفاءِ مُعتَقَدك أكرَم استنامة؛ بالشفاعة فيمن أساء لنفسه حظَّ الاختيار، وسَبّبَ لها سببَ النكبة والعثار؛ بغَمْطه لعظيم النعمة، وقطعه لعلائق العصمة؛ وتخبُّطه في سَنَنِ[4] غيِّه واستهدافه، وتجاوُزه في ارتكاب الجرائم وإسرافه؛ حتى لم يدعْ للصلح موضعا، وخرق سِتْرَ الإبقاء بينه وبين مُولى النعمة عنده فلم يَترُك فيه مَرْقَعا؛ وقد كان قَبل استشراء رأيه، وكشفه لصفحة المعاندة، وإبدائه غدْرَه في جميع جناياته مقبولا، وجانبُ الصفح له معرَّضا مبذولا؛ لكن عَدَتْه جوانبُ الغَواية، عن طُرقِ الهداية؛ فاستمَرّ على ضلاله، وزاغ عن سَنَنِ اعتداله؛ وأظهَرَ المناقضة، وتعرَّض بزعمه الى المساوَرة والمعارَضة؛ فلم يزل يُرِيغ[5] الغوائل، وينصب الحبائل؛ ويركب في العناد أصعبَ المراكب، ويذهب منه في أوعر المذاهب؛ حتى عَلِقتْه تلك الأشراكُ التي نصبها، وتشبَّثتْ به مساوى المقدّمات التي جرّها وسَبَّبها؛ فذاق وبالَ فعله، «وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ» ولم يَحصُل في الأُنشوطة التي تورّطها، والمحنة التي اشتملتْ عليه وتوسَّطها؛ إلا ووجهُ العفو له قد أَظلَم، وبابُ الشفاعة فيه قد ابهِم[6]؛ ومَن تأمّل أفعاله الذميمة، ومذاهبَه اللئيمة؛ رأى أنّ الصفحَ عنه بعيد، والإبقاءَ عليه داءٌ حاضرٌ عتيد .

وفي فصل منه : ففوّق لمناضَلة الدولة نبالَه ، وأَعمَل في مكايدها جُهْدَه واحتيالَه؛ ثم لم يَقتصر على ذلك بل تجاوَزَه الى إطلاق لسانه بالذمّ الذي صدَر عن

(١) أورد ابن بسام هذه الرسالة في ترجمة الوزير أبي بكر بن عمار .

(٢) كذا في الأصل؛ ولعله : «من» . (٣) عبارة الذخيرة «على أخلص وجوه» الخ .

(٤) في الأصل : «عن» وهو تحريف؛ والسياق يقتضي ما أثبتنا .

(٥) يريغ : يطلب ويريد . (٦) أبهم الباب، أغلق .

لؤم نِجارِه، والطعنِ الشاهدِ بخبثِ طويّتِه وإضمارِه؛ ومَن فسَد هذا الفسادَ كيف يُرجى آستصلاحُه، ومَن آستَبطَن مِثلَ غِلّه كيف يؤمَّل فلاحُه؛ ومن لك بسلامة الأديمِ النَّغِل[1]، وصفاءِ القلبِ الدَّغِل؛ وعلى ذلك فلا أعتقد عليك فيما عرضتَ به من وجه الشفاعة غيرَ الجميل، ولا أتعدّى فيه حُسنَ التأويل؛ ولو وفَدتْ شفاعتُك فى غير هذا الأمر الذى سَبَق فيه السيفُ العَذَل، وأبطَل عاقلُ[2] الأقدار فيه الإلطافَ والحِيَل؛ لَتُلُقِّيَتْ بالإجلال، وقوبِلتْ ببالغ المَبرّة والأهتبال[3].

ومن كلام ذى الوزارتين أبى[4] المغيرة بن حَزْم من رسالة .

لَم أزل أزجُر للقاء سيّدى السانح، وأستمطر الغَادىَ والرائح[5]؛ وأروم آقتناصَه ولو بشَرَكِ المنام، وأحاول اختلاسَه ولو بأيدى الأوهام؛ وأعاتب الأيّامَ فيه فلا تُعتِب، وأقودها اليه فلا تُصحِب؛ حتى إذا غَلَب الياس، وشمِت الناس؛ وضُرِبت بىَ الأمثال، فقيل: أكثرُ الآمال ضلال؛ تنبّه الدهرُ من رَقدته، وحلّ من عقدته؛ وقَبِل منّى، وأظهر الرضى عنّى؛ وقال: دونك ما طَمِح[6] فقد سمح[7]، وإليك فقد دنا ما قد جَمَح؛ فطرتُ بجَناح الآرتياح، وركبتُ الى الغمام كواهلَ الرّياح؛ وقلتُ: فرصةٌ تُغتنَم، وركنٌ يُستلَم؛ وطرقتُ روضةَ [العِلم][8] عَميمةَ الأزهار، فصيحةَ الأطيار؛

(١) الأديم: الجلد. والنغل: الفاسد فى الدباغ؛ وبابه فرح. (٢) لعله «عاجل» بالجيم كما يدل عليه سياق ما قبله. (٣) الاهتبال: الاغتنام؛ والمراد اغتنام العمل بها.

(٤) فى الأصل: «ابن» والتصويب عن الذخيرة قسم أوّل ترجمة أبى المغيرة بن حزم.

(٥) فى الأصل: «الذابح» بالذال المعجمة والباء الموحدة؛ وهو تصحيف.

(٦) طمح؛ من الطماح بكسر الطاء، وهو الجماح.

(٧) فى الذخيرة: «فقد سنح» بالنون؛ والمعنى يستقيم عليه أيضا.

(٨) هذه الكلمة ساقطة من الأصل. وقد أثبتناها عن الذخيرة.

ريّا الجداول، باردةَ الضحى والأصائل؛ وطفتُ بكعبة الفضل مصونةَ الحَبَر[1]، ملثومةَ الحَجَر؛ عزيزةَ المقام، معمورةَ المَشعَرِ الحرام؛ فما شئنا من محاضرة، تجمع بين الدنيا والآخرة؛ بين يدى نثرٍ يُدنى الإعجاز، ونَظْمٍ ما أشبهَ الصدورَ بالأعجاز؛ وحديثٍ تُثقّف العقولُ بآرائه[2]، وتُروّى بصافى مائه؛ فحين شَمَخ بالظَّفَر أنفى، واهتزّ لنيل الأمل عِطفى — والدهر يضحك سِرّا، ويتأبّط شرّا؛ وقد أذهلنى الجَذَلُ عن سوء ظنّى به، وأوهمنى نُزوعه[3] عن ذميم مذهبِه — أتت ألوانُه، وفسا ظَرِبانُه[4]؛ ونادى: ليقم مَن قعد، وينتبهْ مَن رقَد؛ إنما قَتَرتُ تلك الفَترة، ليكون ما رأيتَ عليك حسرة؛ وسمحتُ لك مَرّة، لتذوق من الأسف عليها كأسامُرّة؛ فرأيتُ وقد غطّى على بصرى، وعقَلتُ وكنت فى عمياءَ من خبرى؛ وقلتُ: هو الذى أعهده من لؤمه، وأعرفه من شؤمه؛ فما وَهَب، إلا وسَلَب؛ ولا أعطى، إلا ساعاتٍ كإبهام القَطا؛ فياله من قادرٍ ما ألأمَ قدرتَه، وذابحٍ ما أحدَّ شَفرتَه! ولو تَسلّط علينا، من يُظهِر شخصَه إلينا، لأدركته رماحُنا، [وعصفتْ به رياحُنا][5]؛ لكنه أميرٌ من وراء سِجْف، يسعى بلا رِجلٍ ويصول بلا كفّ .

ومن كلام الوزير الكاتب أبى محمد بن عبد الغفور الى بعض إخوانه — وكان قد وصف له امرأةً ومدَحها وحضّه على زواجها، وكان لذلك الصديق امرأةٌ سوداءُ — فأجابه ابنُ عبد الغفور :

(١) كذا فى الأصل؛ والحبر: البرود اليمنية؛ ولعل المراد بحبر الكعبة: أستارها . والذى فى الذخيرة لابن بسام: «الحرم»، والمعنى يستقيم عليه أيضا . (٢) عبارة الذخيرة: «تقف العقول بازائه» .

(٣) فى الأصل: «بزوغه» بالباء الموحدة والغين المعجمة؛ وهو تصحيف .

(٤) فى الأصل: «وفشى طريانه» بالشين المعجمة والطاء المهملة وهو تصحيف . والظربان بفتح الظاء المعجمة وكسر الراء دويبة كالهرة منتنة الريح؛ ويقال: فسا بينهم الظربان، أى تفرقوا .

(٥) الزيادة عن الذخيرة؛ وبها يتم السجع الذى التزمه الكاتب فى رسالته .

بينما كنت ناظرا من المرآة فى شعرٍ أَحَمّ[(١)]، ورأسٍ أَجَمّ، لا أخاف معه الذم؛ إذ تقدّم رسولُك إلىّ، يخطُب بنتَ فلانٍ علىّ؛ ويُرغّب منها فى سَعة مال، وبراعة جمال؛ ويقسِم إنها لَبَرَّةٌ بالزوج بَريكة، لا تحوجه عند النوم الى أَريكة؛ ولو يُسّرتُ — وعياذا بالله — لهذا النكاح، لرُزقتُ قبل الولدِ منها آلةَ النِّطاح[(٢)]؛ولا حاجة لى بعد الدَّعة والسكون، [الى حربٍ زبون، وقِراعٍ بالقُرون][(٣)]، ولو حَملتْ الىّ تاجَ كسرى وكنوزَ قارون؛ فاطلب لهذه السِّلْعة المباركة مشتريا غيرى، ولا تَسُقها ولو فى النوم الى . . . [(٤)]؛ وآبتعْها ولو بأرفع الأثمان إلى نفسِك، وأضِفْ عاجَها النفيسَ الى آبَنُوس[(٥)] عِرْسِك؛ ولا عذرَ لها فى النُّشوزِ والإعراض، فإنما يَحسُن السوادُ الحالكُ بالبياض؛ والله يمدّك بقرنين قَبلَ الحَين، ويَضَعُ لك صِنْعَين[(٦)] وبِيَلين، فيُسقِطك بهذا النكاح الثانى للفم كما أُسقِطتَ بالأوّل لليدين .

(١) الأحم: الأسود. (٢) فى الاصل: «النكاح» وهو تحريف. (٣) التكملة عن الذخيرة لابن بسام . (٤) الكلمة المحذوفة هنا لا تخفى على فطنة القارئ. (٥) كذا ضبط هذا اللفظ بالعبارة فى تاج العروس، فنص على أنه بكسر الموحدة . (٦) الصنعين : تثنية صنع بالكسر، وهو سفود الشواء .

كمل السفر السابع من كتاب "نهاية الأرب فى فنون الأدب" للنويرى رحمه الله تعالى — ويليه الجزء الثامن منه، وأوّله :

ذكر نبذة من كلام القاضى الفاضل

وكان تمام طبعه فى يوم الجمعة ٩ ذى القعدة سنة ١٣٤٧ (١٩ أبريل سنة ١٩٢٩) .

ملاحظ المطبعة
بدار الكتب المصرية
محمد نديم

إصلاح خطأ

عثرنا بعد طبع هذا الجزء على يسير من الأغلاط المطبعية رأينا أن نثبتها هنا ليستدركها القرّاء .

ص	س	خطأ	صواب
٩	٦	ملِيءَ	ملءُ (بضمتين)
٣٦	١٤	التنديد	التنديز
٦٧	٨	همـوا	همـو
١٣٦	٧	يريكمْ	يريكمُ (بضم الميم)
١٣٩	١١	بنـوا	بنـو
١٣٩	٥ ت	بنـوا	بنـو
١٥٩	١ و ٢	الحيى	الحيا
١٦١	١	جَرية	جِرية (بكسر الجيم)
١٦٦	٨	وليس	ليس (بدون واو)
١٧٨	٣	انجلى	انجلِ
٢٣٧	١٥	بشِقّه	بسبقه

(مطبعة دار الكتب المصرية ٤٤٥/١٩٢٦/٢٥٠٠)

بينما كنت ناظرا من المرآة فى شعرٍ أحَمّ[1]، ورأسٍ أجَمّ، لا أخاف معــه الذم؛

